الطبعة الرابعة

الجزء الأول

ماذا قدم المسلمون للعالم

إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية



دكتور
راغب السرجاني

الحائز على جائزة مبارك للدراسات الإسلامية

ملحق كامل من الصور الملونة

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة



إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية

الجزء الأول

ملحق كامل
من الصور
الملونة

الكتاب الحائز على
جائزة مبارك
للدراسات الإسلامية

د. راغب السرجاني



الطبعة الرابعة
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٠٧٦

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

راغب، السرجاني
ماذا قدم المسلمون للعالم/ تأليف/ راغب السرجاني.
ط١ - القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٩
ج١ (٤٠٠ ص)، ٢٤ سم تدمك: ٧ - ٦٣١ - ٤٤١ - ٩٧٧
١ - الإسلام والعلاقات الخارجية ٢ - الحضارة الإسلامية
أ - العنوان ٢١٤.٣٢٧

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٥٢٢٤٢٠٧ - ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣

E-mail:iqraakotob@yahoo.com

مقدمـــة

الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وصلاة الله وسلامه على النبي ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد؛ من أكثر الموضوعات التي كنت -وما زلتُ- متحمسًا للكتابة عنها موضوع الحضارة الإسلامية، فإن الذي يريد أن يفهم مسيرة الإنسانية، لن يستطيع أن يُدرك ذلك بغير الاطلاع والتعمُّق في دراسة هذه الحضارة الراقية، ليس لأنها تمثل حلقة مهمة من حلقات التاريخ فقط، وليس لمجرَّد أنها ربطت الحضارات القديمة بالحضارات الحديثة؛ ولكن لأن إسهامات المسلمين في مسيرة الإنسانية من الكثرة والأهمية بمكان، بحيث إننا لا يمكن أن نستوعب ما وصلت إليه البشرية من تَقَدُّم في أي مجال من مجالات الحياة إلا بدراسة الحضارة الإسلامية، وبكل خصائصها ودقائقها، منذ عهد النبوة وإلى زماننا الآن.

إنها فترة باهرة حقًّا في تاريخ البشرية!

وتزداد أهمية الكتابة في هذا الموضوع مع ازدياد الهجمة الشرسة الموجَّهة إلى الإسلام والمسلمين، ومن بنود هذه الهجمة وآلياتها اتهام المسلمين بالتخلُّف والرجعية، ووصمهم بالجمود والهمجية، وادعاء أن العنف والإرهاب من صميم أخلاقهم وصفاتهم.. ويقف كثير من المسلمين أمام هذه الاتهامات مكتوفي الأيدي، معقودي اللسان، لا يستطيعون الردَّ بما يُقنع، أو الدفاع بما يُلجم، وهذا السكوت - في معظمه - بسبب جهلنا الشديد بأصولنا وتاريخنا، ومناهجنا، وحضارتنا.

وفوق الجهل الذي يُكَبِّل عقولنا هناك الإحباط واليأس، الذي يسيطر على مشاعر المسلمين؛ نتيجة عوامل شتى تمرُّ بها الأمة في زماننا الراهن، فلا شكَّ أن متابعة خريطة العالم الإسلامي السياسية تُثير في القلب الكثير من الأحزان، كما أن الحالة العلمية والثقافية والاقتصادية - بل والأخلاقية - تعاني من تخلُّف شديد لا يتناسب مع أمة كريمة كأمة

الإسلام، وهذا يترك في النفس آثارًا سلبية تدفعها إلى قنوط غير مقبول، وفتور لا يليق.

في هذه الظروف يتحتَّم علينا أن نعود إلى أصولنا، وأن نقرأ تاريخنا، وأن نعرف أسباب سيادتنا وريادتنا؛ فإنه لن ينصلح حال آخِرِ هذه الأمة إلا بما صلح به أَوَّلها؛ ولهذا فإننا لا ندرس هذا التاريخ، ولا نتفقَّه في هذه الحضارة لمجرَّد المعرفة النظرية، أو للاستخدام في المناظرات الأكاديمية، إنما نهدف إلى إعادة البناء، وإلى ترميم الصدع، وإلى إعادة المسلمين إلى المسار الصحيح، كما نهدف إلى تعريف العالم بدورنا في مسيرة الإنسانية، وبفضلنا في حياة البشرية، ليس من قبيل المنِّ والكبر، وإنما إسناد الحق لأهله، وكذلك الدعوة إلى خير دين بَنَى خير أمة أُخْرِجت للناس.

ومع كون الموضوع شيِّقًا جدًّا، وعلى الرغم من حماستي للكتابة فيه، إلا أنني لا أُخْفِي على القارئ الحبيب أن الكتابة في هذا الموضوع كانت صعبة للغاية!

وهذه الصعوبة تأتي من عِدَّة وجوه؛ منها: اختلاف المفكرين والمؤلفين في تعريف الحضارة، ومنها سعة الإسهامات الإسلامية في عشرات بل مئات المجالات الإنسانية، ومنها اتساع الفترة الزمنية التي نحن بصدد تحليلها، فنحن نتكلَّم عن جهود أربعة عشر قرنًا من الزمان ويزيد، ومنها أننا نتحدَّث عن بقاع كثيرة حكمها المسلمون، وأنتجوا فيها، من الأندلس غربًا إلى الصين شرقًا.. إنها صعوبات كثيرة جعلت التعديل والتغيير في الكتاب متكرِّرًا جدًّا، وكلما وَضَعْتُ خطة لتنظيم أبواب الكتاب وفصوله غَيَّرْتُها إلى أخرى، حتى خرج في هذه الصورة، وأحسب أنني لو أعدتُ النظر فيه لقلبته رأسًا على عقب!

ولعلَّ من أكثر الأمور صعوبة في هذا الموضوع هو الاختلاف البيِّن بين المفكرين حول تعريف الحضارة، وما تشمله من معانٍ وأُطُر.. فالحضارة في تعريف الأوَّلين لم تكن تعني سوى السكنى في الحضر، والحضر عندهم هو عكس البادية، وذلك كما نصَّ عليه ابن منظور[1] مثلاً فقال: الحضارة هي الإقامة في الحضر، والحاضرة خلاف البادية[2].

---

(١) ابن منظور: هو أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (٦٣٠- ٧١١هـ / ١٢٣٢- ١٣١١م)، الإمام اللغوي الحجة. ولد بمصر، وقيل في طرابلس الغرب، وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس، وعاد إلى مصر فتوفي فيها. انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ١٠٨.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة حضر ٤/ ١٩٦.

لكنْ تَطَوَّرَ المعنى بعد ذلك ليشمل ما تستلزمه حياة الإنسان في الحضر من تطوُّر في الصناعة، والعلوم، والفنون، والقوانين، وغير ذلك، وهي أمور قد يعيش الإنسان بدونها في البادية، ولكنها تُجَمِّل حياته في الحضر، بمعنى أنها ليست من ضروريات الحياة في هذا التعريف، وهذا ما جعل ابن خلدون[1] يُعَرِّف الحضارة بأنها: «أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة، وتفاوت الأمم في القلَّة والكثرة تفاوتًا غير منحصر»[2].

ولعلَّ أصل كلمة الحضارة في المصطلحات الأوربية تعود إلى نفس المنطلق؛ حيث إن كلمة الحضارة في الإنجليزية civilization تأتي من الكلمة اللاتينية civis، والتي تعني المدني أو المواطن في المدينةِ[3]، فهي تعني عندهم الذين يسكنون في المدينةِ، ثم تطوَّرت عندهم كما تطوَّرت عند غيرهم لتشمل أحوال الناس في داخل المدينةِ؛ ولذلك كثيرًا ما تترادف عند المفكرين كلمة الحضارة مع كلمة المدنيةِ، مع فروق طفيفة بين المعنيين.

لكنَّ هذا الأصل اللغوي لم يُعَبِّر عن آراء المفكرين والفلاسفة بشكل يجتمعون عليه، بل كانت لهم اتجاهات كثيرة متباينة، لا تُعَبِّر فقط عن اختلاف لغوي، وإنما تُعَبِّر عن اختلاف فكري، ومنهجي، وأخلاقي، بل وعقائدي.

فمن المفكرين من نظر إلى الإنسان نفسه، واعتبر أن رُقِيَّ الإنسان في سلوكه وأخلاقه ومعاملاته هو الحضارة، وهو اتجاه جميل لا شكَّ، يُقَدِّر قيمة الإنسان ويرفعه فوق المادة، ويهتم بالفكر والعاطفة معًا، ومن هؤلاء على سبيل المثال مالك بن نبي[4]، الذي يُعَرِّف الحضارة بقوله: «هي البحث الفكري، والبحث الروحي»[5]. وكذلك

---

(١) ابن خلدون: هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٦م)، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي، مولده ومنشؤه بتونس. انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٧/ ٧٦، والسخاوي: الضوء اللامع ٤/ ١٤٥-١٤٩.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ١/ ٣٦٨، ٣٦٩.

(٣) توفيق الواعي: الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص٣١.

(٤) مالك بن نبي: (١٩٠٥- ١٩٧٣م) مفكر جزائري، من أبرز المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث، تخصَّص في الكتابة عن الحضارة والنهضة الإسلامية، عاش بين باريس والقاهرة والجزائر. أبرز مؤلفاته: (شروط النهضة)، و(الظاهرة القرآنية) و(وجهة العالم الإسلامي).

(٥) مالك بن نبي: شروط النهضة ص٣٣.

يُرَكِّز سيد قطب[١] على هذا المعنى بقوله: «الحضارة هي ما تعطيه للبشرية من تصورات، ومفاهيم، ومبادئ، وقيم تصلح لقيادة البشرية»[٢]. وقبلهما نحا ألكسيس كاريل[٣] منحنى مشابهًا، فَعَرَّف الحضارة بأنها: «الأبحاث العقلية والروحية، والعلوم الخادمة لسعادة الإنسان النفسية والخلقية والإنسانية»[٤]. وقريبًا من هذا يقول جوستاف لوبون[٥]: «الحضارة هي نضوج الآراء والمبادئ والمعتقدات، وتغيُّر مشاعر الإنسان إلى الأفضل»[٦]. فهذه كلها تعريفات تدور حول الاهتمام بالإنسان ذاته داخليًّا، ومدى رُقِيِّ أفكاره وأخلاقه.

ومن المفكرين مَنْ يعتبر الحضارة هي الإنتاج الذي يُقَدِّمه البشر لخدمة الإنسان، فهم لا ينظرون إلى داخل الإنسان كأصحاب الرؤية السابقة، إنما ينظرون إلى ما أنتجه هذا الإنسان في مجتمعه، وقد ينظرون إلى إنتاجه بشكل شامل في كل المجالات، أو يهتمون بجانب على حساب جانب آخر؛ فالدكتور حسين مؤنس[٧] - مثلاً - يرى أن الحضارة «هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان؛ لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودًا أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أو معنوية»[٨]. فهو ينظر نظرة شاملة إلى جهد الإنسان وإنتاجه، بينما يُخَصِّص ول ديورانت[٩] الإنتاج البشري في اتجاه الثقافة والفكر، ويجعل بقية العوامل في الحياة مؤدية

---

(١) سيد قطب: (١٩٠٦م - ١٩٦٦م) كاتب وأديب ومفكر إسلامي، له إسهامات جيدة في قضايا الأدب والفكر الإسلامي والدعوة، فقد أعانه الله على إكمال تحفته الخالدة (في ظلال القرآن)، رغم المصاعب التي مرَّ بها في حياته. كما أَلَّف إلى جانب الظلال: (هذا الدين)، و(خصائص التصور الإسلامي)، و(المستقبل لهذا الدين)، وغيرها.

(٢) سيد قطب: المستقبل لهذا الدين ص٥٦.

(٣) ألكسيس كاريل Alexis Carrel: (١٨٧٣- ١٩٤٤م) طبيب ومفكر فرنسي، حاصل على جائزة نوبل في الطب عام ١٩١٢م، درس في فرنسا وأمريكا، وعُرف في عالم الفكر بكتابه الشهير (الإنسان ذلك المجهول).

(٤) ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول ص٥٧.

(٥) جوستاف لوبون Gustav Lobone: (١٨٤١ - ١٩٣١م) مستشرق فرنسي، قام بدراسات متخصصة في علم النفس والاجتماع، من أشهر كتبه: (حضارة العرب)، الذي يعدُّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية.

(٦) جوستاف لوبون: روح الجماعة ص١٧.

(٧) حسين مؤنس: (١٩١١- ١٩٩٦م) أستاذ التاريخ بجامعة القاهرة، وعضو مجمع اللغة العربية سابقًا، ومدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، وشغل لفترة رئيس تحرير مجلة الهلال المصرية، له العديد من المؤلفات المتخصصة في التاريخ والحضارة بالعربية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية.

(٨) حسين مؤنس: الحضارة ص١٣.

(٩) ول ديورانت Will Durant: (١٨٨٥- ١٩٨١م) مؤرخ أمريكي شهير، من أعظم كتبه (قصة الحضارة) في ٤٢ مجلدًا، والتي تناول فيها تاريخ الحضارة منذ نشأتها وحتى العصر الحديث.

إلى هذا الإنتاج، فيقول: «الحضارة هي نظام اجتماعي يُعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافي بعناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والعقائد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون»[١].

وهناك من ينظر نظرة مادية إلى الحضارة، ويعتبرها من الأمور الترفيهية التي تؤدي إلى راحة الإنسان وسهولة حياته، ولا ينظر بذلك إلى داخل الإنسان، ولا ينظر كذلك إلى المعتقدات الفكرية، ولا إلى الأخلاق والمبادئ، وهؤلاء أحد صنفين: إمَّا عشاق للمادة، مُغْرِقُون في إنكار المبادئ والقيم كأحد العوامل الرئيسية في تقييم أمة أو مجتمع، وهؤلاء هم معظم اللادينيين بمن فيهم من الشيوعيين والرأسماليين، وهم يعتبرون الحضارة والمدنية مترادفين، وينقل عنهم الدكتور أحمد شلبي[٢] تعريفهم للمدنية على أنها: «هي الرقي في العلوم العلمية والتجريبية؛ كالطبِّ، والهندسة، والكيمياء، والزراعة والصناعة والاختراع الآلي»[٣].

ومن هذا الصنف من يُغرق في التمادي في إنكار الأخلاق؛ مثل: كليسكليس، ونيتشة[٤]، وغيرهم من الفلاسفة الذين يقولون: «الحضارة هي القضاء على العدل والأخلاق، وترك العِنان لطبيعتنا الحرة السافرة لتفعل ما تشاء، ولو أدَّى ذلك إلى أن تسير على الجماجم...». إلى أن يقولوا: «إن الأخلاق ليست إلا اختراع الضعفاء؛ لكي يُقَيِّدوا بها سلطان الأقوياء، فلنكن حربًا على الأخلاق!»[٥].

أمَّا الصنف الآخر من الماديين، فهم - كما يبدو من كتاباتهم - لم يقصدوا التقليل من

---

(١) ول ديورانت: نشأة الحضارة ١/ ٩.

(٢) أحمد شلبي: من أبرز المؤرخين المصريين في العصر الحديث، تخرَّج في دار العلوم، وعمل أستاذًا في العديد من الجامعات المصرية والعربية والإسلامية، ومن أبرز مؤلفاته: (موسوعة التاريخ الإسلامي) (١٠ أجزاء)، و(موسوعة الحضارة الإسلامية) (١٠ أجزاء).

(٣) أحمد شلبي: الحضارة الإسلامية ٢/ ٢٠.

(٤) نيتشه: (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) فيلسوف ألماني وشاعر، وعالم كلاسيكي، واحد من أهم الفلاسفة الغربيين، تأثر به كثير من الفلاسفة والكُتّاب وعلماء النفس في القرن العشرين تأثرًا شديدًا. له كتب، منها: «هكذا تكلم زرادشت»، و«وراء الخير والشر».

(٥) أندريه كرش: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص٣٢.

شأن الأخلاق، إنما اعتبروا الحضارة لفظًا ماديًا بحتًا، لا علاقة له بأخلاقيات الإنسان، وهذا يبدو واضحًا في كلمات ابن خلدون - مثلاً - حيث يقول: «الحضارة هي التفنُّن في الترف، واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تُؤَنَّق[1] من أصناف وسائر فنونه، من الصنائع المهيَّأة للمطابخ أو الملابس، أو المباني، أو الفرش، أو الأواني، ولسائر أحوال المنزل، ويلزم هذا التأنق صناعات كثيرة»[2].

ولا ريب أن ابن خلدون لا يقصد استبعاد الأخلاق والقيم من الحضارة؛ حيث إنه يُثبت لها دورًا أكيدًا في بناء الأمم، ولكن كما ذكرتُ فإنه كان يعتبر لفظة «الحضارة» لفظة مجرَّدة تصف الحياة في الحضر، وما يستتبعها من تطور.

وعلى هذا - فكما رأينا - هناك تعريفات كثيرة للحضارة، وهذا يعني أن الأمر ليس مُتَّفَقًا عليه بين العلماء والمفكرين، ولعلَّ هذا يرجع إلى أن الكلمة جديدة مستحدثة، ومن ثم فهي تحمل معاني مختلفةً عند كل مُفَكِّر، كما يرجع - أيضًا - إلى اختلاف المناهج والأيدلوجيات لكل مدرسة من مدارس الفكر الإنساني، كل هذه التعريفات - المتناقضة أو المتكاملة - تجعل الحديث عن الحضارة أمرًا صعبًا، يحتاج إلى إعمال فكر من كل المشاركين بالبحث فيها.

أمَّا أنا فأرى أن: الحضارة هي قدرة الإنسان على إقامة علاقة سوية مع ربه، والبشرِ الذين يعيش معهم، وكذلك البيئة بكل ما فيها من ثروات.

وأرى أنه كلما ازدادت هذه العلاقة سموًّا، زادت الحضارة رقيًّا وتقدُّمًا، وكلما قَلَّتْ هذه العلاقة وضعفت، صار الإنسان متخلِّفًا منحدرًا.

فالحضارة بذلك هي ناتج التفاعل بين الإنسان وربه من ناحية، وبين الإنسان وبقية الناس على اختلاف درجاتهم وصفاتهم من ناحية ثانية، وأخيرًا بين الإنسان والبيئة بما فيها من مخلوقات كالحيوانات، والطيور، والأسماك، وكذلك من أشجار وأراضٍ ومعادن وكنوز، وغير ذلك من الموجودات من ناحية ثالثة.

فهي ثلاث علاقات بهذا التعريف.

---

(١) تأنَّق في أُموره: تجوَّد وجاء فيها بالعجب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة أنق ١٠/ ٩.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ٢/ ٨٧٩.

وقمة الحضارة أن يستطيع الإنسان إقامة أفضل علاقة على المحاور الثلاثة، وقمة التخلُّف أن يفشل فيها جميعًا، وهي مُرَتَّبة من الأعلى للأدنى، وتتفاوت درجة الحضارة من مجتمع إلى آخر بتفاوت طبيعة هذه العلاقات مجتمعة.

ومن الواضح من هذا التعريف أن هناك مجتمعات متحضِّرة في جانب، بل قد تكون في قمة التحضُّر في هذا الجانب، بينما تكون مُتَخَلِّفة شديدة التخلُّف في جانب آخر من جوانب الحضارة.

فالإنسان الذي يستطيع أن يُسَخِّر المادة حوله لتُحَقِّق له الراحة، وتضمن له السعادة، فيبتكر الآلة، ويخترع الأجهزة، ويُطَوِّر الاختراعات، ويُحْسِن استخدام كل ذلك دون أن يتعرَّض لبقية عناصر البيئة بالأذى أو الضرر - هو إنسان متحضر في هذه العلاقة، وهي علاقة في المحور الثالث كما ذكرتُ في التعريف، وهو محور تعامل الإنسان مع البيئة، بينما يمكن أن نجد نفس الإنسان المتحضر يُنْكِر وجود الخالق جلَّ وعلا، أو يُهْمِل التوجُّه إليه والاعتماد عليه، وفق المطلوب من الإنسان لتحقيق العلاقة السوية بينه - كعبد - وبين الإله -كَرَبٍّ وخالق - هذا الإنسان بهذه الصورة شديد التخلُّف في هذا الجانب.

وهو من ناحية أخرى قد يُحسن إلى أولاده ووالديه وزوجته وجيرانه، ويتعامل معهم في داخل إطار الأخلاق الرفيعة، والقيم النبيلة، فهو إنسان متحضر في هذا المجال، لكنه قد يُسيء التعامل مع بيئته، فلا يكترث بالطيور أو الأسماك؛ فيُدَمِّر، ويُؤذي، ويُصِيب، ويتجاوز، فيُصبح متخلِّفًا في هذا المجال، وهكذا.

بل إنه قد يكون متحضِّرًا في أحد المحاور من شِقٍّ مُعَيَّن، ومتخلِّفًا في نفس المحور من شقٍّ آخر! فالإنسان الذي يُحسن العلاقة مع رحمه، ومجتمعه، وأُمَّته، إنسان متحضر، لكنه قد يسيء إلى المجتمعات الأخرى من البشر؛ فلا يتعامل معهم بالعدل الذي يتعامل به أهله، ولا يتواصل معهم بالرحمة التي يتواصل بها مع أُمَّته، فهو في هذه الحالة متخلِّف، وبقدر ظلمه يكون تخلُّفه، وبقدر فساده تكون رجعيَّته.

والإنسان الذي يخترع سلاحًا متطوِّرًا يكون متحضرًا إذا استخدمه في الدفاع عن نفسه، وفي إقرار الحق والعدل، وفي تحقيق الحرية والخير، أمَّا إذا استخدم هذا السلاح

المتطوِّر في الظلم والبغي، فهو إنسان متخلف، وإن بلغ قمة السموِّ الإنساني في الاختراع والابتكار.

إننا بهذه المقاييس الثلاثة سَتُغَيِّر كثيرًا من حكمنا على المجتمعات التي تحيط بنا؛ فالدول التي يُطلق عليها اليوم الدول المتحضرة؛ مثل: أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وغيرها، قد تكون متحضرة فعلاً في تطويرها للبيئة، واستخدامها لثرواتها، وقد تكون متحضرة في تحقيق بعض جوانب الحقوق للإنسان وللحيوان، ولكنها قد تكون متخلفة في تحقيقها لبعض الضوابط الأخلاقية داخل أو خارج مجتمعاتها، فالذي يُقيم علاقات خارج إطار زواجه، وينتج عنها فساد كبير في المجتمع، وإباحية، واختلاط أنساب، وضياع الأولاد، لا يمكن أن يكون متحضرًا، والذي يُهمل والديه، ويقطع أرحامه لا يمكن أن يكون متحضرًا، والذي يشرب الخمر، ويتعامل بالربا، ويتعاطى المخدرات، ويُؤَصِّل القمار، ويُقَنِّن الدعارة لا يمكن أن يكون متحضرًا، والذي يكيل بمكيالين، ويوقع الظلم على الشعوب الضعيفة، ويستنزف ثروات المساكين لا يمكن أن يكون متحضرًا..

ثم إن هذه الشعوب شديدة التخلف بالنظر إلى علاقتها بربها ﷻ، ولا يمكن بحال أن يكون المُنْكِر لفكرة الإله متحضرًا، مع وجود كل الشواهد البَيِّنَة على وجوده وقدرته وإعجازه، ولا يمكن لمن قَبِلَ أن يسجد لبشر أو لحجر أو لبقر أن يكون متحضرًا.. وليس معنى هذا أننا نُنكر عليهم تحضُّرَهم في جوانب أخرى من الحياة؛ كابتكار النظم النافعة، والآلات المفيدة، وغير ذلك، ولكن هذا جانب من عدَّة جوانب تُؤْخَذ في الاعتبار.

وبهذه المقاييس فإنني أستطيع أن أقول - وبلا تحيز أو محاباة-: إن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة في الكون التي حَقَّقَت التفوق في العلاقات الثلاث؛ فهي التي تمتلك تصوُّرًا صحيحًا عن الخالق ﷻ، وتفهم كيف تعبده حقَّ العبادة، وهي التي جعلت إتمام الأخلاق أجلَّ مهامها بعد عبادة الله تعالى، وتعاملتْ بهذا الخُلق الحسن مع كامل أبناء أُمَّتها من القريب والبعيد، ثم تجاوزت ذلك إلى التعامل الحسن مع كل المخالفين والمعارضين، بل إنها أَوَّل من أدخل تعبير «أخلاق الحروب» إلى الإنسانية؛ مما يعني أن المسلمين حتى في حال حربهم، وشدة اختلافهم مع الآخرين يحترمون الضوابط الأخلاقية، ويتعاملون بالتحضُّر اللائق بهم كمسلمين، والحضارة الإسلامية هي التي

شَهِدَتْ دخول امرأة النار في هِرَّة حبستها[١]، وهي التي شَهِدَتْ كذلك دخول الجنة لرجل سقى كلبًا[٢]، وفي رواية لبغي سقت كلبًا[٣]، وهي الحضارة التي أسهمت إسهامًا مباشرًا في تَقَدُّم العديد من العلوم الحياتية؛ كالطب، والهندسة، والفلك، والكيمياء، والفيزياء، والجغرافيا، وغيرها من العلوم.

إن الحضارة الإسلامية بهذا المنظور هي الحضارة الوحيدة التي بلغت قمة الرقي في كل الجوانب، وغيرها من الحضارات منقوصٌ؛ إمَّا في جانب، وإمَّا في جوانب، ومن هنا نفهم قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٤]، فهذا ليس أمرًا عارضًا لا أساس له، بل لأننا بالمنهج الإسلامي الحكيم وصلنا إلى هذه الحالة المتطورة المتحضرة، التي أسعدت المسلمين وغير المسلمين، واستفاد منها أهل الأرض جميعًا؛ فصرنا بذلك خير الأمم.

ثم إننا الوحيدون الذين نعرف الضوابط السليمة، التي نحكم بها على تطور أحد العوامل أو تخلفه، فمعظم البشر يعبدون ما يعبدون، والمقياس الصحيح للعبادة عند المسلمين فقط، وكثير من البشر يتعاملون بأُطُر أخلاقية مُعَيَّنة، ولكن قد يختلفون في تحديد هذه الأخلاق وقياسها، فما يُسَمَّى عدلاً في أحد المجتمعات، قد يُعْتَبر ظلمًا في مجتمع آخر، وما يراه البعض قمة الرحمة، قد يكون في عين الآخرين قمة القسوة، والمقياس الصحيح لذلك لا تجده إلا في الإسلام؛ حيث الشريعة التي حفظها الله للعالمين.

وهذا الكلام يعني أن صلاحية الحكم على المجمعات المختلفة من حيث التحضر أو التخلف قد أُعْطِيَتْ لأمة الإسلام بالمنهج الذي أنزله الله عليها، وهذا المعنى تحديدًا هو ما

---

(١) عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ؛ لَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَسْقِهَا، وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ». البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء (٢٢٣٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة (٢٢٤٢)، واللفظ له.

(٢) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ». البخاري: كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان (١٧١)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٤).

(٣) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ». البخاري: كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٨٠)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥).

(٤) (آل عمران: ١١٠).

نفهمه من قول الله ﷻ: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[(١)]، فنحن نشهد أن المجتمع الروماني قد تحضَّر في كذا وتخلَّف في كذا، ونشهد كذلك على المجتمع الفارسي أو الهندي أو الصيني، ونشهد - أيضًا - على المجتمعات الأوربية والأمريكية الحديثة، ونشهد - كذلك - على المجتمعات التي ستأتي إلى يوم القيامة، بل إننا - وهذا من عجيب الأمور - نشهد على المجتمعات التي سبقت أمة الإسلام! وهذه المجتمعات- وإن لم نرها رأي العين - إلا أننا عرفنا أخبارها من ربِّ العِزَّة في القرآن الكريم، وكذلك من الرسول الأكرم ﷺ في السُّنَّة المطهرة، وهو ما نفهمه من الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري ﷺ، وقال فيه: قال رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ. فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ. فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[(٢)]»[(٣)].

إننا إذن في هذا الكتاب لا نتحدَّث عن حضارة عادية لها مثيلات أو أشباه، إنما نتحدَّث عن «الحضارة النموذج»، التي ينبغي لكل المجتمعات أن تقيس نفسها عليها، وهو ما سندركه حتمًا عند قراءة صفحات هذا الكتاب، الذي لم أحرص فيه على الحصر - فهذا مستحيل - وإنما ذكرت بعض المداخل فقط، وفتحت بعض الأبواب؛ لكي نلج منها إلى البحر الذي لا ساحل له، بحر الحضارة الإسلامية.

ولعله من الواضح تمامًا في قصة الحضارة الإسلامية أن السرَّ الأكبر في تفوُّقها ونجاحها كان الارتباط الوثيق بكتاب الله ﷻ وسُنَّة الرسول ﷺ، حيث إن هذين المصدرين هما اللذان دفعا في اتجاه تقوية العلاقة بين المسلم وبين ربه ومجتمعه وبيئته، وفيهما جاءت القوانين والتشريعات الدقيقة، التي تكفل قيام حضارة سوية راقية في كل المجالات، حتى المجالات المادية - بل والترفيهية - كانت موجودة في هذا التشريع

---

(١) (الحج: ٧٨).

(٢) (البقرة: ١٤٣).

(٣) البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١] (٣١٦١).

المحكم؛ فتاريخ العرب قبل الإسلام لا يشير بأي صورة من الصور أنهم سيصبحون قادة العالم، ومؤسسي أعرق حضارات الدنيا، ولا يوجد أي مبرِّر منطقي لتفوقهم وإبداعهم إلا تمسُّكهم بالإسلام وقواعده، وهو ما انتبه إليه الفاروق عمر ﷺ، فقال: «إنَّا كنا أذل قوم، فأعَزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[1]. ومن هنا نستطيع أن نُجِيب عن السؤال الذي سيتردَّد في أذهان جميع من يقرأ هذا الكتاب، وهو: إذا كنا قد وصلنا إلى هذه الحالة الباهرة من التقدُّم والرقي، فلماذا وصلنا إلى وضعنا الآن، بكل ما فيه من أزمات، ومشاكل، وانحدار، وتخلف؟!

والإجابة الواضحة عن هذا السؤال هو أن المسلمين تركوا أسباب قوتهم، وأهملوا القرآن والسُّنَّة، بكل ما فيهما من قوانين مُحْكَمة، وتشريعات خالدة، بل وأكثر من ذلك، لقد فُتِنَ المسلمون بالغرب فتنةً جعلتهم يبحثون في الحضارة الغربية عن أسباب القوة، وعن وسائل النهضة، وما أدركوا أنها وإن علت في مجال فقد سقطت في مجالات أخرى كثيرة، وأنها في النهاية نتاج بشر يُصيبون ويخطئون، أمَّا الإسلام فهو شرع مُحْكَم، لا باطل فيه ولا أخطاء.

إننا يجب أن نثق بديننا وشرعنا ثقة عملية تدفعنا إلى الافتخار بالإسلام، والاعتزاز به، وتدفعنا كذلك إلى التسامي على حضارات البشر، لا من باب الكبر والخيلاء، ولكن من باب اليقين بما في أيدينا، والشفقة على من حولنا؛ حيث إن البشر قد يَتَّجِهون إلى كارثة -بل إلى كوارث- وهم لا يشعرون، ولا نجاة حينئذ إلا في حضارة المسلمين، ولعلَّ هذا المعنى كان واضحًا جدًّا في كلمات جوستاف لوبون، وهو يُدْلِي بشهادته عن الحضارة الإسلامية، فيقول: «إن حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشية في عالم الإنسانية، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها موردًا علميًّا سوى مؤلفات العرب؛ فهم الذين مَدَّنُوا أوربا مادةً وعقلاً وأخلاقا، والتاريخ لا يعرف أُمَّة أنتجت ما أنتجوه»[2].

والسؤال الذي يجب أن يشغلنا بعد الاطلاع الدقيق، والدراسة المتعمقة لهذا الكتاب،

(١) الحاكم: المستدرك ١/ ١٣٠.
(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٧٦.

هو: ماذا علينا أن نفعل بعد أن قرأنا هذه الصفحات، وفقهنا هذا الجهد المبارك، الذي بذله سلفنا الصالح في كل هذه المحاور والمجالات؟!

إنه سؤال مهم، بل في غاية الأهمية، ولعلَّ الإجابة عنه هي أول الطريق لعودتنا إلى مكانتنا التي أرادها الله ﷻ لنا.

أما الإجابة عليه فأجعلها في آخر الكتاب، بعد أن تكونوا قد استمتعتم برحلتكم في أعماق التاريخ الإسلامي!

فإلى صفحات الكتاب، والله الموفق إلى سواء الصراط..

أ. د. راغب السرجاني

***

الباب الأول

الحضارة الإسلامية
بين الحضارات السابقة

أنقذت الحضارة الإسلامية العالم من ظلمات الجهل والتخلف والانهيار الأخلاقي والقيمي التي سادت العالم قبل الإسلام بعدة عقود، وقد استمدت الحضارة الإسلامية أصولها وروافدها من القرآن والسنة؛ ثم بانفتاحها على شعوب الأرض جميعًا لا تفرق بين لون أو جنس أو دين، وكان فيها من الخصائص المميزة ما أهلها لأن تحتل مكان الريادة في العالم؛ فكانت خيرًا للبشرية، وهذا ما سوف نتحدث عنه من خلال الفصول التالية:

- الفصل الأول: الحضارات العالمية عند ظهور الإسلام
- الفصل الثاني: أصول وروافد الحضارة الإسلامية
- الفصل الثالث: خصائص الحضارة الإسلامية

الفصل الأول
الحضارات العالمية عند ظهور الإسلام

تنوَّعت الحضارات التي شهدها العالم قبل ظهور الإسلام؛ حيث أسهمت كل حضارة من هذه الحضارات بقسط ما في رقي الإنسانية، ولكنَّها جميعًا انساقت وراء الشهوات والملذَّات فطغت وظلمت؛ فاستحقت بجدارة الانهيار الرهيب الذي حدث لها، لتأتي من بعدها حضارة إنسانية راقية، ترث أفضل ما في هذه الحضارات؛ لتُخْرِج لنا حضارة لها طعم ولون ورائحة مميَّزة عاش الجميع في ظلِّها آمنين سعداء، ألا وهي حضارة الإسلام.

ومن خلال المباحث التالية سنقف على طبيعة هذه الحضارات:

- المبحث الأول: حضارة اليونان
- المبحث الثاني: حضارة الهند
- المبحث الثالث: حضارة الفرس
- المبحث الرابع: حضارة الروم
- المبحث الخامس: العرب قبل الإسلام
- المبحث السادس: نظرة عامة على العالم قبل الإسلام

المبحث الأول

حضارة اليونان

تُعْتَبَر الحضارة اليونانية (الإغريقية) من أعرق الحضارات العالمية القديمة، وقد أبدع اليونان في مجالات الفلسفة والعلوم والآداب والفنون، وبرز منهم علماء وأدباء كانوا من أساطين الفكر العالمي؛ أمثال: سقراط[١]، وأفلاطون[٢]، وأرسطو[٣]، وغيرهم، ممن حملوا على عاتقهم هَمَّ توصيل بعض الحقائق، وإرساء بعض المعايير داخل مجتمعهم، وذلك عن طريق تفكيرهم المنطقي، وبحثهم عن أسباب الظواهر ونتائجها.

ورغم ما وصلت إليه حضارة اليونان في مجالات الفلسفة والفكر، وما وصلت إليه من نبوغ عقلي لم تجاريهم فيه أمة قبلهم، إلا أن هذه الحضارة أخذت في الانحدار التدريجي، وإن مظاهر هذا الانحدار لتتضح حين نطَّلِع على بعض ما خَلَّفه عباقرة اليونان في أوج حضارتهم.

فهناك نظرية أفلاطون في المدينةِ الفاضلة؛ فهو يرى أن تتكوَّن المدينةِ الفاضلة من الفلاسفة، ومن طبقة الجند، ومن طبقة ثالثة هي طبقة العمَّال والزُّرَّاع، ويكون الحكم للفلاسفة وحدهم وليس للطبقتين الأخيرتين دخل فيه، أمَّا الطبقة الثانية - وهي طبقة الجند - فقد وضع أفلاطون لها نظامًا صارمًا، يُزِيل به شخصية الفرد تمامًا، فليس لأفراد الجيش الحقُّ في الملكية، وليس لهم حقٌّ في تكوين أسرة؛ فلا زوجات لهم ولا أولاد، وإنما تكون المرأة حظًّا شائعًا بين الجنود جميعًا، وأبناء هؤلاء النساء لا يعرفون آباءهم فهم أبناء الدولة، أمَّا الطبقة الثالثة وهي طبقة العمَّال والزرَّاع فعليهم في هذه المدينةِ الفاضلة أن

---

(١) سقراط: (٤٦٩- ٣٩٩ ق. م) . فيلسوف ومعلم يوناني ولد وعاش في أثينا، وهو من أول الأعلام في مجال العقل والفلسفة والمنطق.

(٢) أفلاطون: اسمه الحقيقي «أرستوكليس» (٤٢٧- ٣٤٧ ق. م) فيلسوف ومعلم يوناني، يعدّ واحدًا من أهم المفكرين في تاريخ الثقافة الغربية، حتى إن الفلسفة الغربية اعتبرت أنها ليست إلا حواشي لأفلاطون، من أشهر كتبه جمهورية أفلاطون.

(٣) أرسطو طاليس: (٣٨٤- ٣٢٢ ق. م) فيلسوف يوناني، يلقب بـ (المعلم الأكبر) ، كان أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في مواضيع متعددة تشمل المنطق، والفيزياء، والشعر، والأحياء، وأشكال الحكم.

يكدحوا لخدمة طبقة الحكام وطبقة الجيش، وليس لهم حقوق على الإطلاق، وليس للمرضى في مدينة أفلاطون مكان، بل تنبذهم الدولة بعيدًا، وتلك هي صورة المدينةِ الفاضلة عند أفلاطون[١]!

وهذا أرسطو الفيلسوف العظيم يتساءل فيما إذا كانت الطبيعة تُعِدُّ أُناسًا أرقَّاء؛ فيُصبح الرقُّ بالنسبة إليهم إجراءً مشروعًا ومناسبًا، وهو يجيب بالإيجاب فلا مناص -طِبقًا لرأيه- من وجود فئة حاكمة وأخرى محكومة، فالأعلى منزلة يجب أن يحكم الأقلَّ منزلة منه، والطبيعة عادة -في رأيه- تهب بدنًا قويًّا للرقيق، بينما تُودِعُ في جسد الحرِّ عقلاً أرجح وفكرًا أنضج؛ ومن ثَمَّ يصبح الإنسان الحرُّ مهيَّئًا لأن يَحْكُم، تأسيسًا على قاعدة الفكر يحكم البدن، ويَقِفُ أرسطو ضدَّ مبدأ المساواة في الحقوق الطبيعية، فهو يعتقد أن الطبيعة قد ميَّزت البعض بالعقل، ووهبت آخرين القدرة على استعمال أعضاء البدن، فالطبيعة تجعل أجسام الأفراد الأحرار مختلفة عن أجسام العبيد، فتمدُّ العبيد بالقوَّة اللازمة للقيام بالأعمال الشاقَّة، بينما خُلِقت أجسام الأحرار بطبيعتها غير صالحة لأَنْ تُحْني قوامها المستقيم للقيام بمثل تلك الأعمال الشاقَّة؛ إذ إن الطبيعة تُعِدُّ الأحرار لوظائف الحياة المدنية فحسب[٢].

وإلى هذا الحدِّ وصل الفكر اليوناني، الذي يُقَدِّره الجميع ويعتبرونه من أبواب الحكمة! يُعَبِّر عن ذلك ول ديورانت، فيذكر أن اليونانيين لم يكونوا مثلاً طيِّبة في حُسن الخُلُق، ويُعَلِّل ذلك بأن ارتقاء عقولهم قد أحلَّ الكثيرين منهم من تقاليدهم الأخلاقية، وجعل منهم أفرادًا يكادون يكونون لا خلاق لهم! فلم يكونوا يُؤْثِرُون على أنفسهم أحدًا غير أبنائهم، وقلَّما يشعرون بوخز الضمير، أو يُفَكِّرون قط في أن يُحِبُّوا جيرانهم كما يُحِبُّون أنفسهم[٣].

أضف إلى ذلك -في درب الانحدار التدريجي لحضارة اليونان- انغماسهم في الشهوات، وجريهم وراء اللذَّات؛ ذلك الذي عَجَّل في انهيار حضارتهم؛ إذ تحلَّلَتِ

---

(١) أحمد شلبي: موسوعة الحضارة الإسلامية ١/ ٥٤.
(٢) غانم محمد صالح: الفكر السياسي القديم والوسيط ص١٠٩، ١١٠.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٧/ ٩٣ وما بعدها بتصرف.

العَلاقات الجنسيَّة من القيود؛ ممَّا أنهك حياة الراشدين، كما تجاوز الفلاسفة عن قتل الأطفال؛ بحُجَّة أن ذلك يُخَفِّف من ضغط السكان على موارد الرزق؛ فسبب ذلك قفر المدن وإجداب الأرض.

فيمكن القول بأنَّ التحلُّل من القيود الأخلاقية، والنزعةَ الأنانية الفردية، عَجَّلاَ في انهيار اليونان، ولقد صور (متندر) في مسرحياته الحياة الأثينية بأنها حياة تدور حول السفاسف والغواية والزنى، فكان الانهيار طبيعيًّا[1].

***

(١) انظر: شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة ص٨٦.

المبحث الثاني

حضارة الهنـــــــد

قامت حضارة الهند في الألف الثالثة قبل الميلاد، وقد كان لها باع طويل في مسيرة الإنسانية، حيث ابتكروا -على الأغلب- الأرقام التسعة، وكان لهم فضل في علم المثلثات؛ حيث استعملوا نصف الوتر، وحصلوا على جدول من الجيوب، كما عرفوا كذلك الطب والرياضيات والفلك[1].

ورغم ما وصلت إليه حضارة الهند من ازدهار ومجد، إلا أنها بدأت في القرن السادس الميلادي تخطو خطوات سريعة نحو الانحدار والاضمحلال في كل شيء، وبالأخصِّ في النواحي الدينية والخلقية والاجتماعية، وكان لذلك عوامل وأسباب عديدة.

يُصَوِّر ذلك أبو الحسن الندوي[2] -وكيل ندوة علماء الهند- حين يقول عن حضارة الهند في القرن السادس الميلادي: اتَّفقت كلمة المؤلِّفين في تاريخ الهند على أنَّ أحطَّ أدوارها ديانة وخُلُقًا واجتماعًا، ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهلِّ القرن السادس الميلادي. وبعدما صوَّر الندوي فساد العقيدة عندهم قال: ظهر في الهند نظام الطبقات في أبشع صوره، لم يُعْرَف في تاريخ أُمَّة من الأمم نظام طبقي أشدَّ قسوة، وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة، وأشدَّ استهانة بشرف الإنسان منه؛ فقَبْلَ ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووُضِعَ فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وأُلِّفَ فيه قانونٌ مدني وسياسي اتَّفَقت عليه البلاد، وأصبح قانونًا رسميًّا، ومرجعًا دينيًّا في حياة البلاد ومدنِيَّتِهَا، وهو المعروف الآن بـ (منوشاستر)، ويُقَسِّم هذا القانونُ أهل البلاد إلى أربع طبقات؛ هي:

١- البراهمة: وهم طبقة الكهنة ورجال الدين.

٢- الكشتريا: وهم رجال الحرب.

---

(١) انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة ٣/ ٢٣٨.

(٢) أبو الحسن الندوي: هو أبو الحسن عليّ بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني (١٩١٤ - ١٩٩٩م) عالم رباني، وداعية مجاهد، وأديب متميز. ولد بقرية تكية بالهند، وتوفي بها أيضًا. من أشهر كتبه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

٣- الويشيا: وهم رجال الزراعة والتجارة.

٤- الشودرا: وهم طبقة الخدم والعبيد.

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازاتٍ وحقوقًا ألحقتهم بالآلهة، فقال: إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخَلق، وإن ما في العالم هو مِلْكٌ لهم؛ فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم الشودرا ما شاءوا؛ لأن العبد لا يملك شيئًا وكلُّ ماله لسيده.

أمَّا الشودرا (المنبوذون) فكانوا في المجتمع الهندي - بنصِّ هذا القانون المدني الديني - أحطَّ من البهائم، وأذلَّ من الكلاب، وكفَّارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء[١].

أما منزلة المرأة[٢] في المجتمع الهندي فكانت كالإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدَّة أزواج، فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوَّج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أَمَةَ بيتِ زوجها المُتَوَفَّى وخادمَ الأحماء، وقد تَحْرِق نفسها على إثر وفاة زوجها تفاديًا من عذاب الحياة وشقاء الدنيا![٣].

وهكذا كانت حضارة الهند قبل الإسلام؛ حيث الجهل الفاضح، والوثنية الوضيعة، والجور الاجتماعي، الذي ليس له مثيل في الأمم، ولا نظير له في التاريخ، وقد تعرَّض البيروني[٤] لشيء من ذلك كلِّه، وانتقده نقدًا شديدًا في كتابه عن الهند المسمَّى: (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)، فليراجعه من أراد الاستزادة.

***

(١) انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة ٣/ ١٦٤-١٦٨.

(٢) في وضع المرأة في المجتمع الهندي انظر: المصدر السابق ٣/ ١٧٧-١٨٣.

(٣) انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٦٨-٧٦.

(٤) البيروني: هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (٣٦٢- ٤٤٠هـ/ ٩٧٣- ١٠٤٧م)، فيلسوف، ورياضي، ومؤرخ، من أهل خوارزم، علت شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره. انظر: السيوطي: بغية الوعاة ١/ ٥٠، ٥١، والزركلي: الأعلام ٥/ ٣١٤.

المبحث الثالث

حضارة الفـــــرس

أقام الفرس إمبراطورية واسعة الأرجاء، وحضارة راسخة البنايات، شاطرت الروم في حكم العالم المتمدِّن، وقد ازدهرت حضارتهم في زمن الدولة الساسانية منذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، وبرزت في السياسة والإدارة والحروب ومظاهر الترف والرفاهية، وكان لهم دين رسمي هو الدين الزرادشتي، ولغة ذات آداب وحكمة هي اللغة الفهلوية[1].

وفي جانب العقيدة فقد كانوا في الزمن القديم يعبدون الله ويسجدون له، ثم جعلوا يمجِّدون الشمس والقمر والنجوم وأجرام السماء، مثل غيرهم من الأوائل، ثم ظهر زرادشت (٦٦٠-٥٨٣ ق. م) كمصلح اجتماعي؛ حيث اتَّجه في تفكيره إلى إصلاح اتجاهات مواطنيه الدينية، وقال: إن نور الله يسطع في كل ما يُشْرِق ويلتهب في الكون. وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار ساعة الصلاة؛ لأن النور رمز إلى الإله، وأَمَرَ بعدم تدنيس العناصر الأربعة؛ وهي: النار، والهواء، والتراب، والماء، وجاء بعده علماء سَنُّوا للزرادشتيين شرائع مختلفة؛ فحَرَّمُوا عليهم الاشتغال بالأشياء التي تستلزم النار، فاقتصروا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة، ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قِبْلَة في العبادات تَدَرَّج الناسُ إلى عبادتها، حتى صاروا يعبدونها عينًا، ويبنون لها هياكل ومعابد، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار[2].

ولَـمَّا كانت النار لا تُوحِي إلى عُبَّادها بشريعة ولا تُرْسِل رسولاً، ولا تتدخَّل في شئون حياتهم، ولا تُعَاقِب العصاة والمجرمين؛ أصبحت الديانةُ عند المجوس عبارةً عن طقوس وتقاليد يؤدُّونها في أمكنة خاصَّة في ساعات محددة، أمَّا في خارج المعابد وفي دُورِهم ودوائر حُكْمِهم وتَصَرُّفهم، وفي السياسة والاجتماع، فكانوا أحرارًا؛ يسيرون على هواهم

---

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص٦٧.

(٢) انظر: شاهين مكاريوس: تاريخ إيران ص٢٢١-٢٢٤.

وما تُمْلِي عليهم نفوسهم، أو ما يؤدِّي إليه تفكيرُهم، أو ما توحي به مصالحهم ومنافعهم، شأن المشركين في كل عصر ومصر[١].

ومن ناحية أخرى فقد كان أساس الأخلاق متزعزعًا مضطربًا منذ عهد عريق في القدم، ولم تزل المحرَّمات النسبية -التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة- موضع خلاف ونقاش؛ حتى إن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواخر القرن الخامس الميلادي تزوَّج ابنته ثم قتلها، وإن بهرام جوبين الذي تملَّك في القرن السادس كان متزوِّجًا بأخته. يقول الدكتور أرثر كريستنسن[٢] أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة كوبنهاجن بالدنمارك المتخصص في تاريخ إيران في كتابه (إيران في عهد الساسانيين): إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساساني؛ مثل: (جاتهياس) وغيره، يُصَدِّقُون بوجود عادة زواج الإيرانيين بالمحرَّمَات، ويوجد في تاريخ العهد الساساني أمثلة لهذا الزواج، ولم يكن يُعَدُّ هذا الزواج معصية عند الإيرانيين، بل كان عملاً صالحًا يتقرَّبُون به إلى الله، ولعلَّ الرحالة الصيني (هوئن سوئنج) أشار إلى هذا الزواج بقوله: إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء[٣].

وفي القرن الثالث المسيحي ظهر (ماني)، وكان ظهوره ردَّ فعل عنيف ضدَّ النزعة الشهوانية السائدة في البلاد، فاختطَّ طريقًا يُحارِب به هذه الشهوة الجامحة؛ فدعا إلى حياة العزوبة، وحرَّم النكاح؛ رغبة في قطع النسل واستعجالاً للفناء، وقد قتله الملك الساساني بهرام سنة (٢٧٦م)، قائلاً: إن هذا خرج داعيًا إلى تخريب العالم، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيَّأ له شيء من مراده. وذهب ماني ولكن تعاليمه عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامي[٤].

ثم ثارت رُوح الطبيعة الفارسية على تعاليم ماني المجحفة، وتقمَّصت دعوة مزدك[٥]،

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٦٣، ٦٤.

(٢) أرثر كريستنسن Arthur Christensen: (ت ١٩٤٥م) الخبير في التاريخ الإيراني وأستاذ الدراسات الإيرانية بجامعة كوبنهاجن، ويعدّ من خير من كتبوا عن إيران قبل الإسلام وبعده.

(٣) أرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين، نقلاً عن أبي الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٥٦، ٥٧.

(٤) المصدر السابق ص ٤٢.

(٥) مزدك: فيلسوف فارسي معروف، ظهر في أيام كسرى قباذ والد أنو شروان (٤٨٨ - ٥١٣م)، ودعا قباذ إلى مذهبه فأجابه، واطَّلَع أنو شروان على افترائه فطلبه فقتله، وكان قد أحلّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركاء فيها.

الذي وُلِدَ سنة (٤٨٧م)، فأعلن أن الناس وُلِدُوا سواء لا فرق بينهم؛ فينبغي أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم، ولـمَّا كان المال والنساء ممَّا حرصت النفوس على حفظه وحراسته؛ كان ذلك عند مزدك أهمَّ ما تجب فيه المساواة والاشتراك، يقول الشهرستاني[١]: «أحلَّ النساء، وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ»[٢].

وقد حظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين، وصادفت من قلوبهم هوًى، وسعدت كذلك بحماية البلاط، فأخذ قباذ[٣] بنصرها ونشط في نشرها وتأييدها، حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخُلقية وطغيان الشهوات، يقول الطبري[٤]: «افترص[٥] السِّفلة ذلك واغتنموه، وكانفوا[٦] مزدك وأصحابه وشايعوهم، فابْتُلِيَ الناس بهم، وقوي أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله، لا يستطيع الامتناع منهم، وحملوا قباذ على تزيين ذلك، وتوعَّدُوه بخلعه، فلم يلبثوا إلاَّ قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولدَه، ولا المولود أباه، ولا يملك شيئًا ممَّا يتَّسِع به»[٧].

هذا، وقد ادَّعى الأكاسرة ملوك فارس أن دمًا إلهيًّا يجري في عروقهم، وأن في طبيعتهم عناصر عُلْويَّة مُقَدَّسة، وصدَّق الفرس هذه الدعوى، فأنزلوهم منزلة الآلهة، وقَدَّموا لهم القرابين، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التاج ويجْبُوا الخراج، وهذا الحقُّ ينتقل في البيت الملكي كابرًا عن كابر، وأبًا عن جدٍّ، لا يُنازعهم ذلك إلاَّ ظالم، ولا يُنافسهم إلاَّ دَعِيٌّ نذل؛ فكانوا يَدِينُون بالمُلْك والوراثة في البيت المالك، لا

---

(١) الشهرستاني: هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني (٤٧٩- ٥٤٨هـ/ ١٠٨٦- ١١٥٣م)، من فلاسفة الإسلام، كان إمامًا في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، يلقب بالأفضل، ولد في شهرستان، وتوفي بها. انظر: الزركلي ٦/ ٢١٥.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ٢٤٨.

(٣) قباذ بن فيروز: من أعظم الملوك الساسانيين. حكم ثلاثًا وأربعين سنة (٤٨٨- ٥٣١م)، حارب مملكة الخزر في مواقع فاصلة، وحارب الروم أيضًا.

(٤) الطبري: هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤- ٣١٠هـ/ ٨٣٩- ٩٢٣م)، كان إمامًا في فنون كثيرة، منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك. ولد في آمل طبرستان، وتوفي ببغداد. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٩١، ١٩٢.

(٥) افترص: انتهز، واغتنم، وفاز بالشيء. ابن منظور: لسان العرب، مادة فرص ٧/ ٦٤.

(٦) كانفوه: أحاطوا به، ابن منظور: لسان العرب، مادة كنف ٩/ ٣٠٨.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١/ ٤١٩.

يبغون به بدلاً، ولا يُريدون عنه محيصًا[١].

وقد كان ثمة هُوَّة واسعة بين طبقات المجتمع الإيراني، يقول الدكتور أرثر كريستنسن: «كان المجتمع الإيراني مؤَسَّسًا على اعتبار النَّسَب والحِرَف، وكان بين طبقات المجتمع هوَّة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة»[٢].

وهكذا كانت الحضارة الفارسية، حيث الاهتمام بالملذَّات الجسدية والاعتداد بالقوَّة الحربية والسطوة السياسية، وتقديس الملوك وتأليههم من بين جموع الشعب وطبقاته.

* * *

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٥٨، ٥٩.
(٢) أرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص٥٩٠، نقلاً عن المصدر السابق ص٦٠.

المبحث الرابع

حضارة الـــــروم

تُعَدُّ الحضارة الرومانية من أعظم حضارات أوربا بعد الحضارة الإغريقية اليونانية، وقد عَرَفت هذه الحضارة نُظُمًا إدارية ومدنية جديدة على البشرية؛ فمن ذلك القانون الذي وضعته، والذي يكشف لنا عن مدى ما تَوَصَّل إليه مفكِّرُوهم وفلاسفتهم من عِلْم وخبرة، ونجد في (قانون الأحوال الشخصية) لديهم تصوُّرهم لطبيعة عَلاقة الفرد بالمجتمع، وما له من حقوق وما عليه من واجبات.

ورغم ما وصلت إليه من حضارة ومدنية، وما بلغته من قوَّة وصلت إلى اقتسامها حكم العالم المتمدِّن مع الفرس، إلا أنها قبل البعثة النبوية كانت قد وصلت إلى الهاوية، واتجهت إلى أحطِّ دَرَجَات الفساد في كل النواحي الحضارية.

ويُلَخِّص الدكتور أحمد شلبي وضع حضارة الروم فيقول: زحف الرومان فاستولَوْا على أوربا خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، ثم استولوا على سوريا سنة (٦٥ ق. م)، وبعدها استولوا على مصر سنة (٣٠ ق. م)، وبهذا خضعت أهمُّ مناطق الحضارات في أوربا وفي الشرق إلى روما، ولاقت هذه المناطق تحت الحكم الروماني صورًا من الضغط والإذلال قضت على قوَّة الابتكار والفكر، فخَبَتْ شعلة التطوُّر تحت نير[١] الظلم الروماني، ولم تستطع روما أن تحمل مشعل الحضارة للمناطق التي خضعت لها؛ لأن روما لم تكن في أي عصر من عصورها مركزًا من مراكز الفكر كما كانت عين شمس في مصر القديمة، أو أثينا والإسكندرية في عصر ازدهار الحضارة اليونانية، وتوقَّف بذلك نشاط الحضارات[٢].

ورغم ظهور المسيح عليه السلام إلا أن نظام الحكم الروماني ظلَّ وثنيًّا فترة طويلة حتى عهد قسطنطين[٣] (٢٧٢ - ٣٣٧م)، الذي حكم من سنة (٣٠٦م) إلى سنة (٣٣٧م)، وقد قام

---

(١) النير: الخشبة المعترضة فوق عنق الثور لجر المحراث وهي كناية عن الرضوخ الذي لا فكاك منه..

(٢) أحمد شلبي: موسوعة الحضارة الإسلامية ١/ ٥٦.

(٣) قسطنطين الأول: (٢٧٢ - ٣٣٧م) هو إمبراطور روماني كان حكمه ثورة في تاريخ المسيحية؛ إذ فرض المسيحية على الإمبراطورية الرومانية، وهو الذي دعا إلى مجمع نيقية عام ٣٢٥م، وبنى القسطنطينية.

هذا الإمبراطور بسلسلة من الأعمال شدَّ بها أزر المسيحية، ثم دخل المسيحية في أواخر أيامه، وعُمِّد وهو على فراش الموت، ولم يكتفِ رجال الكنيسة من قسطنطين بما قدَّم للمسيحية، بل وضعوا باسمه ما سُمِّيَ (منحة قسطنطين)، وهي وثيقة تعلن أن الإمبراطور منح البابا سلطات دنيوية كبيرة في الولايات البابوية التي أنشأها البابا -ولقد أثبت النقَّاد زيف هذه الوثيقة بأساليب نقدية دقيقة- والمهم أن موقف قسطنطين من المسيحية جعل رجال الدين يطمعون في مزيد من السلطة التي تتجاوز أمور الدين إلى أمور الدنيا، وقد نجح رجال الكنيسة في ذلك، وفي أواخر القرن الرابع استطاع أسقف ميلانو أن يعارض بعض قرارات الإمبراطور تيودوسيوس الذي تُوُفِّيَ سنة (٣٩٥م) حتى أرغمه على سحبها[١].

ومنذ مطلع القرن الخامس هَيْمَنَتِ الكنيسة على كثير من الشئون وفي مقدِّمَتِها الاتجاهات الفكرية في الإمبراطورية الرومانية؛ تلك الاتجاهات التي كانت مصرية الجذور أو فينيقية الأعراق، فماذا كان موقف الكنيسة من هذه الاتجاهات الفكرية والعلمية؟ إن موقفها بُنِيَ على الاعتبارات الآتية:

أوَّلاً: أن الكتاب المقَدَّس قد حوى بين دَفَّتَيْه كل ما يحتاجه الإنسان في الدنيا والآخرة؛ وأنه لذلك ينبغي أن يكون وحده أساس النظريات والعقائد، وأن لرجال الكنيسة وحدهم حقَّ تفسير نصوصه، وعلى الناس أن يقبلوا هذا التفسير دون تفكير أو مقاومة.

ثانيًا: وتبعًا لذلك ساد الاعتقاد بأن ما سوى الكتاب المقدس باطل، ولا يجوز الوقوف عنده أو مدارسته.

ثالثًا: رجال الكنيسة يمثِّلون الله في الأرض، ومن ثَمَّ فإن لهم تعذيبَ مَنْ يقاوم أفكارهم، وإثابة مَنْ يطيعهم؛ كما يفعل الله بالنسبة للناس تمامًا.

رابعًا: بُنِيَتِ المسيحية على المعجزات والخوارق التي جاء بها السيد المسيح،

(١) انظر: أحمد شلبي: موسوعة الحضارة الإسلامية ١/ ٥٦، ٥٧.

والمعجزات والخوارق من طبيعتها أن تخالِف قوانين الطبيعة والأسس العلمية، ولَـمَّا كان رجال الدين مخلصين كل الإخلاص للمعجزات والخوارق، فقد اتَّخَذُوا جانبها وحاربوا العلوم؛ لأنها تتنافى معها.

خامسًا: اتجهت النصوص المسيحيَّة إلى ترك الدنيا، وانتظار ملكوت السموات دون مبالاة بالأجساد والمال والمتاع، ولما كانت أكثر العلوم التجريبية التي كانت منتشرة بالشرق تخدم الدنيا؛ فقد اتجهت أفكار رجال الدين لمعارضة هذه العلوم[١].

ومن هنا حاربت الكنيسة مختَلَف العلوم، كما حاربت العلماء، واحتكرت الكنيسة بعض المجالات الفكريَّة بعد أن أخضعتها لنصوص الكتاب المقدس، وقاومت كثيرًا من الأفكار مقاوَمَة شديدة، وكان الطبُّ والرياضة والفلك من النوع الأخير، فأَعْدَمَتِ الكنيسة بعضَ كُتبِهَا، وأَلْقَتْ بالبعض في مغارات، لا يطَّلِع عليها أحد؛ حتى يأكلها الزمان[٢].

وقد ظلَّت الكنيسة تَتَّبِع هذه السياسة فترات طويلة، فلمَّا أهلَّ عصر الحُرِّيَّة، ولم تجد الكنيسة في مقدورها أن تحرق الكتب أو تسجنها؛ أصدرت القرارات التي تُحَرِّم على المسيحيين قراءة الكتب التي ترى أنها تخالف الدين كما حدَّدَتْه هي، أو الكتب التي تكشف سَوْءَات الكنيسة، كما أصدرت قرارًا بتكفير مَنْ قال بدوران الأرض، وهكذا قضى رجال الكنيسة المسيحية على الثورة الحضارية الضخمة التي كوَّنها العالم طيلة عِدَّة قرون، وهكذا - أيضًا - استغلَّ هؤلاء الناس الأديان فانحرفوا بها، وبدلاً من أن تكون مشاعل نور، جعلوها وسائل للجهل والظلام[٣].

ومن ناحية أخرى فقد ثارت حول الديانة المسيحية وفي صميمها مجادلات كلامية، وسفسطة من الجدل العقيم، شغلت فكر الأمة، واستهلكت عقول أبنائها، وابتلعت قدرتها العملية، وتحوَّلت في كثير من الأحيان حروبًا دامية وقتلاً وتدميرًا وتعذيبًا، وإغارة

---

(١) المصدر السابق ١/ ٥٧،٥٨.

(٢) ابن نباتة المصري: سرح العيون ص٣٦، وابن النديم: الفهرست ص٣٣٣.

(٣) أحمد شلبي: موسوعة الحضارة الإسلامية ١/ ٥٧-٦٠.

وانتهابًا واغتيالاً، وحولت المدارس والكنائس والبيوت إلى معسكرات دينية متنافسة، وأقحمت البلاد في حرب أهلية، وكان أشدُّ مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية، وبين نصارى مصر، أو بين (الملكانية) و(المنوفيسية) بلفظ أدقَّ، فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح، وكان المنوفيسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة، وهي الإلهية، التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية. وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع؛ حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى، كل طائفة تقول للأخرى: إنها ليست على شيء[١].

ومن الناحية الاجتماعية فقد تألَّف المجتمع الروماني من سادة وعبيد، وكان للسادة كافَّة الحقوق، أما العبيد فلم تكن لهم حقوق مدنية على الإطلاق، والحقُّ أن القانون الروماني كان يتردَّد في أن يُطْلِقَ عليه لفظ شخص (Person)، ثم خرج أخيرًا من هذه الورطة بأن سمَّاه «إنسانًا غير شخصي»، وكانوا يَعُدُّون العبد من قبيل المتاع، فلم يكن يحقُّ له أن يمتلك، أو يرث، أو يورث، ولم يكن يستطيع أن يتزوَّج زواجًا شرعيًّا، وكان أبناؤه كلهم يُعَدُّون أبناء غير شرعيين، كما أن أبناء الجارية كانوا يُعَدُّون كلهم عبيدًا ولو كان أبوهم من الأحرار، وكان في وسع السيد أن يرتكب الفحشاء مع عبيده وجواريه من غير أن ينالوا منه تعويضًا قانونيًّا، ولم يكن في مقدور العبد أن يُقَاضي مَنْ يؤذيه من المحاكم، وكان الذي يحقُّ له أن يُقَاضِيَ مَنْ يتسبَّب في إيذاء العبد هو سيده. وكان لهذا السيِّد أن يضربه، ويسجنه، ويحكم عليه أن يُقاتِل الوحوش في البرِّيَّة، ويُعَرِّضه للموت جوعًا، أو يقتله لسبب أو لغير سبب، من غير أن تكون عليه رقابة إلا رقابة الرأي العامِّ المكوَّن من مُلاَّك العبيد. وإذا أَبَق[٢] عبد ثم قُبض عليه كان في مقدور سيِّده أن يكويه بالنار أو يصلبه؛ وكان أغسطس[٣] يفخر بأنه قبض على ثلاثين ألفًا من العبيد الآبقين، وأنه صلب كلَّ مَنْ لم يكن له مَالِك يطلُبه، وإذا ما استفزَّ العبدَ عَمَلٌ من هذه الأعمال أو غيرها فقتل

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٤٣.

(٢) أبق: هرب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة أبق ١٠/ ٣.

(٣) أغسطس قيصر: المعروف باسم أغسطس (٦٢ ق. م- ١٤م)، واسمه غايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس، وهو الوريث الوحيد ليوليوس قيصر الدكتاتور الروماني.

سيِّدَه، قَضَى القانون بأن يُقْتَل جميع عبيد القتيل؛ ولَـمَّا أن قُتِلَ الوالي بدانيوس سكندس[١] (Pedanius Secundus) في عام ٦١م، وحُكِم على عبيده الأربعمائة بالإعدام، احتجَّت أقلِّيَّة من أعضاء مجلس الشيوخ على هذا الحكم، وطلبت جماعة غاضبة في الشارع باستعمال الرأفة، ولكن المجلس أصرَّ على تنفيذ القانون؛ اعتقادًا منه أن السيد لا يكون آمنًا على نفسه من عبيده إلا بمثل هذه القسوة[٢].

هذا، ولقد منح القانون الروماني للمالك الحق في إماتة عبده أو استحيائه، وكَثُرَ الرقيق في عهدهم حتى ذكر بعض مؤرِّخيهم أن الأرقاء في الممالك الرومانية يبلغون ثلاثة أمثال الأحرار[٣].

أما وضع المرأة في هذا المجتمع فقد قرَّر مجمعٌ كبير بَحَثَ في شئونها فاعتبرها كائنًا لا نَفْسَ له، وأنها لهذا لن ترث الحياة الأخروية، وأنها رجس، ويجب ألا تأكل اللحم وألا تضحك، ومنعوها من الكلام، حتى وضعوا على فمها قُفلاً من الحديد[٤].

ونتيجة لكل ما ذكرنا فقد بدأ نجم حضارة الروم يأذن بالأفول، حتى ذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق، يُصَوِّر ذلك جيبون[٥] فيقول: «وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في تردِّيها وهبوطها إلى آخر نقطة»[٦].

***

(١) بدانيوس سكندس: Pedanius Secundus محافظ مدينة روما عام ٦١م.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٠/ ٣٧٠، ٣٧١.

(٣) أحمد أمين: فجر الإسلام ص٨٨.

(٤) أحمد شلبي: مقارنة الأديان ٢/ ١٨٨، وعفيف طيارة: روح الدين الإسلامي ص٢٧١.

(٥) إدوارد جيبون Edward Gibbon (١٧٣٧ - ١٧٩٤م): مؤرخ إنجليزي، صاحب كتاب (تاريخ أفول وسقوط الدولة الرومانية).

(٦) The History of Decline and Fall of the Roman Empire V. Y. P. 13 نقلاً عن: أبي الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٤٦.

المبحث الخامس

العرب قبل الإسلام

تمييزًا وتفريقًا عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور رسالة الإسلام، عُرفت تلك الحِقبة التي سبقت الإسلام بـ (الجاهلية)، فأُطلق على التاريخ العربي قبل الإسلام (التاريخ الجاهلي)، أو (تاريخ الجاهلية)، مع ما تُبْدِيه تلك الكلمة من بداوة وتخلُّفٍ؛ حيث «كانوا قد تخلَّفوا عمَّن حولهم في الحضارة، فعاش أكثرهم عيشة قبائل رُحَّل في جهل وغفلة، ولم تكن لهم صلات بالعالم الخارجي، ولم يكن للعالم الخارجي اتصال بهم، أميُّون عَبَدَة أصنام، ليس لهم تاريخ حافل»[1].

فإذا كان العرب قد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في ذلك العصر الجاهلي بأخلاق ومواهب تفرَّدُوا بها، كالفصاحة وقوَّة البيان، وحبِّ الحرية والأنفة، والفروسية والشجاعة، والحماسة في سبيل العقيدة، والصراحة في القول، وجودة الحفظ، وقوة الذاكرة، وحبِّ المساواة، وقوة الإرادة، والوفاء والأمانة، فإنهم ابتُلُوا في العصر الأخير -لبُعْدِ عهدهم من النبوَّة والأنبياء، وانحصارهم في شبه جزيرتهم، وشدَّة تمسُّكهم بدين الآباء وتقاليد أُمَّتِهم- بانحطاط ديني شديد، ووثنية سخيفة قَلَّما يُوجَدُ لها نظير في الأمم المعاصرة، وأدواءٍ خُلُقِيَّة واجتماعية جعلت منهم أُمَّة منحطَّة الأخلاق، فاسدة المجتمع، متضعضعة[2] الكيان، حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية، وبعيدة عن محاسن الأديان[3].

فمن ناحية الدين فقد انتشرت عبادة الأصنام في جزيرة العرب، حتى صار لكل قبيلة ثُمَّ في كل بيت منها صنم، يروي الصحابي أبو رجاء العطاردي: كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ طُفْنَا بِهِ[4].

وغير الأصنام كان للعرب آلهة أخرى؛ منها: الملائكة والجنُّ والكواكب، فكانوا

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١/ ٣٧.
(٢) متضعضعة: أي ذليلة خاضعة ضعيفة، ابن منظور: لسان العرب، مادة ضعع ٨/ ٢٢٤.
(٣) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٧٦، ٧٧.
(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال (٤١١٧).

يعتقدون أن الملائكة بنات الله، فيتَّخِذُونهم شفعاء لهم عند الله، ويعبدونهم، ويتوسَّلُون بهم عند الله، واتخذوا كذلك من الجنِّ شركاء لله، وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم(١).

وفضلاً عن ذلك كانت اليهودية منتشرة في بلاد العرب، وقد صار رؤساؤها أربابًا من دون الله، يتحكَّمُون في الناس ويُحَاسِبُونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همَّهم الحظوة بالمال والرياسة، وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر. وأمَّا النصرانية فقد عادت وثنيةً عسرة الفهم، وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتديِّنِينَ بها تأثيرٌ حقيقي(٢).

ومن ناحية الأخلاق، فقد كان شُرْبُ الخمر واسعَ الشيوع، شديدَ الرسوخ فيهم؛ حتى إنها شغلت جانبًا عظيمًا من شِعْرهم وتاريخهم وأدبهم، وكذا انتشر الميسر، قال قتادة(٣): كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله؛ فيقعد حزينًا سليبًا ينظر إلى ماله في يد غيره، فكانت تُورِثُ بينهم عداوة وبُغْضًا(٤).

كما كان التعامل بالربا فاشيًا بين العرب واليهود، وقد رسخ فيهم؛ حتى قالوا: إنما البيع مثل الربا. وانتكست الفطرة كذلك في العَلاقة بين الرجل والمرأة؛ حيث بات الزنى من العادات المألوفة، فكان الرجل يتَّخِذ خليلات، وتَتَّخذ النساء أخلاَّء بدون عقد، وعن صورة الزواج في ذلك العصر تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «**إِنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا. وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاسْتِبْضَاعِ. وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ**

---

(١) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كتاب الأصنام ص٤٤.

(٢) انظر: صفي الدين المباركفوري: الرحيق المختوم ص٤٧.

(٣) قتادة السدوسي: (٦٠- ١١٧ وقيل: ١١٨هـ) من كبار علماء التابعين، كان تابعيًّا وعالمًا كبيرًا. قال أبو عبيدة: ما كنا نفقد في كل يوم راكبًا من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة، فيسأله عن خبر أو نسب أو شعر. توفي بواسط. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٨٥، ٨٦، والذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ١٢٢، ١٢٣.

(٤) انظر: الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ١٠/ ٥٧٣، والعظيم آبادي: عون المعبود ١٠/ ٧٩.

أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ. تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنْهُ الرَّجُلُ. وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ[١] ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ[٢] وَدُعِيَ ابْنَهُ لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ»[٣].

وبالنسبة إلى وَضْع المرأة فقد لخَّصه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: «والله إنْ كُنَّا في الجاهلية ما نَعُدُّ للنساء أمرًا، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل»[٤]. فلم يكن للمرأة حقُّ الإرث، وكانوا يقولون في ذلك: «لا يرثُنا إلاَّ مَنْ يحمل السيف ويحمي البيضة». فإذا مات الرجل ورثه ابنه، فإن لم يكنْ فأقرب من وُجِدَ من أوليائه؛ أبًا كان أو أخًا أو عمًّا، على حين تُضَمُّ بناته ونساؤه إلى بنات الوارث ونسائه، فيكون لهنَّ ما لهنَّ، وعليهنَّ ما عليهنَّ، ولم يكن لها على زوجها أي حقٍّ، وليس للطلاق عددٌ محدود، ولا لتعدُّد الزوجات عدد مُعَيَّن، وكانوا إذا مات الرجل وله زوجة وأولاد من غيرها كان الولد الأكبر أحقَّ بزوجة أبيه من غيره، فهو يَعْتَبِرها إرثًا كبقيَّة أموال أبيه[٥].

هذا، وقد بلغت كراهة البنات إلى حدِّ الوأد، فكان وأْد البنات من أشنع العادات في الجاهليَّة، وإذا ما نَجَت الوليدة العربيَّة من الوَأْدِ وَجَدَتْ غالبًا في انتظارها حياة ظالمة، وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك فقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٦].

وهكذا كان الوضع في الجزيرة العربية قبل مبعث رسول الله ﷺ.

---

(١) القافة: جمع قائف، وهو الذي يعرف شبه الولد بالوالد بالآثار الخفية. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٩/ ١٨٥.

(٢) فالتاط: أي استلحقته به، وأصل اللَّوط اللصوق. انظر: السابق الصفحة نفسها.

(٣) البخاري: كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي. (٤٨٣٤)، وأبو داود (٢٢٧٢).

(٤) البخاري عن ابن عباس: كتاب التفسير، باب تفسير سورة الطلاق، (٤٦٢٩)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن... (١٤٧٩).

(٥) انظر: محمد أحمد إسماعيل المقدم: المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية ص٥٧.

(٦) (النحل: ٥٨، ٥٩).

المبحث السادس

نظرة عامة على العالم قبل الإسلام

بعد ما رأينا وعاينًا أوضاع بعض الحضارات العالمية قبل الإسلام، فإنا نُلْقِي نظرة عامة على مُجْمَل أوضاع العالم والإنسانية وحال الأرض قبل بعثة النبي ﷺ، والذي نخلص منه إلى كم كانت الأرض في مسيس الحاجة إلى نور الإسلام وحضارته؛ لتبديد تلك الظُّلَمُ المتراكمة، وإبعاد هذه الغُمَّة من على كاهل الإنسانية!

ففي نظرة عامة على مُجْمَل أوضاع العالم قبل الإسلام يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه عنه عياض بن حِمَار ﷺ: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**»[1].

فقد وصل حال الناس إلى درجة من الانحطاط جلبت عليهم مقت الله ﷻ، والمقت هو شدَّة الكراهية، واستخدام الرسول ﷺ لكلمة (بقايا) يُوحِي بالأثريَّة، أي كأنهم آثار من عهود سحيقة لا قيمة لها في واقع الناس، ومن جانب آخر فإنَّ هذه البقايا لم تُشَكِّل مجتمعات كاملة، بل كانت أفرادًا معدودين.

وقد فصَّل ذلك أبو الحسن الندوي حين قال: «وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض - قبل بعثة الرسول ﷺ- أُمَّة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسَّسَة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنيَّة على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء»[2].

فالأحوال متردية ساقطة هابطة في العالم الإنساني بأسره، وقد عمَّ الفساد كل جوانب الحياة؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية على السواء، وباتت الدنيا في ظلام دامس، لا يحكمها إلا الجهل، الذي أغرقها في بحر متلاطم من الخرافات والأوهام، ولا

---

(١) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥)، وأحمد (١٧٥١٩)، وابن حبان (٦٥٤).

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٩١.

يُسَيِّرُها إلا الشهوات والأطماع؛ فعبد الناس الأحجار والشمس والقمر والنار حتى الحيوان، وانقسموا إلى سادة وعبيد، وقد أكلوا مال اليتيم، وقطعوا الأرحام، وقامت معاملاتهم على القتل والسلب والنهب، كما افتخروا باقتراف الفواحش والآثام.. فليس هناك شريعة تحكم، اللهم إلا شريعة الغاب، فالقوي يأكل ويُفْنِي الضعيف، والغني يستعبد الفقير، والكل في ظلام لا يجدون معه نهاية ولا مخرجًا!

وقد أنتج ذلك كلُّه إنسانًا حائرًا ضائعًا، ليس في قلبه إلا الخوف والجزع، وليس في عقله إلا الخواء والخرافات.. وكان هذا هو حال إنسان ما قبل حضارة الإسلام!

فكان هذا هو وضع العالم قبل الإسلام، وتحديدًا في القرنين الخامس والسادس الميلاديين؛ حيث اختفاء الحضارات العالمية من على الساحة، وكان الأمر على شفا جرف هارٍ مِنَ الفوضى، يُصَوِّره الأستاذ دينسون فيقول: في القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد كان العالم المتمدين على شفا جرف هارٍ من الفوضى؛ لأن العقائد التي كانت تُعِينُ على إقامة الحضارة قد انهارت، ولم يك ثَمَّ ما يُعْتَدُّ به ممَّا يقوم مقامها، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنيَّة الكبرى التي تَكَلَّف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مُشرِفة على التفكُّكِ والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية؛ إذ القبائل تتحارب وتتناحر، لا قانون ولا نظام، أما النُّظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفُرْقَة والانهيار بدلاً من الاتحاد والنظام، وبهذا صارت المدنيَّة التي كانت كشجرة ضخمة متفرِّعة امتدَّ ظلُّها إلى العالم كله، صارت واقفة تترنَّح، وقد تسرَّب إليها العطب حتى اللباب[1].

وقد ظَلَّ ذلك الوضع إلى أن بزغ فَجْر الحضارة الإسلامية، وأشرق نورها، فكانت هدية للبشرية.. وهداية للإنسانية، على نحو ما سنراه بإذن الله.

❊ ❊ ❊

(١) Emotions as the Basis of Civlization نقلاً عن أحمد شلبي: موسوعة الحضارة الإسلامية (المجتمع الإسلامي) ٦/ ٣٦، ٣٧.

الفصل الثاني

أصول وروافد الحضارة الإسلامية

كان ظهور الإسلام بمنزلة منارة أُضِيئَتْ، فبدَّدَت ظلامَ ليلٍ خَيَّم على عالَمٍ كئيب، وكان ذلك يعني بداية جديدة لعالَمٍ جديد، إنه عالم الحضارة الإسلامية، تلك التي بدأت يوم بدأ الإسلام يضيء معالِمَ الحياة، ويُغَيِّر الملامح الفكريَّة، والسياسية، والتشريعية، والاجتماعية، والاقتصادية للعالَمِ كلِّه، فارتبطت بالإسلام دينًا ودولة، وتاريخًا ونشأة، وتطوُّرًا وثقافة.

ولقد اسْتُمِدَّت هذه الحضارةُ من أصول مميَّزَة، وقامت على أُسُسٍ فريدة، وتَغَذَّت بروافد ثَرِيَّة.. كان لكلٍّ منها دورُه في نشأتها وخصائصها وقِيَمِها، وأَثَرُه في إكساب تلك الحضارة اختلافًا جوهريًّا، وتغايرًا وتباينًا واضحًا عن حضارات الأمم السابقة، وقد شهد بذلك جوستاف لوبون حين قال: «إن العرب أَنْشَئوا بسرعة حضارةً جديدةً، كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها»[1].

وفي المباحث التالية نَتَعَرَّف على أهمِّ هذه الأصول وتلك الروافد كما يلي:

- المبحث الأول: القرآن والسُّنَّة
- المبحث الثاني: الشعوب الإسلامية
- المبحث الثالث: الانفتاح على الآخرين

* * *

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص١٥٣.

المبحث الأول
القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية

يُعَدُّ القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهَّرة أهمَّ أصلين على الإطلاق للحضارة الإسلامية؛ فَهُمَا الأصلان الأساسيان للحضارة الإسلامية.

فأمَّا القرآن فهو كتاب الله المجيد المُنَزَّل على سيدنا محمدٍ ﷺ، قال عنه الله ﷻ: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]، وهو كتاب أَمْثَالُه عِبَرٌ لمن تدبَّرها، وأوامره هدى لمن استبصرها، شرح الله فيه واجبات الأحكام، وفرَّق فيه بين الحلال والحرام، وكرَّر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقصَّ فيه غيب الأخبار، فقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2] [3].

فالقرآن الكريم هو دستور المجتمع الإسلامي، وقد أحاط بكل صغيرة وكبيرة، وجاء للإنسانية بكل ما فيه خيرها وسعادتها، وكان ما شرعه لها مُحْكَمًا وعامًّا؛ حتى يكون صالحًا لكل زمان ومكان[4].

وقد أنزل الله القرآن ليضبط بهدايته مسيرة الحياة والإنسانية؛ ففيه يكمن سرُّ الحضارة الإسلامية وعظمتها؛ فهو كتاب الله الذي ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[5]، أي يهدي الناس إلى الطريقة التي هي أفضل وأحسن وأصوب من غيرها من الطرق، وهو أيضًا الكتاب الذي ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[6]؛ فهو خير للبشرية من كل نواحيها: الروحية، والعقلية، والاجتماعية، والعلمية، والفكرية، والاقتصادية، والثقافية، والعسكرية.. وفي تعاليمه سعادة البشر.

فقد تضمَّن القرآن الكريم القواعد الكلية والأحكام المختلفة التي تنظِّم عَلاقة

---

(١) (هود: ١).
(٢) (الأنعام: ٣٨).
(٣) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ١.
(٤) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص٣٧.
(٥) (الإسراء: ٩).
(٦) (فصلت: ٤٢).

الإنسان بنفسه، وعَلاقته بربِّه، وعَلاقته بمجتمعه وبأخيه الإنسان؛ فدعا إلى التوحيد، وإلى الحرِّيَّة والإخاء والمساواة، كما نَظَّم المعاملات، ونَظَّم المجتمع على أُسُس سليمة تضمن له الأمن والرخاء والسعادة.

ثم إن الله ﷻ «جعل إلى رسوله ﷺ بيان ما كان منه مجملاً، وتفسير ما كان منه مشكلاً، وتحقيق ما كان منه محتملاً؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١]، فصار الكتاب أصلاً والسُّنَّة له بيانًا[٢].

وهنا يأتي الأصل والأساس الثاني من أُسُس وأصول الحضارة الإسلامية، وهو السُّنَّة النبويَّة الشريفة، المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم؛ فالقرآن هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام: عقائده وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته، وآدابه، والسُّنَّة هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن في ذلك كله.

فهي المنهج النبوي المفصَّل في تعليم الإسلام وتطبيقه وتربية الأُمَّة عليه، والذي يتجسَّد فيه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٣]، ويتمثَّل ذلك في أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته[٤].

وقد قال الله ﷻ يخاطب المؤمنين: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٥]، فالسُّنَّة مُكَمِّلَة للقرآن ومُفَسِّرَة له، وقد روى عمران بن حصين أنهم كانوا يتذاكرون الحديث، فقال رجل: دعونا من هذا وجيئونا بكتاب الله. فقال عمران: «إنك أحمق، أتجد في كتاب الله الصلاة مفسَّرَة؟ أتجد في كتاب الله الصيام مفسَّرًا؟ إن القرآن أحكم ذلك والسُّنَّة تُفَسِّره»[٦].

---

(١) (النحل: ٤٤).
(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢.
(٣) (آل عمران: ١٦٤).
(٤) راجع في ذلك: الدكتور يوسف القرضاوي: مدخل لمعرفة الإسلام، فصل بعنوان: (القرآن والسنة مصدرًا الإسلام).
(٥) (الحشر: ٧).
(٦) السيوطي: مفتاح الجنة ص٥٩، والسمعاني: أدب الإملاء والاستملاء ص١٠.

هذا، وقد أَوْجَدَ هذان المصدران المستمدَّان من وحي السماء مُجْتَمَعًا مثاليًّا فاضلاً، لم تَرَ الإنسانيَّة -على نحو ما سنرى في أحد أبواب هذا الكتاب- له مثيلاً؛ «ومَنْ ينظر في حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعد الإسلام، ويوازن بين الحالين، يُدْرِكُ في سهولة ويُسْرٍ أن الدِّينَ الذي جاءهم به محمد ﷺ هو الشيء الوحيد الجديد الذي جدَّ عليهم، وأنه هو الذي قَوَّم أخلاقهم، وهَذَّب نفوسهم، ووحَّد كلمتهم، وأصلح مجتمعهم، وأعلى شأنهم، وأعزَّ جانبهم؛ فأصبحوا بهذا الدين أُمَّة عالمة بعد جاهلة، ورشيدة بعد غواية، ونابهة بعد خمالة»[1].

فالقرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهَّرة إذن هما الأصلان اللذان كوَّنا حضارة الإسلام بما شرعاه من تعليمات في مجال العلم، والعقيدة، والسياسة، والاجتماع، والاقتصاد، والتربية، والأخلاق، والمرأة، والعلاقات الدولية، وغيرها ممَّا شملته الحضارة الإسلامية في كل جوانبها، والتي من خلالها تتأتَّى سعادة الإنسان والمجتمع الإنساني بكامله.

***

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص٦١.

المبحث الثاني

الشـــعوب الإسلامية

أعلن الإسلام بكل صراحة ووضوح الوَحْدَة الإنسانيَّة العالميَّة بين جميع الشعوب، وذلك على صعيد الحقِّ والخير والكرامة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

ومن أَجْلِ ذلك تألَّف الإسلامُ بعد الفتوحات الإسلامية شعوبًا متعدِّدة، تضمُّ أعراقًا شتَّى وأجناسًا متباينة، لكل منها تراثها الحضاري وخبراتها الثقافية والعلمية المتنوِّعَة، وهو ما كان سببًا في تشكيل حضارة فريدة في نوعها؛ حيث تَعَدُّد المواهب والطاقات الإنسانية والطبيعية، وهي الحضارة الإسلامية بما تألَّفَتْه من شعوب مختلفة.

فقد ساعدت الخبرات الفنيَّة والثقافيَّة والعلميَّة المتنوِّعة -التي كانت تتمتَّع بها بعض شعوب العالم الإسلامي من الفرس والترك وغيرهم- في تشكيل هذه الحضارة الإسلامية الجديدة، وشاركت -تحت راية الإسلام- في بناء حضارة إنسانية شامخة؛ وعلى هذا عُدَّ تنوُّع شعوب العالم الإسلامي رافدًا مُهِمًّا من روافد إثراء الحضارة الإسلامية، وعاملاً مُهِمًّا من عوامل قيامها.

وإذا أخذنا بلاد فارس مثالاً على ذلك، فإنه لَـمَّا فتحها اللهُ على المسلمين، اختلط الفرس بالمسلمين، وعرفوا منهم الشيء الكثير من محاسن الدين الإسلامي وسماحته، وأنه دين الإخاء والمساواة، والتعاطف والتراحم، والمحبَّة والإيثار، فدخلوا في دين الله أفواجًا، وأقبلوا على اللغة العربية يدرسونها ويُحَصِّلُونها؛ فهي لغة دينهم الذي أَحَبُّوه، واعتنقوه، حتى تُعِينَهم على فهمه وتَدَبُّره[2].

ولقد كان حُبُّهم لهذا الدين ولغته مدعاة للعناية بهما؛ فلم يمضِ وقت طويل حتى أسهموا في الحركة العلميَّة، وفي التأليف، بل ونبغوا فيهما، وأفادت الحضارة الإسلامية من

(١) (الحجرات: ١٣).

(٢) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص٦٧.

ذلك فوائد جمَّة، منها:

١- أنه كانت هناك بعض الألفاظ التي تُعَبِّرُ عن مظاهر الحضارة، وليس لها مقابل في اللغة العربيَّة، فنُقِلَتْ بذاتها إلى اللغة العربية، ودخلت في بنيتها، ومن ذلك كلمة (ديوان)، وكلمة (بيمارستان).

٢- نبوغ كثير من أهل فارس في مختلف العلوم العربية والإسلامية؛ فقد برز في الحديث الحسن البصري(١)، ومحمد بن سيرين(٢)، وأبو عبد الله البخاري(٣).. وأمثالهم، وكان لهم فضل كبير في رواية الحديث، ونبغ في الفقه الإمامان أبو حنيفة(٤)، والليث بن سعد(٥)، وكان لهما ولأمثالهما شأن، أيُّ شأن! وظهر في الكتابة عبد الحميد الكاتب(٦)، وابن المقفع(٧)، وغيرهما، وفي الشعر بشار بن برد(٨)، وأبو نواس(٩)، إلى نظرائهما، وقد أدخل هؤلاء وأولئك على النثر والشعر أساليب وتعبيرات وأخيلة كثيرة، وهكذا حتى استفاضت في العصر العباسي حركة العلم والتأليف في مختلف العلوم الإسلامية، كما

---

(١) الحسن البصري: هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري (٢١- ١١٠هـ/ ٦٤٢- ٧٢٨م)، كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة. ولد بالمدينة، وتوفي بالبصرة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٦٩، ٧٢.

(٢) محمد بن سيرين: هو أبو بكر محمد بن سيرين البصري (٣٣- ١١٠هـ/ ٦٥٣- ٧٢٩م)، أحد الفقهاء من أهل البصرة، والمذكور بالورع في وقته. نشأ بزازًا، في أذنه صمم، واشتهر بتعبير الرؤيا. ولد بالبصرة، وتوفي بها أيضًا. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٨١، ١٨٢.

(٣) البخاري: هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤- ٢٥٦هـ/ ٨١٠- ٨٧٠م) شيخ الإسلام، وإمام الحفاظ، صاحب الجامع الصحيح والتاريخ. ولد في بخارى، ونشأ يتيمًا، وتوفي بخرتنك من قرى سمرقند. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٠٤، ١٠٥.

(٤) أبو حنيفة: هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (٨٠- ١٥٠هـ/ ٦٩٩- ٧٦٧م) إمام الحنفية، جمع الفقهَ والعبادة والورع والسخاء. أصله من أبناء فارس، وولد ونشأ بالكوفة، وتوفي ببغداد. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٤٠٥-٤١٤.

(٥) الليث بن سعد: هو أبو الحارث الليث بن سعد (٩٤- ١٧٥هـ/ ٧١٣- ٧٩١م)، إمام أهل مصر في الفقه والحديث. أصله من أصبهان، ومولده في قلقشندة، ووفاته بالقاهرة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٢٧، ١٢٩.

(٦) عبد الحميد الكاتب: هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد، الكاتب البليغ المشهور، وبه يُضرب المثل في البلاغة. وكان كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقُتل معه في بوصير بمصر سنة (١٣٢هـ/ ٧٥٠م). انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٢٢٨، ٢٢٩.

(٧) ابن المقفع: هو عبد الله بن المقفع (١٠٦- ١٤٢هـ/ ٧٢٤- ٧٥٩م)، أديب مشهور بالبلاغة. ولد في العراق مجوسيًّا، وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح)، وقُتل بأمر المنصور العباسي. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٥١-١٥٤.

(٨) بشار بن برد: هو أبو معاذ بشار بن برد العقيلي (٩٥- ١٦٧هـ/ ٧١٤- ٧٨٤م) شاعر ذاع صيته، عاصر الخلافة الأموية والعباسية، كان ضريرًا، اتُّهم بالزندقة فضرب بالسياط حتى الموت. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٢٧١-٢٧٣.

(٩) أبو نُوَاس: هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول (١٤٦- ١٩٨هـ/ ٧٦٣- ٨١٤م) شاعر العراق في عصره، كان ماجنًا أكثر شعره في الخمريات والغزل الصريح. انظر: البغدادي: خزانة الأدب ١/ ١٦٨.

تُرْجِمَ كثير من الكتب إلى العربية.

ومِثْل معطيات شعوب بلاد فارس انتقلت -كذلك- بعض معارف الهنود وغيرهم من الشعوب الشرقية المتحضِّرة إلى الحضارة الإسلامية، وذلك عن طريق هذه النهضة العلمية(١).

ومما هو جدير بالذكر أن نبوغ أبناء هذه الشعوب الإسلامية الجديدة لم يكن مقصورًا على الدين واللغة، وإنما برعوا ونبغوا كذلك في علوم الحياة؛ مثل: الطب، والفلك، والجبر، والهندسة، وغيرها؛ مما أثرى الحضارة الإسلامية بشكل مذهل، وأثَّر تأثيرًا مباشرًا في بنائها وتشكيلها، وليس أدل على ذلك من هؤلاء العلماء الأعلام مثل: الخوارزمي(٢)، وابن سينا(٣)، والبيروني.

وقد ذكر الزهري(٤) أن هشام بن عبد الملك(٥) قال له: مَنْ يَسُودُ مكة؟ فقلت: عطاء(٦). قال: فأهل اليمن؟ قلت: طاوس(٧). قال: فأهل الشام؟ فقلت: مكحول(٨). قال: فأهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب(٩). قال: فأهل الجزيرة؟ فقلت: ميمون بن

---

(١) أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص٦٧، ٦٨.

(٢) الخوارزمي: هو أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي (ت بعد ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) رياضي فلكي مؤرخ، من أهل خوارزم. أقامه المأمون العباسي قيِّمًا على خزانة كتبه، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها. انظر: ابن النديم: الفهرست ص٣٨٣، والزركلي: الأعلام ٧/ ١١٦.

(٣) ابن سينا: هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠- ٤٢٨هـ/ ٩٨٠- ١٠٣٧م) الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات، ولد في إحدى قرى بخارى، ومات بهمذان. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٥٧-١٦١.

(٤) الزهري: هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي (٥٨- ١٢٤هـ/ ٦٧٨- ٧٤٢م) أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين بالمدينة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٧٧، ١٧٨.

(٥) هشام بن عبد الملك: هو هشام بن عبد الملك بن مروان (٧١- ١٢٥هـ/ ٦٩٠- ٧٤٣م)، من خلفاء الدولة الأموية، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد (سنة ١٠٥هـ). وكان حسن السياسة، يقظًا في أمره، يباشر الأعمال بنفسه. انظر: الزركلي: الأعلام ٨/ ٨٦.

(٦) عطاء بن أبي رباح: ولد باليمن ونشأ بمكة، وهو فقيه ثقة، يقول عنه الأوزاعي: ما رأيت أحدًا أخشع لله من عطاء. مات بمكة سنة ١١٥هـ. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٤٦٧، وابن الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ٢١٢-٢١٤.

(٧) طاوس بن كيسان: اليماني أبو عبد الرحمن الحميري، مولى بحير بن ريسان الحميري، فارسي الأصل، قال عنه ابن حبان: كان من عُبَّاد أهل اليمن ومن سادات التابعين، مات سنة ١٠٦هـ. انظر المزي: تهذيب الكمال ١٣/ ٣٥٧، وابن حجر: تهذيب التهذيب ٥/ ٩.

(٨) مكحول الشامي: أبو عبد الله الدمشقي الفقيه، كان من أهل كابل، مات سنة ١١٨هـ، وقيل غير ذلك. انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ٤٥٣.

(٩) يزيد بن أبي حبيب: أبو رجاء المصري، كان مفتي أهل مصر في زمانه، وكان حليمًا عاقلاً، مات سنة ١٢٨هـ. انظر ابن حجر: تهذيب التهذيب ١١/ ٢٧٨.

مهران[١]. قال: فأهل خراسان؟ قلت: الضحَّاك بن مزاحم[٢]. قال: فأهل البصرة؟ فقلت: الحسن بن أبي الحسن. قال: فأهل الكوفة؟ فقلت: إبراهيم النَّخعي[٣]. وذَكَر أنه يقول له عند كل واحد: أَمِنَ العرب أم من الموالي؟ فيقول: من الموالي. فَلَمَّا انتهى قال: يا زُهْرِيُّ، والله لتسودنَّ الموالي على العرب حتى يُخْطَب لها على المنابر والعرب تحتها. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه، فمن حفظه ساد، ومن ضيَّعه سقط[٤].

فالحضارة الإسلامية إذن كانت نِتَاجًا لشعوب العالم الإسلامي المختلفة؛ فارسية، ورومانية، ويونانية، وهندية، وتركية، وأندلسيَّة، تلك التي دخلت تحت لواء الإسلام، وشكَّلَت بدورها مصدر قوَّة لهذا الجسد العملاق، وزادت من فاعلية تراث الأُمَّة وحضارتها وتاريخها المنتشر على نطاق واسع.

ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأُمَّة واحدة، إلاَّ الحضارة الإسلامية؛ فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب التي ارتفعت فوقها راية الإسلام؛ فساهم فيها العربي بجانب الفارسي فهذا أبو حنيفة ومالك[٥] والشافعي[٦] وأحمد[٧] (أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة)

---

(١) ميمون بن مهران: يكنى أبا أيوب، مات سنة ١١٦هـ. انظر: ابن خياط: الطبقات ص٣١٩، وابن حجر: تهذيب التهذيب ١٠/ ٣٤٩.

(٢) الضحاك بن مزاحم: هو أبو القاسم الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني (ت ١٠٥هـ/ ٧٢٣م) المفسر، المحدث، النحوي. كان يؤدب الأطفال. انظر: الحموي: معجم الأدباء ٤/ ١٤٥٢، ١٤٥٣، وابن حجر: تهذيب التهذيب ٤/ ٣٩٧، ٣٩٨.

(٣) إبراهيم النَّخعي: هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي الكوفي (٤٦- ٩٦هـ/ ٦٦٦- ٨١٥م)، من أكابر التابعين صلاحًا وحفظًا للحديث. مات مختفيًا من الحَجَّاج. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦/ ٢٧٠- ٢٨٤.

(٤) ابن كثير: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ص٤٢.

(٥) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري (٩٣- ١٧٩هـ): إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية. ولد وتوفي في المدينة. كان صُلبًا في دينه، بعيدًا عن الأمراء والملوك. ومن أشهر مصنفاته: مسند الموطأ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٨، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٣٥، والزركلي: الأعلام ٥/ ٢٥٧.

(٦) الشافعي: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي (١٥٠- ٢٠٦هـ) أحد الأئمة الأربعة، وهو أوَّل من دوَّن علم أصول الفقه، ولد بغزة ومات بمصر. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥.

(٧) أحمد بن حنبل: هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (١٦٤- ٢٤١هـ)، إمام المحدثين، صنَّف كتابه المسند وجمع فيه من الحديث ما لم يتَّفِق لغيره، وقيل: إنه كان يحفظ ألف ألف حديث. وكان من أصحاب الإمام الشافعي وخواصِّه، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعيُّ إلى مصر. ولد وتوفي ببغداد. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٦٤.

وعلى صعيد آخر نجد الخليل[١] وسيبويه[٢] (أرباب اللغة)، وغيرهم كثير ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلاَّ عباقرة مسلمين قَدَّمَتْ من خلالهم الحضارةُ الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاجِ الفكرِ الإنساني السليم[٣].

هذه هي طبيعة الحضارة الإسلامية والتي جعلت منها أنموذجًا فريدًا أضاء الدنيا بالعلم والتسامح، بل واحتوت كل من يعيش في ظلالها فأبدع وجدَّد وأضاف وشيَّد.

***

(١) الخليل: هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي (١٠٠- ١٧٠هـ/ ٧١٨- ٧٨٦م) إمام علم النحو، وهو الذي استنبط علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي. ولد ومات في البصرة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٤-٢٤٨.

(٢) سيبويه: هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٤٨- ١٨٠هـ/ ٧٦٥- ٧٩٦م) إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو. ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٦٣، ٤٦٤.

(٣) انظر: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٣٦، ٣٧ (بتصرف).

المبحث الثالث
الانفتاح على الآخرين

كما كانت شعوب العالم التي دخلت تحت راية الإسلام رافدًا وعاملاً مهمًّا من عوامل إثراء الحضارة الإنسانية، كان أيضًا عاملُ الانفتاح على حضارات الأمم السابقة والاستفادة منها من أهمِّ روافد الحضارة الإسلامية وعوامل نهضتها.

فللمرَّة الأولى في تاريخ البشريَّة يُطَبِّق المسلمون مبدأ الانفتاح على الحضارات الأخرى، والاستعارة من جهود السابقين، وكان رسول الله ﷺ هو صاحب هذا المنهج الانفتاحي، وهذه النظرة غير المتعصِّبَة، وما أروع توجيهه لسعد بن أبي وقاص ﷺ بأن يذهب للعلاج عند الحارث بن كِلْدة الثقفي، وكان طبيبًا مشركًا! ولم يجد في ذلك غضاضة؛ لأن الطبَّ من علوم الحياة التي هي ميراث الإنسانية كلها؛ فعن سعدٍ قال: مرضت مرضًا أتاني رسول الله ﷺ يَعُودُنِي، فوضع يده بين ثَدْيَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا على فؤادي، فقال: «**إِنَّكَ رَجُلٌ مَفْئُودٌ، ائْتِ الْحَارِثَ بْنَ كَلَدَةَ أَخَا ثَقِيفٍ؛ فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَتَطَبَّبُ، فَلْيَأْخُذْ سَبْعَ تَمَرَاتٍ مِنْ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ فَلْيَجَأْهُنَّ بِنَوَاهُنَّ، ثُمَّ لِيَلُدَّكَ بِهِنَّ**»(١).

وكذلك ما أروع توجيهه ﷺ إلى زيد بن ثابت ﷺ ليَتَعَلَّم له السريانية! وقد تعلمها في ستِّينَ يومًا، وكذا تَعَلَّم الفارسية والرومية.

وقد انعكس هذا بوضوح على تاريخ المسلمين بعد ذلك؛ فإنهم عندما خرجوا من جزيرتهم العربية ينشرون رسالة الإسلام التي وُكلوا بنشرها شرقًا وغربًا، وصادفوا مدنيَّة وحضارة في بعض ما صادفوا، لم يطمسوها أو يُدَمِّروها، بل عكفوا على دراستها والاستفادة منها، وأخذوا ما فيه النفع لهم وما يُقِرُّه دينهم الحنيف، في وقت كانت الحضارة اليونانية لا تُخَاطِب إلاَّ أبناءها، ولا تأخذ إلاَّ من علمائها، وكذلك الحضارة الفارسية والهندية والصينية، ولعلَّ ذلك بَقِيَ إلى وقت قريب في بعض هذه الحضارات كالصينية والهندية.

---

(١) أبو داود: كتاب الطب، باب في تمرة العجوة (٣٨٧٥) . وقال ابن حجر العسقلاني: حسن. كما في المقدمة. انظر: هداية الرواة ٤/ ١٥٩، وأشار عبد الحق الإشبيلي في مقدمة الأحكام الصغرى أنه صحيح الإسناد، انظر: الأحكام الصغرى ص٨٣٧.

أمَّا المسلمون فقد بدءوا **حركة الترجمة والنقل عن الآخرين مبكِّرًا جدًّا**، وقد بدأها خالد بن يزيد الأموي[١]، وأخذ في نقل العلوم اليونانية إلى اللغة العربية، ثم الاستفادة من هذه العلوم وتطويرها، وخاصَّةً في مجال الأدوية والطبِّ والمعادلات الكيميائية.

ولَـمَّا استقرَّت الخلافة الأمويَّة -وازدهرت سياسيًّا واقتصاديًّا، وورثت علوم الأعاجم من الفرس والروم وغيرهم بعد انهيار دُولهم- كان الاتجاه إلى الحركة الفكرية؛ فتُرجمت كثير من كتب الحضارات السابقة؛ من إغريقية وفارسية وغيرها، ونُقلت ذخائرها في العلوم إلى العربية؛ لِتُعْتَبر حدثًا مُهِمًّا من الناحية الحضارية؛ لأنها فتحت نافذةً أَشْرَفَ منها العلماء العرب والمسلمون لأوَّل مرَّة على ما لدى غيرهم من معارف وعلوم.

وقد نالت العلوم التجريبية نصيبًا مُهِمًّا من بين هذه العلوم المترجَمة، وكان على رأسها جميعًا الطبُّ؛ فقد كان الطبُّ الإسلامي في أوَّل هذه الفترة معتمِدًا على إرشادات الرسول ﷺ، وعلى الأعشاب والنباتات الطبِّيَّة، والكيِّ، والفصد، والحجامة، والختانة، وبعض العمليات الجراحية البسيطة، ولَـمَّا بدأ الأطباء المسلمون والعرب يتَعَرَّفون على الطبِّ اليوناني عَبْر مدرسة الإسكندرية ومدرسة جُنْدَيْسابور[٢] كان اتِّجاههم إلى ترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية[٣]، وفي هذا فقد ترجم ماسرجويه الطبيب اليهودي -الذي يُعدُّ من أبرز المترجِمِين في ذلك العصر، للخليفة مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥هـ)- موسوعة طبِّيَّة يونانية تُسَمَّى «**الكُنَّاش**»[٤].

وتزايدت حركة الترجمة جدًّا في عهد الخلافة العباسية، وخاصَّة في زمن الخليفة الخامس هارون الرشيد (١٧٠-١٩٤هـ) الذي أنشأ بيت الحكمة وحرص على تزويدها بالكتب التي نُقِلَتْ من آسيَا الصغرى والقسطنطينية، وكذلك الخليفة السابع المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) الذي ازداد اهتمامًا ببيت الحكمة، وضاعف العطاء للمترجمين، وقام

---

(١) خالد بن يزيد الأموي: هو أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي، كان من أعلم قريش بفنون العلم، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب. توفي في دمشق سنة (٩٠هـ/ ٧٠٨م). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٣/ ١٦٤-١٦٦.

(٢) جنديسابور: مدينة في خوزستان، كان سابور الأول قد اتخذها لأسرى الروم.

(٣) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٦٨.

(٤) انظر: ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ١٦٣، وشمس الدين الشهرزوري: تاريخ الحكماء ص٨٠.

بإرسال البعوث إلى القسطنطينية لاستحضار ما يمكن الحصول عليه من مؤلَّفات يونانية في شتَّى ألوان المعرفة، وما أعظم المعاهدات التي كان يُجْرِيها خلفاء المسلمين مع زعماء الدول الأخرى؛ إذ يكون من شروط المعاهدة أن يَتَمَكَّن العلماء المسلمون من الوصول إلى مكتبات الكنائس والقصور البيزنطية لترجمة الكتب التي بها، وكانوا أحيانًا يبادلون الأسرى بالكتب[1]!

هذا، وقد ترجم ابن النديم[2] في كتابه (الفهرست) لما يقرب من سبعين عَلَمًا، بين مُتَرْجِم وطبيب، وعالم وفيلسوف، ومهندس وفلكي، وذلك في القرنين الثالث والرابع الهجريين، معظمهم من السريان أو المسلمين ذوي الأصول الفارسية والهندية؛ ممَّا يُشِير إلى أهمية هذه الخطوة وبيان مكانتها، وهي الانفتاح على الآخرين وعلى الثقافات القديمة التي كانت موجودة قبل الإسلام، في إثراء وبناء الحضارة العلمية الإسلامية.

وممَّا هو جدير بالذكر هنا أن هذا الانفتاح على الآخرين لم يكن انفتاحًا أعمى؛ وإنما كان في غالبه وَفق قيمِ ومبادئ المسلمين، وما يُقِرُّه دينهم الحنيف؛ فقد انفتحوا على الحضارة الإغريقية؛ لكنهم لم يأخذوا بقوانينهم ولم يُتَرْجِمُوا الإلياذة، ولا روائع الأدب اليوناني الوثني، وكفاهم معرفةُ تدوين الدواوين وترجمة العلوم الطبيعية، كما انفتحوا على الحضارة الفارسية؛ لكنهم تجنَّبُوا مذاهبها الهدَّامة واستفادوا -على سبيل المثال- من الأدب الفارسي، والتراتيب الإدارية عندهم، كما انفتحوا على الحضارة الهندية لكنهم نحَّوْا فلسفتها وأديانها، وأخذوا حسابها وفلكها، وحفظوه وطوَّرُوه، وأضافوا إليه الكثير.

وإضافة إلى ذلك فإن ما استفاده المسلمون من الحضارات الأخرى يُعَدُّ مزيَّة تُحْسَب لهم وليس عيبًا؛ إذ يعنى ذلك تَفَتُّح العقل المسلم واستعداده لتقبُّل ما لدى الآخرين، كما أن الإسهام في مسيرة الإنسانية يبدأ بآخر ما وصل إليه الآخرون، ثم تقديم الجديد -وهو ما سنراه في الأبواب القادمة بعون الله- لتكتمل المسيرة التي بُدِئَتْ في الحضارات السابقة.

***

(١) انظر: ابن النديم: الفهرست ص٢٤٣، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٣٩.

(٢) ابن النديم: هو أبو الفرج محمد بن إسحاق البغدادي (ت ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م) الإخباري، الأديب، الشيعي، المعتزلي، صاحب كتاب «الفهرست». انظر: ابن حجر: لسان الميزان ٥/ ٧٢، والزركلي: الأعلام ٦/ ٢٩.

الفصل الثالث

خصائص الحضارة الإسلامية

لكل حضارة سماتها وخصائصها التي تمثِّلها وتتفرَّد بها عن غيرها، وإذا كانت حضارة الإغريق قد اتَّسمت بتمجيد العقل، واتَّسمت حضارة الرومان بتمجيد القوَّة وبسط النفوذ، واتَّسمت حضارة الفرس بالاهتمام بملذَّات الجسد والقوَّة الحربيَّة والسطوة السياسيَّة، واتَّسمت الحضارة الهندية بالاعتداد بالقوَّة الروحانيَّة.. فإن للحضارة الإسلامية سماتها وخصائصها المميِّزة التي تتفرَّد بها بين الحضارات السابقة لها واللاحقة عليها؛ فقد قامت الحضارة الإسلامية على رسالة سماوية هي رسالة الإسلام -بما تتَّصف به هذه الرسالة من الإنسانيَّة والعالميَّة، والوحدانيَّة المطلقة في العقيدة- وفي المباحث التالية تتَّضح أبرز خصائص الحضارة الإسلامية:

- **المبحث الأول: العالمية**
- **المبحث الثاني: الوحدانية**
- **المبحث الثالث: التوازن والوسطية**
- **المبحث الرابع: الصبغة الأخلاقية**

* * *

المبحث الأول

العالمية

تتَّسم حضارة الإسلام بسعة أفقها ورسالتها العالمية، وقد وَضَح ذلك في إعلان القرآن الكريم وَحْدَة النوع الإنساني، رغم تنوُّع أعراقه ومنابته ومواطنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١)؛ حيث جعل القرآنُ حضارةَ الإسلام عِقْدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية(٢).

فحضارة الإسلام إنسانيَّة في نزعتها -كما سنرى في المبحث الأخير من هذا الفصل- عالميةٌ في آفاقها وامتداداتها، لا ترتبط بإقليم جغرافي، ولا بجنس بشري، ولا بمرحلة تاريخية، ولكنها تحتوي جميع الأمم والشعوب، وآثارها مُوَجَّهة إلى مختلف البقاع والأصقاع؛ فهي حضارة يستظلُّ بظلالها البشر جميعًا، وينعم بدفئها كلُّ مَنْ وصل إليه عطاؤها؛ وذلك لأنها قامت على أساس أن الإنسان هو أهم وأكرم مخلوقات الله، وأن جميع ما في الكون مسخَّر له، وأن جميع الأنشطة البشريَّة لا بُدَّ وأن تؤدِّي إلى سعادته ورفاهيته، وأن كلَّ عمل يُقصد به تحقيقُ هذه الغاية هو عملٌ إنساني في المقام الأول.

وصبغة العالمية هي التي تُرَسِّخ وتُؤَصِّل لقيم الحقِّ والخير والعدل والمساواة بين الناس جميعًا، دون النظر إلى ألوانهم أو أجناسهم، فلا تؤمن بنظرية التفوُّق العنصري أو الاستعلاء الجنسي.. فكانت رسالته ﷺ رحمة للعالمين جميعًا؛ فقال تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٣)، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(٤)؛ لذلك كانت رسالة الحضارة الإسلامية رسالة عالمية يشترك في تحقيقها كل عرق ولون ولغة.

وكانت أحاديث الرسول ﷺ ومواقفه موافقة لهذه النظرة القرآنية؛ فعن جابر بن عبد

(١) (الحجرات: ١٣).
(٢) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص ٣٦.
(٣) (الأنبياء: ١٠٧).
(٤) (سبأ: ٢٨).

الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ...»[١].

وكانت سيرته وأفعاله تطبيقًا لمبدأ عالمية الرسالة؛ ولننظر إلى قوله ﷺ لقومه: «إِنَّ الرَّائِدَ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللهِ! لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكُمْ، وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ مَا غَرَرْتُكُمْ، وَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً..»[٢]. فها هو ﷺ يعلن من أول يوم صدع فيه بالدعوة مبدأ عالميتها.

كما أرسل ﷺ سفراءه إلى قيصر الروم، وكسرى فارس، والمقوقس عظيم قبط مصر، وملك الحبشة.. فها هي رسالته إلى كسرى: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِس، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَآمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ اللهِ؛ فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيُحِقَّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ»[٣].

هذه هي الخاصية الأولى من خصائص الحضارة الإسلامية، وهي خاصية تنفرد بها دون غيرها من الحضارات فأصبحت بحقٍّ حضارةً عالميةً ساميةً.

***

---

(١) البخاري: كتاب التيمم (٣٢٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) واللفظ له.

(٢) علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية ٢/ ١١٤، والصالحي: سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٢٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ٥٨٥.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٣٢، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ١٣٢، والمتقي الهندي: كنز العمال (١١٣٠٢).

المبحث الثاني
الوحدانيـــــة

من أبرز ما يميِّز حضارة الإسلام أنها قامت على أساس الوحدانية المطلقة لله ربِّ الأرض والسماء، أي أن الله ﷻ هو الإله المعبود بحقٍّ، وهو الواحد الذي لا شريك له في حُكْمِه، ولا ندَّ له في مُلْكِه ولا سلطانه، وهو الذي يُعِزُّ ويُذِلُّ ويُعطي ويمنح، ويُسِنُّ لخلقه ما فيه الخير لهم والصلاح لحياتهم. فالناس جميعًا عبيد له، متساوون في الانتماء والالتجاء إليه، من دون واسطة بشريَّة أو كهنوتيَّة، وعليهم الطاعة واتباع أوامره سبحانه، وتنفيذ شريعته المُنَزَّلة.

ولعلَّ في هذا السمو -في فهم الوحدانية- ما يُشْعِر الإنسان بكرامته الشخصية، وأنه لا يستذلُّ لأحد من خلق الله؛ ومن ثَمَّ يتهيَّأ له جوُّ العمل والفكر بكل حرية.

يقول العلامة السيد سليمان الندوي[1]: «إن عقيدة التوحيد التي جاء بها محمَّدٌ رسول الله ﷺ هي العقيدة التي استطاعت أن تُحرِّر الإنسان من المخاوف التي كانت تسيطر على شعوره، فأصبح بفضل هذه العقيدة لا يخاف أحدًا إلاَّ الله. بعدما سخر له الله ما كان يعبده من قبل... مثل: الشمس، والأرض، والنهر، والبحر، وقد تلاشت لديه المهابة الملوكية، والجلالة الحاكمية لبني الإنسان، فلم يَبْدُ آلهة بابل، ومصر، وآلهة الهند، وإيران، - إلا خدمًا للإنسان، رعاةً لمصالحه، حرسًا لأملاكه، ولم تكن الآلهة تُنَصِّب هؤلاء الملوك وتخلعهم، إنما كان هو الإنسان الذي يرفعهم ويضعهم. إنَّ المجتمع البشري الذي كان يخضع لحكم الآلهة، كان مجتمعًا فاسدًا، ممزقًا، مفرَّقًا في طبقات تحكمها التقاليد الجائرة، جعلت من الإنسان مَنْ هو شريف ومن هو وضيع؛ هذا ينتمي إلى طبقة عليا، وذاك إلى طبقة دنيا، هذا خَلَقَه (برميشور) -كبير آلهة الهند- من رأسه فأصبح شريفًا مخدومًا، وذلك خَلَقَهُ من قدمه؛ فأصبح وضيعًا خادمًا، والآخر مخلوق من يد الإله الكبير، فعليه أن يمثِّل الطبقة الوسطى من الناس، وكان -طبيعيًّا- من جرَّاء هذه العقيدة أن يكون المجتمع البشري آنئذٍ مُفَرَّقًا في طوائف، وطبقات حسب الأنساب والسلالات، يجهل أبسط معنًى

---

(١) سليمان الندوي: (ت ١٩٥٣م) من علماء المسلمين في القارة الهندية، ولي القضاء في بهوبال، وتولى مناصب علمية أخرى، وأصدر مجلة (المعارف)، له مؤلفات مطبوعة باللغة الأردية ترجم بعضها إلى التركية، أشهرها (السيرة النبوية) في ١٠ مجلدات.

لمبدأ المساواة الإنسانية والسموِّ البشري، ونيل الحقوق بالتساوي، وما كانت الدنيا آنذاك إلاَّ حلبة للمصارعات، لمفاخر الفِرَقِ والطبقات»[(١)].

ثم يتحدَّث بعد ذلك عن عظمة الإسلام قائلاً: «لَـمَّا جاء الإسلام بَدَّد الظلمات، وعرف الناسُ لأوَّل مرَّة عقيدة التوحيد، ومعنى الأُخُوَّة الإنسانية التي رأبت التصدُّعات، وأزالت المعايير المصطنعة، وبهذه العقيدة أدرك الإنسان ما سُلِبَ منه من حقِّه في التساوي، والتاريخ خير شاهد على ما لهذه العقيدة من نتائج إيجابية فعَّالة، ومدى تأثيرها في عقلية الأمم والشعوب التي اعترفت - سواء رضيت أم كرهت - بفضل هذه العقيدة، وإن كانت لا تزال تجهل جميع معانيها ونفوذها الواقعي في تغيير الأقدار والمعايير، إنها - أي: تلك الشعوب التي لا تؤمن بمبدأ التوحيد - تَفْقِدُ حتى زمننا هذا المبدأ الصادق للمساواة الإنسانية، فليس أن لا ترى مظاهرها في مجتمعاتهم ونواديهم فحسب، بل إنك ستفقد مظهر المساواة حتى في معابدهم؛ حيث يواجه رُوَّادها أسس إنزال الناس حسب منازلهم (البروتوكول)، ولا شكَّ أنَّ المسلمين في خير، فقد عرفوا هذا المبدأ منذ ثلاثة عشر قرنًا، بفضل عقيدتهم بواحدانية ربهم العلي القدير، وقد تحَرَّرُوا من المعايير المصطنعة، والمستويات الموضوعة، والناس عند الإسلام سواسية كأسنان المشط، لا يُفَرِّقهم اللون، أو الوطن، ولا يُمَيِّزُ بينهم القومية، والوطنية، وقفوا أمام ربهم وهم ساجدون، أذلَّة خاضعون، وإذا تعاملوا في حياتهم فإذا هم شرفاء متساوون، لا تَفَاوُت بينهم إلاَّ بالإيمان، ولا فضل لأحد إلا بالعمل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[(٢)]»[(٣)].

ومن هنا فإن لهذه الوحدانية - التي يتفرَّد بها المسلمون نحو خالقهم وخالق الكون ومدبِّره - تأثيرًا واضحًا انعكس بصورة جلية على حضارتهم وإسهاماتهم في مسيرة الإنسانية، وقد اتَّضح ذلك من خلال المبادئ التالية:

١- **عدم تأليه الحاكم**: تلك النظرية التي سادت في الأزمنة والحضارات الغابرة، حيث كان الاعتقاد سائدًا بأن الحُكَّام مخلوقات من عنصر أسمى من عنصر الإنسان، وقد نشأ عن انتفاء هذه

---

(١) سليمان الندوي: السيرة النبوية ٤/ ٥٢٣، ٥٢٤، نقلاً عن أبي الحسن علي الحسني الندوي: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ص٢٤-٢٧.

(٢) (الحجرات: ١٣).

(٣) سليمان الندوي: السيرة النبوية ٤/ ٥٢٣، ٥٢٤، نقلاً عن أبي الحسن علي الحسني الندوي: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ص٢٤-٢٧.

النظرية عند المسلمين إمكانية محاسبة الحاكم في حال الخطأ أو التقصير، وانتفاء المهابة الحاكمية لبني الإنسان، وعدم الخوف إلا من الله ﷻ؛ الإله الحاكم المطلق الذي يسنُّ للناس التشريعات والقوانين، وما على خلقه سوى اتِّباع أوامره سبحانه وتنفيذ تشريعاته المنزَّلة. وفي هذا يشعر الإنسان بكرامته الشخصية، وأنه لا يستذلُّ لأحد من خَلْق الله؛ فيعمل ويُفكِّر بحرية، ويَتَّجه في عمله وفكره لإرضاء مولاه؛ بفعل الخير وتجنُّب الشرِّ، وما من آية من آيات القرآن إلاَّ وتدعو إلى التوحيد؛ فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[1].

٢- **المساواة بين البشر**: فليس هناك - إذن - شريف ولا وضيع، ولا مَنْ ينتمي إلى طبقة عليا، وآخر إلى طبقة دنيا، وليس هناك واسطة بشرية أو كهنوتية؛ فالكل خلقهم إله واحد، ويعبدون ربًّا واحدًا، والكلُّ سواسية كأسنان المشط، لا يُفَرِّقُهم اللون أو الوطن أو غيره، إلا بالإيمان والتقوى، ومن ثَمَّ رَفْع مستوى الإنسان وتحريرِه من سلطان أخيه الإنسان، فها هو ذا النبي ﷺ يعلن هذا المبدأ الراقي في خطبة الوداع: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى...**»[2].

٣- **انتفاء التماثيل**: والتخلص من كل مظاهر الوثنية، سواء في صورتها القديمة التي تعني بالتماثيل والأصنام، أم في صورتها الحديثة الموجَّهة نحو تقديس الدولة الحاكمة وعبادة الأشخاص؛ ومن ثَمَّ فلا يستذلُّ إنسانُ هذه الحضارة لأحد من خَلْق الله، وإنما يُفرِدُ اللهَ ﷻ وحده بالطاعة والعبودية.

٤- **التصوُّر الصحيح للخالق وللكون وللحساب**: ومن ثَمَّ يكون العيش في الدنيا، وإعمار هذا الكون، والعين على الآخرة دار الحساب والجزاء.

وهكذا كانت الوحدانية من خصائص الحضارة الإسلامية؛ مما ساهم في رفع مستوى الإنسان وتحريره من الطغيان، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده خالق الكون ومُسَيِّره.

---

(١) (فاطر: ٣).

(٢) أحمد (٢٣٥٣٦) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (١٤٤٤٤)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٣/ ٢٦٦، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

المبحث الثالث

التوازن والوسطية

التوازن والوسطية من أبرز خصائص الحضارة الإسلامية، وتعني هذه الخاصية التوسُّط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادَّيْن؛ بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حَقِّه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه، ذلك التوازن والاعتدال الذي يليق برسالة عامة خالدة، جاءت لِتَسَعَ أقطارَ الأرض وأطوارَ الزمن.

فترى حضارة الإسلام تجمع بين الروحية والمادية، أو مُتَطَلَّبَات الرُّوح ومتطلبات المادَّة، وتجمع بين علوم الشرع وعلوم الحياة، وتهتم بالدنيا كما تهتم بالآخرة، كما تجمع بين المثالية والواقعية، ثم إن فيها توازنًا بين الحقوق والواجبات.

ومعنى التوازن بين هذه المتضادَّات أن يُفْسَح لكل طرف منها مجاله، ويُعْطَى حقَّه بالقسط؛ فلا غلو ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار، كما أشار إلى ذلك كتاب الله بقوله: **﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾**[1].

وإذا ما أردنا توضيح ذلك، فإنه قد تبيَّن من تاريخ الحضارات السابقة أن كلاًّ من الجوانب الرُّوحِيَّة البحتة أو المادية البحتة وَحْدَها لا تَصْلُح أن تكون سبيلاً لسعادة الإنسان، فليس في مسلك الروحية البحت سوى التخلُّف، وتعطيل الإرادة والتفكير وطاقات العمل، وقتل آدمية الإنسان، وخسارة منافع الكون، وكذلك ليس في مسلك المادية البحت سوى الطغيان والظلم والاستعباد والذلّ، والتحكم الغاشم بالأرواح والأموال والأعراض.

وهنا جاءت حضارة الإسلام الخالدة، لتُزَاوج وتوازن بين مُتَطَلَّبَات الرُّوح ومتطلبات المادَّة، أو بين المادِّيَّة والرُّوحية الإنسانية؛ فتصبح الرُّوحية المهذَّبة أساس المادِّية

---

(١) (الرحمن: ٧-٩).

المهذَّبة، وعندها ينعم الإنسان بالإرادة والحرية والتفكير وثمرة الجهود والعمل، في إطار من الإيمان والأخلاق القائمة على العدل والأمن والاستقرار والرحمة والمحبَّة[1].

فمن شأن ذلك التوازن إذن أن يُحقِّق الانسجام والتوافق بين الفطرة الإنسانية والغاية العقلية، وكذلك التجاوب والانسجام الشامل في أفكار الإنسان وخيالاته، وإراداته ونياته.

وبالنسبة للجمع بين علوم الشرع وعلوم الحياة؛ فقد أقام الإسلام حضارته الرفيعة على منهج العلم والمعرفة والعقل، والبحث والتجربة والاستنباط؛ تقديرًا منه لحيوية العلوم في بناء الدولة والمجتمع، وفي ذلك فقد أشاد الإسلام بالعلم والعلماء في مختلف الاختصاصات، الشاملة لكل إدراك يفيد الإنسان في القيام برسالته في الحياة، وهي تعمير الأرض والاستفادة من خيراتها وكنوزها، وأعني بذلك الجمع بين علوم الشرع وعلوم الحياة.

وقد جاءت كلمة «العلم» في كتاب الله ﷻ وفي سُنَّة رسوله الكريم ﷺ مطلقة، دونما تقييد أو تحديد؛ فهي تشمل كل علمٍ نافعٍ يهدف إلى خير الدنيا وعمارة الأرض.. وكل علمٍ يهدف إلى صلاح الناس، والقيام السليم بواجبات الخلافة البشرية على هذا الكوكب، فهي تعني - في أكثر الأحيان - العلم بشقيه الشرعي والحياتي.. وكل ما جاء من مدحٍ للعلماء، فهو لكل عالمٍ نفع الناس بعلمه، سواء كان شرعيًّا أم حياتيًّا، وإن تاريخ الحضارة الإسلامية قد عَبَّر عن ذلك أصدق تعبير، ولعلَّ ما سنعرضه في الباب التالي من إسهامات وإبداعات المسلمين في العلوم الحياتية أو علوم الحياة، لخير شاهد وأفضل مُعَبِّر عن هذا الجمع.

وإن هذا المنهج المتوازن مغاير لتلك الحضارات التي سيطر فيها الدين على القوى الفكرية والعملية، وبات يمنع العلم ويكبل التفكير وإعمال العقل.

وبالنسبة للتوازن بين الدنيا والآخرة، فلعلَّ أوضح دليل نذكره هنا تلك الآيات التي

---

(١) محمد ظفر الله خان: الحضارة الإسلامية بين الحضارات، على الرابط:
http://www.balagh.com/deen/ya1dbf66.htm

جاء الأمر فيها بصلاة الجمعة، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

فهذا هو شأن الحضارة الإسلامية في الجمع بين الدنيا والآخرة؛ فالآية السابقة تُوَضِّح أنه حتى في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة، ثم سعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة، وتَرْكٌ للبيع والشراء وما أشبهه من مشاغل الحياة، ثم انتشارٌ في الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيرًا في كل حال، فهو أساس الفلاح والنجاح، وفضل الله هنا هو الرزق والكسب.

وفي آية أخرى تدلُّ على الاعتدال بين العمل لهذه الحياة، والعمل لما بعد الحياة، يقول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(٢)، فلم يطلب الإسلام من المسلم أن يكون راهبًا في دَيْر، أو عابدًا في خلوة قائمًا ليله صائمًا نهاره، لا حظَّ له في الحياة ولا حظَّ للحياة فيه، وإنما طلب من المسلم أن يكون إنسانًا عاملاً في الحياة، يعمرها ويسعى في مناكب الأرض، ويلتمس الرزق في خباياها؛ وهكذا يكون أبناء الحضارة الإسلامية، طلاب دنيا وآخرة، يطلبون الحسنة في الحياتين، والسعادة في الدارين.

ومن التوازن - أيضًا - الذي تميَّزت به الحضارة الإسلامية، ذلك الجمع بين المثالية والواقعية(٣) في شكل محكم رائع، فالإسلام دين مثالي وفي ذات الوقت واقعي؛ فهو ينشد لمعتنقه الكمال والمثل العليا دائمًا، لكنه يطلب بأسبابه ويسعى إليه من بابه، ولا يُكَلِّف الناس شططًا؛ ولذلك كان من الصعب فصل المثالية عن الواقعية في الإسلام، وإنما هما شرعة للبشر متكاملة تُنِيرُ لهم سبل الخير، وترسم لهم قواعد السلوك وقوانين المعاملات.

---

(١) (الجمعة: ٩، ١٠).
(٢) (القصص: ٧٧).
(٣) انظر في ذلك: جمعة علي الخولي: المثالية والواقعية في الإسلام، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٤، ص١٢١ - ١٣٣.

ففي المثالية تحرص حضارة الإسلام على إبلاغ الإنسان أعلى أفق ممكن من المستوى العالي الرفيع، في يُسْرٍ وراحة وطمأنينة، وفي الواقعية تراعي حضارة الإسلام ظروف الإنسان وفطرته، وحدود طاقته، وطبيعة تكوينه، وواقع حياته.

وليس في حضارة الإسلام تلك المثالية الخيالية التي لا وجود لها إلا في عالم الأحلام، مثل التي أنشأها أفلاطون في المدينةِ الفاضلة، والتي هي بعيدة كل البعد عن واقع الإنسان وما ركب فيه من غرائز نزعات، وما يعتريه من نقص وقصور.

كما أنه ليس في حضارة الإسلام تلك الواقعية التي تعني الرضا بالواقع أيًا كان وضعه أو صورته، أو أن تُطَوِّعَ حضارة الإسلام مبادئها لتوافق الحياة على أي لون، أو لتساير الواقع على أي شكل؛ فلم تأتِ حضارة الإسلام لتُرَبِّت على شهوات الناس وأنظمتهم، أو لتَرْضَى بأوضاعهم المختلَّة وتقاليدهم المعوجَّة، وإنما جاءت لتلغي كل أشكال الجاهلية ونُظُمِهَا، ولتنشئ من ذات نفسها نظامًا خاصًا بها، قد يتشابه في جزئيات مع واقع الناس وقد لا يتشابه.

وفي التوازن بين المثالية والواقعية جعل الإسلام حدًا أدنى أو مستوى أدنى من الكمال لا يجوز الهبوط عنه؛ لأن هذا المستوى ضروري لتكوين شخصية المسلم على نحو معقول، ولأنه أقلُّ ما يمكن قبوله من المسلم ليكون في عداد المسلمين، وقد شرع هذا المستوى على نحو يستطيع بلوغه وأداءه أقلُّ الناس استعدادًا لفعل الخير وابتعادًا عن الشر، وهذا المستوى يتكون من الفرائض الواجبة، والمحرمات المنهي عنها، وهذه الفرائض والمحرمات جُعِلَتْ بحيث يستطيع كل واحد الوفاء بمقتضاها، وعند الضرورات تراعيها الشريعة وتُقَدِّرُها قدرها.

وبجانب هذا المستوى الإلزامي الواجب بلوغه على كل مسلم وضعت الشريعة مستوى آخر أرفع منه وأوسع، ورَغَّبَتْ فيه الناس وحَبَّبَتْ إليهم بلوغه، وهذا المستوى العالي يشمل المندوبات وأنواع القربات التي ترغب الشريعة في القيام بها، ويشمل - كذلك - المكروهات والمشتبهات التي ينبغي تنزُّه المسلم وابتعاده عنها.

لكن الوصول إلى ذلك المثل أو المستوى الأعلى يحتاج إلى جهد ضخم لا يتيسَّر لكل

الناس، بل هو رهين بمواهب خاصة، واستعداد خاصٍّ يتميز به القلَّة النادرة من الناس؛ لذلك لا يفرض الإسلام هذا المثل الأعلى على الجميع فرضًا، لا يُلزمهم جميعًا به، بل يرسمه أمامهم، ثم يتركهم لطاقاتهم ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1]، ويتقبل من كلٍّ ما يتقدَّم به على قدر جهده ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[2].

أما التوازن الأخير الذي أردناه فهو الذي بين الحقوق والواجبات؛ فالحضارة الإسلامية ترى أنه ما من حق لفرد أو جماعة إلا كان واجبًا على غيره؛ فحقوق المحكومين إنما هي واجبات على الحُكَّام، وحقوق المستأجرين إنما هي واجبات على المالكين، وحقوق الأولاد إنما هي واجبات على الوالدين، وهكذا، ومن خلال أداء الواجبات تُراعى الحقوق.

وقد اتجه الإسلام إلى تحقيق التوازن في الحقوق والواجبات بين الفرد والجماعة؛ ليوازن بين النزعة الفردية والمصلحة الاجتماعية؛ فالإنسان ليس وحدة حياتية مستقلة عن بقية أفراد المجتمع، بل لا بُدَّ له أن يعيش ضمن دائرة المجتمع، ويتبادل المنافع والمصالح، وينشئ العلاقات، ومن تلك الروابط نشأت الحقوق والواجبات، التي نَظَّمتها الشريعة الإسلامية.

وهكذا اتسمت حضارة الإسلام بالتوازن والوسطية.

***

(١) (البقرة: ٢٨٦).

(٢) (الأنعام: ١٣٢)، و(الأحقاف: ١٩).

المبحث الرابع

الصبغة الأخلاقية

تُعَدُّ الأخلاق السياج الواقي للحضارة الإسلامية، وهي الأساس الذي قامت عليه، فمبادئ القيم والأخلاق تتدخَّل في كل نُظُم الحياة، وفي مختَلَفِ أوجه نشاطها، سواء في السلوك الشخصي، أم في السلوك الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي، وقد بُعث رسول الإسلام ﷺ ليكمل الأخلاق ويُتَمِّمَها؛ فقد قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[1]. وبهذه الكلمات حدَّد الرسول الكريم ﷺ الغاية من بعثته، وكيف أنه يُريد أن يُتَمِّمَ مكارم الأخلاق في نفوس أُمَّتِهِ والناس أجمعين، ويريد للبشريَّة أن تتعامل بقانون الخُلق الحَسَن الذي ليس فوقه قانون.

ففي الحُكم، وفي العلم، وفي التشريع، وفي الحرب، وفي السلم، وفي الاقتصاد، وفي الأسرة.. رُوعِيَت المبادئ الأخلاقية في الحضارة الإسلامية تشريعًا وتطبيقًا، وبلغت في ذلك شأوًا ساميًا بعيدًا، لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثارًا تستحقُّ الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء[2].

وإن أهم ما في ذلك الأمر أن مصدر الأخلاق في الحضارة الإسلامية إنما هو الوحي؛ ولذلك فهي قيم ثابتة ومُثُل عليا تصلح لكل إنسان، بصرف النظر عن جنسه وزمانه ومكانه ونوعه، وذلك بعكس مصدر الأخلاق النظرية؛ فإنما هو العقل البشري المحدود، أو ما يَتَّفق عليه الناس في المجتمع فيما يُسَمَّى بـ (العرف)؛ ولذلك فهي متغيِّرة من مجتمع لآخر، ومن مُفَكِّر لآخر.

كما أن مصدر الإلزام في الأخلاق الإسلامية إنما هو شعور الإنسان بمراقبة الله ﷻ له، أما مصدر الإلزام في الأخلاق النظرية فإنما هو الضمير المجرَّد، أو الإحساس

---

(١) الحاكم عن أبي هريرة: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ومن كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوة (٤٢٢١)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي: السنن الكبرى (٢٠٥٧١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٥).

(٢) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٣٧.

بالواجب، أو القوانين الملزمة، وإن هذه الصبغة الأخلاقية تُعَدُّ صمام أمان يكفل استمراريَّة الحضارة ودوامها، وفي ذات الوقت يمنع انحرافاتها وتعثُّرها.

ومن أبرز الجوانب الأخلاقية في الحضارة الإسلامية إنسانيتها؛ فالإنسان هو حجر الزاوية فيها، وركيزتها التي تكمن في حفظ كرامة ومصالح الإنسان، باعتباره الخليفة المكلَّف بإعمار الحياة وصناعة الحضارة؛ ولهذا وردت تأكيدات متوالية في القرآن الكريم تؤكِّد على كرامة الإنسان وتفضيله، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1].

فقد منح الله تعالى الكرامة لكل البشر على السواء؛ وذلك أن جوهر الإنسان واحد منذ خلقه الله، والفروق المختلفة بين البشر لا تُغَيِّر من جوهر الإنسان شيئًا، فكل الناس قد خُلِقُوا من أصل واحد، وهذه الكرامة التي اختصَّ الله بها الإنسان دون غيره من الكائنات ذات أبعاد مختلفة؛ فهي حماية إلهية للإنسان، تنطوي على احترام عقله وحُرِّيَّته وإرادته، وتنطوي أيضًا على حقِّه في الأمن على نفسه وماله وذُرِّيَّته.

وبهذه الخصائص تكون الحضارة الإسلامية ذات خصوصيات متفرِّدَة؛ فهي عالمية، وهي تقوم على الوحدانية المطلقة لله ربِّ العالمين، وتتسم بالتوازن والوسطية، كما أنها تتَّسِم بالصبغة الأخلاقية؛ فهي بذلك ليست حضارة قومية، ولا عنصرية، ولا هي ضد الفطرة الإنسانية.

وهذه الخصائص التي تتفرَّد بها الحضارة الإسلامية تكتسب طابع الديمومة والاستمرار من مبادئ الدين الإسلامي الحنيف؛ لأنها نابعةٌ منها، ولصيقةٌ بها، وهي بذلك بمنزلة الجوهر النفيس الذي لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، وإن تبدَّلت الأحوال وجدت المستجدات.



(١) (الإسراء: ٧٠).



الباب الثاني

إســهامات المسلمين

في جانب الأخلاق والقيم



تُمَثِّل الأخلاق والقيم الجانب المعنوي أو الرُّوحي في الحضارة الإنسانيَّة، وأيضًا الجوهر والأساس الذي تقوم عليه أي حضارة، وفي ذات الوقت تضمن سرَّ بقائها وصمودها عبر التاريخ والأجيال، وهو الجانب الذي إذا اختفى يومًا فإنه يُؤْذِنُ بزوال الدفء المعنوي للإنسان، الذي هو رُوح الحياة والوجود؛ فيصير وقد غادرت الرحمة قلبه، وضعف وجدانه وضميره عن أداء دوره، ولم يَعُدْ يعرف حقيقة وجوده فضلاً عن حقيقة نفسه، وقد بات مُكَبَّلاً بقيود مادية لا يعرف منها فِكَاكًا ولا خلاصًا.

وللأسف فإن الحضارات السابقة -كما سبق أن رأينا- والمعاصرة لم تَحْظَ بإسهام كبير ولا دور بارز في هذا الجانب، ويشهد على ذلك علماء الغرب ومُفَكِّريهم؛ فيقول الكاتب الإنجليزي جود: «إن الحضارة الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق؛ فالأخلاق متأخِّرَة جدًّا عن العلم، فقد منحتنا العلوم الطبيعية قوَّة هائلة، ولكننا نستخدمها بعقل الأطفال والوحوش... فالانحطاط هو خطأ الإنسان في فهم حقيقة مكانته في الكون، وفي إنكاره عالم القيم، الذي يشمل قيم الخير والحقِّ والجمال»[1]. وتقول ألكسيس كارليل: «في المدينةِ العصرية قَلَّمَا نشاهد أفرادًا يتبعون مَثَلاً أخلاقيًّا، مع أن جمال الأخلاق يفوق العلم والفنَّ من حيث أنه أساس الحضارة»[2].

والحقيقة أيضًا أن هذا الجانب -جانب الأخلاق والقيم- لم يُوَفَّ حقُّه إلا في حضارة المسلمين، تلك التي قامت في الأساس على القيم والأخلاق، وبُعث رسولها خاصة ليُتَمِّمَ مكارم الأخلاق ويكملها، وذلك بعد أن تشرذمت وتفرَّقت وأُهْمِلَتْ بين الأمم والحضارات.

تلك الأخلاق والقيم التي لم تكن يومًا نتاج تطور فكري على مرِّ العصور، وإنما كانت وحيًا أوحاه الله ﷻ وشرَّعه رسول الإسلام محمد ﷺ، فكان مصدرها التشريع الإسلامي منذ خمسة عشر قرنًا من الزمان.

(١) نقلاً عن أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٤/ ٧٧٠.
(٢) ألكسيس كارليل: الإنسان ذلك المجهول ص١٥٣.

وفي هذا الباب نعرض لطرف محدود من إسهامات المسلمين في جانب الأخلاق والقيم، تلك التي تُعَبِّرُ عن جوهر الحضارة الإنسانية، والذي ليس غرضنا فيه الاستقصاء بقدر ما هو مجرَّد فتح صفحات، وإلقاء الضوء وليس الشرح والتفصيل؛ وذلك على النحو التالي:

- الفصل الأول: في جانب الحقوق
- الفصل الثاني: في جانب الحريات
- الفصل الثالث: في جانب الأسرة
- الفصل الرابع: في جانب المجتمع
- الفصل الخامس: المسلمون والعلاقات الدولية

***

الفصل الأول
في جانب الحقـــوق

يقول نيتشه فيلسوف الغرب: «الضعفاء العجزة يجب أن يُفْنَوْا! هذا هو أول مبدأ من مبادئ حُبِّنَا للإنسانية! ويجب أيضًا أن يُساعَدوا على هذا الفناء»[1]!

لكن فلسفة الإسلام وشريعته لم تكن يومًا لتَحِيد عن القيم والأخلاق، والتي تمثَّلَتْ في إقرار مجموعة من الحقوق التي شملت كل بني الإنسان، دون تمييز بين لون أو جنس أو لغة، وشملت أيضًا محيطه الذي يتعامل معه، وتمثَّلَتْ كذلك في صيانة الإسلام لهذه الحقوق بسلطان الشريعة، وكفالة تطبيقها، وفرض العقوبات على مَنْ يَعْتَدِي عليها.

وتَّضح أهمُّ هذه الحقوق من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: حقوق الإنسان.
- المبحث الثاني: حقوق المرأة.
- المبحث الثالث: حقوق الخدم والعمال.
- المبحث الرابع: حقوق المرضى وذوي الاحتياجات الخاصة.
- المبحث الخامس: حقوق اليتيم والمسكين والأرملة.
- المبحث السادس: حقوق الأقليات.
- المبحث السابع: حقوق الحيوان.
- المبحث الثامن: حقوق البيئة.

(١) نقلاً عن الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب ص٣١٨.

المبحث الأول

حقوق الإنســـــان

ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة راقية فيها تكريم وتعظيم، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]. وهذه النظرة جعلت لحقوق الإنسان في الإسلام خصائص ومميزات خاصَّة؛ مِن أهمِّها شموليَّة هذه الحقوق؛ فهي سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية.. كما أنها عامَّة لكل الأفراد؛ مسلمين كانوا أو غير مسلمين، دون تمييز بين لون أو جنس أو لغة، وهي كذلك غير قابلة للإلغاء أو التبديل؛ لأنها مرتبطة بتعاليم ربِّ العالمين.

وقد قَرَّرَ ذلك رسول الله ﷺ في خطبة الوداع، التي كانت بمنزلة تقرير شامل لحقوق الإنسان، حين قال ﷺ: «... فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ..»[2]. حيث أكَّدت هذه الخطبة النبويَّة جملة من الحقوق؛ أهمُّها: حرمة الدماء، والأموال، والأعراض.. وغيرها.

وقال ﷺ أيضًا يُعَظِّم من شأن النفس الإنسانيَّة عامَّة، فيحفظ لها أعظم حقوقها وهو حقُّ الحياة، فيقول ﷺ عندما سُئِل عن الكبائر: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ.. وَقَتْلُ النَّفْسِ..»[3]. فجاءت كلمة النفس عامَّة لتشمل أيَّ نَفْسٍ تُقتل دون وجه حقٍّ.

ثم ذهب الرسول ﷺ إلى أكثر من ذلك حين شرع حفظ حياة الإنسان من نفسه، وذلك بتحريم الانتحار، فقال ﷺ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ؛ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[4].

---

(١) (الإسراء: ٧٠).

(٢) البخاري عن أبي بكرة: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (١٦٥٤)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩).

(٣) البخاري عن أنس بن مالك: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (٢٥١٠)، والنسائي (٤٠٠٩)، وأحمد (٦٨٨٤).

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث (٥٤٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه... (١٠٩).

هذا، وقد حرَّم الإسلام كل عمل ينتقص من حقِّ الحياة؛ سواء أكان هذا العمل تخويفًا، أو إهانة، أو ضربًا، فعن هشام بن حكيم، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»[(١)].

وبعد تكريم الإنسان بصفة عامَّة، وتقرير حرمة الدماء والأعراض والأموال، وحقِّ الحياة، أكَّد على حقِّ المساواة بين الناس جميعًا؛ بين الأفراد والجماعات، وبين الأجناس والشعوب، وبين الحُكَّام والمحكومين، وبين الولاة والرعيَّة، فلا قيود ولا استثناءات، ولا فَرْقَ في التشريع بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين حاكم ومحكوم، وإنما التفاضل بين الناس بالتقوى، فقال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لآدَمَ[(٢)]، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلاَّ بِالتَّقْوَى»[(٣)]. ولننظر إلى تعامله ﷺ مع مبدأ المساواة؛ لندرك عظمته ﷺ، فعن أبي أُمامة أنه قال: عَيَّر أبو ذرٍّ بلالاً بأُمِّه، فقال: يابن السوداء. وأنَّ بلالاً أتى رسول الله ﷺ، فأخبره فغضب، فجاء أبو ذرٍّ ولم يشعر، فأَعْرَضَ عنه النبي ﷺ، فقال: ما أعرضكَ عنِّي إلاَّ شيءٌ بلغكَ يا رسول الله. قال: «أَنْتَ الَّذِي تُعَيِّرُ بِلالاً بِأُمِّهِ؟» وقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى مُحَمَّدٍ - أَوْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَحْلِفَ - مَا لأَحَدٍ عَلَيَّ فَضْلٌ إِلاَّ بِعَمَلٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ كَطَفِّ الصَّاعِ[(٤)]»[(٥)].

ويرتبط بحقِّ المساواة حقٌّ آخر وهو العدل، ومن روائع ما يُروى في هذا الصدد قول الرسول ﷺ لأسامة بن زيد عندما ذهب ليشفع في المرأة المخزوميَّة التي سرقت: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[(٦)].

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق (٢٦١٣)، وأبو داود (٣٠٤٥)، وأحمد (١٥٣٦٦).

(٢) كلكم لآدم: كل الناس جميعًا يرجعون إلى أب واحد هو آدم عليه السلام.

(٣) أحمد (٢٣٥٣٦) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (١٤٤٤٤)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

(٤) طَفُّ الصاعِ: أي كلكم قريبٌ بعضُكم من بعض؛ فليس لأحد فضلٌ على أحد إلا بالتقوى؛ لأنَّ طَفَّ الصاع قريب من ملئه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة طفف ٩/ ٢٢١.

(٥) البيهقي: شعب الإيمان (٥١٣٥).

(٦) البخاري عن عائشة رضي الله عنها: كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٨٨)، ومسلم: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف... (١٦٨٨).

وكان ﷺ ينهى كذلك عن مصادرة حقِّ الفرد في الدفاع عن نفسه تحرِّيًا للعدالة، فيقول: «... **فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً...**»[١]. ويقول لمن يتولَّى الحُكْم والقضاء بين الناس: «... **فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْخَصْمَانِ فَلاَ تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الآخَرِ كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الأَوَّلِ؛ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ**»[٢].

وفي حقٍّ فريد تختصُّ به شريعة الإسلام، لم يتطرَّق إليه نظام وضعي ولا ميثاق من مواثيق حقوق الإنسان، يأتي حقُّ الكفاية، ومعناه أن يحصل كل فرد يعيش في كنف الدولة الإسلامية على كفايته من مقوِّمات الحياة؛ بحيث يحيا حياة كريمة، ويتحقَّق له المستوى اللائق للمعيشة، وهو يختلف عن حدِّ الكفاف الذي تحدَّثت عنه النُّظُم الوضعيَّة، والذي يعني الحدَّ الأدنى لمعيشة الإنسان[٣].

وحقُّ الكفاية هذا يتحقَّق بالعمل، فإذا عجز الفرد فالزكاة، فإذا عجزت الزكاة عن سدِّ كفاية المحتاجين تأتي ميزانية الدولة لسداد هذه الكفاية، وقد عبَّر الرسول ﷺ عن ذلك بقوله: «... **مَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا**[٤] **فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ**»[٥]. ثم قال ﷺ مؤكِّدًا على هذا الحقِّ: «**مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا**[٦] **وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ**»[٧]. وقال مادحًا: «**إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ**»[٨].

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الوكالة، باب الوكالة في قضاء الديون (٢١٨٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب من استلف شيئًا فقضى خيرًا منه... (١٦٠١).

(٢) أبو داود عن عليّ ﷺ: كتاب الأقضية، باب كيف القضاء (٣٥٨٢)، والترمذي (١٣٣١)، وأحمد (٨٨٢) وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٣٠٠).

(٣) انظر: خديجة النبراوي: موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام ص٥٠٥-٥٠٩.

(٤) ضياعًا: أي ترك أولادًا صغارًا ضائعين لا مال لهم، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ضيع ٨/ ٢٢٨.

(٥) البخاري: كتاب التفسير، سورة الأحزاب (٤٥٠٣)، ومسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧)، واللفظ له.

(٦) شبعانًا هكذا مصروفًا في رواية الطبراني، وهي صحيحة على لغة بني أسد.

(٧) الحاكم: كتاب البر والصلة (٧٣٠٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والطبراني عن أنس بن مالك: المعجم الكبير (٧٥٠) واللفظ له، والبيهقي: شعب الإيمان (٣٢٣٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٩).

(٨) البخاري عن أبي موسى الأشعري: كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض (٢٣٥٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل الأشعريين ﷺ (٢٥٠٠).

وإن حقوق الإنسان لتَصِلُ إلى أوج عظمتها حين تتعلَّق بحقوق المدنيين والأسرى أثناء الحروب، فالشأن في الحروب أنها يغلب عليها رُوح الانتقام والتنكيل، لا رُوح الإنسانيَّة والرحمة، ولكن الإسلام كان له منهجٌ إنسانيٌّ تحكمه الرحمة، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**لا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلا امْرَأَةً وَلا شَيْخًا**»[1].

وهكذا، فهذا بعض ممَّا قَنَّنه الإسلام ووَضَعَهُ كحقوق للإنسان على ظهر البسيطة، وهي في مجملها تعكس النظرة الإنسانية التي هي رُوح حضارة المسلمين.

* * *

(١) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث... (١٧٣١)، والطبراني عن عبد الله بن عباس: المعجم الأوسط (٤٣١٣) واللفظ له.

المبحث الثاني

حقـــــوق المـــــرأة

أحاط الإسلام المرأة بسياج من الرعاية والعناية، وارتفع بها وقدَّرها، وخصَّها بالتكريم وحُسْن المعاملة ابنةً وزوجةً وأختًا وأُمًّا، فقرَّر الإسلام أوَّلاً أنَّ المرأة والرجل خُلِقَا من أصل واحد؛ ولهذا فالنساء والرجال في الإنسانيَّة سَوَاء، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[1]، وهناك آيات أخرى كثيرة تُبيِّن قضاء الإسلام على مبدأ التَّفْرِقَة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانيَّة المشترَكة.

وانطلاقًا من هذه المبادئ، وإنكارًا لعادات الجاهليَّة والأمم السابقة فيما يخصُّ وضع المرأة، جاء الإسلام يدافع عن المرأة ويُنزلها المكانة التي لم تبلغها في ملَّة ماضية، ولم تُدْرِكْها في أُمَّة تالية؛ حيث شرع لها - كأمٍّ وأخت وزوجة وابنة - من الحقوق - منذ أربعةَ عَشَرَ قرنًا - ما تزال المرأة الغربيَّة تُصارِع الآن للحصول عليه، ولكن هيهات!

فَقَرَّرَ الإسلام بدايةً أن النساء يُماثِلن الرجال في القَدْر والمكانة، ولا يَنْتَقِصُ منهنَّ أبدًا كونُهنَّ نساء، وفي ذلك قال الرسول ﷺ يؤصِّل لقاعدة مهمَّة: «إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»[2]. كما ثبت عنه ﷺ أنه كان دائم الوصيَّة بالنساء، وكان يقول لأصحابه: «... اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[3]. وتكرَّرت منه هذه النصيحة في حجَّة الوداع وهو يخاطب الآلاف من أُمَّته.

وإذا ما أردنا أن نتبيَّن ما أصَّله الإسلام وما جاء به من دعائم لرفعة المرأة وتكريمها، فيهمُّنا أن ندرك أوَّلاً وضع المرأة في الجاهليَّات القديمة والمعاصرة[4]؛ لنرى الظلام الحقيقي الذي عاشته، والذي ما زالت تعيشه، ومن ثَمَّ يتبيَّن لنا حقيقة وضع ومكانة المرأة

---

(١) (النساء: ١).

(٢) الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً... (١١٣)، وأبو داود (٢٣٦)، وأحمد (٢٦٢٣٨)، وأبو يعلى (٤٦٩٤)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (١٩٨٣).

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء (٤٨٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء (١٤٦٨).

(٤) أشرنا إلى ذلك في الحديث عن الحضارات السابقة.

في ظلِّ تعاليم الإسلام والحضارة الإسلامية.

فإذا كان العرب - كما مرَّ بنا في الباب الأول - يَئِدُون بناتهم فيحرمونهن حقَّ الحياة، إذا بالقرآن الكريم يتنزل يُجرِّم ويُحرِّم ذلك الفعل؛ حيث قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[1]، بل وجعله النبي ﷺ من أعظم الذنوب؛ فعن ابن مسعودٍ ﷺ أنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ». قال: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»[2].

فالأمر في الإسلام لم يقف عند الحفاظ على حقِّ المرأة في الحياة فقط، وإنما رغَّب الإسلام في الإحسان إليها صغيرة؛ فقال الرسول ﷺ: «مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ؛ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»[3].

ثم أمر الرسول ﷺ بتعليمها فقال: «أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا.. فَلَهُ أَجْرَانِ»[4]. وكان ﷺ يجعل للنساء يومًا ليعظَهُنَّ، ويذكِّرَهُنَّ، ويأمرَهُنَّ بطاعة الله تعالى[5].

وما أن تشِبَّ البنت وتصير فتاة بالغة؛ حتى يُعْطِيَها الإسلام الحقَّ في الموافقة على الخاطب أو رفضه، ولا يجوِّز إجبارها على الاقتران برجل لا تريده، وقد قال في ذلك الرسول ﷺ: «الأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا»[6]. وقال أيضًا: «لا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ». قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أَنْ تَسْكُتَ»[7].

---

(١) (التكوير: ٨، ٩).

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه (٥٦٥٥)، والترمذي (٣١٨٢)، وأحمد (٤١٣١).

(٣) البخاري عن عائشة رضي الله عنها: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٤٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٢٩).

(٤) البخاري عن أبي موسى الأشعري: كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها (٤٧٩٥).

(٥) عن أبي سعيد الخدري: قالت النساء للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك. فوعدهن يومًا لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن. رواه البخاري: كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حده في العلم (١٠١)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (٢٦٣٣).

(٦) مسلم عن عبد الله بن عباس: كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت (١٤٢١).

(٧) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها (٤٨٤٣).

ثم لَمَّا تصير زوجةً يحثُّ الشرع الحنيف على حُسْن معاملتها وعشرتها؛ مبيِّنًا أن حُسْن عِشْرَة النساء دليل على نُبْل نفس الرجل وكريم طباعه، فيقول الرسول ﷺ - مثلاً - مرغِّبًا: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَقَى امْرَأَتَهُ مِنَ الْمَاءِ أُجِرَ**»(١). ويقول مرهبًا: «**اللَّهُمَّ، إِنِّي أُحَرِّجُ**(٢) **حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ**»(٣).

وقد كان الرسول ﷺ قدوة عملية في ذلك؛ فكان في غاية الرقَّة واللُّطف مع أهله، يروي في ذلك الأسود بن يزيد النخعي، فيقول: سألتُ عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: «**كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ** - أي يساعدها في مهنتها - **فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ، قَامَ إِلَى الصَّلاةِ**»(٤).

وإذا ما كرهت الزوجة زوجها ولم تُطِق الحياة معه، فقد سنَّ لها الإسلام حقَّ مفارَقة الزوج، وذلك عن طريق الخُلْعِ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما أَنْقِم على ثابت في دِينٍ ولا خُلُق، إلاَّ أنِّي أخاف الكفر. فقال رسول الله ﷺ: «**فَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟**» فقالت: نعم. فردَّتْ عليه حديقته، وأمره ففارقها(٥).

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد أثبت الإسلام للمرأة ذِمَّة ماليَّة مستقلَّة تمامًا كالرجل؛ فلها أن تبيع وتشتري، وتستأجر وتؤجِّر، وتوكل وتهب، ولا حِجْر عليها في ذلك ما دامت عاقلة رشيدة، وذلك انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾(٦).

---

(١) أحمد عن العرباض بن سارية (١٧١٩٥) وقال شعيب الأرناءوط: صحيح بشواهده...، وقال الألباني: حسن لغيره. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٩٦٣).

(٢) أحرِّج: أي ألحق الحرج والإثم بمن ضيعهما، فأحذره من ذلك تحذيرًا بليغًا، وأزجره زجرًا أكيدًا، انظر: المناوي: فيض القدير ٣/ ٢٧.

(٣) ابن ماجه عن أبي هريرة (٣٦٧٨)، وأحمد (٩٦٦٤) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي، والحاكم (٢١١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم. والبيهقي (٢٠٢٣٩)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٠١٥).

(٤) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج (٦٤٤)، وأحمد (٢٤٢٧٢)، والترمذي (٢٤٨٩).

(٥) البخاري: كتاب الطلاق، باب الخلع وكيفية الطلاق فيه (٤٩٧٣)، وأحمد (١٦١٣٩).

(٦) (النساء: ٦).

ولما أَجَارَتْ أُمُّ هانئ بنت أبي طالب رجلاً من المشركين، وأبى أخوها عليٌّ ﷺ إلاَّ أنْ يقتله، كان قضاء الرسول ﷺ في هذه الحادثة قوله: «أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»[١]. فأعطاها الحقَّ في أن تُعْطِيَ الأمان والجوار في الحرب أو السلم لغير المسلمين.

وهكذا تعيش المرأة المسلمة عزيزة أبيَّة كريمة مصونة في ظِلِّ تعاليم الإسلام وفي ظِلِّ الحضارة الإسلامية السامية.

***

(١) البخاري عن أم هانئ بنت أبي طالب: أبواب الجزية والموادعة، باب أمان النساء وجوارهن (٣٠٠٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى (٣٣٦).

المبحث الثالث

حقوق الخدم والعمال

أعزَّ الإسلام الخدم والعمَّال ورعاهم وكرَّمهم، واعترف بحقوقهم لأوَّل مرَّة في التاريخ - بعد أن كان العمل في بعض الشرائع القديمة معناه الرقُّ والتبعية، وفي البعض الآخر معناه المذلَّة والهوان - قاصدًا بذلك إقامة العدالة الاجتماعيَّة، وتوفير الحياة الكريمة لهم؛ وقد كانت سيرة الرسول ﷺ خيرَ شاهد على عظمة نظرة الحضارة الإسلامية للخدم والعمال، وكانت إقرارًا منه ﷺ بحقوقهم.

فقد دعا ﷺ أصحاب الأعمال إلى معاملة خدمهم معاملة إنسانيَّة كريمة، وإلى الشفقة عليهم، والبرِّ بهم وعدم تكليفهم ما لا يطيقون من الأعمال، فقال ﷺ: «... **إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ**[1]، **جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»[2]. فجاء تصريح رسول الله ﷺ: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ**». ليرتفع بدرجة العامل الخادم إلى درجة الأخ! وهذا ما لم يسبق أبدًا في حضارة من الحضارات.

وألزم الرسول ﷺ كذلك صاحب العمل أن يُوَفِّيَ للعامل والخادم أجره المكافئ لجُهده دون ظلم أو مماطلة، فقال: «**أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ**»[3].

وحَذَّر الإسلام من ظلم العمال، فقال الرسول ﷺ في الحديث القدسي عن ربِّ العزَّة ﷻ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**»[4]. ليعلم كل مَنْ ظلم عاملاً أو خادمًا أن الله رقيب عليه وخصم له يوم القيامة.

كما يجب على صاحب العمل عدم إرهاق العامل إرهاقًا يضرُّ بصحَّته، ويجعله عاجزًا

---

(١) خولكم: خدمكم، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١١٥.

(٢) البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، ومسلم: كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (١٦٦١).

(٣) ابن ماجه عن عبد الله بن عمر (٢٤٤٣)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٢٩٨٧).

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب البيوع، باب إثم من باع حُرًّا (٢١١٤)، وابن ماجه (٢٤٤٢)، وأبو يعلى (٦٤٣٦).

عن العمل، ولقد قال رسول الله ﷺ في ذلك: «**مَا خَفَّفْتَ عَنْ خَادِمِكَ مِنْ عَمَلِهِ كَانَ لَكَ أَجْرًا فِي مَوَازِينِكَ**»[١].

ومن الحقوق التي تُعتبر علامة مضيئة في الشريعة الإسلاميَّة حقُّ الخادم في التواضع معه، وفي ذلك يُرَغِّب الرسول ﷺ أُمَّته قائلاً: «**مَا اسْتَكْبَرَ مَنْ أَكَلَ مَعَهُ خَادِمُهُ، وَرَكِبَ الْحِمَارَ بِالأَسْوَاقِ، وَاعْتَقَلَ الشَّاةَ فَحَلَبَهَا**»[٢].

ولأن حياته ﷺ كانت تطبيقًا لكل أقواله، فإن السيدة عائشة - رضي الله عنها - تروي فتقول: «**مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِمًا...**» [٣].

كما نجده ﷺ يقول لأبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه عندما ضرب غلامًا له فيقول: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ**». قال: فَالْتَفَتُّ فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله، هو حُرٌّ لِوَجْهِ الله. فَقَالَ: «**أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ**». أَوْ «**لَمَسَّتْكَ النَّارُ**»[٤].

فالضرب أو الصفع أو اللطم أو الركل هو إهانة للخادم يأباها الله ورسوله؛ ولهذا فإن أفضل عقاب للسيِّد القاسي القلب هو أن يُحْرَم فورًا من مِلْكِيَّتِهِ، وهذه هي عظمة الإسلام وعظمة الحضارة الإسلامية.

وهذا أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ يشهد شهادة حقٍّ وصدق فيقول: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لاَ أَذْهَبُ - وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ- قَالَ: فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَابِضٌ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «يَا أُنَيْسُ، اذْهَبْ حَيْثُ أَمَرْتُكَ». قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ أَنَسٌ: وَاللهِ! لَقَدْ خَدَمْتُهُ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا. وَلاَ**

---

(١) صحيح ابن حبان عن عمرو بن حريث (٤٣١٤)، وأبو يعلى (١٤٧٢) وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات.

(٢) البخاري: الأدب المفرد ٢/ ٣٢١ (٥٦٨)، والبيهقي: شعب الإيمان (٨١٨٨)، وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (٥٥٢٧).

(٣) مسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام... (٢٣٢٨)، وأبو داود (٤٧٨٦)، وابن ماجه (١٩٨٤).

(٤) مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (١٦٥٩)، وأبو داود (٥١٥٩)، والترمذي (١٩٤٨)، وأحمد (٢٢٤٠٤)، والبخاري: الأدب المفرد ١/ ٢٦٤ (١٧٣)، والطبراني: المعجم الكبير (٦٨٣).

لِشَيْءٍ تَرَكْتُ: هَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا[١].

بل إن الرسول ﷺ كان يهتمُّ برعاية خَدَمِه إلى الدرجة التي يحرص فيها على زواجهم، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كنتُ أخدم النبي ﷺ فقال لي النبي ﷺ: «يَا رَبِيعَةُ، أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: لا والله يا رسول الله، ما أريد أن أتزوَّج؛ ما عندي ما يُقيم المرأة، وما أحبُّ أن يشغلني عنك شيء. قال: فأعرض عنِّي، ثم قال لي بعد ذلك: «يَا رَبِيعَةُ، أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: لا والله يا رسول الله، ما أريد أن أتزوَّج، وما عندي ما يُقيم المرأة، وما أحبُّ أن يشغلني عنك شيء. فأعرض عنِّي. وقال: ثم راجعتُ نفسي، فقلتُ: والله يا رسول الله أنت أعلم بما يُصلحني في الدنيا والآخرة. قال: وأنا أقول في نفسي: لئن قال لي الثالثة لأقولن: نعم. قال: فقال لي الثالثة: «يَا رَبِيعَةُ، أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: بلى يا رسول الله، مُرْنِي بما شئتَ، أو بما أحببت. قال: «انْطَلِقْ إِلَى آلِ فُلانٍ». إلى حيٍّ من الأنصار...[٢].

وتتجلَّى عظمة الحضارة الإسلامية في معاملة الخدم والعمال حين نرى امتداد رحمته ﷺ بخدمه لتشمل غير المؤمنين به أصلاً، وذلك كما فعل مع الغلام اليهودي الذي كان يعمل عنده خادمًا، فقد مرض الغلام مرضًا شديدًا، فظلَّ النبي ﷺ يزوره ويتعهَّده، حتى إذا شارف على الموت عاده وجلس عند رأسه، ثم دعاه إلى الإسلام، فنظر الغلام إلى أبيه متسائلاً، فقال له أبوه: أَطِعْ أبا القاسم. فَأَسْلَمَ، ثم فاضت رُوحه، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[٣]!

وهذه بعدُ بعض حقوق الخدم والعمال التي أصَّلها الإسلام الحنيف، والتي طَبَّقَهَا رسول الإسلام الكريم بالقول والعمل، في زمن لم يكن يعرف غير الظلم والقهر والاستبداد.. لتُعَبِّرَ بصدق عمَّا وصلت إليه حضارة الإسلام والمسلمين من سموٍّ وعظمةٍ وإنسانية.

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقًا (٢٣١٠)، وأبو داود (٤٧٧٣).

(٢) أحمد (١٦٦٢٧)، والحاكم (٢٧١٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. والطيالسي (١١٧٣).

(٣) البخاري عن أنس بن مالك: كتاب الجنائز، إذا أسلم الصبي فمات؛ هل يُصَلَّى عليه، وهل يُعْرَض على الصبي الإسلام (١٢٩٠).

المبحث الرابع
حقوق المرضى وذوي الاحتياجات الخاصة

للإسلام والحضارة الإسلامية نظرةٌ خاصَّةٌ في رعاية المرضى وذوي الاحتياجات، تلك النظرة التي تبدأ من التخفيف عليهم في بعض الالتزامات الشرعيَّة، وذلك كما في قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1]، وتنتهي ببثِّ الأمل في نفوسهم، ومراعاة حقوقهم الجسمانيَّة والنفسيَّة.

فها هو ذا النبي ﷺ كان إذا سمع بمريض أسرع لعيادته في بيته؛ مع كثرة همومه ومشاغله، ولم تكن زيارته هذه مُتكَلَّفة أو اضطراريَّة، وإنما كان يَشعر بواجبه ناحية هذا المريض.. كيف لا وهو الذي جعل زيارة المريض حقًّا من حقوقه؟! فقال ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ... وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ...»[2].

فكان ﷺ - وهو المُرَبِّي والقدوة - يُهَوِّن على المريض أزمته ومرضه، ويُظهِر له - دون تَكَلُّف - مُوَاساته له، وحرصه عليه، وحبَّه له، فيُسعد ذلك المريضَ وأهلَه، وفي ذلك يروي عبد الله بن عمر فيقول: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود ﷺ، فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله[3]، فقال: «قَدْ قَضَى؟». قالوا: لا يا رسول الله. فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بَكَوْا، فقال: «أَلاَ تَسْمَعُونَ؟! إِنَّ اللهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْبِ؛ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ[4]»[5].

كما كان ﷺ يدعو للمريض ويُبشِّره بالأجر والمثوبة نتيجة المرض الذي لحق به؛

---

(١) (النور: ٦١)، و(الفتح: ١٧).

(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز (١١٨٣)، ومسلم في السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام (٢١٦٢).

(٣) غاشية أهله: أي الذين يغشونه للخدمة وغيرها. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣/ ١٧٥.

(٤) يُعَذِّبُ بهذا: أي إن قال سوءًا. أو يرحم: أي إن قال خيرًا. انظر المصدر السابق.

(٥) البخاري: كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض (١٢٤٢)، ومسلم في الجنائز، باب البكاء على الميت (٩٢٤).

فيُهَوِّن بذلك عليه الأمر، ويُرْضيه به؛ تروي أُمُّ العلاء[(١)] فتقول: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضة، فقال: «أَبْشِرِي يَا أُمَّ الْعَلاَءِ، فَإِنَّ مَرَضَ الْمُسْلِمِ يُذْهِبُ اللهُ بِهِ خَطَايَاهُ كَمَا تُذْهِبُ النَّارُ خَبَثَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»[(٢)].

وكان الرسول ﷺ حريصًا على أن يُخَفِّف عن المريض وألاَّ يشقَّ عليه، وقد روى في ذلك جابر بن عبد الله ﷺ فقال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجرٌ، فشجَّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التَّيَمُّم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات؛ فلمَّا قدمنا على النبي ﷺ أُخبِرَ بذلك، فقال: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلاَ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؛ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ[(٣)]، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ - شَكَّ أحد رُوَاة الحديث - عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ»[(٤)].

بل إنه ﷺ كان يُلَبِّي حاجة المريض، ويسير معه حتى يقضي حاجته، ولقد جاءته ذات مرَّة امرأة في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. فقال: «يَا أُمَّ فُلاَنٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ؛ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ». فخلا معها[(٥)] في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها[(٦)].

كما جعل النبي ﷺ للمرضى وذوي الاحتياجات الخاصَّة الحقَّ في التداوي؛ لأن سلامةَ البدن ظاهرًا وباطنًا مقصدٌ من مقاصد الإسلام؛ لذلك قال ﷺ للأعراب عندما سألوه عن

---

(١) أم العلاء: أسلمت وبايعت النبي ﷺ، عمة حزام بن حكيم. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٧/ ٤٠٥، وابن حجر العسقلاني: الإصابة الترجمة ٨/ ٢٦٥ (١٢١٧٦).

(٢) أبو داود: كتاب الجنائز، باب عيادة النساء (٣٠٩٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٧٨٥١).

(٣) شفاء العي أي: يسألوا حين لم يعلموا؛ لأن شفاء الجهل السؤال. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ١/ ٣٦٨.

(٤) أبو داود: كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم (٣٣٦)، وابن ماجه (٥٧٢)، وأحمد (٣٠٥٧)، والدارمي (٧٥٢)، والدارقطني (٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٠١٦)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٤٣٦٢).

(٥) أي وقف معها في طريق مسلوك ليقضي حاجتها ويفتيها في الخلوة، ولم يكن ذلك من الخلوة بالأجنبية؛ فإن هذا كان في ممرِّ الناس ومشاهدتهم إيَّاه وإيَّاها، لكن لا يسمعون كلامها؛ لأن مسألتها ممَّا لا يظهره. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم ١٥/ ٨٣.

(٦) مسلم عن أنس بن مالك: كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٦)، وأحمد (١٤٠٧٨)، وابن حبان (٤٥٢٧).

التداوي: «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً إِلا الْهَرَمَ...»[١].

كذلك لم يكن يمانع أن تعالِج المرأةُ المسلمة رجلاً من المسلمين؛ حيث جَعَلَ ﷺ رُفَيْدة – وهي امرأة من قبيلة أسلم – تعالِج سعد بن معاذ حين أصابه سهم بالخندق، وكانت رضي الله عنها تُداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين[٢].

وفي صورة تطبيقية، كان الرسول ﷺ يتعامل مع عمرو بن الجموح ﷺ تعاملاً راقيًا، وكان عمرو من ذوي الاحتياجات الخاصَّة، إذ كان أَعْرَج شديد العَرَج، وقد حدث أن بنيه الأربعة الذين كانوا يشهدون المشاهد مع رسول الله ﷺ، أرادوا حبسه يوم أُحُدٍ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: إن بنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال رسول الله ﷺ مخاطبًا عَمْرًا: «أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ عَذرَكَ اللهُ فَلا جِهَادَ عَلَيْكَ». وقال لبنيه: «مَا عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَمْنَعُوهُ، لَعَلَّ اللهُ يَرْزُقُهُ شَهَادَةً». فخرج مع النبي ﷺ فقُتِلَ يوم أُحُدٍ، ثم قال ﷺ عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ، مِنْهُمْ: عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَطَأُ فِي الْجَنَّةِ بِعَرْجَتِهِ»[٣].

وهكذا كان حال المرضى وذوي الاحتياجات الخاصة في الإسلام وفي ظِلِّ الحضارة الإسلامية.

* * *

(١) أبو داود: كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (١٨٤٧٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين...، وصححه الألباني، انظر: غاية المرام (٢٩٢).

(٢) البخاري: الأدب المفرد ١/ ٣٨٥ (١١٢٩)، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٣٩، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢٣٣، وقال الألباني: إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات. انظر: السلسلة الصحيحة (١١٥٨).

(٣) ابن حبان عن جابر بن عبد الله: كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (٧٠٢٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده جيد. وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٤٢٣، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٤/ ٢١٤.

المبحث الخامس

حقوق اليتيم والمسكين والأرملة

تميَّزت الشريعة الإسلاميَّة بأنها حفظت حقوق اليتامى والمساكين والأرامل، وجعلتهم في أمانٍ ورعاية المجتمع المسلم بتكافله لهم معنويًّا وماديًّا؛ وقد أمر الله ﷻ بالرحمة باليتيم فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾[1]، كما أمر بإعطاء المسكين حقَّه المفروض له من قِبَلِ الله ﷻ، فقال ﷻ: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[2].

وزيادة في تدعيم حقِّ المساكين[3] والأرامل[4] رَغَّب الرسول ﷺ الأُمَّة كلها بالسعي في قضاء حوائجهم؛ حيث رفع قدر الذي يرعى شئونهما إلى درجة لا يتخيَّلها أَحَد، فقال ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ»[5]. فأيُّ أجر وأيُّ ثواب أعظم من ذلك؟!

كما حثَّ الرسول ﷺ على الإحسان إلى اليتيم واعدًا بالأجر العظيم؛ وذلك تأصيلاً لحقوق اليتامى في الرعاية والكفالة، فقال ﷺ: «أَنَا وكَافِلُ الْيَتِيمِ[6] فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ». وأشار بأصبعيه، يعني السَّبَّابة والوسطى[7].

بل بلغت درجة الرفق والرحمة باليتيم أنه ﷺ رغَّب أفراد الأُمَّة أن يَضُمُّوا اليتامى إلى أولادهم، فقال ﷺ: «مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ

---

(١) (الضحى: ٩).

(٢) (الإسراء: ٢٦).

(٣) المسكين: الذي ليس له من المال ما يسدُّ حاجته، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سكن ١٣/ ٢١١.

(٤) الأرملة: التي مات عنها زوجها، ويطلق على المحتاجة، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٢٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة رمل ١١/ ٢٩٤.

(٥) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل (٥٠٣٨)، ومسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٢).

(٦) كافل اليتيم: القائم بأموره من نفقة وكسوة وتأديب وتربية، وغير ذلك، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/ ٤٣٦.

(٧) البخاري عن سهل بن سعد: كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا (٥٦٥٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٣).

وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ»[١].

فترى المنهج الإسلامي لا ينظر إلى اليتامى والمساكين والأرامل على أنهم يحتاجون إلى متطلَّبات الحياة المادِّيَّة فقط؛ بل ينظر إليهم على أنهم بَشَرٌ حُرِمُوا من العطف والحنان؛ ولذلك أوصى الرسول ﷺ أصحابه برحمة المساكين واليتامى والتخفيف عنهم، ويظهر ذلك حين قال الرسول ﷺ لرجل أتى إليه يشكو قسوة قلبه: «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، وتُدْرِكَ حَاجَتَكَ؟ ارْحَمِ الْيَتِيمَ، وامْسَحْ رَأْسَهُ، وأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ؛ يَلِنْ قَلْبُكَ، وتُدْرِكْ حَاجَتَكَ»[٢].

ومن ناحية أخرى حذَّر الشرع الإسلامي من ظلم اليتامى وأَكْلِ حَقِّهم، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ[٣]... وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ»[٤].

وأكثر من ذلك حين حثَّ الإسلام ورَغَّبَ في إنفاق المال على المسكين واليتيم، فقال الرسول ﷺ في ذلك: «... وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ[٥]، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ، وَالْيَتِيمَ، وَابْنَ السَّبِيلِ...»[٦].

وفي الناحية المعنوية فإن الإسلام يذهب أبعد من ذلك؛ وذلك حين يَذُمُّ النبي ﷺ طعام الوليمة الذي يحضره الأغنياء ولا يُدْعَى إليه الفقراء من اليتامى والمساكين، فيقول ﷺ: «بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ؛ يُدْعَى إِلَيْهِ الأَغْنِيَاءُ، وَيُتْرَكُ الْمَسَاكِينُ، فَمَنْ لَمْ يَأْتِ

---

(١) أحمد (١٩٠٤٧) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح لغيره...، والبخاري: الأدب المفرد ١/ ٤١ (٧٨)، والطبراني: المعجم الكبير (٦٧٠)، وأبو يعلى (٩٢٦)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى والسياق له وأحمد باختصار والطبراني، وهو حسن الإسناد. انظر: مجمع الزوائد ٨/ ٢٩٤، وصححه الألباني انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨٨٢).

(٢) أحمد (٧٥٦٦)، والبيهقي: السنن الكبرى (٦٨٨٦)، ومسند عبد بن حميد (١٤٢٦)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٨٠).

(٣) الموبقات: المهلكات، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وبق ١٠/ ٣٧٠.

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا...﴾، [النساء: ١٠] (٢٦١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٥) خَضِرَة حُلْوَة: شبهه بالرغبة فيه والميل إليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء المستلذة؛ فإن الأخضر مرغوب فيه على انفراده بالنسبة إلى اليابس، والحلو مرغوب فيه على انفراده بالنسبة للحامض، فالإعجاب بهما إذا اجتمعا أشد، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣/ ٣٣٦.

(٦) البخاري عن أبي سعيد الخدري: كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى (١٣٩٦)، والنسائي (٢٥٨١)، وأحمد (١١١٧٣).

الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ»[١].

وأعظم من ذلك حين نجد الرسول ﷺ، كحاكم دولة، يُنَصِّب نفسه الشريفة مسئوليَّة ولاية اليتامى والفقراء والمحتاجين، فيقول معلنًا: **«أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ، فَأَيُّكُمْ مَا تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيْعَةً**[٢] **فَادْعُونِي فَأَنَا وَلِيُّهُ...»**[٣].

وكان ﷺ أسرعَ الناس إلى تطبيق ما يقول، فقد روى عبد الله بن أبي أَوْفَى ﷺ أن النبي ﷺ كان **لا يَأْنَفُ وَلا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ؛ فَيَقْضِي لَهُمَا حَاجَتَهُمَا**[٤].

وهكذا حفظ الإسلام حقوقًا جمَّة، مادِّيَّة ومعنوية، لليتامى والأرامل والمساكين، تعكس وضعهم في الحضارة الإسلامية الإنسانية.

* * *

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله (٤٨٨٢)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة (١٤٣٢).

(٢) الضيعة: العيال المحتاجون الضائعون، انظر: النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١١/ ٦١.

(٣) البخاري: كتاب الفرائض، باب ابني عم أحدهما أخ للأم والآخر زوج (٦٣٦٤)، ومسلم عن أبي هريرة: كتاب الفرائض، باب من ترك مالاً فلورثته (١٦١٩) واللفظ له.

(٤) النسائي: كتاب الجمعة، باب ما يستحب من تقصير الخطبة (١٤١٤)، الدارمي (٧٤)، وابن حبان (٦٤٢٣) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والطبراني في الصغير (٤٠٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٥٨٣٣).

المبحث السادس

حقوق الأقليات

في ظلِّ التشريع الإسلامي حظيت الأقلِّيَّة غير المسلمة في المجتمع المسلم بما لم تحظَ به أقلِّيَّة أخرى في أي قانون وفي أي بلد آخر من حقوق وامتيازات؛ وذلك أن العَلاقة بين المجتمع المسلم والأقلِّيَّة غير المسلمة حكمتها القاعدة الربَّانيَّة التي في قوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1].

فقد حدَّدت هذه الآية الأساس الأخلاقي والقانوني الذي يجب أن يُعامِل به المسلمون غيرهم، وهو البرُّ والقسط لكل مَن لم يناصبهم العداء، وهي أُسُس لم تعرفها البشريَّة قبل الإسلام، وقد عاشت قرونًا بعده وهي تقاسي الويل من فقدانها، ولا تزال إلى اليوم تتطلَّع إلى تحقيقها في المجتمعات الحديثة فلا تكاد تصل إليها؛ بسبب الهوى والعصبيَّة والعنصريَّة.

وعلى ذلك فقد كفل التشريع الإسلامي للأقليات غير المسلمة حقوقًا وامتيازات عِدَّة، لعلَّ من أهمِّهَا كفالة حرية الاعتقاد، وذلك انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2]، وقد تجسَّد ذلك في رسالة الرسول ﷺ إلى أهل الكتاب من أهل اليمن التي دعاهم فيها إلى الإسلام؛ حيث قال ﷺ: «... وَإِنَّهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لَهُ مَا لَهُمْ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ، وَمَنْ كَانَ عَلَى يَهُودِيَّتِهِ أَوْ نَصْرَانِيَّتِهِ فَإِنَّهُ لا يُفْتَنُ عَنْهَا...»[3].

ولم يكن التشريع الإسلامي لِيَدَعَ غير المسلمين يتمتَّعون بحرِّيَّة الاعتقاد ثم من ناحية

(١) (الممتحنة: ٩).

(٢) (البقرة: ٢٥٦).

(٣) أبو عبيد: الأموال ص٢٨، وابن زنجويه: الأموال ١/ ١٠٩، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٥٨٨، وابن كثير: السيرة النبوية ٥/ ١٤٦، وقال ابن حجر العسقلاني: ورواه ابن زنجويه في «الأموال» عن النَّضر بن شميلٍ، عن عوفٍ، عن الحسن قال: كتب رسول الله.. فذكره، وهذان مرسلان يقوِّي أحدهما الآخر. انظر: ابن حجر العسقلاني: التلخيص الحبير ٤/ ٣١٥.

أخرى لا يسنُّ ما يحافظ على حياتهم، باعتبارهم بَشَرًا لهم حقُّ الحياة والوجود، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا[١] لم يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»[٢].

وقد حذَّر ﷺ مِن ظُلمهم أو انتقاص حقوقهم، وجعل نفسه الشريفة خصمًا للمعتدي عليهم، فقال: «مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ حَقًّا، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٣].

ومن روائع مواقفه ﷺ في هذا الشأن ما حدث مع الأنصار في خيبر؛ حيث قُتِل عبد الله بن سهل الأنصاري ﷺ، وقد تمَّ هذا القتل في أرض اليهود، وكان الاحتمال الأكبر والأعظم أن يكون القاتل من اليهود، ومع ذلك فليست هناك بيِّنة على هذا الظنِّ؛ لذلك لم يُعاقِب رسولُ الله ﷺ اليهود بأي صورة من صور العقاب، بل عرض فقط أن يحلفوا على أنهم لم يفعلوا! فيروي سهل بن أبي حَثْمَةَ ﷺ أَنَّ نفرًا من قومه انطلقوا إلى خيبر، فتفرَّقوا فيها، ووجدوا أحدَهم قتيلاً، وقالوا للذين وُجِدَ فِيهِمْ: قَدْ قَتَلْتُمْ صاحبنا. قالوا: ما قتلنا ولا عَلِمْنَا قاتلاً. فانطلقوا إلى النَّبيِّ ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، انطلقنا إلى خَيْبَرَ فوجدْنَا أحدَنا قتيلاً. فقال: «الْكُبْرَ الْكُبْرَ[٤]». فقال لهم: «تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ؟» قالوا: ما لنا بيِّنةٌ. قال: «فَيَحْلِفُونَ». قالوا: لا نرضى بِأَيْمَانِ اليهود. فَكَرِهَ رسول الله ﷺ أن يُبْطِلَ دمه، فَوَدَاهُ[٥] مائةً من إبل الصَّدقة[٦].

وهنا قام الرسول ﷺ بما لا يتخيَّله أحدٌ.. فقد تولَّى بنفسه دَفْعَ الدِّيَةِ من أموال المسلمين؛ لكي يُهَدِّئ من روع الأنصار، ودون أن يظلم اليهود؛ فلتتحمَّل الدولة الإسلاميَّة العِبْءَ في سبيل ألاَّ يُطَبَّقَ حَدٌّ فيه شُبْهَةٌ على يهودي!

---

(١) المعاهد كما قال ابن الأثير: أكثر ما يطلق على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب. انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٦١٣.

(٢) البخاري عن عبد الله بن عمرو: أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم (٢٩٩٥)، وأبو داود (٢٧٦٠)، والنسائي (٤٧٤٧).

(٣) أبو داود: كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٢)، والبيهقي (١٨٥١١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٤٥).

(٤) الكبر الكبر: أي قدِّموا في الكلام أكبركم. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٧٧.

(٥) وداه: أي دفع دِيَتَه، والدية هي حقُّ القتيل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ودي ١٥/ ٣٨٣.

(٦) البخاري: كتاب الديات، باب القسامة (٦٥٠٢)، ومسلم في كتب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة (١٦٦٩).

وكذلك تكفَّل الشرع الإسلامي بحقِّ حماية أموال غير المسلمين؛ حيث حرَّم أخذها أو الاستيلاء عليها بغير وجه حقٍّ، وذلك كأنْ تُسرَق أو تُغْصَب أو تُتْلَف، أو غير ذلك ممَّا يقع تحت باب الظلم، وقد جاء ذلك تطبيقًا عمليًّا في عهد النبي ﷺ إلى أهل نجران، حيث جاء فيه: «وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهِمْ جِوَارُ الله وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ الله عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ...»[(١)].

وأروع من ذلك حقُّ الأقلية غير المسلمة في أن تَكْفُلَهَا الدولةُ الإسلاميَّة من خزانة الدولة - بيت المال - عند حال العجز أو الشيخوخة أو الفقر؛ وذلك انطلاقًا من قول الرسول ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[(٢)]. على اعتبار أنهم من رعاياها كالمسلمين تمامًا، وهي مسئولة عنهم جميعًا أمام الله ﷻ.

وفي ذلك روى أبو عبيد[(٣)] في (الأموال) عن سعيد بن المسيب[(٤)] أنه قال: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْيَهُودِ فَهِيَ تُجْرَى[(٥)] عَلَيْهِمْ»[(٦)].

ومما يُعَبِّرُ عن عظمة الإسلام وإنسانية الحضارة الإسلامية في ذلك الصدد، ذلك الموقف الذي تناقلته كتب السُّنَّة النبويَّة؛ وذلك حين مَرَّتْ على الرسول ﷺ جنازة فقام لها، فقيل له: إنه يهودي. فقال ﷺ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»[(٧)]!

وهكذا كانت حقوق الأقليات غير المسلمة في الإسلام وفي الحضارة الإسلامية؛ فالقاعدة هي: احترام كل نفس إنسانيَّة طالما لم تَظلم أو تُعَادِ.

* * *

(١) البيهقي: دلائل النبوة، باب وفد نجران ٥/ ٤٨٥، وأبو يوسف: الخراج ص٧٢، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٨٨.

(٢) البخاري عن عبد الله بن عمر: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق (٢٤١٦)، ومسلم: في الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٩).

(٣) أبو عبيد: هو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (١٥٧- ٢٢٤هـ/ ٧٧٤- ٨٣٨م) من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، وكان مُؤَدِّبًا، ولد بهراة، وتعلم بها، ورحل إلى بغداد ومصر، وتوفي بمكة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٠-٤٩٢.

(٤) سعيد بن المسيِّب: هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن القرشي (١٣- ٩٤هـ/ ٦٣٤- ٧١٣م) سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ١١٩-١٤٣.

(٥) تجرى عليهم: أي ترسل إليهم.

(٦) أبو عبيد: الأموال ص٦١٣، وقال الألباني: سنده صحيح إلى سعيد بن المسيب. انظر: تمام المنة ص٣٨٩.

(٧) مسلم عن قيس بن سعد وسهل بن حنيف: كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٩٦١)، وأحمد (٢٣٨٩٣).

المبحث السابع

حقوق الحيـــوان

ينظر الإسلام إلى الحيوان إجمالاً نظرة واقعيَّة؛ ترتكز على أهمِّيَّته في الحياة، ونفعه للإنسان، وتعاونه معه في عمارة الكون واستمرار الحياة، ولا أدلَّ على ذلك من أن عِدَّة سور في القرآن الكريم وضع الله لها أسماء من أسماء الحيوان؛ مثل: سورة البقرة، والأنعام، والنحل.. وغيرها.

وقد نصَّ القرآن الكريم على تكريم الحيوان، وبيان مكانته، وتحديد موقعه إلى جانب الإنسان، فقال تعالى: **﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾**[1].

ومن أهمِّ الحقوق التي أصَّلها التشريع الإسلامي للحيوان عدم إيذائه؛ فقد روى جابر ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ على حمار قد وُسِمَ[2] في وجهه، فقال: **«لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ»**[3]. وعن عبد الله بن عمر، قال: **«لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ مَثَّلَ بِالْحَيَوَانِ»**[4]. وهذا يعني أن إيذاء الحيوان وتعذيبه وعدم الرفق به يُعتبر جريمة في نظر الشريعة الإسلاميَّة.

وكذلك شَرَع الإسلام في تأصيله لحقوق الحيوان تحريمَ حبسه وتجويعه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: **«عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ؛ لَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَسْقِهَا، وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ[5]»**[6]. وروى سهل ابن الْحَنْظَلِيَّةِ قال: مرَّ رسول الله ﷺ ببعيرٍ قد لَحِقَ

---

(١) (النحل: ٥-٧).

(٢) وَسَمَه: إذا أثَّر أو علَّم فيه بكَيٍّ، والوسم والسمة العلامة المميزة للشيء، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وسم ١٢/ ٦٣٥.

(٣) مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه (٢١١٧).

(٤) البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة (٥١٩٦)، والنسائي (٤٤٤٢)، والدارمي (١٩٧٣).

(٥) خشاش الأرض: المراد هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/ ٣٥٧، والنووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٤/ ٢٤٠.

(٦) البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء (٢٢٣٦)، ومسلم عن أبي هريرة: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة (٢٢٤٢)، واللفظ له.

ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ[١]، فقال: «اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْـمُعْجَمَةِ... فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً»[٢].

كما أَمَرَ الرسول ﷺ أن يُستخدم الحيوان فيما خُلِقَ له، وحدَّد الغرض الرئيس من استخدام الدوابِّ، فقال: «إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ؛ فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ»[٣].

ومِمَّا أرسته الشريعة الإسلامية من حقوق للحيوان أيضًا أنها نَهَتْ عن اتخاذه غرضًا، فها هو ابن عمر رضى الله عنهما يمرَّ بِفِتْيَانٍ من قريش قد نَصَبُوا طيرًا وهم يرمونه، فقال لهم: لعن الله مَنْ فعل هذا؛ إن رسول الله ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا[٤].

ومن أهمِّ ما أَصَّلَتْهُ الشريعة الإسلامية من حقوق للحيوان - أيضًا - ما كان من وجوب الرحمة والرفق به، وقد تجسَّد ذلك في قول الرسول ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ[٥]، يَأْكُلُ الثَّرَى[٦] مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي. فَنَزَلَ الْبِئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»[٧]. قالوا: يا

(١) لحق ظهره ببطنه: أي ظهر عليه الهزال من الجوع، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود في شرح سنن أبي داود ٥/ ٤٤٨.

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٤٨)، وأحمد (١٧٦٦٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. وابن حبان (٥٤٦)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣).

(٣) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الوقوف على الدابة، (٢٥٦٧)، والبيهقي: السنن الكبرى (١٠١١٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢). والمعنى: لا تجلسوا على ظهورها فَتُوقِفُوهَا وَتُحَدِّثُونَ بالبيع والشراء وغير ذلك، بل انزلوا واقضوا حاجاتكم ثم اركبوا. والنهي مخصوص باتخاذ ظهورها مقاعد لغير حاجة، أما لحاجة لا على الدوام فجائزة؛ بدليل أن المصطفى ﷺ خطب على ناقته وهي واقفة. انظر العظيم آبادي: عون المعبود ٧/ ١٦٩، والمناوي: فيض القدير ٣/ ١٧٤.

(٤) البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة (٥١٩٦)، ومسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم (١٩٥٨).

(٥) يلهث: يرتفع نفسه بين أضلاعه، أو يخرج لسانه من شدة العطش والحَرِّ، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة لهث ٢/ ١٨٤.

(٦) الثرى: التراب الندي، وقيل: أي يَعَضُّ الأرض. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ثرا ١٤/ ١١٠.

(٧) شكر الله له: أي أثنى عليه فجزاه على ذلك بأن قَبِلَ عمله وأدخله الجنة. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٢٧٨.

رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم لأجرًا[١]؟ فقال: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ[٢]»[٣].

وروى عبد الله بن عمر ﷺ قائلاً: «كُنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرَة[٤] معها فرخان، فأخذنا فَرْخَيْهَا، فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تُعَرِّشُ[٥]، فجاء النبي ﷺ فقال: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا»[٦].

كما أَمَرَتِ الشريعة الإسلامية في حرصها على حقوق الحيوان بأن يُختار لها المَرَاعي الخِصْبَة، وإن لم تُوجَدْ فيجب أن يُنتقل بها إلى مكان آخَر، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيَرْضَى بِهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ، فَإِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَّ الْعُجْمَ فَأَنْزِلُوهَا مَنَازِلَهَا، فَإِنْ كَانَتِ الأَرْضُ جَدْبَةً فَانْجُوا عَلَيْهَا بِنِقْيِهَا[٧]...»[٨].

على أن هناك درجة أخرى أعلى من الرحمة وأثمن أوجبها التشريع الإسلامي في معاملة الحيوان؛ وهي: الإحسان إليه واحترام مشاعره، وإنَّ أعظم تطبيق لهذا الخُلُق حين نهى الرسول ﷺ عن تعذيبه أثناء الذَّبح لأكل لحمه، سواء كان التعذيب جسديًّا بسُوءِ اقتياده للذبح، أو برداءة آلة الذبح، أو كان التعذيب نفسيًّا برؤية السكين؛ ومن ثَمَّ يجمع عليه أكثر من مَوْتة!

---

(١) يعنون: أيكون لنا في سقي البهائم والإحسان لها أجر؟!

(٢) كل كبد رطبة أجر: أي حية يعني بها رطوبة الحياة. فيها أجر عام مخصوص بحيوان محترم، وهو ما لم يؤمر بقتله، ونبَّه بالسقي على جميع وجوه الإحسان من الإطعام... وفيه أن الإحسان إلى الحيوان مما يغفر الذنوب، وتعظم به الأجور، ولا يناقضه الأمر بقتل بعضه أو إباحته؛ فإنه إنما أمر به لمصلحة راجحة، ومع ذلك فقد أمرنا بإحسان القتلة. انظر: المناوي: فيض القدير ٤/ ٦٠١.

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٤).

(٤) الحُمَّرَة: طائر صغير كالعصفور، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حمر ٤/ ٢٠٨.

(٥) أي: ترفرف، والتَّعْرِيش أن ترتفع وتظلَّل بجناحيها على من تحتها، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عرش ٦/ ٣١٣.

(٦) أبو داود: كتاب الأدب، باب في قتل الذرِّ (٥٢٦٨)، والحاكم: (٧٥٩٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥).

(٧) النقي: الشحم والودك، والمعنى أن ينجو عليها وهي في عافيتها؛ حتى يحصل في بلد الخصب، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نقا ١٥/ ٣٣٨.

(٨) الموطأ – رواية يحيى الليثي عن خالد بن معدان يرفعه: كتاب الاستئذان، باب ما يؤمر به من العمل في السفر (١٧٦٧)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٦٨٢).

فقد روى شَدَّاد بن أوس قال: ثِنْتَانِ حفظتُهما عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[1].

كما رَوَى عبد الله بن عباس -رضي الله عنهم- أن رجلاً أضجع شاة يُريد أن يذبحها وهو يَحِدُّ شَفْرته، فقال النبي ﷺ: «أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ، هَلاَّ حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا»[2].

وهكذا كان حقُّ الحيوان في الإسلام؛ فله أن يَنْعَمَ بالأمن والأمان، والراحة والاطمئنان، ما إن كان في بيئة رفرفت عليها الحضارة الإسلامية.

* * *

(١) مسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، والترمذي (١٤٠٩).

(٢) الحاكم: كتاب الأضاحي (٧٥٦٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤).

المبحث الثامن

حقوق البيئـــة

خَلَقَ اللهُ تعالى البيئة نقيَّة، سليمة، نافعة، وسخَّرها للإنسان، وأوجب عليه ضرورة المحافظة عليها؛ كما دعاه إلى ضرورة التفكُّر في آيات الله الكونيَّة، التي خُلِقَتْ في أحسن صورة، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[1]، [2].

وعلى هذا نشأتْ عَلاقة حُبٍّ ووُدٍّ بين الإنسان المسلم والبيئة المحيطة به من جماد وأحياء، وأدرك أن المحافظةَ على البيئة نفعٌ له في دنياه؛ لأنه سيَحْيَا حياة هانئة، وفي آخرته حيث ثواب الله الجزيل.

وقد جاءت رؤية النبي ﷺ للبيئة تأكيدًا لتلك النظرة القرآنيَّة الشاملة للكون، التي تقوم على أن هناك صلةً أساسيَّة وارتباطًا متبادَلاً بين الإنسان وعناصر الطبيعة، ونقطة انطلاقها هي الإيمان بأنه إذا أساء الإنسان استخدام عنصر من عناصر الطبيعة أو استنزفه استنزافًا فإن العالم برُمَّته سوف يُضَارُّ أضرارًا مباشرة.

من أَجْلِ ذلك جاء التشريع الإسلامي بقاعدة عامَّة لكل البشر الذين يَحْيَوْنَ على ظهر الأرض؛ وهي عدم إحداث ضرر من أي نوع لهذا الكون، فقال الرسول ﷺ: «**لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ...**»[3].

ثم تتابعت التشريعات الإسلامية التي تُحذِّر من تلويث البيئة أو إفسادها، فقال الرسول ﷺ في مثل ذلك: «**اتَّقُوا الْمَلاَعِنَ الثَّلاَثَةَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالظِّلِّ**»[4].

---

(١) (ق: ٦، ٧).

(٢) البهيج: الشيء الجميل الذي يُدخل البهجة والسعادة والسرور إلى مَنْ نظر إليه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بهج ٢/ ٢١٦.

(٣) أحمد عن ابن عباس (٢٧١٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن. والحاكم (٢٣٤٥) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٤) صفة إلى الموصوف، أي الطريقة المقروعة، وهي وسط الطريق. والمراد بالظل: ظل الشجرة وغيرها. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ١/ ٣١.

وقد جعل الرسول ﷺ إماطة الأذى من حقوق الطريق، فروى أبو سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ»، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ؛ إنَّما هي مجالسنا نَتَحَدَّثُ فيهَا. فقال ﷺ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا». قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «... وَكَفُّ الأَذَى...»[1]. و«كفُّ الأذى» هذه كلمة جامعة لكل ما فيه إيذاء الناس الذين يستعملون الشوارع والطرقات.

وأكثر من ذلك أن الرسول ﷺ ربط بين الأجر والمحافظة على البيئة فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي؛ حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لاَ تُدْفَنُ»[2].

ثم هو ﷺ يأمر صراحة بنظافة المساكن فيقول: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ... فَنَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ، وَلا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»[3].

فما أروع تلك التعاليم والتشريعات التي تحثُّ على الحياة الطيِّبة الخالية من أي نوع من أنواع الملوِّثات؛ فتحافظ بذلك على راحة الإنسان النفسيَّة والصحِّيَّة.

وفي صورة أكثر تصريحًا وتعبيرًا في الحثِّ على المحافظة على البيئة وجمالها، ما ظهر في قول الرسول ﷺ حين سأله أحدُ الصحابة: أَمِنَ الكِبْرِ أن يكون ثوبي حَسَنًا ونعلي حَسَنة؟ فقال له الرسول ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[4]. ولا شكَّ أن من الجمال الحرصَ على مظاهر البيئة التي خلقها الله تعالى زاهية بهيجة.

كما نجد في إرشاده ﷺ إلى حُبِّ الروائح الطيِّبة وإشاعتها بين الناس، وتهاديها، وتجميل البيئة بها؛ محاربةً للبيئة الملوَّثة؛ وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ، فَلاَ يَرُدَّهُ؛ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ»[5].

---

(١) البخاري عن أبي سعيد الخدري: كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات (٢٣٣٣)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه (٢١٢١).

(٢) مسلم عن أبي ذرٍّ: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها (٥٥٣)، وأحمد (٢١٥٨٩)، وابن ماجه (٣٦٨٣).

(٣) الترمذي عن سعد بن أبي وقاص: كتاب الأدب، باب ما جاء في النظافة (٢٧٩٩)، وأبو يعلى (٧٩٠)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٤٤٥٥).

(٤) مسلم عن عبد الله بن مسعود: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وابن حبان (٥٤٦٦).

(٥) مسلم عن أبي هريرة: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب استعمال المسك... (٢٢٥٣)، والترمذي (٢٧٩١).

ومن عظمة الإسلام فيما سَنَّهُ من تشريعات تخصُّ البيئة أيضًا، ما جاء في الحثِّ على استنبات الأرض وزراعتها، فيقول الرسول ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلاَ يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ[1] إِلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»[2]. وفي رواية: «إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

فمِن عظمة الإسلام أن ثواب ذلك الغرس - المفيد للبيئة بمن فيها - موصول ما دام الزرع قد استُفيد منه، حتى ولو انتقل إلى مِلْكِ غيره، أو مات الغارس أو الزارع!

وقد نوَّه التشريع الإسلامي إلى المكاسب التي يجنيها الإنسان من إحياء الأرض البور؛ إذ جعل زرع شجرة، أو غرس بذرة، أو سَقْي أرض عطشى من أعمال البرِّ والإحسان، فقال الرسول ﷺ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَلَهُ مِنْهَا - يَعْنِي أَجْرًا - وَمَا أَكَلَتِ الْعَوَافِي[3] مِنْهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ»[4].

ولأن الماء أحدُ أهمِّ الثروات البيئيَّة الطبيعيَّة، فكان الاقتصاد فيه والمحافظة على طهارته قَضِيَّتَيْنِ مهمَّتين في الإسلام، وها هو ذا الرسول ﷺ ينصح بالاقتصاد في استعمال الماء حتى عندما يكون الماء متوافِرًا، يروي في ذلك عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ مَرَّ بسعد[5] وهو يتوضَّأ فقال: «مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟» قَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ سَرَفٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»[6].

كما نهى ﷺ عن تلويث المياه، وذلك بمنع التبوُّل في الماء الراكد[7].

فهذه هي نظرة الإسلام والحضارة الإسلامية للبيئة، تلك النظرة التي تُؤْمِنُ بأن البيئة بجوانبها المختلفة يتفاعل ويتكامل ويتعاون بعضها مع بعض وَفْق سُنَنِ الله في الكون الذي خلقه ﷻ في أحسن صورة، ووجب على كل مسلم أن يحافظ على هذا الجمال.

---

(١) يرزأه أحد: أي لا ينقصه ويأخذ منه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة رزأ ١/ ٨٥.

(٢) مسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (١٥٥٢)، وأحمد (٢٧٤٠١).

(٣) العوافي: الطير والسباع، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عفا ١٥/ ٧٢.

(٤) النسائي عن جابر بن عبد الله: كتاب إحياء الموات، باب الحث على إحياء الموات (٥٧٥٦)، وابن حبان (٥٢٠٥)، وأحمد (١٤٣١٠) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح.

(٥) سعد بن أبي وقاص بن وهيب الزهري، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وآخرهم موتًا. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٤٣٣، وابن حجر العسقلاني: الإصابة ٣/ ٧٣ (٣١٩٦).

(٦) ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصر وكراهية التعدي فيه (٤٢٥)، وأحمد (٧٠٦٥)، وحسنه الألباني انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٩٢).

(٧) مسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد (٢٨١)، وأبو داود (٦٩)، والترمذي (٦٨).

الفصل الثاني
في جانب الحريات

أُقِرَّت الحريات كمبدأ من السماء مع نزول الإسلام؛ ليرتفع بها أهل الأرض، وترتقي بها الإنسانية، ولم تكن يومًا وليدة تطوُّر في المجتمع، أو نتيجة ثورة طالب بها المحْرُومُونَ منها، كما هو الحال عند كثير من الأمم المعاصرة.

وهذا ما تُوضحه المباحث التالية:

- المبحث الأول: حرية العقيدة
- المبحث الثاني: حرية التفكير
- المبحث الثالث: حرية الرأي
- المبحث الرابع: حرية النفس
- المبحث الخامس: حرية التملُّك

المبحث الأول
حرية العقيـــــدة

في قاعدة أساسية صريحة بالنسبة للحرية الدينية أو حرية الاعتقاد في الإسلام يقول الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[١]، فلم يأمر الرسول ﷺ - والمسلمون مِنْ بَعْدِه- أحدًا باعتناق الإسلام قسرًا، كما لم يُلْجِئُوا الناس للتظاهر به هربًا من الموت أو العذاب؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكرَه لا قيمة له في أحكام الآخرة، وهي التي يسعى إليها كل مسلم؟!

وقد جاء في سبب نزول الآية السابقة: عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاتًا (هي المرأة التي لا يعيش لها ولد) فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أُجلِيَتْ بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا. فأنزل الله ﷻ: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[٢].

وقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلي؛ فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٣]. ولَفَتَ القرآنُ نظر النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة، وبَيَّنَ له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام فقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٤]، وقال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[٥]، وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾[٦]، ومن ذلك يَتَّضِح أن دستور المسلمين يُقَرِّرُ حرية الاعتقاد، ويرفض رفضًا قاطعًا إكراه أَحَدٍ على اعتناق الإسلام[٧].

وإقرار الحرية الدينية يعني الاعتراف بالتَّعَدُّدِيَّة الدينية، وقد جاء ذلك تطبيقًا عمليًا

---

(١) (البقرة: ٢٥٦).

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الأسير يكره على الإسلام (٢٦٨٢)، وانظر: الواحدي: أسباب نزول القرآن ص٥٢، والسيوطي: لباب النزول ص٣٧، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود ٦/ ١٨٢.

(٣) (الكهف: ٢٩).

(٤) (يونس: ٩٩).

(٥) (الغاشية: ٢٢).

(٦) (الشورى: ٤٨).

(٧) انظر: محمود حمدي زقزوق: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك ص٣٣.

حين أقرَّ النبي ﷺ الحرية الدينية في أوَّل دستور للمدينة، وذلك حينما اعترف لليهود بأنهم يُشَكِّلُون مع المسلمين أُمَّةً واحدة، وأيضًا في فتح مكة حين لم يُجْبِرِ الرسول ﷺ قريشًا على اعتناق الإسلام، رغم تمكُّنه وانتصاره، ولكنه قال لهم: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[1]. وعلى دربه أعطى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب للنصارى من سكان القدس الأمان «على حياتهم وكنائسهم وصلبانهم، لا يُضَارُّ أحدٌ منهم ولا يرغم بسبب دينه»[2].

بل إن الإسلام كفل حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعي بعيد عن المهاترات أو السخرية من الآخرين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3]. وعلى أساس من هذه المبادئ السمحة ينبغي أن يكون الحوار بين المسلمين وغير المسلمين، وقد وَجَّه القرآن هذه الدعوة إلى الحوار إلى أهل الكتاب فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[4]. ومعنى هذا أن الحوار إذا لم يَصِلْ إلى نتيجة فلكلٍّ دينه الذي يقتنع به، وهذا ما عَبَّرَتْ عنه أيضًا الآية الأخيرة من سورة (الكافرون) التي خُتِمَتْ بقوله تعالى للمشركين على لسان محمد ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[5]، [6].

***

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤١١، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٥، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٠١.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ١٠٥.

(٣) (النحل: ١٢٥).

(٤) (آل عمران: ٦٤).

(٥) (الكافرون: ٦).

(٦) محمود حمدي زقزوق: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك ص٨٥، ٨٦.

المبحث الثاني
حرية التفــكير

كفل الإسلام حرية التفكير، وقد جاء ذلك واضحًا جليًّا حين دعا الإسلام إلى إعمال العقل والفكر في أرجاء الكون كُلِّه؛ بسمائه وأرضه، وحثَّ على ذلك كثيرًا، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[1]. وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2].

بل إنَّ الإسلام عاب على الذين يُعَطِّلُونَ قواهم العقلية والحسِّيَّة عن أداء وظيفتها، وجَعَلَهُمْ في مرتبةٍ أحطَّ من مرتبة الحيوانات، فقال الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[3].

وحمل الإسلام حملة شعواء على الذين يَتَّبِعُون الظنون والأوهام، فقال الله ﷻ: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا﴾[4]. وحمل أيضًا على الذين يُقَلِّدُون الآباء أو الرؤساء دون النظر إلى كونهم على الحق أم على الباطل، فقال مُقَلِّلاً من شأنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾[5].

واعتمد الإسلام في إثبات العقيدة الإسلامية على الأدلَّة العقليَّة؛ ولهذا قال علماء الإسلام بأن العقل أساس النقل، فقضية وجود الله قامت بإثبات العقل، وقضية نُبُوَّة محمد ﷺ ثبتت أيضًا عن طريق العقل أوَّلاً، ثم دلَّت المعجزات على صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ، وهذا هو احترام الإسلام للعقل وللفكر.

فالتفكير في نظر الإسلام يُعَدُّ فريضة دينية لا يجوز للمسلم أن يَتَخَلَّى عنها بأي حال

(١) (سبأ: ٤٦).
(٢) (الحج: ٤٦).
(٣) (الأعراف: ١٧٩).
(٤) (النجم: ٢٨).
(٥) (الأحزاب: ٦٧).

من الأحوال، وقد فتح الإسلام الباب واسعًا لممارسة التفكير في الأمور الدينية، وذلك من أَجْلِ البحث عن حلول شرعية لكلِّ ما يُسْتَجَدُّ من مسائل الحياة، وهذا ما يُطْلِقُ عليه علماء الإسلام: (الاجتهاد)، بمعنى الاعتماد على الفكر في استنباط الأحكام الشرعية[1].

وقد كان لمبدأ الاجتهاد - والذي يُجَسِّدُ حرية التفكير في الإسلام - أثره العظيم في إثراء الدراسات الفقهية لدى المسلمين، وإيجاد الحلول السريعة للمسائل التي لم يكن لها نظير في العهد الأوَّل للإسلام، وقد نَشَأَتْ عنه مذاهب الفقه الإسلامي المشهورة، التي لا يزال العالم الإسلامي يسير على تعاليمها حتى اليوم، وهكذا كان اعتماد المسلم على عقله وتفكيره -فيما يُشْكِلُ عليه من أمور الدين والدنيا، ممَّا لم يَرِدْ في شأنه نصوصُ شريعة- هو الدِّعَامة الأُولَى في الموقف العقلي الراسخ للإسلام، وكان هذا الموقف بمنزلة الأساس الذي بنى عليه المسلمون حضارتهم الزاهرة على امتداد تاريخ الإسلام[2].

***

---

(١) راجع في ذلك: محمود حمدي زقزوق: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك ص٥٣.

(٢) محمود حمدي زقزوق: الإنسان خليفة الله - التفكير فريضة، مقال بجريدة الأهرام، عدد غرة رمضان ١٤٢٣هـ، نوفمبر ٢٠٠٢م.

المبحث الثالث

حــــرية الــرأي

تعني حريَّة الرأي حقَّ الفرد في اختيار الرأي الذي يراه في أمر من الأمور العامَّة أو الخاصَّة، وإبداء هذا الرأي وإسماعه للآخرين، وهي حقُّ الشخص في التعبير عن أفكاره ومشاعره باختياره وإرادته؛ ما لم يكن في ذلك اعتداءٌ على حقِّ الآخرين.

وحرية الرأي بهذا المعنى حقٌّ مكفولٌ للمسلم وثابتٌ له؛ لأن الشريعة الإسلامية أَقَرَّتْهُ له، وما أَقَرَّهُ الشرع الإسلامي للفرد لا يملك أحدٌ نَقْضَهُ أو سلبه منه أو إنكاره عليه، بل إن حُرِّيَّة الرأي واجب على المسلم لا يجوز أن يتخلَّى عنه؛ لأن الله تعالى أوجب عليه النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يمكن القيام بهذه الواجبات الشرعية ما لم يتمتَّع المسلم بحقِّ إبداء الرأي وحريته فيه، فكانت حرية الرأي له وسيلة إلى القيام بهذه الواجبات، وما لا يَتَأَتَّى الواجب إلاَّ به فهو واجب.

وقد أجاز الإسلام حرية الرأي في كافَّة الأمور الدنيوية؛ مثل الأمور العامَّة والاجتماعيَّة، وفي مثال يُجسِّد ذلك، ما ظهر من سعد بن معاذ وسعد بن عبادة -رضي الله عنهما- حين استشارهما الرسول ﷺ في مهادنة غطفان على ثلث ثمار المدينة حتى يخرجوا من التحالف يوم غزوة الأَحْزَاب.

عن أبي هريرة قال: جاء الحارث الغطفاني إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، شاطرنا تمر المدينة. قال: «حَتَّى أَسْتَأْمِرَ السُّعُودَ». فبعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وسعد بن خيثمة، وسعد بن مسعود، رحمهم الله، فقال: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَأَنَّ الْحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطِرُوهُ تَمْرَ الْمَدِينَةِ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ». قالوا: يا رسول الله، أوحيٌ من السماء فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك، فرأينا تبع لهواك ورأيك؟ فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا؛ فوالله! لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا تمرة إلا بشرى أو قرى[1].

---

(١) رواه الطبراني: المعجم الكبير (٥٤١٦)، وقال الهيثمي: ورجال البزار والطبراني فيهما محمد بن عمرو وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/ ١١٩، وانظر: ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٢٤٠.

هذا، ومن النصوص التي وردت في النصيحة وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(١)، وقول الرسول ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ». قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «للهِ وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»(٢).

قال الإمام النووي(٣) في شرحه لهذا الحديث: «وأمَّا النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحقِّ، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، ونهيهم عن مخالفته، وتذكيرهم برفق، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين»(٤).

كما قال الرسول ﷺ: «لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ»(٥). وقال أيضًا: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»(٦).

وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم تمتُّعهم بحرِّيَّة الرأي؛ وحيث قد أمرهم الله بهذا الواجب، فهذا يعني مَنْحهم حقَّ إبداء رأيهم فيما يَرَوْنَه معروفًا أو منكرًا، وفيما يأمرون به وينهون عنه، وكذلك واجب المشاورة على ولي الأمر يستلزم تمتُّع مَنْ يُشَاورهم بحرية إبداء آرائهم.

وقد طُبِّقَتْ حرِّيَّة الرأي على طُولِ التاريخ الإسلامي تطبيقًا رائعًا؛ فهذا الصحابي الجليل الحباب بن المنذر يُبْدِي رأيه الشخصي في موقف المسلمين في غزوة بَدْر على غير ما كان قد رآه النبي ﷺ، فيأخذ النبي ﷺ برأيه، كما أبدى بعض الصحابة رأيهم في حادثة الإفك، وكان منهم مَنْ أشار على النبي ﷺ بتطليق زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها،

(١) (التوبة: ٧١).

(٢) مسلم عن تميم الداري: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٨٢)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، وأحمد (١٦٩٨٢).

(٣) النووي: هو أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، محيي الدين (٦٣١-٦٧٦هـ/ ١٢٣٣-١٢٧٧م): علامة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوا بسوريا وإليها نسبته. من أشهر كتبه: المنهاج في شرح صحيح مسلم، ورياض الصالحين. انظر: البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٨، والزركلي: الأعلام ٨/ ١٤٩.

(٤) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٢/ ٣٨.

(٥) الترمذي عن أبي سعيد الخدري: كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة (٢١٩١)، وابن ماجه (٣٩٩٧)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٦٨).

(٦) الترمذي عن أبي سعيد الخدري: كتاب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر (٢١٧٤)، وأبو داود (٤٣٤٤)، والنسائي (٤٢٠٩)، وابن ماجه (٤٠١١)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٢٢٠٩).

إلاَّ أن القرآن بَرَّأَهَا، وغير ذلك من المواقف الكثيرة التي كان الصحابة ومن جاءوا بعدهم يُبْدُونَ فيها آراءهم.

هذا، وإذا كانت حُرِّيَّة الرأي والتعبير عنه وإبداؤه من الحقوق المُقَرَّرَة في الشريعة الإسلامية، فلا يجوز إيذاء الشخص لقيامه بإبداء رأيه؛ لأن الشرع أَذِنَ له بذلك، وقد رَدَّتِ امرأةٌ على عمر بن الخطاب وهو يخطب في المسجد في مسألة المُهُورِ، فلم يمنعها، بل اعترف بأن الصواب معها، وقال قولته: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»[1]!

ومِمَّا ينبغي للمسلم وهو يستعمل حقَّه في إبداء رأيه أن يتوخَّى في ذلك الأمانة والصدق؛ فيقول ما يراه حقًّا، وإن كان هذا الحقُّ أمرًا صعبًا عليه؛ لأن الغرض من حرية الرأي إظهار الحقِّ والصواب وإفادة السامع به، وليس الغرض منه التمويه وإخفاء الحقيقة، وأن يَقْصِدَ بإعلام رأيه إرادة الخير، وأن لا يبغي برأيه ولا بإعلانه الرياء أو السمعة، أو التشويش على المُحِقِّ، أو إلباس الحقِّ بالباطل، أو بخس الناس حقوقهم، أو تكبير سيئات ولاة الأمور، وتصغير حسناتهم، وتصغير شأنهم، والتشهير بهم، وإثارة الناس عليهم؛ للوصول إلى مغنم.

وعلى هذا تكون حرية الرأي كما أَقَرَّتْهَا الشريعة الإسلامية، وهي بذلك وسيلة مهمَّة من وسائل التقدُّم الحضاري، كما أنها وسيلة للتعبير عن الذات.

* * *

(١) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٩٥.

المبحث الرابع

حرية النفس

جاء الإسلام ليرُدَّ للبشر -على اختلاف أجناسهم وألوانهم- كرامتهم، فساوى بين بني البشر جميعًا، وجعل مبدأ التقوى هو عِلَّة المفاضلة بينهم، وحَطَّمَ الرسول ﷺ بعد فتح مكة فوارق اللون والجنس، وقضى على التمييز العنصري قضاءً تامًّا؛ عندما رفع بلالَ بن رباح على ظهر الكعبة صادحًا بكلمة التوحيد، وآخى قبل ذلك بين عَمِّه حمزة ومولاه زَيْدٍ.

وأعلن رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع هذه المبادئ، فقال: «**أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، وَأَنَّهُ لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، وَلا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى**»[1]. فكانت الدعوة إلى حرية النفس، وإلى القضاء على العبودية.

فالأصل في الإسلام أن الناس أحرار وليسوا عبيدًا، وذلك بحكم انتمائهم لأبٍ واحد، وبطبيعة ولادتهم هم أحرار.. وقد جاء الإسلام بإقرار هذا الأصل في زمنٍ كان الناس فيه مُسْتَعْبَدِينَ، وقد ذاقوا من أصناف الذُّلِّ والاستعباد ألوانًا!

فقد عاشت البشريَّة قبل ظهور الإسلام في ظِلِّ مجتمعات وحضارات تشوبها نُظُمُ المواطنة الباغية، المستندة إلى النظرة القبليَّة الضيِّقة الأفق، والتباين الطبقي الصارخ الذي يُقَسِّم الجماعات الإنسانية إلى طبقات مُتَعَدِّدَة، يَتَرَبَّع على قِمَّتِهَا الأحرار المتمتِّعون بكافَّة حقوق السيادة والسلطان، ويُسْحَقُ العبيدُ -مسلوبو حقِّ الحرية والعيش الكريم- تحتها دون رحمة أو شفقة.

وجاء الإسلام يحضُّ المؤمنين على عتق العبيد، ويحسِّن إطلاقهم، ويُسَمِّيه منًّا وعفوًا، ويعتبر العتق من أَجَلِّ الأعمال، ويدعو المؤمنين إلى تحرير الأرقَّاءِ بأموالهم الخاصَّة، وجَعَلَ كَفَّارة ظلم المملوك أو ضربه إعتاقه، وندب عتق المملوك، وجعل تحريره كفَّارة لجناية القتل الخطأ، والظهار، والحنث في اليمين، والإفطار في رمضان، وأمر بمساعدة من طلب

---

(١) أحمد (٢٣٥٣٦) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (١٤٤٤٤)، والبيهقي: شعب الإيمان (٤٩٢١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

المكاتبة من الأرقَّاء، وجَعَلَ في الرقاب أَحَدَ مصارف الزكاة، وحرَّر أُمَّ الولد بعد وفاة سيِّدِهَا.

ويمكن تلخيص خُطَّة الإسلام الحكيمة في معالجة هذه المشكلة الإنسانيَّة في نقاط ثلاث؛ أولها: أنه سَدَّ منابع الرقِّ وحَرَّمه سوى رِقِّ الحرب. وثانيها: أنه وسَّع مصارف العتق. وثالثها: أنه صان حقوق الرقيق بعد الإعتاق.

فقد جاء التشريع الإسلامي بحثِّ المجتمع المسلم الناشئ على عتق العبيد وتحريرهم، واعدًا إيَّاهم بالجزاء العظيم في الآخرة، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ»**[١].

وقد رغَّب النبي ﷺ في عِتق الأَمَةِ وتزوُّجها، فيُروى عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ...»**[٢]. وقد أعتق الرسول ﷺ السيدة صفيَّة بنت حُيَيٍّ بن أخطب، وجعل عتقها صداقها[٣].

وقد كانت وصايا الرسول ﷺ بالعبيد مِفتاحًا من مفاتيح تأهيل المجتمع لتقَبُّل تحريرهم وعتقهم، فقد حضَّ الرسول ﷺ على المعاملة الحسنة لهم، حتى لو كان ذلك في الألفاظ والتعبيرات فقال: **«لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي. كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلاَمِي وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي»**[٤].

كما أوجب الإسلام إطعام العبيد وإلباسهم من نفس طعام ولباس أهل البيت، وألاَّ يُكَلَّفُوا ما لا يطيقون، فيَرْوِي جابرُ بن عبد الله فيقول: كان النبي ﷺ يوصي

---

(١) البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ (المائدة: ٨٩) وأي الرقاب أزكى (٦٣٣٧)، ومسلم: كتاب العتق، باب فضل العتق (١٥٠٩).

(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري... (٤٧٩٥).

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩٦٥)، ومسلم: كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاق أمة ثم يتزوجها (١٣٦٥).

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله: عبدي وأَمَتي (٢٤١٤)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأَمَة (٢٢٤٩).

بالمملوكين خيرًا، ويقول: «... **أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِنْ لَبُوسِكُمْ، وَلا تُعَذِّبُوا خَلْقَ اللهِ ﷻ**...»[١]. وغير ذلك من الحقوق التي جَعَلَتْ من العبد كائنًا إنسانيًّا له كرامة لا يجوز الاعتداء عليها.

وفي مرحلة أخرى مهمَّة جعل الإسلام عقوبة تعذيب العبيد وضربهم العتق والتحرُّر؛ لينتقل بالمجتمع إلى مرحلة التحرُّر الواقعي، فيُرْوَى أن عبد الله بن عمر كان قد ضرب غلامًا له، فدعاه فرأى بظهره أثرًا، فقال له: أوجعتُك؟ قال: لا. قال: فأنت عتيق. قال: ثمَّ أخذ شيئًا من الأرض، فقال: ما لي فيه من الأجر ما يزن هذا، إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ ضَرَبَ غُلامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ، أَوْ لَطَمَهُ؛ فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ**»[٢].

وجعل الإسلامُ أيضًا التلفُّظَ بالعتق من العبارات التي لا تحتمل إلاَّ التنفيذ الفوري، فقال الرسول ﷺ في ذلك: «**ثَلاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: الطَّلاقُ وَالنِّكَاحُ وَالْعِتَاقُ**»[٣].

كما جعل الإسلام عتق العبيد وسيلة من وسائل التكفير عن الخطايا والآثام؛ وذلك للعمل على تحرير أكبر عدد ممكن منهم، فالذنوب لا تنقطع، وكُلُّ ابن آدم خطَّاء، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا كَانَ فَكَاكَهُ مِنَ النَّارِ؛ يُجْزِئُ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ كَانَتَا فَكَاكَهُ مِنَ النَّارِ؛ يُجْزِئُ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُمَا عُضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَتِ امْرَأَةً مُسْلِمَةً كَانَتْ فَكَاكَهَا مِنَ النَّارِ؛ يُجْزِئُ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهَا**»[٤].

وقد مكَّن الإسلامُ العبيد من استعادة حُرِّيَّتهم بالمكاتبة، وهي أن يُمْنَح العبدُ حُرِّيَّته مقابل مبلغ من المال يتَّفق عليه مع سيِّده، وأوجب أيضًا إعانته؛ لأن الأصل هو الحرِّيَّة، أمَّا العبوديَّة فطارئة، فكان الرسول ﷺ القدوة في ذلك؛ حيث أدَّى عن جُوَيْرِيَة بنت الحارث ما كُوتبت عليه وتزوَّجها، فلمَّا سمع المسلمون بزواجه منها أَعْتَقُوا ما بأيديهم من

---

(١) مسلم: كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل... (١٦٦١)، وأحمد (٢١٥٢١)، والبخاري: الأدب المفرد ١/ ٧٦ واللفظ له.

(٢) مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده (١٦٥٧)، وأبو داود (٥١٦٨)، وأحمد (٥٠٥١).

(٣) مسند الحارث (٥٠٣)، رواه البيهقي عن عمر بن الخطاب موقوفًا ٧/ ٣٤١.

(٤) مسلم: كتاب العتق، باب فضل العتق (١٥٠٩)، والترمذي عن أبي أمامة (١٥٤٧)، واللفظ له، وابن ماجه (٢٥٢٢).

السبي، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. فأُعتق بسببها مائة أهل بيت من بني المصطلق[(١)].

وأكثر من ذلك، حيث شرع الإسلام عتق العبيد من مصارف الزكاة؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾[(٢)].

وقد ورد أن الرسول ﷺ أعتق ٦٣ نسمة، وأعتقت عائشة رضي الله عنها ٦٩، وأعتق أبو بكر ﷺ كثيرًا، وأعتق العباس ﷺ سبعين عبدًا، وأعتق عثمان ﷺ عشرين، وأعتق حكيم بن حزام ﷺ مائة، وأعتق عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- ألفًا، وأعتق عبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألف نسمة[(٣)].

وقد نجحت هذه السياسة الإسلامية في تقليل تجارة الرق كثيرًا، حتى توقفت تمامًا بعد ذلك، بل إنه في العهود الإسلامية المتأخرة ارتقى الإسلام بالأرقاء من العبودية إلى قمة السلطة السياسية والعسكرية، ولعلَّ خير مثال على ذلك هو حكم دولة المماليك لقطاع كبير من الأمة الإسلامية لمدة قاربت الثلاثمائة عام! وليس لهذا -دون شك- مثيل في تاريخ الدنيا.

* * *

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ١١/ ٢١٠، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٨، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٠٣.

(٢) (التوبة: ٦٠).

(٣) أحصى ذلك الكتاني في كتابه: التراتيب الإدارية ص٩٤، ٩٥.

المبحث الخامس
حرية التملك

حار العالم القديم والحديث في مسألة الملكية أو التملك[1]، ونشأت جرَّاء ذلك مذاهب شتى وأفكار متباينة؛ فكانت هناك الشيوعية التي أهدرت قيمة الفرد وحريته؛ إذ ليس لأحد أن يتملك أرضًا أو مصنعًا أو عقارًا، أو غير ذلك من وسائل الإنتاج، بل يجب عليه أن يعمل أجيرًا للدولة التي تملك كل مصادر الإنتاج وتُديرها، وتُحرِّم عليه أن يحوز رأس مال وإن كان حلالاً!

كما كانت هناك الرأسمالية، والتي تقوم على تقديس حرية التملك لدى الفرد، وإطلاق العنان له، ليمتلك ما شاء، وينمي ما ملك بما شاء، وينفقه كما شاء، دون قيود تُذكر على وسائل تملكه وتنميته وإنفاقه، ودون أي حقوق للمجتمع في ذلك.

وبين تطرُّف الرأسمالية في تضخيم شأن الملكية الفردية، وتطرُّف الشيوعية في إلغاء هذه الملكية، وما في النظامين من مساوئ ومفاسد جمة، يأتي الإسلام بطريق وسط يجمع بين مصلحة الفرد والجماعة؛ حيث أباح الملكية الفردية مع وضع قيود معينة لها لحماية الآخرين، كما حرَّم حق التملك في أمور معينة؛ رعايةً لحقوق البشر، فجعلها ملكية جماعية، ومعنى ذلك أن الإسلام أَقَرَّ حرية التملُّك للفرد، وحرية التملُّك الجماعية في توازن واعتدال.

فقد أعطى الإسلام للفرد حقَّ التملُّك في حيازة الأشياء، والانتفاع بها على وجه الاختصاص والتعيين؛ لأن ذلك من مقتضيات الفطرة ومن خصائص الحرية، بل من خصائص الإنسانية، وأيضًا لأن ذلك أقوى دافع لزيادة الإنتاج وتحسينه، وجَعَل الإسلام هذا الحقَّ قاعدة أساسية للاقتصاد الإسلامي، ثم رتَّبَ عليه نتائجه الطبيعية، في حفظه لصاحبه، وصيانته له عن النهب والسرقة والاختلاس، ونحوه، ووَضَعَ عقوبات رادعة لمن اعتدى عليه؛ ضمانًا لهذا الحقِّ، ودَفْعًا لَّما يُهدِّد الفرد في حقِّه المشروع، كما أن الإسلام

---

(١) يُقصَدُ بالتملُّك: حيازة الإنسان للشيء وامتلاكه له، وقدرته على التصرُّف فيه، وانتفاعه به عند انتفاء الموانع الشرعية.

رتَّبَ على هذا الحقِّ - أيضًا - نتائجه الأخرى؛ وهي: حُرِّيَّة التصرُّف فيه بالبيع، والشراء، والإجارة، والرهن، والهبة، والوصية، وغيرها من أنواع التعاملات المباحة.

غير أن الإسلام لم يترك التملُّك الفردي مطلقًا من غير قيد، ولكنه وضع له قيودًا كي لا يصطدم بحقوق الآخرين؛ كمنع الربا، والغش، والرشوة، والاحتكار، ونحو ذلك مما يصطدم ويُضَيِّع مصلحة الجماعة، وهذه الحرية لا فرق فيها بين الرجل والمرأة؛ مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[1].

ومن هذه القيود كذلك: مداومة الشخص على استثمار المال؛ لأن في تعطيله إضرارًا بصاحبه، وبناء ثروة المجتمع. وأيضًا أداء الزكاة على هذا المال إذا بلغ النصاب وحال عليه الحول؛ لأن الزكاة حق المال.

ثم كان التملُّك الجماعي في الإسلام، وهو الذي يستحوذ عليه المجتمع البشري الكبير، أو بعض جماعاته، ويكون الانتفاع بآثاره لكل أفراده، ولا يكون انتفاع الفرد به إلاَّ لكونه عضوًا في الجماعة، دون أن يكون له اختصاص مُعَيَّنٌ بجزء منه؛ ومثاله: المساجد، والمستشفيات العامَّة، والطرق، والأنهار، والبحار، ونحو ذلك، ويكون ملكًا عامًّا يُصْرَفُ في المصالح العامَّة، وليس لحاكم أو من ينوب عنه أن يتحكَّم فيه، ولكن يقع عليهم مسئولية إدارته، وتوجيهه التوجيه الصحيح، اللذان يُحَقِّقَان مصالح المجتمع المسلم.

هذا، وقد حَدَّد الإسلام طرقًا ووسائل لاكتساب الملكية وحَرَّمَ ما سواها، فجعل لوسائل الملكية الفردية مظهران: المظهر الأول: الأموال المملوكة، أي المسبوقة بملك، وهذه الأموال لا تخرج من ملك صاحبها إلى غيره إلاَّ بسببٍ شرعي؛ كالوراثة، أو الوصية، أو الشفعة، أو العقد، أو الهبة، أو نحوها. المظهر الثاني: الأموال المباحة، أي غير المسبوقة بملك شخص مُعَيَّنٍ، وهذه الأموال لا يتحقَّقُ للفرد تملُّكُهَا إلاَّ بِفِعْلٍ يُؤَدِّي إلى التملُّك ووضع اليد، كإحياء موات الأرض والصيد، واستخراج ما في الأرض من معادن، أو إقطاع ولي الأمر جزءًا منها لشخص مُعَيَّنٍ.

---

(١) (النساء: ٣٢).

أمَّا مظاهر وسائل الملكية الجماعية في الإسلام فهي كثيرة، ومن أهمها:

المظهر الأول: الموارد الطبيعية العامَّة، وهي التي يتناولها جميع الناس في الدولة دون جهد أو عمل؛ كالماء، والكلأ، والنار، وملحقاتها.

المظهر الثاني: الموارد المحمية، أي التي تحميها الدولة لمنفعة المسلمين أو الناس كافَّة؛ مثل: المقابر، والدوائر الحكومية، والأوقاف، والزكوات، ونحوها.

المظهر الثالث: الموارد التي لم تقع عليها يد أَحَدٍ، أو وقعت عليها ثم أهملتها مُدَّةً طويلة، كأرض الموات[١].

وفي سبيل حفظ الملكية فقد أمر الله بحراسة الأموال، كما حافظت الشريعة الإسلامية على حرية التملُّك بما شرع الله من الحدود؛ كقطع يد السارق، وغير ذلك.

وهذا التملُّك ينبغي أن يكون من الحلال الطيِّب، ولا يكون على حساب الآخرين؛ فلا يُخْدَع الأيتام وتُؤْخَذ أموالهم، ولا يُسْتَغَلُّ فَقْرُ الفقير، وحاجة المحتاج فتُؤْكَل أموالهم بالربا، ولا القمار الذي يُسَبِّبُ العداوة بين المجتمع، والتفكُّك بين أفراده، كما قال الله تعالى: **﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾**[٢]. وقال أيضًا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾**[٣].

وإذا جاءت الملكية من طريق أو وجه غير شرعي فإن الإسلام لا يعترف بها ولا يحميها، بل يأمر بنزعها من يد حائزها وردِّها إلى مالكها الأصلي؛ كالمال المسروق أو المغصوب، فإن لم يكن له مالكٌ وُضِعَ في بيت المال.

كما حدَّد الإسلام سُبُلَ المال ونماءَه بالقيود والتصرُّفات المشروعة، ولم يعترف بالنماء الناتج عن سبيل باطل حرام؛ كالنماء الناتج عن بيع الربا، أو بيع الخمور والمخدرات، أو فتح نوادٍ للقمار، كما أوجب في حقِّ الملكية قدرًا مُعَيَّنًا لمصلحة الجماعة، يَتَمَثَّل في الزكاة والنفقات الشرعية، وعدم جواز الوصية بأكثر من الثُّلُثِ؛ حفظًا لحقِّ الوارثين في الثلثين.

---

(١) انظر الحرية على موقع الإسلام اليوم، الرابط: http://www.islamtoday.net/toislam/11/11.3.cfm.
(٢) (البقرة: ١٨٨).
(٣) (النساء: ٢٩).

وكذلك قيَّده بالاعتدال في الإنفاق دون إسراف أو تقتير، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[1]، كما قيَّده أيضًا بتحريم الإنفاق فيما حَرَّمَتْهُ الشريعة الإسلامية، وقيَّده بجواز نزعه عند الضرورة للمصلحة العامَّة مع تعويض صاحب المِلْكِ التعويضَ العادلَ، كنزع المِلْكِ لتوسعة الطريق العامِّ[2].

هذا، وقد تمتع الأفراد في الدولة الإسلامية بهذا النظام الفريد القويم -مسلمين كانوا أو غير مسلمين- حتى استطاعوا أن يتملكوا الأموال الكثيرة، وحتى كان بختيشوع بن جبرائيل النصراني طبيب المتوكل (الخليفة العباسي العاشر) وصاحب الحظوة لديه -على سبيل المثال- يضاهي الخليفة في اللباس وحُسن الحال، وكثرة المال[3]، وفي الوقت ذاته ينعم هؤلاء الأفراد بما تفيض به الملكية العامة وما تُوَفِّره لهم.

هذه هي حُرِّيَّة التملُّك في الإسلام؛ فهي حقٌّ مكفول للجميع، ولكن بشرط ألا يَضُرَّ هذا الحق بالصالح العامِّ، ولا بالمصلحة الفردية أو الشخصية للآخرين.

***

(١) (الفرقان: ٦٧).

(٢) الحقيل: حقوق الإنسان ص٥٧.

(٣) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٦٨.

الفصل الثالث
في جانب الأسرة

تُمَثِّلُ الأسرة المسلمة لبنة أساسية في صرح المجتمع الإسلامي، وهي حصن هذا المجتمع وقلعته وصمام أمنه وأمانه.

وقد اعتنى الإسلام أعظم العناية بالأسرة، وشرع لها نظامًا دقيقًا مُحْكَمًا، بَيَّنَ فيه حقوق وواجبات أفرادها، ونَظَّمَ معاملات الزواج، والنفقة، والميراث، وتربية الأولاد، وحقوق الآباء، كما غرس بينهم المحبَّةِ والمودَّة والرحمة؛ وذلك لأنَّ في تقوية الأُسْرَةِ وضبط سلوك أفرادها تقويةً للمجتمع وضبطًا لحركته، ونشرًا للقيم الإنسانية والاجتماعية الرفيعة بين أبنائه، وهكذا يرتقي الإسلام بالمجتمع في صورة حضارية لا مثيل لها، ويبعد به عن الفوضى والتحلُّلِ الخُلُقي وضياع الأنساب.

وإن معالم هذه الصورة الحضارية في جانب الأخلاق والقيم في ناحية الأُسْرَةِ تَتَّضِحُ من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: الزوجان
- المبحث الثاني: الأبناء
- المبحث الثالث: الوالدان (الأسرة الصغيرة)
- المبحث الرابع: الرحم (الأسرة الكبيرة)

المبحث الأول

الزوجــــان

تقوم الأسرة على دِعامتين مهمَّتَيْنِ هما أساس تكوينها: الرجل والمرأة؛ أي الزوج والزوجة، فهما الأساس في تكوين الأسرة وإنجاب الذُّرِّيَّة، وتناسُلِ البشريَّة التي تتكوَّن منها الأُمَّة والمجتمع؛ يقول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾**[(١)]، ويقول أيضًا: **﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾**[(٢)].

ولقد اعتنى الإسلام عناية فائقة بهاتين الدِّعامتين الأساسيتين، فوضع تشريعًا مُحْكَمًا للعَلاقات الزوجيَّة، ورسم حدودًا واضحة لكل واحد منهما بما له وما عليه، وقسَّم الأدوار بين الزوجين؛ ليقوم كل واحد منهما بدوره الكامل في بناء الأسرة، والمساهمة في بناء المجتمع الإنساني على امتداده.

فَسَنَّ الإسلام أوَّلاً أمر الزواج، وهدف من ورائه حفظ النوع الإنساني وإمداد المجتمع بأفراد صالحين يُستخلفون في الأرض، ويقومون بمسئولية البناء والإعمار التي هي مقتضى الخلافة فيها، وكذلك هدف من ورائه إلى حصانة الفرد والمجتمع من الرذيلة والتردِّي الأخلاقي؛ حتى إن الرسول ﷺ قال مخاطبًا الشباب: **«يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»**[(٣)].

ولما فكَّر بعض الشباب في التفرُّغ للعبادة واعتزال النساء، زجرهم الرسول ﷺ ونهاهم عن ذلك، وهو ما جاء في القصة التي يرويها أنس بن مالك رضي الله عنه حيث يقول: **جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النَّبيِّ ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلمَّا أُخبِرُوا كأنَّهم**

---

(١) (النساء: ١).

(٢) (النحل: ٧٢).

(٣) البخاري عن عبد الله بن مسعود: كتب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم (٤٧٧٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠٠).

تَقَالُّوهَا فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؛ قد غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر؟ قال أحدهم: أمَّا أنا فإنِّي أصلِّي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدَّهر ولا أُفْطِرُ. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

ولقد جَنَتِ الإنسانية على نفسها الكثير جَرَّاء هذا التفكير القاصر ممن ترهبنوا وحَرَّمُوا الزواج من تلقاء أنفسهم؛ حتى إن العقلاء في أوربا لَمَّا رَأَوُا الرهبنة لا تُنْتِجُ إلاَّ الفساد في الظلام، حرموها بعد تجارِب خمسة عشر قرنًا من الاضطراب والخلل؛ حيث آل الأمر بالكثير من الكُهَّان والقساوسة، إلى ممارسة اغتصاب الأطفال من الذكور والإناث، حتى إنه شاع هذا في أوربا وأمريكا، واستقال أو فُصِلَ المئات منهم، واضطربت الكنيسة وفزعت لِهَوْلِ هذه الانحرافات والاعتداءات الجنسية، وقد جَنَّبَنَا دينُنَا الحنيف هذا كله، وأراحنا من تجارِب بائسة ومن آلام مريرة[2].

كما هَدَفَ الإسلام من وراء الزواج - أيضًا - حصول السكن النفسي للفرد؛ مما يجعله يُفرغ ما يعتمل في نفسه من مشاعر وعواطف تدفعه إلى العطاء والإبداع، ويُعَدُّ الزواج - أيضًا - ملاذًا لكلٍّ من الزوجين؛ يُفْضِي أحدهما إلى الآخر، ويكون له نِعْمَ الأنيس ساعة الوحدة، ونِعْمَ الجليس ساعة الغربة، قال الله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، وبهذه الأركان الثلاثة الواردة في الآية (السكن والمودة والرحمة) تتحقَّق السعادة الزوجية التي أرادها الإسلام.

وقد أمر الإسلامُ الزوجين بأن يُحْسِنَ كلُّ واحد منهما اختيار صاحبه، فقال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[4]، وقال النبي ﷺ - يأمر

(١) البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٤٧٧٦)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠١).

(٢) انظر: محمد بن أحمد بن صالح: حقوق الإنسان في القرآن والسنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية ص١٣٤.

(٣) (الروم: ٢١).

(٤) (النور: ٣٢).

الزوجَ باختيار الزوجة الصالح ذات الدين: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[١]. وقال ﷺ - كذلك يأمر الزوجة باختيار زوجها على نفس المعيار والأساس: «إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ؛ إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»[٢].

ولا ريب في أن هذا الاختيار وذاك الأساس من شأنه أن يَعُودَ بالنفع على المجتمع الإنساني؛ إذ من شأنه أن يُخْرِجَ جيلاً صالحًا هو ثمرة هذين الزوجين الصالحين؛ لينشأ بعد ذلك في أسرة وَدُودَةٍ متحابَّة، تعيش في ظلِّ المبادئ والقيم الأخلاقية الإسلامية.

ولَمَّا كان عقد الزواج من العقود ذات الشأن الكبير؛ لَزِمَ أن تسبقه مقدِّمات تُمَهِّدُ له، وتضمن بقاءه ودوامه، بل إن الشريعة الإسلامية لم تعتنِ بمقدِّمات أي عقد من العقود سواه، فقد اعتنت بها وجعلت لها أحكامًا خاصَّة، ومقدِّمَاتُ عقد الزواج هي ما يُعْرَفُ بالخِطبة، وهي مرحلة تستهدف التفاهم والتقارب، وتُتيح للطرفين معرفة بعضهما بصورة أكبر، وعلى ضوء ذلك يتمُّ تحديد الاستمرار في مشروع الزواج أو العدول عنه.

كما تشترط الشريعة الإسلامية لصحَّة عقد النكاح: وجوب إشهاره؛ والحكمة في ذلك أن له شأنًا عظيمًا في نظر الإسلام؛ لما يُحَقِّقُهُ من المصالح الدينية والدنيوية، فهو جدير بأن يَظْهَرَ شَأْنُهُ ويُذَاعَ أَمْرُه؛ وذلك منعًا للظنون ودفعًا للشبهات.

هذا، وقد أحاط الإسلام عقد الزواج بأوثق الضمانات التي تَكْفُلُ سعادة الزوجين، وتأتي بالخير لأسرتيهما؛ فجعل الرجال قوَّامين على النساء بما أعطى كل واحد منهما من الإمكانات والقدرات، فقال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[٣]، وبهذه القوامة أوجب الإسلام مهرًا على الزوج،

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين (٤٨٠٢)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦).

(٢) الترمذي: كتاب النكاح عن رسول الله، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه (١٠٠٤)، وابن ماجه (١٩٦٧)، والحاكم (٢٦٩٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٢٢).

(٣) (النساء: ٣٤).

وجعله من حقِّ الزوجة، فقال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[١]، كما جعل من حقوقها - أيضًا - النفقة عليها، ويُقْصَدُ به ما تحتاجه المرأة من طعام، وكسوة، وسكن، وعلاج، وغيره، وكذلك معاشرتها بالمعروف؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٢]، وفي مقابل ذلك جعل الإسلام للزوج على زوجته حقَّ الطاعة، وهو من أهم حقوقها عليه.

وهكذا جعل الإسلام لكلٍّ من الزوجين حقوقًا نحو الآخر، وواجبات يُؤَدِّيهَا له، وطالبهما بحُسْنِ العشرة والاعتدال في المعاملة، والتعاون في الحياة المشتركة بينهما، ثم رسم الطريق القويم لعلاج ما قد ينشأ بينهما من خلاف ومشكلات، وشرع الطلاق أخيرًا حين تستعصي على الزوجين إقامة حدود الله، والوقوف على ما رسمه الشارع للسير في عَلاقة الزوجية[٣].

* * *

(١) (النساء: ٤).

(٢) (النساء: ١٩).

(٣) انظر: محمد بن أحمد بن صالح: حقوق الإنسان في القرآن والسنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية ص١٣٥-١٣٨.

المبحث الثاني

الأبنـــــــــاء

الأبناء في الإسلام هم زهرة الحياة الدنيا وزينتها، وهم بهجة النفوس وقُرَّة الأعين، وقد اعتنى الإسلام بالأبناء عناية خاصَّة، فقرَّرَت الشريعة الإسلامية أنَّ لهم على الآباء حقوقًا وواجبات.

فالابن تتشكَّل في نفسه أَوَّل صُوَرِ الحياة متأثِّرًا ببيئة والديه، لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[(١)]. فالوالدان لهما أثر كبير في دين وخُلُقِ الأبناء؛ لذا فإن صلاح الآباء يتوقَّفُ عليه مصلحة الأبناء ومستقبل الأُمَّة، وعليه فإن حقوق الأبناء ترجع إلى ما قبل الولادة؛ حيث اختيار الأُمِّ الصالحة والأب الصالح، كما سبق أن بَيَّنَّا.

وإذا ما وُفِّقَ كُلٌّ من الزوجين في اختيار صاحبه، يأتي حقُّ الولد عليهما في تحصينه من الشيطان؛ وذلك عند وضع النطفة في الرحم، ويظهر ذلك في التوجيه النبوي الشريف في الدعاء عند الجماع، والذي يحفظ الجنين من الشيطان؛ فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ، لَمْ يَضُرُّهُ**»[(٢)].

وإذا ما صار جنينًا في رحم أُمِّه فمن حقِّه الذي أقرَّه الإسلام له حقُّه في الحياة؛ وذلك بتحريم إجهاضه وهو جنين؛ حيث تُحَرِّمُ الشريعة الإسلامية على الأُمِّ إسقاط الجنين قبل ولادته؛ لأنه أمانة أودعها الله في رحمها، ولهذا الجنين حقٌّ في الحياة، فلا يجوز الإضرار به أو إيذاؤه، كما اعتبرته الشريعة نفسًا لا يجوز قتلها متى مَضَتْ له أربعة أشهر ونُفِخَتْ فيه الرُّوح، وأوجبت على قاتله الدِّيَةُ، فعن المغيرة بن شعبة قال: إن امرأتين كانتا تحت رجل من هذيل فضربت إحداهما الأخرى بعمود فقتلتها وجنينها، فاختصموا إلى النبي ﷺ،

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين (٦٢٢٦)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٢).

(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله (٤٧٦٧)، ومسلم: كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (٢٥٩١).

فقال رجل من عصبة القاتلة: أنغرم دية من لا أكل ولا شرب ولا استهل؟! فقال ﷺ: «أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الأَعْرَابِ[١]»[٢]. فقضى فيه بغُرَّة[٣]، وجعله على عاقلة المرأة.

كما أن الشريعة الإسلامية أجازت الفطر في رمضان للمرأة الحامل حفاظًا على صحَّة الجنين، كما أجازت تأجيل حدِّ الزنا حتى يُولد وينتهي من الرضاع.

وأمَّا بعد الولادة فقد وضع الإسلام للأبناء أحكامًا تتعلَّق بولادتهم، منها: استحباب الاستبشار بهم عند ولادتهم؛ وذلك على نحو ما جاء في قوله تعالى في ولادة سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٤]، وهذه البشارة للذَّكَرِ والأنثى على السواء من غير تَفْرِقَةٍ بينهما.

ومنها أيضًا الأذان في أُذُنِهِ اليمنى، والإقامة في أُذُنِهِ اليسرى، وفي هذا اقتداء بالنبي ﷺ؛ فقد أذَّن النبي ﷺ في أُذُنِ الحسن بن علي رضى الله عنهما عند ولادته، روى ذلك عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَذَّنَ فِي أُذُنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - حِينَ وَلَدَتْهُ فَاطِمَةُ - بِالصَّلَاةِ»[٥].

ومن حقوق الأبناء كذلك عند ولادتهم استحباب تحنيكهم بتمر[٦]، وذلك كما فعل

---

(١) قال العلماء: إنما ذم سجعه لوجهين؛ أحدهما: أنه عارض به حكم الشرع ورام إبطاله، والثاني: أنه تكلفه في مخاطبته وهذان الوجهان من السجع مذمومان. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١١/ ١٧٨.

(٢) البخاري: كتاب الطب، باب الكهانة (٥٤٢٦)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني (١٦٨٢) واللفظ له، وأبو داود: كتاب الديات، باب دية الجنين (٤٥٦٨)، والنسائي (٤٨٢٥)، وابن حبان (٦٠١٦)، وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل (٢٢٠٦).

(٣) الغُرَّة: المقصود بها العبد أو الأمة. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١١/ ١٧٥، ١٧٦.

(٤) (آل عمران: ٣٩).

(٥) أبو داود: كتاب الآداب، باب في الصبي يولد فيؤذن في إذنه (٥١٠٧)، وقال الألباني: حديث حسن، انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود (٥١٠٥).

(٦) لا يخفى أن في تحنيك الأطفال المواليد بالتمر حكمة بالغة؛ فقد أثبتت الدراسات الطبية أن معظم أو كل المواليد يحتاجون للسكر الجلوكوز بعد ولادتهم مباشرة، حيث إن مستوى السكر (الجلوكوز) في الدم بالنسبة للمولودين حديثًا يكون منخفضًا، وبما أن التمر يحتوي على السكر (الجلوكوز) بكميات وافرة،، فإن إعطاء المولود التمر المذاب يقي الطفل بإذن الله من مضاعفات نقص السكر الخطيرة، وبذلك ففي تحنيك المولود بالتمر علاج وقائي له، وهو إعجاز طبي لم تكن البشرية تعرفه أو تعرف مخاطر نقص السكر (الجلوكوز) في دم المولود. للمزيد من المعلومات حول أوجه هذا الإعجاز انظر: د. محمد على البار: مقال من رعاية الطفولة في الإسلام، تحنيك المولود وما فيه من إعجاز علمي، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي للقرآن والسنة، الرابط: http://www.nooran.org/O/4/4O11.htm.

النبي ﷺ، فقد روى أبو موسى[١] ﷺ، قال: «وُلِدَ لِي غُلَامٌ فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ، وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ، وَدَفَعَهُ إِلَيَّ»[٢].

ومنها كذلك حَلْق شعر رأسهم والتصدُّق بوزنه فضة، وفي ذلك فوائد صحِّيَّة واجتماعيَّة؛ فمن الفوائد الصحِّيَّة: تفتيح مسامِّ الرأس، وإماطة الأذى عنه، وقد يكون ذلك إزالةً للشعر الضعيف؛ لينبت مكانه شعر قويٌّ، أمَّا الفائدة الاجتماعية فتعود إلى التصدُّق بوزن هذا الشعر فضة، وفي ذلك معنَى التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ومما يُدْخِل السرور على الفقراء، وفي ذلك فقد روى محمد بن علي بن الحسين أنه قال: «وَزَنَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ الله ﷺ شَعَرَ حَسَنٍ وَحُسَيْنٍ فَتَصَدَّقَتْ بِزِنَتِهِ فِضَّةً»[٣].

ومن أهمِّ حقوق الأبناء كذلك عند ولادتهم حَقُّهم في التسمية الحَسَنَةِ؛ فالواجب على الوالدين أن يختارا للمولود اسمًا حَسَنًا يُنادى به بين الناس، يبعث الراحة في النفس والطمأنينة في القلب، وكان الرسول ﷺ يكره كلمة حرب ولا يحب أن يسمعها، وفي الحديث عنه ﷺ: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى الله: عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا: حَرْبٌ وَمُرَّةُ»[٤].

وعن علي ﷺ قال: لما وُلِدَ الحَسَنُ سميته حربًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟ قال: قلت: حربًا. قال: «بَلْ هُو حَسَنٌ». فلما وُلِدَ الحسين سميته حربًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟» قال: قلت: حربًا. قال: «بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ». فلما وُلِدَ الثالث سميته حربًا، فجاء النبي ﷺ فقال: «أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟» قلت: حربًا. قال: «بَلْ هُوَ مُحَسِّنٌ». ثم قال: «سَمَّيْتُهُمْ بِأَسْمَاءِ وَلَدِ هَارُونَ: شَبَّرٌ وَشَبِيرٍ وَمُشَبِّرٌ»[٥].

---

(١) أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر، صاحب رسول الله ﷺ، استعمله النبي ﷺ ومعاذًا على زبيد وعدن، وولي إمرة الكوفة. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤/ ١٠٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٨٠.

(٢) البخاري: كتاب العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق عنه وتحنيكه (٥٠٤٥)، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه (٣٩٩٧).

(٣) مالك: الموطأ، كتاب العقيقة، باب ما جاء في العقيقة (١٨٤٠).

(٤) أبو داود (٤٩٥٠)، والنسائي (٣٥٦٨)، وأحمد (١٩٠٥٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٨١٤)، وقال الألباني: صحيح. السلسلة الصحيحة (١٠٤٠).

(٥) أحمد (٧٦٩)، واللفظ له، ومالك (٦٦٠)، وابن حبان (٦٩٥٨)، والحاكم (٤٧٧٣)، وقال: صحيح الإسناد. ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن.

وكذلك من حقِّ الأبناء بعد الولادة العقيقة، ومعناها ذبح الشاة عن المولود يوم السابع من ولادته، وحُكْمُها سُنَّةٌ مؤكَّدة، وهي نوع من الفرح والسرور بهذا المولود، وقد سُئِل رسول الله ﷺ عن العقيقة فقال: «لاَ أُحِبُّ الْعُقُوقَ، وَمَنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُودٌ فَأَحَبَّ أَنْ يَنْسُكَ عَنْهُ فَلْيَفْعَلْ عَنِ الْغُلاَمِ شَاتَانِ مُكَافَأَتَانِ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ»[١].

ومن حقوق الأبناء كذلك بعد الولادة حَقُّهم في الرضاعة، والرضاعة عملية لها أثرها البعيد في التكوين الجسدي والانفعالي والاجتماعي في حياة الإنسان وليدًا ثم طفلاً، وهو ما أدركته الشريعة الإسلاميَّة، فكان على الأمِّ أن تُرضع طفلها حولين كاملين، وجُعِلَ ذلك حقًّا من حقوق الطفل، قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٢].

ولقد أثبتت البحوث الصحيَّة والنفسيَّة الحديثة أن فترة عامين ضروريَّة لنمُوِّ الطفل نموًّا سليمًا من الوجهتين الصحيَّة والنفسيَّة[٣]، بَيْدَ أن نِعْمَةَ الله وكرمه على الأُمَّة الإسلاميَّة لم تنتظر نتائج البحوث والتجارِب التي تُجْرَى في معامل علم النفس وخلافها من قِبَلِ العلماء النفسيِّين والتربويِّين، بل سبقت ذلك كُلَّه، ونلاحظ مدى اهتمام الشريعة بالرضاعة وجَعْلِهَا حقًّا من حقوق الطفل، إلاَّ أنَّ ذلك الحقَّ لم يكن مقتصرًا على الأُمِّ فقط؛ إذ إنَّ هناك مسئولية تقع على كاهل الأب، وتتمثَّل هذه المسئولية في وجوب إمداد الأُمِّ بالغذاء والكساء؛ حتى تتفرَّغ لرعاية طفلها وتغذيته، وبذلك فكُلٌّ منهما يُؤَدِّي واجبه ضمن الإطار الذي رسمته له الشريعة السمحة، محافِظًا على مصلحة الرضيع المُسْنَدَةِ إليه رعايته وحمايته، على أن يتمَّ ذلك في حدود طاقتها وإمكانياتها، قال تعالى: ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[٤].

---

(١) أبو داود: كتاب الضحايا، باب العقيقة (٢٨٤٤)، وأحمد (٦٨٢٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والمستدرك (٧٥٩٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة، (١٦٥٥).

(٢) (البقرة: ٢٣٣).

(٣) الرضاعة الطبيعية لمدة ١٢ شهرًا على الأقل، وأن الأولى من ذلك اتباع توصيات منظمة الصحة العالمية بالرضاعة لحولين كاملين. انظر: حسن شمسي باشا: الرضاعة من لبن الأم لحولين كاملين، مقال على الرابط:
http://dvd4arab.maktoob.com/showthread.php?t/60832

(٤) (البقرة: ٢٣٣).

ومن حقوق الأبناء على أبويهم كذلك حَقُّهم في الحضانة والنفقة؛ فقد أوجبت الشريعة على الأبوين رعاية الأبناء والمحافظة على حياتهم وصِحَّتِهم والنفقة عليهم، فقال النبي ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...**»(١).

ثم كان حَقُّهم - أيضًا - في حُسْنِ التربية وتعليم الضروريات من أمور الدين، وفي طريقةٍ عملية في تربية الأبناء يقول الرسول ﷺ: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلاَةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(٢). كما أمرنا الله ﷻ أن نحمي أنفسنا وأبناءنا من النار يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾(٣).

هذا بالإضافة إلى رعاية هؤلاء الأبناء وجدانيًّا؛ وذلك بالإحسان إليهم ورحمتهم، وملاعبتهم وملاطفتهم، وقد ورد في ذلك أن الرسول ﷺ قَبَّل الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: «**مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ**»(٤).

كما روى شداد بن الهاد ؓ عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء، وهو حامل حَسَنًا أو حسينًا، فتقدَّم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلَّى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلمَّا قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه

(١) البخاري عن عبد الله بن عمر: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق (٢٤١٦)، ومسلم: في الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٩).

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب يؤمر الغلام بالصلاة (٤٩٥)، وأحمد (٦٦٨٩)، والحاكم (٧٠٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٤٠٢٦).

(٣) (التحريم: ٦).

(٤) البخاري كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٥١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال... (٢٣١٨).

قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك. قال: «**كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»[١].

وروى أيضًا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنِّي لأَدْخُلُ فِي الصَّلاَةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ**»[٢]!

هذا، وإن لحُسْنِ تربية البنات ورعايتهن أهمية خاصة؛ حتى إن الرسول ﷺ كان يُعظِّم من أجر الذي يحسن تربيتهنَّ بصفة خاصة، فقال ﷺ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**». وضمَّ أصابعه[٣].

وعلى هذا فثمَّة حقوق مهمَّة للأبناء على الآباء كَفَلَهَا الإسلام لهم، وقد فاقت في شمولها ومراحلها كل الأنظمة والقوانين الوضعيَّة قديمها وحديثها؛ حيث اهتمَّ الإسلام بالأبناء في كل مراحل حياتهم؛ أَجِنَّةً، ورُضَّعًا، وصبيانًا، ويافعين، إلى أن يَصِلُوا إلى مرحلة الرجولة والأنوثة، بل اهتمَّ الإسلام بهم قبل أن يكونوا أَجِنَّةً في بطون أُمَّهَاتهم! وذلك بالحضِّ على حسن اختيار أمهاتهم وآبائهم.. وذلك كُلُّه بهدف إخراج رجال ونساء أسوياء لمجتمع تَسُودُهُ الأخلاق والقيم الحضارية النبيلة.

* * *

(١) النسائي (١١٤١)، وأحمد (٢٧٦٨٨)، الحاكم (٤٧٧٥)، وصححه ووافقه الذهبي، وابن خزيمة (٩٣٦)، وابن حبان (٢٨٠٥)، واستدل به الألباني في إطالة الركوع. انظر: صفة صلاة النبي للألباني ص١٤٨.

(٢) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب من أخَفَّ الصلاة عند بكاء الصبي (٦٧٧)، وابن ماجه (٩٨٩)، وابن خزيمة (١٦١٠)، وابن حبان (٢١٣٩)، وأبو يعلى (٣١٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٠٥٤).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب الإحسان إلى البنات (٢٦٣١)، واللفظ له، والترمذي (١٩١٤)، والحاكم (٧٣٥٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٩٤).

المبحث الثالث

الوالدان (الأسرة الصغيرة)

الوالدان هنا هما الزوجان بعد أن مَنَّ الله عليهما بالْوَلَدِ، وصار لهما أبناء وذُرِّيَّة، كَدَّا مِنْ أَجْلِهِم، وسَهِرَا على راحتهم، وأعطياهم من الحقوق ووفَّرَا لهم من سبل الحياة ما ذكرناه سابقًا.

فَكَنَوْعٍ من ردِّ الجميل، والاعتراف بحُسْنِ الصنيع، ومجازاة الإحسان بالإحسان، أَقَرَّ الإسلام جملة من الحقوق للآباء على الأبناء، وخاصَّة في حال كِبَرِهما وضَعْفِهما؛ حيث خَصَّهُما الله بالإحسان والعطف عليهما والبِرِّ بهما؛ تمامًا كما كانا يفعلان بأبنائهما في صغرهم.

فكان من أهمِّ هذه الحقوق؛ حقُّ الْبِرِّ والطاعة والإحسان، وليس هناك أعظم إحسانًا، وأكبر تَفَضُّلاً بعد الله ﷻ من الوالدين؛ ولذلك قَرَنَ سبحانه الإحسان إليهما وحُسْن الرِّعَايَةِ بهما بعبادته والإخلاص له، فقال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[1].

فجاء الأمر بالإحسان إليهما والنهي عن عقوقهما ولو بجرح مشاعرهما بكلمة «أُفٍّ» كعلامة على الضجر منهما، كما أن الله سبحانه لم يمدح الذُّلَّ ولم يَقْبَلْ من عباده أن يقع منهم على بعض إلاَّ في مقام الوالدين؛ فقال تعالى كما جاء في الآية الأخيرة السابقة: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾.

على أن أعظم البِرِّ يكون في حال بلوغ الوالدين الكِبَرَ أحدهما أو كلاهما، وهو حال الضعف البدني والعقلي، الذي ربما يُؤَدِّي إلى العجز؛ فأمر الله ﷻ بأن نَقُولَ لهما قولاً كريمًا، ونخاطبهما مخاطبة لَيِّنَة؛ رحمة بهما، وإحسانًا إليهما، مع الدعاء لهما بالرحمة كما رحمانا في

---

(١) (الإسراء: ٢٣، ٢٤).

الصِّغَرِ وقت الضعف، ثم الإكثار من إسماعهما عبارات الشكر، الذي قرنه الله بشكره سبحانه؛ حيث قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1].

وبِرُّ الوالدين من أعظم أبواب الخير، وقد جاء ذلك في الحديث الذي سأل فيه عبد الله بن مسعود ﷺ النبي ﷺ قائلاً: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ ﷺ: «الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا». قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ». قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أَقْبَلَ رجلٌ إلى نبيِّ الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله. قال ﷺ: «فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟» قال: نعم، بل كلاهما. قال: «فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ اللهِ؟» قال: نعم. قال: «فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا»[3]. وفي رواية قال: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»[4].

ومن أعظم ما شرعه الإسلام من حقوق للآباء على الأبناء، ما جاء في حديث جابر ابن عبد الله والذي فيه: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ لي مالاً وولدًا، وإنَّ أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ»[5].

قال أبو حاتم بن حبان[6]:

«معناه أنه ﷺ زجر عن معاملته أباه بما يُعَامِلُ به الأجنبيين، وأمر ببِرِّهِ والرفق به في القول والفعل معًا إلى أن يصل إليه ماله، فقال له: «أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ». لا أن مال الابن

(١) (لقمان: ١٤).

(٢) البخاري: كتاب الآداب، باب البر والصلة (٥٦٢٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (١٣٧).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٦)، وأبو داود (٢٥٢٨)، والنسائي (٤١٦٣)، وأحمد (٦٤٩٠)، وابن حبان (٤١٩).

(٤) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين (٢٨٤٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٩).

(٥) ابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده (٢٢٩١)، وأحمد (٦٩٠٢)، وابن حبان (٤١٠)، وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل (١٦٢٥).

(٦) أبو حاتم بن حبان البستي: هو أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) مؤرخ، علامة، جغرافي، محدث. ولد وتوفي في (بُست) من بلاد سجستان. من كتبه: «المسند الصحيح» في الحديث. انظر: السبكي: طبقات الشافعية ٣/ ١٣١.

يملكه الأبُ في حياته من غير طيب نفس من الابن به»[1].

والأحاديث والآثار في البِرِّ بالوالدين والإحسان إليهما والتحذير من عقوقهما أكثر من أن تُحْصَى، وهي تُعَبِّرُ عَمَّا بَلَغَتْهُ الشريعة الإسلامية الغَرَّاء في حفظ القيم الأصيلة في المجتمع من أن تُنْتَهَكَ أو تتهاوى.

* * *

(١) صحيح ابن حبان ٢/ ١٤٢.

المبحث الرابع

الرحم (الأسرة الكبيرة)

من عظيم ما أتى به الإسلام أن الأسرة فيه لا تقف عند حدود الوالدين وأولادهما، بل تَتَّسع لتشمل ذوي الرحم وأُولِي القربى من الإخوة والأخوات، والأعمام والعمَّات، والأخوال والخالات، وأبنائهم وبناتهم؛ فهؤلاء جميعًا لهم حقُّ البرِّ والصِّلَة التي يحثُّ عليها الإسلام، ويَعُدُّهَا من أصول الفضائل، ويَعِدُ عليها بأعظم المثوبة، كما يَتَوَعَّدُ قاطعي الرحم بأعظم العقوبة، فمَنْ وَصَلَ رحمه وَصَلَهُ الله، ومَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ الله.

وقد وضع الإسلام من الأحكام والأنظمة ما يُوجِبُ دوام الصلة قوية بين هذه الأسرة المُوَسَّعة، بما فيها الأقارب، بحيث يَكْفُلُ بعضهم بعضًا، ويأخذ بعضهم بِيَدِ بعضٍ، كما يُوجب ذلك نظام النفقات، ونظام الميراث، ونظام (العاقلة)؛ ويُرَادُ به توزيع الدِّيَةِ في قتل الخطأ وشبه العمد على عَصَبَةِ القاتل وأقاربه[1].

وَصِلَةُ الرحم - بدءًا - تعني الإحسان إلى هؤلاء الأقربين، وإيصال ما أمكن من الخير إليهم، ودفع ما أمكن من الشرِّ عنهم؛ فتشمل زيارتهم والسؤال عنهم، وتَفَقُّدِ أحوالهم، والإهداء إليهم، والتصدُّق على فقيرهم، وعيادة مرضاهم، وإجابة دعوتهم، واستضافتهم، وإعزازهم وإعلاء شأنهم، وتكون أيضًا بمشاركتهم في أفراحهم، ومواساتهم في أتراحهم، وغير ذلك ممَّا من شأنه أن يزيد ويُقَوِّيَ من أواصر العَلاقات بين أفراد هذا المجتمع الصغير.

فهي إذن باب خير عميم؛ فيها تتأكَّد وَحْدَة المجتمع الإسلامي وتماسكه، وتمتلئ نفوس أفراده بالشعور بالراحة والاطمئنان؛ إذ يبقى المرء دومًا بمنأى عن الوَحْدَة والعُزْلَة، ويتأكَّد أن أقاربه يُحِيطُونَه بالمودَّة والرعاية، ويمدُّونه بالعون عند الحاجة.

وقد أمر الله سبحانه بالإحسان إلى ذوي القربى، وهم الأرحام الذين يَجِبُ وَصْلُهم، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

(١) انظر: يوسف القرضاوي: الإسلام حضارة الغد ص١٨٥.

وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾[١].

وجعل الله ﷺ صِلَةَ الرحم توجب صِلَتَه سبحانه للواصل، وتتابع إحسانه وخيره وعطائه عليه، وذلك كما دَلَّ الحديث القدسي الذي رواه عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال الله: «أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ»[٢].

وبَشَّرَ الرسولُ ﷺ الذي يَصِلُ رحمه بسعة الرزق والبركة في العمر، فروى أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ[٣]؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[٤].

وقد فَسَّرَ العلماء ذلك بأن هذه الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك[٥].

وفي المقابل فقد جاءت النصوص الصريحة في التحذير من قطيعة الرحم وَعَدِّها ذنبًا عظيمًا؛ إذ إنها تفصم الروابط بين الناس، وتُشِيعُ العداوة والبغضاء، وتعمل على تَفَكُّكِ التماسُكِ الأُسَرِيِّ بين الأقارب؛ فقال الله تعالى محذرًا مِنْ حلول اللعنة، وعمى البصرِ والبصيرة: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[٦].

وعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»[٧]. وقَطْعُ

---

(١) (النساء: ٣٦).

(٢) أبو داود: كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم (١٦٩٤)، وأحمد (١٦٨٠)، وابن حبان (٤٤٣)، والحاكم (٧٢٦٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) يُنْسَأ: أي يُؤَخَّر له، والأثر هنا: الأجل وبقية العمر. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٤/ ٣٠٢، ١٠/ ٤١٦.

(٤) البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق (١٩٦١)، وكتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم (٥٦٣٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢١).

(٥) انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٦/ ١١٤.

(٦) (محمد: ٢٢، ٢٣).

(٧) البخاري: كتاب الأدب، باب إثم القاطع (٥٦٣٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (١٩).

الرَّحِمِ هو تَرْكُ الصِّلَةِ والإحسان والْبِرِّ بالأقارب، والنصوصُ كثيرة ومتضافرة على عِظَمِ هذا الذنب، وذلك كُلُّه من شأنه أن يَخْلُقَ مجتمعًا متعاونًا متآلفًا متماسكًا، يَتَحَقَّقُ فيه قول رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[1].

***

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦)، واللفظ له.

الفصل الرابع
في جانب المجتمع

المجتمع الإسلامي هو تلك الأسرة الكبيرة التي تربطها أواصر المحبَّة والتكافل والتعاون والرحمة، وهو مجتمع رباني إنساني أخلاقي متوازن؛ يتعايش أفراده بمكارم الأخلاق، ويتعاملون بالعدل والشورى، يرحم الكبيرُ فيه الصغير، ويعطف فيه الغنيُّ على الفقير، ويأخذ القويُّ بيد الضعيف، بل هو كالجسد الواحد، الذي إذا اشتكى منه عضو تألَّم له سائر الأعضاء، وكالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، وفي المباحث التالية تَتَّضِحُ أبرز مُقَوِّمَات ودعائم المجتمع الإسلامي:

- المبحث الأول: المؤاخاة
- المبحث الثاني: التكافل
- المبحث الثالث: العدل
- المبحث الرابع: الرحمة

المبحث الأول

المؤاخـــــاة

يقول آتووتر[(١)]، وهو أحد الرموز البارزة في إدارة الرئيس ريجان[(٢)]، في عدد فبراير (١٩٩١م) من مجلة Life: «... لقد ساعدني مرضي على أن أُدْرِكَ أن ما كان مفقودًا في المجتمع كان مفقودًا في داخلي أنا أيضًا: قليل من الحُبِّ والمودة، وقليل من الأُخُوَّة..»[(٣)].

فالمؤاخاة أو الإخاء أو الأخوة من أروع القيم الإنسانية التي أرساها الإسلام للمحافظة على كيان المجتمع، وهي التي تجعل المجتمع وَحْدَةً متماسكة، وهي قيمة لم تُوجَدْ في أيِّ مجتمع؛ لا في القديم ولا في الحديث، وتعني: «أن يعيش الناس في المجتمع متحابِّينَ، مترابطين، متناصرين، يجمعهم شعور أبناء الأسرة الواحدة، التي يُحِبُّ بعضها بعضًا، ويشدُّ بعضها أزر بعضٍ، يحسُّ كلٌّ منها أن قوَّةَ أخيه قوَّةٌ له، وأن ضعفَه ضعفٌ له، وأنه قليل بنفسه كثيرٌ بإخوانه»[(٤)].

وقد تضافرت النصوص على صقل هذه القيمة وإبراز مكانتها وأثرها في بناء المجتمع المسلم، كما حثَّتْ على كل ما من شأنه تقويتها، ونَهَتْ عن كل ما من شأنه أن ينال منها؛ فقال تعالى مُقَرِّرًا عَلاقة الأُخُوَّة بالإيمان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[(٥)]، وذلك دون اعتبار لجنسٍ أو لون أو نسب، فاجتمع وتآخى بذلك سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي مع إخوانهم العرب.

كما وصف القرآن الكريم هذه الأُخُوَّة بأنها نعمة من الله، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[(٦)].

---

(١) آتووتر: Lee Atwater (١٩٥١ - ١٩٩١م) مستشار سياسي واستراتيجي للحزب الجمهوري الأمريكي، وكان مستشارًا سياسيًّا للرئيس ريجان وبوش الأب.

(٢) رونالد ريجان: Ronald Reagan (١٩١١ - ٢٠٠٤م): هو الرئيس الأربعون للولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ما بين (١٩٨١ - ١٩٨٩م)، كان ممثلاً سينمائيًّا ثانويًّا فاشلاً قبل أن يدخل في الحياة السياسية، وكان رئيسًا محبوبًا وشعبيًّا، أُعِيد انتخابه بالأغلبية المطلقة للمرة الثانية عام ١٩٨٤م.

(٣) نقلاً عن عبد الحي زلوم: إمبراطورية الشر الجديدة ص٣٩٧.

(٤) يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص١٣٨.

(٥) (الحجرات: ١٠).

(٦) (آل عمران: ١٠٣).

وها هو ذا الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة - لَـمَّا كانت بداية المجتمع المسلم - بدأ بعد بناء المسجد مباشرة **بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار**، وقد سَجَّل القرآن الكريم هذه المؤاخاة التي ضربت المثل الرائع للحُبِّ والإيثار، فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾**[(١)].

وفي بيان لصورة من تلك المُثُل الرائعة في الحُبِّ والإيثار جَرَّاء هذه المؤاخاة، تلك التي يعرض فيه أخ أنصاري على أخيه المهاجر نصف ماله وإحدى زوجتيه بعد أن يُطَلِّقَهَا له! وهو ما رواه أنس بن مالك ﷺ حيث قال: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ المدينة فَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ..»[(٢)].

ولدورها العظيم في تماسك بنيان المجتمع كان تحذير الله ﷻ واضحًا جليًّا لكل عمل يُوهِنُ الأُخُوَّة الإسلامية، فَحَرَّم التعالي والسخرية، فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾**[(٣)].

كما حرَّم التعريض بالعيوب والتفاخر بالأنساب، فقال تعالى: **﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[(٤)].

وحرَّم كذلك الغيبة والنميمة وسوء الظنِّ؛ وهي من أسوأ عوامل هدم المجتمعات، فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ**

---

(١) (الحشر: ٩).

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه (٣٧٢٢)، والترمذي (١٩٣٣)، والنسائي (٣٣٨٨)، وأحمد (١٢٩٩٩).

(٣) (الحجرات: ١١).

(٤) (الحجرات: ١١).

اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[(١)].

وإذا ما حَدَثَ خصام أو مهاجرة، فإن الإسلام راح يُرَغِّبُ في كُلِّ ما يجمع القلوب ويدعم الوَحْدَة؛ وذلك بالدعوة إلى الإصلاح بين المتخاصمين؛ حيث قال ﷺ مُعَظِّمًا ومُرَغِّبًا في ذلك: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟!» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ»[(٢)].

بل إن الإسلام أباح الكذب للإصلاح بين المتخاصمين؛ لما في ذلك من جبر كيان المجتمع الإسلامي من أن يَتَصَدَّعَ، فقال ﷺ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»[(٣)].

وفوق ذلك رتَّبَ الإسلام على الأُخُوَّةِ مجموعة من الحقوق والواجبات، يلتزمها كل مسلم بمقتضى تلك العَلاقة، ويُكَلَّفُ بها على أنها دَيْنٌ يُحَاسَبُ عليه، وأمانة لا بُدَّ من أدائها، فقال النبي ﷺ يُوَضِّح ذلك: «لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا؛ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ... بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[(٤)].

ففي قوله ﷺ: «وَلاَ يَخْذُلُهُ». قال العلماء: الخذل ترك الإعانة والنصر، ومعناه: إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه، ولم يكن له عذر شرعي[(٥)].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». فقال رجلٌ: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا، كيف أنصره؟ قال: «تَحْجُزُهُ أَوْ

---

(١) (الحجرات: ١٢).

(٢) أبو داود: كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، وأحمد (٢٧٥٤٨) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وابن حبان (٥٠٩٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٢٥٩٥).

(٣) البخاري عن أم كلثوم بنت عقبة: كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس (٢٥٤٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه (٢٦٠٥).

(٤) مسلم عن أبي هريرة: كتاب الصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧١٣)، والبيهقي: السنن الكبرى (١١٨٣٠).

(٥) النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٦/ ١٢٠.

تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْـمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»[١].

فهل نرى مجتمعًا إنسانيًّا يقوى على أن يُلْزِمَ كلَّ فرد فيه بأن يسعى في حاجة أخيه، وأن ينصره مظلومًا، ويَرُدَّه عن ظلمه إن كان ظالمًا؟!

إنه فقط في المجتمع الإسلامي؛ حيث هذه الدرجة العالية من الأخوة وتَوَحُّد الإحساس، فيعمل كل فرد على تفريج ضوائق أخيه وحلِّ مشكلاته، ويقف منه موقف العون والمساندة، لا موقف التحاسد والتباغض، ويكون ملتزمًا بالإيجابية، وعلى هذا تكون المؤاخاة أساسَ وعنوانَ بناء وتماسُكِ المجتمع الإسلامي.

* * *

(١) البخاري: كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٥٥٢)، والترمذي (٢٢٥٥)، وأحمد (١١٩٦٧)، والدارمي (٢٧٥٣).

المبحث الثاني
التكافل

تفرض شريعة الإسلام على أتباعها المسلمين أن يَسُود بينهم التعاون والتكافل والتآزر في المشاعر والأحاسيس، فضلاً عن التكافل في الحاجات والمادِّيات، ومن ثَمَّ كانوا بهذا الدين كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا، كما روى أبو موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»[١]. أو كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، كما قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[٢].

ومن ثَمَّ فإن التكافل الاجتماعي في الإسلام ليس مقصورًا على النفع المادِّي، وإن كان ذلك ركنًا أساسيًّا فيه، بل يتجاوزه إلى جميع حاجات المجتمع، أفرادًا وجماعات؛ مادِّيَّةً كانت تلك الحاجة أو معنوية أو فكرية، على أوسع مدًى لهذه المفاهيم؛ فهي بذلك تتضمن جميع الحقوق الأساسية للأفراد والجماعات داخل الأُمَّة.

وتعاليم الإسلام كلها تؤكِّد التكافل بمفهومه الشامل بين المسلمين؛ ولذلك تجد المجتمع الإسلامي لا يَعْرِف فردية أو أنانية أو سلبية، وإنما يعرف إخاءً صادقًا، وعطاء كريمًا، وتعاونًا على البرِّ والتقوى دائمًا[٣].

والتكافل الاجتماعي في الإسلام ليس معنيًّا به المسلمين المنتمين إلى الأُمَّة المسلمة فقط، بل يشمل كل بني الإنسان على اختلاف مللهم واعتقاداتهم داخل ذلك المجتمع؛ كما قال الله تعالى: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ**

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا (٥٦٨٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٥).

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٦٥).

(٣) انظر: محمد الدسوقي: الوقف ودوره في تنمية المجتمع الإسلامي، سلسلة قضايا إسلامية، العدد (٤٦)، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القسم الأول ص٥.

﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[(١)]؛ ذلك أن أساس التكافل هو كرامة الإنسان؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[(٢)].

ومن تلك الآيات الجامعة في سياق التكافل والترابط بين أفراد المجتمع الإسلامي قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[(٣)]. قال القرطبي[(٤)]: «هو أَمْرٌ لجميع الخَلْقِ بالتعاون على البِرِّ والتقوى، أي لِيُعِن بعضكم بعضًا»[(٥)]. وقال الماوردي[(٦)]: «ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبِرِّ وقَرَنَه بالتقوى له؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البرِّ رضا الناس، ومَنْ جَمَعَ بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمَّت سعادته وعمَّت نعمته»[(٧)].

وقد ذَكَرَ القرآنُ الكريم صراحة أنَّ في أموال الأغنياء حقًّا محدَّدًا يُعْطَى للمحتاجين؛ فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[(٨)]، ولقد تولَّى الشارع بنفسه تحديد هذا الحقِّ وبيانه، ولم يترك ذلك لجُود الموسرين، وكرم المحسنين، ومدى ما تنطوي عليه نفوسهم من رحمة، وما تحمله قلوبهم من رغبةٍ في البرِّ والإحسان، وحُبِّ فعل الخير[(٩)].

وهؤلاء المُحتاجون قد حدَّدتهم الآيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[(١٠)].

---

(١) (الممتحنة: ٨).
(٢) (الإسراء: ٧٠).
(٣) (المائدة: ٢).
(٤) القرطبي: (ت ٦٧١ هـ/ ١٢٧٣م) محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، من كبار المفسرين، وهو صاحب التفسير المشهور (الجامع لأحكام القرآن). مات بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى في مصر (شمال أسيوط). انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣٢٢.
(٥) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٦، ٤٧.
(٦) الماوردي: (٣٦٤-٤٥٠ هـ/ ٩٧٤-١٠٥٨ م) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، أقضى القضاة، كان إمامًا في الفقه والأصول والتفسير، ولي قضاء بلاد كثيرة. من مؤلفاته: «أدب الدنيا والدين»، و«الأحكام السلطانية». انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٦٥، والزركلي: الأعلام ٤/ ٣٢٧.
(٧) انظر: الماوردي: أدب الدنيا والدين ص١٩٦، ١٩٧.
(٨) (المعارج: ٢٤، ٢٥).
(٩) حسين حامد حسان: التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية ص٨.
(١٠) (التوبة: ٦٠).

ومن هنا تأتي أهمية الزكاة من حيث شمولها لمعظم أفراد المجتمع، وباعتبارها المنبع الأساسي الأوَّل لتغطية جانب التكافل والتعاون؛ فهي الفريضة الثالثة من فرائض الإسلام، ولا يُقبَل الإسلام بدونها، والزكاة تُطَهِّرُ نفس صاحبها وتزكِّيه؛ فهي منفعة له قبل أن تكون منفعةً لمن تُنفَق عليه، قال الله ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[1]. وما مِن شَكٍّ أن الزكاة كما تَنْزِع من نفس المزكِّي الحرصَ والبُخلَ والشُّحَّ؛ تَنْزِعُ كذلك من نفس الفقير والمحتاج والمستحقِّ للزكاة الحقدَ والضغينةَ والبُغْضَ للأغنياء وأصحاب الثراء، وتُوجِدُ جَوًّا من الألفة والمحبَّة والتعاون والتراحم بين أفراد المجتمع الذي تُؤدَّى فيه هذه الفريضة العظيمة.

والشرع يُجِيزُ لِوَلِيِّ الأمر أن يأخذ من أموال الأغنياء ما يكفي حاجات الفقراء، كلٌّ بحسب قدرته المالية، ولا يجوز في مجتمع مسلم أن يبيت بعضهم شبعان ممتلئ البطن، وجاره إلى جنبه جائع، فعلى المجتمع ككل أن يُشَارِك بعضه بعضًا في الكفاف، كما قال الرسول ﷺ: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»[2]. وقد قال الإمام ابن حزم[3] في ذلك: «وفرض على الأغنياء من أهل كلِّ بلدٍ أن يقوموا بفقرائهم، ويُجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تَقُم الزكوات بهم، ولا في سائر أموال المسلمين، فيُقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بُدَّ منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنُّهم من المطر، والصيف والشمس، وعيون المارَّة»[4].

ونظرة الإسلام للتكافل الماديِّ لا تتوقَّف بتوفير حدِّ الكفاف للمحتاجين، ولكنها تَعَدَّت ذلك إلى تحقيق حدِّ الكفاية، وهذا ما ظهر في قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: «كرِّروا عليهم الصدقة، وإن راح على أحدهم مائة من الإبل»[5].

---

(١) (التوبة: ١٠٣).

(٢) الحاكم (٧٣٠٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والطبراني عن أنس بن مالك: المعجم الكبير (٧٥٠) واللفظ له، والبيهقي: شعب الإيمان (٣٢٣٨)، والبخاري: الأدب المفرد (١١٢)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٩).

(٣) ابن حزم الأندلسي: هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري (٣٨٤- ٤٥٦هـ/ ٩٩٤- ١٠٦٤م) أحد أئمة الإسلام، كان عالمًا بالفقه ملمًّا به، وهو من أتباع داود الظاهري يأخذ بظواهر النصوص. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٠/ ٩٣.

(٤) ابن حزم: المحلى ٦/ ٤٥٢، المسألة (٧٢٥).

(٥) المصدر السابق نفسه.

ومن الأحاديث النبوية التي تُوَضِّح فضل التكافل في المجتمع المسلم والحثّ عليه، ومكانة ذلك في الإسلام ما رواه أبو موسى الأشعري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا**[١] **فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ**»[٢]. قال ابن حجر في الفتح: أي هم مُتَّصِلُون بي[٣]. وذلك غاية الشرف للمسلم.

كما كان منها - أيضًا - ما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٤].

قال النووي رحمه الله: «في هذا فضل إعانة المسلم وتفريج الكرب عنه وستر زَلاَّته، ويدخل في كشف الكربة وتفريجها مَنْ أزالها بماله أو جاهه أو مساعدته، والظاهر أنه يدخل فيه مَنْ أزالها بإشارته ورأيه ودلالته»[٥]. وهذا هو معنى التكافل في المجتمع المسلم.

فهو يعني أن يكون آحاد الشعب في كفالة جماعتهم، وأن يكون كلّ قادر أو ذي سلطان كفيلاً في مجتمعه يُمِدُّه بالخير، وأن تكون كل القوى الإنسانية في المجتمع متلاقية في المحافظة على مصالح الآحاد، ودفع الأضرار، ثم في المحافظة على دفع الأضرار عن البناء الاجتماعي وإقامته على أسس سليمة[٦]. كما يعني أن يعيش الناس بعضهم مع بعض في حالة تعاضد وترابط بين الأفراد والجماعة، وبين كل إنسان مع أخيه الإنسان[٧].

---

(١) أرملوا: أي: فني زادهم، وأصله من الرَّمْل كأنهم لصقوا بالرمل من القلَّة. انظر ابن حجر: فتح الباري ٥/ ١٣٠.

(٢) البخاري: كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض (٢٣٥٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين ﷺ (٢٥٠٠).

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٥/ ١٣٠.

(٤) البخاري: كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه (٢٣١٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨٠).

(٥) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم ١٦/ ١٣٥.

(٦) محمد أبو زهرة: التكافل الاجتماعي في الإسلام ص٧.

(٧) عبد العال أحمد عبد العال: التكافل الاجتماعي في الإسلام ص١٣.

هذا، وقد عدَّ الرسول ﷺ مساعدة المحتاجين والشعور بالمسئوليَّة تجاه أفراد المجتمع الذي نعيش فيه من أنواع الصدقات على النفس، فروى أبو ذرٍّ ﷺ: «عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ صَدَقَةٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ». قلت: يا رسول الله، من أين أتصدَّق وليس لنا أموالٌ؟ قال: «لأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ... تَهْدِي الأَعْمَى، وَتُسْمِعُ الأَصَمَّ وَالأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهَ، وَتُدِلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ...»[1]!

وإن مثل هذه القيم لتُعَدُّ عَلامات حضاريَّة بارزة سبق بها الإسلام كُلَّ النُّظُمِ والقوانين التي أَوْلَت هذا الأمر اهتمامًا بعد ذلك؛ فمَنْ كان يَسْمَع عن هداية الأعمى، وإسماع الأصمِّ والأبكم؟!

وقد حذَّر الرسول ﷺ من تقصير القادرين في قضاء حوائج الناس، فقد قال عمرو ابن مرة لمعاوية: إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ إِمَامٍ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْخَلَّةِ[2] وَالْمَسْكَنَةِ إِلاَّ أَغْلَقَ اللهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِهِ وَحَاجَتِهِ وَمَسْكَنَتِهِ»[3]. قال: فجعل معاوية رجلاً على حوائج النَّاس.

وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة الأنصاري رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ؛ إِلاَّ خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِن امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ؛ إِلاَّ نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»[4].

وفي تأصيل ذلك من أقوال الفقهاء المسلمين ما يدعو إلى العجب؛ فإنهم قد شرعوا أنه يَجِبُ على كل مسلم محاولة دفع الضرر عن غيره، فيجب قطع الصلاة لإغاثة ملهوف

---

(١) رواه أحمد (٢١٥٢٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وابن حبان (٣٣٧٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٦١٨)، والنسائي: السنن الكبرى (٩٠٢٧)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٤٠٣٨).

(٢) الخَلَّة: هي الحاجة والفقر.

(٣) الترمذي (١٣٣٢)، وأحمد (١٨٠٦٢)، وأبو يعلى (١٥٦٥)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٥٦٨٥).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤٧٣٥)، والأوسط (٨٦٤٢)، وأبو داود (٤٨٨٤)، وأحمد (١٦٤١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٦٣٢)، وحسنه الألباني، انظر صحيح الجامع (٥٦٩٠)، والجامع الصغير وزيادته (١٠٦٢٧).

وغريق وحريق، فيُنقِذه من كلِّ ما يُعرِّضه للهلاك، فإن كان الشخص قادرًا على ذلك دون غيره فُرِضَتْ عليه الإغاثة فَرْض عَيْنٍ، أمَّا إذا كان هناك مَن يقدر على ذلك، كان ذلك عليه فرض كفاية، وهذا لا خلاف فيه بين الفقهاء[١].

وعلى هذا فالتكافل دِعَامَة أساسية من دعائم المجتمع الإسلامي، وهو يشمل صورًا كثيرة من التعاون والتآزر والمشاركة في سدِّ الثغرات؛ تتمثَّل بتقديم العون والحماية والنصرة والمواساة، وذلك إلى أن تُقضى حاجة المضطر، ويزول هَمُّ الحزين، ويندمل جرحُ المصاب، ويبرأ الجسدُ كاملاً من الآلام والأسقام.

* * *

(١) الشربيني الخطيب: مغني المحتاج ٤/ ٥، وابن قدامة: المغني ٧/ ٥١٥، ٨/ ٢٠٢.

المبحث الثالث

العدل

يُعَدُّ العدل من القيم الإنسانية الأساسية التي جاء بها الإسلام، وجعلها من مُقَوِّمَاتِ الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية، حتى جعل القرآنُ إقامةَ القسط - أي العدل - بين الناس هو هدف الرسالات السماوية كلها، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1]، وليس ثمة تنويه بقيمة القسط أو العدل أعظم من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الله تعالى رُسُله، وإنزاله كتبه؛ فبالعدل أُنْزِلَتِ الكتب، وبُعِثَتِ الرسل، وبالعدل قامت السموات والأرض[2].

وفي تقرير واضح وصريح لإحقاق العدل وتطبيقه ولو كُنَّا مبغضين لمن نَحْكُم فيهم، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[3]، ويقول أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4]، قال ابن كثير[5]: «أي لا يحملنَّكم بُغْض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كُلِّ أَحَدٍ؛ صديقًا كان أو عدوًّا»[6].

فالعدل في الإسلام لا يتأثَّر بحُبٍّ أو بُغْضٍ، فلا يُفَرِّقُ بين حَسَب ونَسَب، ولا بين جاهٍ ومالٍ، كما لا يُفَرِّقُ بين مسلم وغير مسلم، بل يتمتَّعُ به جميعُ المقيمين على أرضه من المسلمين وغير المسلمين، مهما كان بين هؤلاء وأولئك من مودَّة أو شنآنٍ.

ولَمَّا حاول أسامة بن زيد أن يتوسَّط لامرأة من قبيلة بني مخزوم ذات نسب؛ كي لا

---

(١) (الحديد: ٢٥).

(٢) يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص١٣٣.

(٣) (النساء: ١٣٥).

(٤) (المائدة: ٨).

(٥) ابن كثير: هو أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٠١- ٧٧٤هـ/ ١٣٠٢- ١٣٧٣م) حافظ، مؤرخ، فقيه، ولد في قرية من أعمال بُصرى الشام، وتوفي بدمشق، من كتبه: «البداية والنهاية». انظر: الحسيني: ذيل تذكرة الحفاظ ص٥٧، ٥٨.

(٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٣.

تُقطَعَ يَدُها في جريمة سرقة، ما كان من رسول الله ﷺ إلاَّ أن غضب غضبًا شديدًا، ثم خطب خطبة بليغة أوضح فيها منهج الإسلام وعدله، وكيف أنه سوَّى بين كل أفراد المجتمع رؤساء ومرءوسين، فكان ممَّا قاله في هذه الخطبة: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[١].

وقد روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال: أفاء الله ﷻ خيبر على رسول الله ﷺ، فأقرَّهم رسول الله ﷺ كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم؛ فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها[٢] عليهم، ثم قال لهم: «يا معشر اليهود، أنتم أبغض الخَلْقِ إليَّ، قتلتم أنبياء الله ﷻ، وَكَذَبْتُمْ على الله، وليس يحملني بغضي إيَّاكم على أن أحيف عليكم؛ قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم فلكم،وإن أبيتم فَلِي».فقالوا:بهذا قامت السموات والأرض، قد أخذنا[٣].

فرغم بُغض عبد الله بن رواحة ﷺ لليهود إلاَّ أنه لم يظلمهم، بل أعلنها لهم صريحة أنه لا يحيف عليهم، وما شاءوا أَخْذَهُ من أي القسمين من التمر فليأخذوه.

وهذا هو العدل في الإسلام، الذي هو ميزان الله على الأرض، به يؤخَذُ للضعيف حَقُّه، ويُنْصَفُ المظلومُ ممن ظلمه، ويُمَكَّن صاحب الحقِّ من الوصول إلى حَقِّه من أقرب الطرق وأيسرها، وهو واحد من القيم التي تنبثق من عقيدة الإسلام في مجتمعه؛ فلجميع الناس في مجتمع الإسلام حَقُّ العدالة وحقُّ الاطمئنان إليها.

وإذا كان الإسلام قد أَمَرَ بالعدل مع الناس - كُلِّ الناسِ كما رأينا في الآيات الأُوَلِ - العدل الذي لا يَعْرِفُ العاطفة؛ فلا يتأَثَّرُ بحُبٍّ أو بُغْضٍ، فإنه قد أمر بالعدل ابتداءً من

---

(١) البخاري: كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٨٨)، ومسلم: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (١٦٨٨).

(٢) خَرَصَ: أي قَدَّر وحزَّر ما على النخيل من الثمار تخمينًا، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٤/ ٣٤٤، وابن منظور: لسان العرب، مادة خرص ٧/ ٢١.

(٣) مسند أحمد (١٤٩٩٦)، وابن حبان (٥١٩٩) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والبيهقي: السنن الكبرى (٧٢٣٠)، والطحاوي: شرح معاني الآثار (٢٨٥٦)، وعبد الرزاق: المصنف (٧٢٠٢)، وصححه الألباني، انظر: غاية المرام (٤٥٩).

النفس، وذلك حين أمر المسلم بالموازنة بين حقِّ نفسه وحقِّ ربِّه وحقوق غيره، ويظهر ذلك حين صدَّق رسول الله ﷺ سلمان الفارسي لَمَّا قال لأخيه أبي الدرداء الذي جار على حقِّ زوجته بِتَرْكِها، ومداومة صيام النهار، وقيام الليل: «**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا؛ فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»(١).

وأَمَرَ الإسلامُ كذلك بالعدل في القول، فقال تعالى: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾(٢)، كما أمر بالعدل في الحكم، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾(٣)، كما أمر بالعدل في الصُّلح، فقال تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾(٤).

وبقدر ما أَمَرَ الإسلامُ بالعدل وحثَّ عليه، حَرَّمَ الظلم أشدَّ التحريم، وقاومه أشدَّ المقاومة، سواء ظُلْم النفس أم ظُلْم الآخرين، وبخاصة ظُلْم الأقوياء للضعفاء، وظُلْم الأغنياء للفقراء، وظُلْم الحُكَّام للمحكومين، وكلَّما اشتدَّ ضعف الإنسان كان ظلمه أشدَّ إثمًا(٥)؛ ففي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا**»(٦). ويقول الرسول ﷺ لمعاذ: «**... وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»(٧). وقال: «**ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الْغَمَامِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»(٨). وهكذا هو العدل.. ميزان السماء في مجتمع الإسلام.

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له (١٨٣٢)، والترمذي (٢٤١٣).

(٢) (الأنعام: ١٥٢).

(٣) (النساء: ٥٨).

(٤) (الحجرات: ٩).

(٥) انظر: يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص١٣٥.

(٦) مسلم من حديث أبي ذر ﷺ: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٥٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠)، وابن حبان (٦١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠٨٨)، والسنن الكبرى (١١٢٨٣).

(٧) البخاري: كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (٤٠٠٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (٢٧).

(٨) الترمذي: كتاب الدعوات، باب في العفو والعافية (٣٥٩٨) وقال: هذا حديث حسن. وابن ماجه (١٧٥٢)، وأحمد (٨٠٣٠) وقال شعيب الأرناءوط: صحيح بطرقه وشواهده.

المبحث الرابع

الرحمـــــــة

إن أول ما يلفت الأنظار في كتاب الله ﷻ - وهو دستور المسلمين، وأهم مصادر التشريع - أن كل السور فيه - باستثناء سورة التوبة - قد صُدِّرت بالبسملة، وأُلحِق بالبسملة صفتا الرحمن الرحيم.. وليس يخفى على أحد أن تصدير كل السور بهاتين الصفتين أمر له دلالته الواضحة على أهمية الرحمة في التشريع الإسلامي، ولا يخفى على أحدٍ أيضًا التقارب في المعنى بين الرحمن والرحيم، والعلماء لهم تفصيلات كثيرة وآراء متعددة في الفرق بين اللفظين(١)، وكان من الممكن أن يجمع الله ﷻ مع صفة الرحمة صفة أخرى من صفاته، كالعظيم أو الحكيم أو السميع أو البصير، وكان من الممكن أن يجمع مع الرحمة صفة أخرى تحمل معنى آخر يُحقِّق توازنًا عند القارئ؛ بحيث لا تطغى عنده صفة الرحمة؛ وذلك مثل: الجبار أو المنتقم أو القهار، ولكن الجمع بين هاتين الصفتين المتقاربتين في بداية كل سور القرآن الكريم يعطي الانطباع الواضح جدًّا، وهو أن الرحمة مُقدَّمَة بلا منازع على كل الصفات الأخرى، وأن التعامل بالرحمة هو الأصل الذي لا ينهار أبدًا، ولا يتداعى أمام غيره من الأصول.

ويُؤَكِّد هذا المعنى ويُظهره أنَّ أول السور التي نراها في ترتيب القرآن الكريم(٢)، وهي الفاتحة، قد افتُتِحت بالبسملة - وفيها صفتا الرحمن الرحيم - كبقية السور، ثم نجد فيها صفتي الرحمن الرحيم قد تكرَّرَتا في السورة ذاتها، وهذا التصدير للقرآن الكريم بهذه السورة بالذات له دلالته الواضحة أيضًا، وكما هو معلوم فسورة الفاتحة هي السورة التي يجب على المسلم أن يقرأها في كل ركعة من ركعات صلاته كل يوم، ومعنى ذلك أن المسلم يُرَدِّدُ لفظ الرحمن مرتين على الأقل، ويُرَدِّدُ لفظ الرحيم مرتين على الأقل، فهذه أربع مرات يتذكَّر فيها العبد رحمة الله ﷻ في كل ركعة من ركعات الصلاة، وهذا يعني

---

(١) ابن حجر: فتح الباري، ١٣/ ٣٥٨، ٣٥٩.

(٢) ترتيب سور القرآن الكريم توقيفي، بمعنى أن الله ﷻ أوحى لرسوله ﷺ أن يرتب القرآن هذا الترتيب الذي بين أيدينا اليوم، مع أن الآيات والسور نزلت بترتيب مختلف. انظر: أبو عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٦٠.

ترديد صفة الرحمة في كل يوم ثمانٍ وستين مرة في خلال سبع عشرة ركعة تمثِّل الفروض التي على المسلم؛ مما يُعْطِي تصوُّرًا جيدًا لمدى الاحتفال بهذه الصفة الجليلة: صفة الرحمة.

وإن هذا يُفَسِّر لنا الكثير من الأحاديث التي ذكرها الرسول ﷺ، والتي تصف رحمة ربِّ العالمين، ومنها ما يرويه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ**»[١].

وهذا إعلانٌ واضح على أن الرحمة مقدمة على الغضب، وأن الرفق مُقَدَّم على الشدَّة.

وإضافة إلى ذلك كله فإن الله ﷻ قد بعث رسول الإسلام ﷺ رحمة للإنسانية ورحمة للعالمين، فقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[٢]، وقد أوضح ذلك في شخصه ﷺ وفي تعاملاته مع أصحابه وأعدائه على السواء؛ حتى إنه ﷺ قال محفِّزًا ومرغِّبًا على التَّخَلُّقِ بهذا الخُلُقِ وتلك القيمة النبيلة: «**لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ**»[٣]. وكلمة الناس لفظة عامَّة تشمل كُلَّ أَحَدٍ، دون اعتبارٍ لجنس أو دين، وفي ذلك قال العلماء: هذا عامٌّ يتناول رحمة الأطفال وغيرهم[٤]. وقال ابن بطال[٥]: «فيه الحضُّ على استعمال الرحمة لجميع الخَلْقِ؛ فيدخل المؤمن والكافر والبهائم؛ المملوك منها وغير المملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدِّي بالضرب»[٦].

وقد أقسم الرسول ﷺ في حديث آخر قائلاً: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَضَعُ اللهُ رَحْمَتَهُ إِلاَّ عَلَى رَحِيمٍ**». قالوا: يا رسول الله، كلنا يرحم. قال: «**لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ؛ يَرْحَمُ النَّاسَ كَافَّةً**»[٧]. فالمسلم يرحم الناس كافَّة، أطفالاً ونساءً وشيوخًا، مسلمين وغير مسلمين.

---

(١) البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١، ٢٢) (٧١١٥)، واللفظ له، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى (٢٧٥١)، وفي رواية غلبت بدلاً من سبقت، البخاري: كتاب بدء الخلق (٣٠٢٢).

(٢) (الأنبياء: ١٠٧).

(٣) البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٦٩٤١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٩).

(٤) النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/ ٧٧.

(٥) ابن بطال: هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، ويعرف أيضًا بابن اللجام، كان من أهل العلم والمعرفة والفهم، مليح الخط، حسن الضبط. شرح صحيح البخاري في عدَّة مجلدات، وتوفي سنة (٤٤٩هـ). انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٨٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٧.

(٦) المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦/ ٤٢.

(٧) مسند أبي يعلى (٤٢٥٨)، والبيهقي: شعب الإيمان (١١٠٦٠)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٦٧).

وقال أيضًا ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[١]. وكلمة «مَنْ» تشمل كل مَن في الأرض.

وهكذا هي الرحمة في مجتمع المسلمين، تلك القيمة الأخلاقية العملية التي تُعَبِّرُ عن تعاطف الإنسان مع أخيه الإنسان، بل هي رحمة تتجاوز الإنسان بمختلف أجناسه وأديانه إلى الحيوان الأعجم، إلى الدواب والأنعام، وإلى الطير والحشرات!

فقد أعلن النبي ﷺ أن امرأة دخلت النار لأنها قَسَتْ على هِرَّةٍ ولم ترحمها، فقال ﷺ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا؛ فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»[٢].

كما أعلن ﷺ أن الله ﷻ غفر لرجل رحم كلبًا فسقاه من العطش، فقال ﷺ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ؛ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي. فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ». قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[٣].

بل إن الرسول ﷺ أعلن لأصحابه أن الجنة فَتَحَتْ أبوابها لزانية تحرَّكَتِ الرحمة في قلبها نحو كلب! فقال ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ[٤] بِرَكِيَّةٍ[٥] كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ[٦] مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا[٧]، فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[٨].

---

(١) الترمذي عن عبد الله بن عمرو: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين (١٩٢٤)، وأحمد (٦٤٩٤)، والحاكم (٧٢٧٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٣٥٢٢).

(٢) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣١٤٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٦١٩).

(٣) البخاري: كتاب المساقاة والشرب، باب فضل سقي الماء (٢٢٣٤)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٤).

(٤) يُطيف: يدور، طاف بالمكان وأطافَ به استدار وجاء من نواحيه وحامَ حَوْله، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة طوف ٩/ ٢٢٥.

(٥) رَكِيَّة: البئر مطوية أو غير مطوية، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ركا ١٤/ ٣٣٣.

(٦) بَغِيّ: الزانية، وتطلق على الأَمَةِ مطلقًا، لأن الإماء كنَّ يَفْجُرْنَ، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بغا ١٤/ ٧٥.

(٧) المُوقُ: الذي يُلبس فوق الخف، وهي كلمة فارسية معربة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة موق ١٠/ ٣٥٠.

(٨) البخاري: كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (٣٢٨٠)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥).

وإن المرء ليدهش: وما كلب ارتوى إلى جانب جريمة زنا؟! لكن الحقيقة تكمن فيما وراء الفعل، وهي الرحمة التي في قلب الإنسان، والتي على ضوئها تأتي أفعاله وأعماله، ومدى أثرِ وقيمةِ ذلك في المجتمع الإنساني بصفة عامَّة.

وممَّا جاء به الإسلام من الرحمة كذلك دعوته إلى رحمة الحيوان الأعجم من أن يُجوَّع أو يُحمَّل فوق طاقته! فقد قال ﷺ في رحمة بالغة حين مَرَّ على بعير قد لحقه الهزال: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ... فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً**»(١).

وقال رجل: يا رسول الله، إنِّي لأرحم الشَّاة أن أذبحها. فقال: «**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ**»(٢).

ويتجاوز الإسلام الرحمة بالبهائم إلى الرحمة بالطيور الصغيرة التي لا ينتفع بها الإنسان كنفعه بالبهائم، فتراه ﷺ يقول في عصفور: «**مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللهِ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فُلاَنًا قَتَلَنِي عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ**»(٣)!

ويروي المؤرخون أن عمرو بن العاص في فتح مصر نزلت حمامة بفسطاطه (خيمته) فاتخذت من أعلاه عُشًّا، وحين أراد عمرو الرحيل رآها، فلم يشأ أن يهيجها بتقويضه، فتركه وتكاثر العمران من حوله، فكانت مدينة (الفسطاط).

كما يروي ابن عبد الحكم(٤) في سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أنه نهى عن ركض الفرس إلاَّ لحاجة، وأنه كتب إلى صاحب السِّكَكِ أن لا يحملوا أحدًا بلجام ثقيل، ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة. وكتب إلى واليه بمصر: أنه بلغني أن بمصر إبلاً نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرفن أنه يحمل على

---

(١) أبو داود: كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٤٨)، وأحمد (١٧٦٦٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. وابن حبان (٥٤٦)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣).

(٢) أحمد (١٥٦٣٠)، والحاكم (٧٥٦٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والطبراني: المعجم الكبير (١٥٧١٦). وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٤).

(٣) النسائي عن الشريد بن سويد (٤٤٤٦)، وأحمد (١٩٤٨٨)، وابن حبان (٥٩٩٣)، والطبراني: المعجم الكبير ٦/ ٤٧٩، وقال الشوكاني: هو حديث مروي من طرق قد صحح الأئمة بعضها. انظر: الشوكاني: السيل الجرار ٤/ ٣٨٠.

(٤) ابن عبد الحكم: (١٨٧هـ - ٢٥٧هـ) محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم، مؤرخ وفقيه مالكي. مصري المولد والوفاة. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٨٢.

البعير أكثر من ستمائة رطل[١].

وهكذا هي الرحمة في المجتمع الإسلامي.. حيث تمكَّنت من قلوب أفراده وبنيه، فتراهم يَرِقُّوَن للضعيف، ويألمون للحزين، ويَحِنُّونَ على المريض، ويَئِنُّونَ للمحتاج، وإن كان حيوانًا أعجمًا.. وبهذه القلوب الحيَّة الرحيمة يصفو المجتمع، ويَنْبُو عن الجريمة، ويُصبح مَصْدَرَ خيرٍ وبِرٍّ وسلام لِمَا حوله ومَنْ حوله.

* * *

(١) انظر: محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ١/ ١٤١.

الفصل الخامس

المسلمون والعلاقات الدولية

لم تقتصر الأنظمة في الحضارة الإسلامية على معالجة شئون المسلمين وشئون غير المسلمين في الدولة الإسلامية فقط، وإنما اهتمَّت -كذلك- بتنظيم عَلاقة المسلمين بغيرهم من الشعوب والدول الأخرى، وقد كان لها في ذلك أسس ومبادئ لما يجب أن تكون عليه هذه العَلاقات، وذلك حالَ السِّلْمِ والحرب على السواء، تلك الحالات التي تَتَجَلَّى فيها عظمة الحضارة الإسلامية، وتعلو إنسانيتها خَفَّاقة.

ونستطيع أن نتلمَّس بعضًا من ذلك من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: السلام الأصل في الإسلام
- المبحث الثاني: المعاهدات مع غير المسلمين
- المبحث الثالث: أسباب وأهداف الحرب في الإسلام
- المبحث الرابع: أخلاقيات الحرب في الإسلام

***

المبحث الأول

السلام الأصل في الإسلام

السلام هو حقًّا الأصل في الإسلام، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين به المصدِّقين برسوله قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1]، والسلم هنا هو الإسلام[2]، وقد عبَّر عن الإسلام بالسلم لأنه سلام للإنسان؛ سلامٌ له في نفسه، وفي بيته، وفي مجتمعه، ومع من حوله؛ فهو دين السلام.

ولا غَرْوَ حين نجد أن كلمة الإسلام مُشْتَقَّة من (السلم)، وأن السلام من أَبْرَزِ المبادئ الإسلامية، إن لم يكن أبرزها على الإطلاق، بل من الممكن أن يرقى ليكون مُرَادِفًا لاسم الإسلام نفسه؛ باعتبار أصل المادَّة اللغوية[3].

فالسلم في الإسلام هو الحالة الأصلية التي تُهَيِّئُ للتعاون والتعارف وإشاعة الخير بين الناس عامَّة، وإذا احتفظ غير المسلمين بحالة السلم، فهم والمسلمون في نظر الإسلام إخوان في الإنسانية[4]، فالأمان ثابتٌ بين المسلمين وغيرهم، لا ببذل أو عقد، وإنما هو ثابت على أساس أن الأصل السلم، ولم يطرأ ما يهدم هذا الأساس من عدوان على المسلمين[5].

ومن الواجب على المسلمين حينذاك أن يُقيموا عَلاقات المودَّة والمحبَّة مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى والشعوب غير المسلمة؛ نزولاً عند هذه الأُخُوَّة الإنسانية، وانطلاقًا من الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[6]، فتعَدُّد هذه الشعوب ليس للخصومة والهدم؛ وإنما هو مَدْعَاة للتعارف والتوادِّ والتحابِّ[7].

---

(١) (البقرة: ٢٠٨).
(٢) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٦٥.
(٣) انظر: محمد الصادق عفيفي: الإسلام والعلاقات الدولية ص١٠٦، وظافر القاسمي: الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام ص١٥١.
(٤) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة ص٤٥٣.
(٥) انظر: صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ص٥٢٠.
(٦) (الحجرات: ١٣).
(٧) جاد الحق: مجلة الأزهر ص٨١٠ ديسمبر ١٩٩٣م.

ويشهد لهذا الاتجاه العديدُ من الآيات القرآنية التي أَمَرَتْ بالسّلْم مع غير المسلمين إنْ أَبْدَوْا الاستعداد والميل للصُّلْحِ والسلام؛ فيقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[1]، وهذه الآية الكريمة تُبَرْهِنُ بشكل قاطع على حُبِّ المسلمين وإيثارهم لجانب السّلْم على الحرب، فمتى مال الأعداء إلى السّلْمِ رَضِيَ المسلمون به، ما لم يكن من وراء هذا الأمر ضياعُ حقوقٍ للمسلمين أو سلبٍ لإرادتهم.

قال السُّدِّي[2] وابن زيد[3]: معنى الآية: إن دَعَوْكَ إلى الصلح فأجبهم[4]. والآية التالية لهذه الآية تُؤَكِّد حرص الإسلام على تحقيق السلام، حتى لو أظهر الأعداء السلم وأبطنوا الخيانة، يقول تعالى يخاطب رسوله الكريم: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، أي أن الله يتولَّى كفايتك وحياطتك[6].

وقد كان الرسول ﷺ يعتبر السلام من الأمور التي على المسلم أن يحرص عليها ويسأل الله أن يرزقه إيَّاها، فكان يقول ﷺ في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ..»[7]. بل خطب ذات يوم في الصحابة قائلاً: "لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا"[8]. كما كان ﷺ يكره كلمة حرب، فقال: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ: عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا: حَرْبٌ وَمُرَّةُ»[9].

---

(١) (الأنفال: ٦١).

(٢) السدي: هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي (ت ١٢٨هـ/ ٧٤٥م) تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة، قال فيه ابن تغري بردي: «صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إمامًا عارفًا بالوقائع وأيام الناس». انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١/ ٣٩٠.

(٣) ابن زيد: هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت نحو ١٧٠هـ/ ٧٨٦م) فقيه، محدث، مفسر، له من الكتب: «الناسخ والمنسوخ»، و«التفسير». توفي في أول خلافة هارون الرشيد. انظر: ابن النديم: الفهرست ١/ ٣١٥.

(٤) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٩٨، ٣٩٩.

(٥) (الأنفال: ٦٢).

(٦) راجع في هذا المعنى القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٠٠.

(٧) أبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وأحمد (٤٧٨٥) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات. وابن حبان (٩٦١)، ورواه البخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠)، والطبراني في الكبير (١٣٢٩٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٤٠١)، وصححه الألباني، انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود (٥٠٧٤).

(٨) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر... (٢٨٠٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢).

(٩) أبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء (٤٩٥٠)، والنسائي (٣٥٦٨)، وأحمد (١٩٠٥٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٨١٤)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٤٠).

المبحث الثاني

المعاهدات مع غير المسلمين

من منطلق السلم والسلام كانت معاهدات المسلمين مع غيرهم، والتي بها ومن خلالها يصير الفريقان - المسلمون مع غيرهم - في مرحلة سلم، أو مهادنة وموادعة.

«وإذا كان الأصل في العَلاقة هو السلم، فالمعاهدات تكون إمَّا لإنهاء حربٍ عارضة والعود إلى حال السلم الدائم، أو أنها تقرير للسلم وتثبيت لدعائمه؛ لكيلا يكون من بعد ذلك العهد احتمال اعتداء، إلاَّ أن يكون نقضًا للعهد»[١].

وعبر عصور طويلة مارست الدول الإسلامية توقيع الاتفاقيات والمعاهدات مع الدول غير الإسلامية، وتضمنت تلك الاتفاقيات التزامات وقواعد وشروطًا ومبادئ عديدة، بشكل يُمَثِّل تَطَوُّرًا في القانون الدولي الإسلامي.

والمعاهدات هي تلك الاتفاقات أو العهود أو المواثيق التي تعقدها الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول في حالتي السلم والحرب، وتُسَمَّى المعاهدة في الحالة الأخيرة موادعة أو مصالحة أو مسالمة، ويُقَرَّرُ بمقتضاها الصلحُ على تَرْك الحرب، لقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[٢].

ومن المعاهدات التي وُقِّعَتْ بين الدول الإسلامية وغيرها ما عاهد عليه رسول الله ﷺ يهود المدينة عند قُدُومِهِ إليها، وجاء في هذا العهد: إن اليهود يُنْفِقُون مع المؤمنين، ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم؛ مواليهم وأنفسهم، إلاَّ مَنْ ظَلَمَ وأَثِمَ، فإنه لا يُوتِغُ[٣] إلاَّ نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار، وبني الحارث، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس، وبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن بطانة يَهُودَ كأنفسهم، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على مَنْ حارب هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة

---

(١) محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام ص٧٩.

(٢) (الأنفال: ٦١).

(٣) يوتغ: أي يُهْلك، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وتغ ٨/ ٤٥٨.

والبِرُّ دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثم، وإن الله على أتْقَى ما في هذه الصحيفة وأَبَرّه، وإن بينهم النصر على مَنْ دَهَمَ يثرب، وإذا دُعُوا إلى صلح فإنهم يُصَالِحون، وإذا دُعُوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلاَّ مَنْ حارب في الدين على كل أناس حِصَّتَهم من جانبهم الذي قِبَلَهُمْ، وإنه لا يَحُولُ هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإن الله جارٌ لمن بَرَّ واتَّقى»[١].

ويتبين من هذا العهد أنه كان لتقرير حالة السلم بين اليهود والمسلمين، كما أنه أمان بينهم لضمان عدم وقوع الحروب، كما يظهر من هذه المعاهدة أنها كانت «لِحُسْنِ الجِوَارِ، ولتثبيت دعائم العدل، ويلاحظ أن فيها نصًّا صريحًا على نصر المظلوم، فهو عهد عادل لإقامة السلم وتثبيته بالعدل ونصر الضعيف»[٢].

وقد أوردت كتب السيرة كنوزًا عِدَّة من أمثال هذه المعاهدات، وكان منها على سبيل المثال المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع نصارى نجران، والتي جاء فيها: «**وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ الله وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَتَبَعِهِمْ... وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ..**»[٣].

وكذلك معاهدته ﷺ مع بني ضَمُرَة[٤]، وكان على رأسهم آنذاك مخشي بن عمرو الضمري، وأيضًا عاهد رسول الله ﷺ بني مدلج، الذين يعيشون في منطقة ينبع، وذلك في جُمَادى الأُولَى من السنة الثانية من الهجرة[٥]، وفعل نفس الشيء أيضًا مع قبائل جهينة، وهي قبائل كبيرة تسكن في الشمال الغربي للمدينة المنورة[٦].

ومن المعاهدات الإسلامية أيضًا عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لأهل إيلياء (بيت المقدس)[٧].

---

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٠٣، ٥٠٤، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ٣٢٣.
(٢) محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام ص٨١.
(٣) البيهقي: دلائل النبوة، باب وفد نجران ٥/ ٤٨٥، وأبو يوسف: الخراج ص٧٢، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٨٨.
(٤) قبيلة بني ضمرة: من القبائل العربية من بطون عدنان، والتي تسكن في منطقة ودان غرب المدينة المنورة.
(٥) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٤٣.
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٧٢.
(٧) وللاطلاع على نص المعاهدة انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٤٩، ٤٥٠.

وبالنظر إلى هذه المعاهدات وغيرها نجد أن المسلمين إنما يحاولون العيش في جَوٍّ هادئ مسالمٍ مع مَنْ يجاورونهم، وأنهم لم يَسْعَوْا لقتال قَطُّ، بل كانوا دائمًا مؤْثِرين السلم على الحرب، والوفاق على الشقاق.

هذا، وقد أنشأ الإسلام ضوابط وشروطًا للمعاهدات تَضْمَنُ لها أن تكون موافِقَةً للشريعة، وللهدف الذي مِنْ أَجْلِهِ أُجِيزَت.

يقول الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت[1] رحمه الله: والإسلام حينما يترك للمسلمين الحقَّ في إنشاء المعاهدات - لِمَا يَرَوْنَ من أغراض - يشترط في صحَّة المعاهدة ثلاثة شروط:

أَوَّلاً: ألاَّ تمسَّ قانونه الأساسي وشريعته العامَّة، التي بها قِوَامُ الشخصية الإسلامية، وقد جاء في ذلك قوله ﷺ: «**كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ**»[2]. ومعناه أن كتاب الله يرفضه ويأباه.

ومن خلال هذا الشرط لا يَعْتَرِفُ الإسلامُ بشرعية معاهدةٍ تُسْتَبَاحُ بها الشخصية الإسلامية، وتفتحُ للأعداء بابًا يُمَكِّنُهم من الإغارة على جهات إسلامية، أو يُضْعِفُ من شأن المسلمين؛ بتفريق صفوفهم، وتمزيق وَحْدَتهم.

ثانيًا: أن تكون مبنية على التراضي من الجانبين، ومن هنا لا يرى الإسلام قيمة لمعاهدة تنشأ على أساس من القهر والغلبة وأزيز (النفاثات)، وهذا شرط تُمْلِيهِ طبيعة العقد؛ فإذا كان عقد التبادل في سلعة ما - بيعًا وشراءً - لا بُدَّ فيه من عنصر الرضا: ﴿**إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ**﴾[3]، فكيف بالمعاهدة، وهي للأُمَّة عقد حياة أو موت.

ثالثًا: أن تكون المعاهدة بيِّنة الأهداف، واضحة المعالم، تُحَدِّدُ الالتزامات والحقوق تحديدًا لا يَدَعُ مجالاً للتأويل والتخريج واللعب بالألفاظ، وما أُصِيبت معاهدات الدول

---

(١) محمود شلتوت (١٣١٠- ١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣- ١٩٦٣م): فقيه مفسر مصري، ولد بالبحيرة، وتخرج بالأزهر، عُيِّن وكيلاً لكلية الشريعة، ثم شيخًا للأزهر (١٩٥٨م) إلى وفاته.

(٢) البخاري: كتاب الشروط، باب المكاتب وما لا يحل من الشروط التي تخالف كتاب الله (٢٥٨٤)، ومسلم: كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق (١٥٠٤)، وابن ماجه عن عائشة (٢٥٢١) واللفظ له.

(٣) (النساء: ٢٩).

المتحضِّرة -التي تزعم أنها تسعى إلى السلم وحقوق الإنسان- بالإخفاق والفشل، وكان سببًا في النكبات العالمية المتتابعة، إلاَّ عن هذا الطريق، طريق الغموض والالتواء في صوغ المعاهدات وتحديد أهدافها. وفي التحذير من هذه المعاهدات يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[1]، والدخل هو الغش الخفيُّ يدخل في الشيء فيفسده[2].

وقد أكَّدَتِ الآيات القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ على وجوب الوفاء بالعهد، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾[4]، وأيضًا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[5]، وغيرها الكثير من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى العظيم.

وأمَّا ما جاء في أحاديث الرسول ﷺ فمنه ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعُ خِلَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا»[6]. وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[7]. وثبت عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحُلَّنَّ عَهْدًا، وَلَا يَشُدَّنَّهُ، حَتَّى يَمْضِيَ أَمَدُهُ، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ»[8]. وفي سنن أبي داود[9]

(١) (النحل: ٩٤).

(٢) توفيق علي وهبة: المعاهدات في الإسلام ص١٠٠، ١٠١.

(٣) (المائدة: ١).

(٤) (الأنعام: ١٥٢).

(٥) (الإسراء: ٣٤).

(٦) البخاري: كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٥٨).

(٧) البخاري، كتاب الجزية والمودعة، باب إثم الغادر للبر والفاجر (٣٠١٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر (١٧٣٥).

(٨) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد (٢٧٥٩)، والترمذي عن عمرو بن عبسة (١٥٨٠) واللفظ له، وأحمد (١٩٤٥٥)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٦٤٨٠).

(٩) أبو داود: هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني المشهور بأبي داود (٢٠٢- ٢٧٥هـ)، إمام أهل الحديث في زمانه، وهو صاحب كتابه المشهور بسنن أبي داود. ولد في سجستان من بلاد فارس، وتوفي بالبصرة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٠٣.

عن رسول الله ﷺ قَالَ: «أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

والفقهاء -وهم يَرَوْنَ أن الجهاد يكون مع الأمير الصالح والفاسق- يذهب أكثرُهم إلى أنَّ الجهادَ لا يكون مع الأمير الذي لا يلتزم الوفاء بالعهود، وعلى خلاف القانون الدولي في الحضارة المعاصرة فإن تَغَيُّرَ الظروف لا يُبَرِّر نكث العهد، وحتى إذا عجز المسلمون في ظروف مُعَيَّنَة عن الوفاء بالتزاماتهم يجب عليهم مراعاة التزامات الطرف الثاني، ومن هذا الباب القصة المشهورة عندما استولى القائد المسلم أبو عبيدة بن الجراح على حمص، وأخذ من أهلها الجزية، ثم اضطر إلى الانسحاب منها فردَّ الجزية التي أخذها من السكَّان، وقال: «إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه بلغنا ما جُمِعَ لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك.. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم»[٢].

والأمثلة كثيرة من هذا النوع في التاريخ الإسلامي؛ فتغيُّر الظروف والمصلحة القومية لا تبرِّر في الإسلام نقض العهد، كما لا يُبرِّره أن يرى المسلمون أنفسهم في مركز القوة تجاه الطرف الثاني، وقد ورد النص الصريح في القرآن يؤكِّد ذلك، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٣]، مع الأخذ في الاعتبار بأن ذلك التشديد على المسلمين بالوفاء بالعهد كان في وقت وفي بيئة لم تكن القاعدة فيهما الوفاء بالعهود[٤].

هذا هو حُكْمُ الإسلام في المعاهدات التي تُوَقِّعُها الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى لحفظ السلام؛ فنحن مطالَبُون بالوفاء بها، والمحافظة عليها، وعدم نقضها، إلاَّ إذا نقضها العدُوُّ، أمَّا إذا لم ينقضها، ولم يُظَاهِر على عداء المسلمين، فعلى المسلمين الوفاء لهم لقوله ﷻ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ

---

(١) أبو داود: كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٢٦٥٥).

(٢) أبو يوسف: الخراج ص٨١.

(٣) (النحل: ٩١).

(٤) صالح بن عبد الرحمن الحصين: العلاقات الدولية بين منهج الإسلام والمنهج الحضاري المعاصر ص٥١.

أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾[١].

يقول الشيخ محمود شلتوت: إن «الوفاء بالمعاهدة واجب ديني، يُسأل عنه المسلم فيما بينه وبين الله، ويكون الإخلال بها غدرًا وخيانة»[٢].

وبهذا يكون الإسلام قد سبق كل الأمم الأخرى بتشريعاتها في مجال تقنين المعاهدات الدولية، بل وتميَّز عنها في عدالته وسماحته مع أعدائه، والأهمُّ أن ذلك السبق كان عمليًّا ولم يكن مجرَّد تنظير، ويدلُّ على ذلك ما وَقَّعه المسلمون من معاهدات مع أعدائهم بداية من عصر الرسول ﷺ مرورًا بعصر الخلفاء الراشدين، ثُم من بعدهم من عصور إسلامية.

وأمَّا في تأمين الرسل فقد جاء التشريع الإسلامي غاية في الوضوح في هذا الأمر، ودلَّت النصوص الصريحة والأفعال التي قام بها النبي ﷺ على عدم جواز قتل الرسل بأي حال من الأحوال، وقد ألزم فقهاء الشريعة الإسلامية إمام المسلمين بتوفير الحماية لشخص الرسول، وضمان تمتُّعه بحُرِّيَّة العقيدة وأداء أعماله بحُرِّيَّة تامَّة[٣].

ويترتَّب على ضمان حماية شخص الرسول عدم جواز القبض عليه كأسير، كما لا يجوز تسليمه لدولته إذا طلبته ورفض هو ذلك، حتى وإن هُدِّدت دار الإسلام بالحرب؛ لأن تسليمه يُعَدُّ غدرًا به، ولأنه يتمتَّع بالحماية في دار الإسلام[٤].

ولمهمَّة الرسول دور كبير في عقد الصلح أو التحالف أو منع حدوث حرب، ولهذا فإنه ينبغي أن تتوافر له السبل والمستلزمات كافَّة، لا لشخصه، وإنما من أَجْلِ أداء مُهِمَّته المكلَّف بها، فهو يُعَبِّر عن مُرْسِلِهِ، وإن كان له رأي آخر ما دام قد قَبِلَ أداء هذه المهمَّة، وعلى المُرْسَل إليه مراعاة هذه الحالة.

فقد روى أبو رافع فقال: بعثتني قريش إلى النبي محمد ﷺ، فلمَّا رأيتُه وقع في قلبي الإسلام، فقلتُ: يا رسول الله، والله لا أرجع إليهم أبدًا. فقال ﷺ: «إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ،

---

(١) (التوبة: ٤).

(٢) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة ص٤٥٧.

(٣) انظر: ابن حزم: المحلى ٤/ ٣٠٧.

(٤) عبد الكريم زيدان: الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ص١٦٩.

وَلاَ أَحْبِسُ الْبُرُدَ[(١)]، وَارْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الآنَ فَارْجِعْ»[(٢)].

وقد أورد الهيثمي[(٣)] في كتابه (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) مجموعة من الأحاديث تحت باب سمَّاه: (باب النهي عن قتل الرسل)، منها: ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال حين قتل ابن النواحة: إن هذا وابن أثال كانا أتَيَا النبي ﷺ رسولين لمسيلمة الكذاب فقال لهما رسول الله ﷺ: «أَتَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟». فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. قال: «لَوْ كُنْتُ قَاتِلاً رَسُولاً لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»[(٤)]. قال الهيثمي: فَجَرَتِ السُّنَّة أن الرسل لا تُقْتَلُ[(٥)].

وبذلك يكون الإسلام قد سبق المجتمعات الغربية بأكثر من ١٤٠٠ سنة في وضع القواعد الإنسانية الحضارية للرُّسُلِ، تلك المجتمعات التي لم تعترف بهذه القاعدة حتى وقت قريب[(٦)]!

***

(١) أخيس أي: لا أنقض العهد ولا أفسده، من قولهم: خاس الشيء إذا فسد. البرد: جمع بريد وهو الرسول، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٧/ ٣١١.

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الإمام يستجن به في العهود (٢٧٥٨)، وأحمد (٢٣٩٠٨) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح.

(٣) ابن حجر الهيثمي: هو أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الشافعي المصري (٧٣٥-٨٠٧هـ/ ١٣٣٥-١٤٠٥م)، الحافظ المحدث، أشهر كتبه مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٦٦.

(٤) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الرسل (٢٧٦١)، وأحمد (٣٧٠٨)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح. والدارمي (٢٥٠٣)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن، ولكن الحديث صحيح.

(٥) الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٥/ ٣٧٨.

(٦) انظر: سهيل حسين القتلاوي: دبلوماسية النبي محمد ﷺ دراسة مقارنة بالقانون الدولي المعاصر ص١٨٢.

المبحث الثالث

أسباب وأهداف الحرب في الإسلام

كما مَرَّ بنا فالسلم هو الأصل في الإسلام، وقد كان الرسول ﷺ يُعَلِّمُ أصحابه ويوجِّهَهُم فيقول لهم مربيًا: «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ..» [١].

فالمسلم بطبيعة تربيته الأخلاقية التي يتربَّى عليها من خلال القرآن الكريم وسُنَّة النبي ﷺ يَكْرَهُ القتل والدماء، ومن ثَمَّ فهو لا يبدأ أحدًا بقتال، بل إنه يسعى بِكُلِّ الطرق لتَجَنُّبِ القتال وسفك الدماء، وفي آيات القرآن الكريم ما يُؤَيِّد هذا المعنى جيِّدًا، فالإذن بالقتال لم يأتِ إلاَّ بعد أن بُدِئَ المسلمون بالحرب، وحينئذٍ لا بُدَّ من الدفاع عن النفس والدين، وإلاَّ كان هذا جُبْنًا في الخُلُق، وخورًا في العزيمة، قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ [٢]، وعلَّة القتال واضحة في الآية، وهي أن المسلمين ظُلِموا وأُخرِجوا من ديارهم بغير حقٍّ.

ويقول ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [٣]، يقول القرطبي: هذه الآيةَ أَوَّل آية نَزَلَتْ في الأمر بالقتال، ولا خلاف في أن القتال كان محظورًا قبل الهجرة بقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [٤]، وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [٥]، وما كان مثله ممَّا نزل بمكة، فلمَّا هاجر إلى المدينة أُمِرَ بالقتال [٦].

والملاحَظُ أن الأمر بالقتال هنا إنما جاء لمحاربة مَنْ بدأ بالقتال فقط، دون المسالِم، وجاء التأكيد الشديد على ذلك المعنى بقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾، ثم التحذير

---

(١) البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أَخَّر القتال حتى تزول الشمس (٢٨٠٤) واللفظ له، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢).

(٢) (الحج: ٣٩، ٤٠).

(٣) (البقرة: ١٩٠).

(٤) (فصلت: ٣٤).

(٥) (المائدة: ١٣).

(٦) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٧١٨.

للمؤمنين: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، فالله ﷻ لا يُحِبُّ الاعتداء، ولو كان على غير المسلمين، وفي هذا تحجيم كبير لاستمرار القتال، وهذا فيه من الرحمة بالإنسانية جميعًا ما فيه.

ويقول الله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾(١)، فالقتال هنا مقيَّد، وبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرضُ اجتماعِنا لهم(٢)، وعِلَّة قتال المشركين كَافَّة أنهم يقاتلون المسلمين كافَّة، ومن هنا فإنه لا يجوز للمسلم أن يُقَاتِلَ مَنْ لم يقاتِلْه إلاَّ بِعِلَّة واضحة، كَسَلْبٍ أو نهبٍ أو اغتصابٍ لحقوقِ المسلمين، أو بسبب ظلم أوقعوه بأحدٍ، والمسلمون يُرِيدون رفع هذا الظلم، أو بسبب منعهم للمسلمين من نَشْرِ دينهم، أو إيصال هذا الدين للآخرين.

ومثل الآية السابقة يقول الله تعالى أيضًا: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٣)، والمقصود بمن نكثوا أيمانهم كُفَّار مكة، وكان منهم سبب خروج النبي ﷺ فأضيف الإخراج إليهم، وقيل: أخرجوا الرسول ﷺ من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذي منهم، وعن الحسن: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ﴾ بالقتال، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي نقضوا العهد، وأعانوا بني بكر على خزاعة، وقيل: بدءوكم بالقتال يوم بَدْر؛ لأن النبي ﷺ خرج للعِيرِ، ولَمَّا أحرزوا عيرهم كان يمكنهم الانصراف، فأبوا إلاَّ الوصول إلى بدر، وشُرْب الخمر بها.. وقيل: إخراجهم الرسول ﷺ: منعهم إياه من الحج والعمرة والطواف، وهو ابتداؤهم(٤). وبقطع النظر عن حقيقة متى كانت البداية فإن عِلَّة القتال عند المسلمين واضحة، وهي أن أعداءهم بدءوهم بالقتال.

فهذه هي الأسباب والدوافع التي تدعو المسلمين إلى الحرب، وواقع المسلمين في زمان الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول ﷺ يُصَدِّق ذلك؛ فالمسلمون في فتوحاتهم لم

(١) (التوبة: ٣٦).

(٢) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٧٤.

(٣) (التوبة: ١٣).

(٤) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٣٤.

يُقَاتِلوا أو يَقْتُلُوا كل المشركين الذين قابلوهم في هذه الفتوحات، بل على العكس لم يقاتلوا إلاَّ مَنْ قاتلهم من جيش البلاد المفتوحة، وكانوا يتركون بقية المشركين على دينهم.

وهي - كما نرى - أسباب ودوافع لا يُنْكرها منصف، ولا يعترض عليها محايد؛ فهي تشمل رَدَّ العدوان، والدفاع عن النفس والأهل والوطن والدين، وكذلك تأمين الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم، وأيضًا حماية الدعوة حتى تُبَلَّغ للناس جميعًا، وأخيرًا تأديب ناكثي العهد[1]، ومَنْ في العالم يُنْكِرُ مثل هذه الأسباب والأهداف للحرب؟!

* * *

(١) انظر: أنور الجندي: بماذا انتصر المسلمون ص٥٧-٦٢.

المبحث الرابع

أخلاقيات الحرب في الإسلام

«إنَّ حُسْنَ الخُلُق، ولين الجانب، والرحمة بالضعيف، والتسامح مع الجار والقريب تفعله كل أُمَّة في أوقات السِّلْمِ مهما أوغلت في الهمجية، ولكن حُسْن المعاملة في الحرب، ولين الجانب مع الأعداء، والرحمة بالنساء والأطفال والشيوخ، والتسامح مع المغلوبين، لا تستطيع كل أُمَّة أن تفعله، ولا يستطيع كل قائد حربي أن يتَّصِفَ به؛ إن رؤية الدم تُثِيرُ الدم، والعداء يؤجِّج نيرانَ الحقدِ والغضب، ونشوة النصر تُسْكِرُ الفاتحين؛ فتوقعهم في أبشع أنواع التشفِّي والانتقام، ذلك هو تاريخ الدول قديمها وحديثها، بل هو تاريخ الإنسان منذ سفك قابيل دم أخيه هابيل: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[1]، وهنا يضع التاريخ إكليل الخلود على قادة حضارتنا؛ عسكريين ومدنيين، فاتحين وحاكمين؛ إذ انفردوا من بين عظماء الحضارات كلها بالإنسانية الرحيمة العادلة في أشدِّ المعارك احتدامًا، وفي أحلك الأوقات التي تحمل على الانتقام والثأر وسفك الدماء، وأُقْسِم لولا أن التاريخ يتحدَّث عن هذه المعجزة الفريدة في تاريخ الأخلاق الحربية بصِدْقٍ لا مجال للشكِّ فيه لقلتُ إنها خرافة من الخرافات وأسطورة لا ظلَّ لها على الأرض!»[2].

فإذا كان السلم هو الأصل في الإسلام، وإذا شُرِعَتِ الحرب في الإسلام للأسباب والأهداف التي ذكرناها سابقًا؛ فإن الإسلام كذلك لم يترك الحرب هكذا دون قيود أو قانون، وإنما وضع لها ضوابط تحدُّ مما يُصَاحبها، وبهذا جعل الحروب مضبوطة بالأخلاق ولا تُسَيِّرُهَا الشهوات، كما جعلها ضدَّ الطغاة والمعتدين لا ضدَّ البرآء والمسالمين، وتتمثَّل أبرز هذه القيود الأخلاقية فيما يلي:

١ - **عدم قتل النساء والشيوخ والأطفال**: فكان رسول الله ﷺ يوصي قادة الجند بالتقوى ومراقبة الله ﷻ؛ ليدفعهم إلى الالتزام بأخلاق الحروب، ومن ذلك أنه ﷺ

---

(١) (المائدة: ٢٧).

(٢) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص٧٣.

يأمرهم بتجنُّب قتل الولدان؛ فيروي بُرَيْدَةُ ﷺ فيقول: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيشٍ أو سريَّةٍ أوصاه في خاصَّته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، وكان مما يقوله: «.. وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا..» (١). وفي رواية أبي داود: يقول رسول الله ﷺ: «وَلاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلاَ طِفْلاً، وَلاَ صَغِيرًا، وَلاَ امْرَأَةً...» (٢).

٢- عدم قتال العُبَّاد: فكان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه يقول لهم: «لاَ تَقْتُلُوا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ»(٣). وكانت وصيته ﷺ للجيش المتجه إلى مؤتة: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تُمَثِّلوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، أَوِ امْرَأَةً، وَلا كَبِيرًا فَانِيًا، وَلا مُنْعَزِلاً بِصَوْمَعَةٍ»(٤).

٣- عدم الغدر: فكان النبي ﷺ يودِّع السرايا موصِيًا إياهم: «.. وَلاَ تَغْدِرُوا..» (٥). ولم تكن هذه الوصية في معاملات المسلمين مع إخوانهم المسلمين، بل كانت مع عدوٍّ يكيد لهم، ويجمع لهم، وهم ذاهبون لحربه! وقد وصلت أهمية هذا الأمر عند رسول الله ﷺ أنه تبرَّأ من الغادرين، ولو كانوا مسلمين، ولو كان المغدورُ به كافرًا؛ فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أَمَّنَ رَجُلاً عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا»(٦). وقد ترسَّخت قيمة الوفاء في نفوس الصحابة حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ بلغه في ولايته أنَّ أحد المجاهدين قال لمحارب من الفرس: لا تَخَفْ. ثم قتله، فكتب ﷺ إلى قائد الجيش: «إنه بلغني أنَّ رجالاً منكم يَطْلُبُونَ العِلْجَ (الكافر)، حتى إذا اشتدَّ في الجبل وامتنع، يقول له: «لا تَخَفْ». فإذا أدركه قتله، وإني والذي نفسي بيده! لا يبلغنِّي أن أحدًا فعل ذلك إلاَّ قطعتُ عنقه»(٧).

---

(١) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيره (١٧٣١).

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في دعاء العدو (٢٦١٤)، وابن أبي شيبة ٦/ ٤٨٣، والبيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٣٢).

(٣) ٣٨١.

(٤) أخرج الحديثَ بدون ذكر قصة أهل مؤتة الإمامُ مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي (١٤٠٨)، والبيهقي (١٧٩٣٥).

(٥) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمير الأمراء على البعوث (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي (١٤٠٨)، وابن ماجه (٢٨٥٧).

(٦) البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٣٢٢، واللفظ له، وابن حبان (٥٩٨٢)، والبزار (٢٣٠٨)، والطبراني في الكبير (٦٤)، وفي الصغير (٣٨)، والطيالسي في مسنده (١٢٨٥)، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٤ من طرق عن السدي عن رفاعة بن شداد. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٦١٠٣).

(٧) الموطأ: رواية يحيى الليثي (٩٦٧)، والبيهقي: معرفة السنن والآثار (٥٦٥٢).

٤- **عدم الإفساد في الأرض**: فلم تكن حروب المسلمين حروب تخريبٍ كالحروب المعاصرة، التي يحرص فيها المتقاتلون من غير المسلمين على إبادة مظاهر الحياة لدى خصومهم، بل كان المسلمون يحرصون أشدَّ الحرص على الحفاظ على العمران في كل مكان، ولو كان ببلاد أعدائهم، وظهر ذلك واضحًا في كلمات أبي بكر الصديق ﷺ، وذلك عندما وصَّى جيوشه المتجهة إلى فتح الشام، وكان مما جاء في هذه الوصية: «**وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ..**». وهو شمول عظيم لكل أمر حميد، وجاء أيضًا في وصيته: «**وَلا تُغْرِقُنَّ نَخْلاً وَلا تَحْرِقُنَّهَا، وَلا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً، وَلا شَجَرَةً تُثْمِرُ، وَلا تَهْدِمُوا بَيْعَةً..**»[1].

وهذه تفصيلات تُوَضِّح المقصود من وصية عدم الإفساد في الأرض، لكيلا يظنَّ قائد الجيش أن عداوة القوم تُبيح بعض صور الفساد؛ فالفساد بشتَّى صوره أمر مرفوض في الإسلام.

٥- **الإنفاق على الأسير**: إن الإنفاق على الأسير ومساعدته مما يُثَاب عليه المسلمُ؛ وذلك بحكم ضَعْفِه وانقطاعه عن أهله وقومه، وشِدَّة حاجته للمساعدة، وقد قرن القرآن الكريم بِرَّهُ بِبِرِّ اليتامى والمساكين؛ فقال ﷻ في وصف المؤمنين: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾[2].

٦- **عدم التمثيل بالميت**: فقد نهى رسول الله ﷺ عن المُثْلَة، فروى عبد الله بن زيد ﷺ قال: «**نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النُّهْبَى، وَالْمُثْلَةِ**[3]»[4]. وقال عمران بن الحصين ﷺ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ، وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ**»[5]. ورغم ما حدث في غزوة أُحُد من تمثيل المشركين بحمزة عمِّ الرسول ﷺ، فإنه ﷺ لم يُغيِّر مبدأه، بل إنه ﷺ هدَّد المسلمين تهديدًا خطيرًا إن قاموا بالتمثيل بأجساد قتلى الأعداء، فقال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ:**

---

(١) البيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٠٤)، والطحاوي: شرح مشكل الآثار ٣/ ١٤٤، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٢/ ٧٥.

(٢) (الإنسان: ٨).

(٣) النُّهْبَى: أخذ المرء ما ليس له جهارًا، والمُثْلَة: التنكيل بالمقتول، بقطع بعض أعضائه.

(٤) البخاري: كتاب المظالم، باب النهبى من غير إذن صاحبه (٢٣٤٢)، والطيالسي في مسنده (١٠٧٠)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٤٤٥٢).

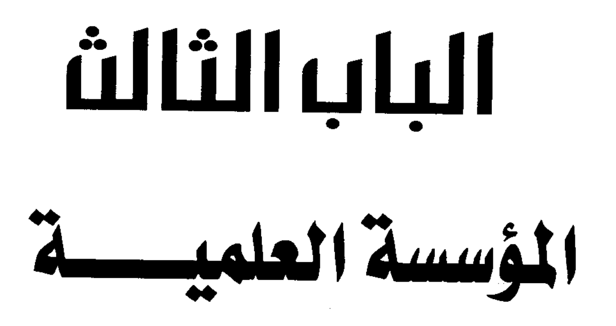
(٥) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في النهي عن المثلة (٢٦٦٧)، وأحمد (٢٠٠١٠)، وابن حبان (٥٦١٦)، وعبد الرزاق (١٥٨١٩)، وقال الألباني: صحيح. انظر: إرواء الغليل (٢٢٣٠).

رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامُ ضَلاَلَةٍ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْـمُمَثِّلِينَ»[1]. ولم تَرِدْ في تاريخ رسول الله ﷺ حادثةٌ واحدة تقول بأن المسلمين مثَّلوا بأَحَدٍ من أعدائهم.

هذه هي أخلاق الحروب عند المسلمين.. تلك التي لا تُلْغِي الشرف في الخصومة، أو العدل في المعاملة، ولا الإنسانية في القتال أو ما بعد القتال.

❋ ❋ ❋

(١) أحمد (٣٨٦٨)، واللفظ له، وحسنه شعيب الأرناءوط، والطبراني في الكبير (١٠٤٩٧)، والبزار (١٧٢٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨١).



الباب الثالث

المؤسسة العلميـــــة

قدمت الحضارة الإسلامية للعالم مجموعة من النظم والمؤسسات التي تميزت بالدقة والتنظيم وتقديم كل ما هو جديد للبشرية كلها، وقد كانت المؤسسة العلمية الإسلامية إحدى روائع الحضارة الإسلامية؛ سواء على الناحية التنظيمية أو التطبيقية؛ ولذلك كان لزامًا علينا أن نُفرد لهذه المؤسسة الراقية بابًا مستقلاً، ستتناوله من خلال الفصول الآتية:

- الفصل الأول: الإسلام ورؤية جديدة للعلم
- الفصل الثاني: الإسلام وتغيير تفكير العلماء
- الفصل الثالث: المؤسسة التعليمية
- الفصل الرابع: المكتبات في الحضارة الإسلامية
- الفصل الخامس: هيئة العلماء

الفصل الأول
الإسلام ورؤية جديدة للعلم

مع أن العالَم شهد عِدَّة حضارات قبل الإسلام، ومع أن هذه الحضارات اشتهرت بإسهامات واضحة في أكثر من مجال من مجالات العلوم؛ وذلك مثل: الحضارة الرومانيَّة، والفارسيَّة، والصينيَّة، والهنديَّة، والمصريَّة، وغيرها؛ مع كل هذا إلاَّ أن الإسلام أضاف مفاهيم ومبادئ جوهريَّة غيَّرت رؤية العالم تمامًا لقضية العلم، وبإمكاننا أن نشير إلى بعضها في المبحثين التاليين:

- المبحث الأول: لا نزاع بين العلم والدين
- المبحث الثاني: العلم لكل أفراد الشعب

المبحث الأول

لا نزاع بين العلم والدين

باتت الحقيقة الأولى التي ظهرت في الأرض عند نزول جبريل عليه السلام لأوَّل مرَّة على رسول الله ﷺ أن هذا الدين الجديد (الإسلام) دينٌ يقوم على العلم ويرفض الضلالات والأوهام جملةً وتفصيلاً؛ حيث نزل الوحي أوَّل ما نزل بخمس آيات تتحدَّث حول قضية واحدة تقريبًا، وهي قضية العلم، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

وإن هذا النزول الأوَّل بهذه الكيفيَّة ليُعَدُّ عجيبًا؛ وذلك من عِدَّة وجوه: فهو عجيب لأن الله ﷻ قد اختار موضوعًا معيَّنًا من آلاف المواضيع التي يتضمَّنها القرآن الكريم وبدأ به، مع أن الرسول ﷺ الذي يتنزل عليه القرآن أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فكان واضحًا أن هذا الموضوع الأوَّل هو مِفتاح فَهْمِ هذا الدِّين، ومفتاح فهم هذه الدنيا، بل وفهم الآخرة التي سيئول إليها الناس كلهم.

ثم هو عجيب كذلك لأنه نزل يتحدَّث عن قضية ما اهتم بها العرب كثيرًا في تلك الآونة، بل كانت الخرافات والأباطيل هي التي تحكم حياتهم من أوَّلها إلى آخرها، فكانوا يفتقرون إلى العلم في كل المجالات، اللهم إلا في مجال البلاغة والشعر، فكان هذا هو الميدان الذي تفوَّق فيه العرب وبرعوا، ولذلك نزل القرآن -وهو الأعجب- يتحدَّاهم في هذا الذي برعوا فيه، معلنًا لهم أنه ينادي بالعلم والتفوُّق فيه في كل الجوانب، بما فيها تلك التي يجيدونها.

فكان ظهور الإسلام إذن بمنزلة ثورة علميَّة حقيقيَّة في بيئة ما أَلِفَتْ رُوح العلم وما تعوَّدت عليه، لدرجة أن المرحلة السابقة لنزول أولى كلمات القرآن صارت تُعْرَف باسم (الجاهلية)! فصفة الجهل ترتبط بما هو قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام ليبدأ العلم، ولِتُنَار الدنيا بنور الهداية الربانيَّة، فقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2].

---

(١) (العلق: ١-٥).

(٢) (المائدة: ٥٠).

فليس هناك مكانٌ في هذا الدين للجهل أو الظنِّ أو الشكِّ أو الرِّيبَة.

ولم تكن البداية فقط في هذا الكتاب المعجز (القرآن) هي التي تتحدَّث عن العلم وقيمته وأهميته، بل كان هذا منهجًا ثابتًا في هذا الدستور الخالد، فلا تكاد تخلو سورة من سوره من الحديث عن العلم، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ولقد فوجِئتُ مفاجأة كبيرة عندما قمت بإحصاء عدد المرات التي جاءت فيها كلمة (العلم) بمشتقاتها المختلفة في كتاب الله ﷻ؛ إذ وجدتها -بلا مبالغة- قد بلغت ٧٧٩ مرَّة، أي بمعدَّل سبع مرَّاتٍ -تقريبًا- في كل سورة!

وهذا عن كلمة (العلم) بمادَّتها الثلاثية (ع ل م)، إلا أن هناك كلمات أخرى كثيرة تشير إلى معنى العلم ولكن لم تُذكر بلفظه؛ وذلك مثل: اليقين، والهدى، والعقل، والفكر، والنظر، والحكمة، والفقه، والبرهان، والدليل، والحجة، والآية، والبينة، وغير ذلك من معانٍ تندرج تحت معنى العلم وتحثُّ عليه. أمّا السُّنَّة النبويَّة فإحصاء هذه الكلمة فيها يكاد يكون مستحيلاً.

بل إن الملاحظ أن اهتمام القرآن بقضيَّة العلم لم يتبدَّ في أولى لحظات نزوله فقط، وإنما كان ذلك منذ بداية خلق الإنسان نفسه، كما حكى ذلك القرآن الكريم في آياته؛ فالله ﷻ خلق آدم وجعله خليفة في الأرض، وأمر الملائكة أن تسجد له، وكرَّمه وعظَّمه ورفعه، ثم ذكر لنا وللملائكة سبب هذا التكريم والتعظيم والرِّفعة، فعيَّن أنه (العلم)؛ يقول تعالى في تقرير ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

(١) (البقرة: ٣٠-٣٤).

ومن هنا لم يكن الأمر من باب المبالغة حين أشار الرسول ﷺ في حديثه إلى أن الدنيا بكاملها لا قيمة لها -بل هي ملعونة- إلا إذا ازدانت بالعلم وذِكْر الله ﷻ، فقد قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ: ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالاَهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا»[١].

وقد كان لذلك كله أثر بعيد المدى في الدولة الإسلاميَّة بعد ذلك، حيث ولَّد نشاطًا علميًّا واسعًا في مختلَف ميادين العلم والمعرفة، نشاطًا لم يعهد له التاريخ مثيلاً، ممَّا جعله يحقِّق ازدهارًا حضاريًّا عظيمًا على أيدي علماء المسلمين، ويمدُّ التراث الإنساني بذخيرة علميَّة رائعة، يظلّ العالم بأسره مدينًا لها.

ولو عقدنا مقارنة بين مكانة العلم في الإسلام ومكانته في المسيحية المحرَّفة لوجدنا أن الكنيسة في العصور الوسطى كانت معادية تمامًا للعلم؛ فالكنيسة المسيحية منذ بداية عهدها بروما قد عزلت نفسها عن الثقافتين الإغريقيَّة والرومانيَّة، وكانت الحضارة الرومانيَّة تحتضر إذ أتت عليها غارات القوط؛ على أن الكنيسة الكاثوليكيَّة الشرقيَّة حين بلغت كامل عنفوانها قد شنَّت اضطهادها على الفلاسفة والعلماء الوثنيين، وأغلقت مدرسة أثينا، وضربت بيد من حديد على الفلسفة الإغريقيَّة في الإسكندريَّة، ورأت الكنيسة أن الطريق الوحيد لتطهير الرُّوح هو طريقها إلى الله، والضلال هو البحث عن الحقيقة في غير الكتاب المقدَّس والتفكير والتمحيص في أمور دنيويَّة[٢].

وتؤكِّد هذه الحقيقة المستشرقة الألمانيَّة زيجريد هونكه[٣] حين قارنت بين العلم في نظر الإسلام والعلم في نظر النصرانيَّة في الغرب الأوربي خلال العصور الوسطى، فذكرت كيف أن الرسول ﷺ أوصى كل مؤمن -رجلاً كان أو امرأة- بطلب العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًّا، وكيف أنه ﷺ كان يرى في تعمُّق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها

---

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله (٢٣٢٢) وقال: حديث حسن غريب. والدارمي (٣٢٢)، والطبراني في الأوسط (٤٠٧٢)، والبزار (١٧٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٠٨)، وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (١٦٠٩).

(٢) نادية حسني: العلم ومناهج البحث ص١٣.

(٣) زيجريد هونكه: Dr. Sigris hunke (١٩١٣- ١٩٩٩م) مستشرقة ألمانية، ولدت في هامبورج، ودرست علم أصول الأديان ومقارنة الأديان والفلسفة وعلم النفس والصحافة، وحصلت على شهادة الدكتوراه عام ١٩٤١م. زارت العديد من البلدان العربية، من مؤلفاتها (شمس العرب تسطع على الغرب) و(الله ليس كذلك).

وسيلة للتعرُّف على قدرة الخالق، لافتًا أنظارهم إلى علوم كل الشعوب، ثم أتبعت ذلك بقولها: «وعلى النقيض تمامًا يتساءل بولس الرسول مقرًّا: ألم يصف الربُّ المعرفة الدنيويَّة بالغباوة؟» [(١)].

كما ذكرت تعريف القديس أوغسطينوس[(٢)] محور المعرفة قائلاً: «أمَّا الربُّ والرُّوح فإني أبغي معرفتهما، فالبحث عن الحقيقة هو البحث عن الله، وهذا لا يستدعي معونة من الخارج، والمصدر الوحيد لتلك المعرفة هو الكتاب المقدَّس»[(٣)].

وأوضحت زيجريد هونكه كيف وصل بهم الأمر إلى اعتبار كل من ينادي بفكرة علميَّة جديدة -ككُرَوِيَّة الأرض مثلاً- أنه كافر ضال، واستدلَّت على ذلك بأقوال لاكتانتيوس[(٤)] معلِّم الكنيسة معلِّقًا على ما يدَّعيه البعض من أن الأرض كُرَوِيَّة، حيث قال متسائلاً مستنكرًا: «هل هذا من المعقول؟! أيُعقل أن يجنَّ الناس إلى هذا الحدِّ؛ فيدخل في عقولهم أن البُلدان والأشجار تتدلَّى من الجانب الآخر من الأرض، وأن أقدام الناس تعلو رءوسهم؟!». ملعون من كان يقتنع أو يقبل تفسيرًا علميًّا لحوادث الطبيعة، خارج عن طاعة الربِّ من يشرح أسبابًا طبيعيَّة لبزوغ كوكب أو فيضان نهر، بل لمن يعلِّل علميًّا شفاء قدم مكسورة أو إجهاض امرأة؛ فتلك كلها عقوبات من الله أو من الشيطان، أو هي معجزات أكبر من أن ندركها[(٥)]!

وقد حدث لذلك صراعٌ بين الدين والعلم في أوربا، شُلَّت فيه حركة العلم، في أواسط القرن السادس عشر الميلادي، ولم يتوقف ذلك إلا عند بداية النهضة العلمية والثورة العلمية الأوربية، والانقلاب على الكنيسة.

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٦٩.

(٢) القديس أوغسطين: (٣٥٤- ٤٣٠م) أحد أهم الشخصيات في تاريخ المسيحية على اختلاف مذاهبها، نشأ في شمال إفريقيا مسيحيًّا، ثم تحول إلى المانوية ثم عاد إلى المسيحية، ورقي حتى أصبح أسقفًا إلى أن توفي. يعتبره بعض المؤرخين شخصية فارقة في تاريخ المسيحية.

(٣) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٧٠.

(٤) لاكتانتيوس الإفريقي: من أشهر القديسين المسيحيين، ولد ونشأ بإفريقيا في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، وعُرف بالمُدافع عن المسيحية، وحاول إثبات المسيحية عن طريق الفلسفة والمنطق، وعهد إليه الإمبراطور قسطنطين الكبير برعاية ولده الأكبر.

(٥) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٧٠.

ومن أمثلة ذلك أن كوبرنيكس[١] توصَّل عام (١٥٤٣م) إلى دوران الأرض، وأن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض كما كان معتقَدًا قبل ذلك، إلاَّ أن هذه النتيجة العلميَّة كانت كارثة في أوربا، فقد رفضت الكنيسة بميزان «الحقائق» الإنجيليَّة، فرأت أنه يتناقض مع معتقداتهم؛ لأن الأرض إذ تتحول من أن تكون مركز الكون إلى أن تكون بقعة صغيرة في كل هذا الكون ليس مجرد اكتشاف علمي، بل هو ضربة قاسية لصميم العقيدة المسيحية التي تقول بأن الله تجسد في هذه الأرض ليمنح أهلها الخلاص، لا تستوعب أن تتحول هذه الأرض إلى مجرد جرم صغير وسط أجرام أخرى أكبر منها، فضلاً عن أن تكون تابعة للشمس؛ ولذا «كانت نظرية مركزية الأرض تلائم بصورة معقولة لاهوتًا يفرض أن كل الأشياء خلقت لمنفعة البشر. أما الآن فقد شعر هؤلاء البشر أنهم يترنحون فوق كوكب صغير اختزل تاريخه إلى مجرد فقرة محلية في أخبار الكون... لا بد أن الناس حين توقفوا للتأمل في المعاني التي تتضمنها النظرية الجديدة راحوا يتساءلون عن صواب القول بأن خالق هذا الكون الهائل المنظم قد أرسل ابنه ليموت على هذا الكوكب المتوسط الحجم. وبدا أن كل شعر المسيحية الجميل، «يتصاعد دخانًا» (كما قال جوته[٢] فيما بعد) تحت لمسة هذا الكاهن البولندي. وأجبر الفلك القائل بمركزية الشمس الناس على أن يتصوروا الخالق من جديد في صورة أقل ضيقًا في الأفق وأقل تجسدًا، وواجه اللاهوت أقوى تحدٍّ في تاريخ الدين[٣]! فاضطُهد كوبرنيكس ولم يقوَ على مواجهة المعارضة العنيفة وعاش بعيدًا، ومات في نفس السنة التي نشر فيها كتابه بعد تحمس أحد معجبيه، وبعد أن أدخل تعديلات يُقِرُّ فيها بأن نظريته مجرد فروض تحتمل الخطأ[٤]، ولكن حين تبنى برونو[٥] نظرية كوبرنيكس، بعد موته بثمانين عامًا، باعتبارها حقيقة

---

(١) كوبرنيكس: هو نيكولاس كوبرنيكس (١٤٧٣- ١٥٤٣م) ولد في مدينة ثورن في مقاطعة بروسيا، درس في بولندا وأكمل دراسته في جامعة بولونيا الإيطالية، كان فلكيًّا ماهرًا، يُعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس، وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها.

(٢) جوته: (١٧٤٩- ١٨٣٢م) هو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، تأثر جوته بالفكر الأدبي العربي، له قصيدة بعنوان (الهجرة)، و(الديوان الشرقي للشاعر الغربي).

(٣) انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٧/ ١٣٨-١٣٩.

(٤) المصدر السابق ٢٧/ ١٣١-١٣٤.

(٥) برونو: جيوردانو برونو (١٥٤٨- ١٦٠٠م) أحد أشهر الفلاسفة الغربيين الإيطاليين في عصر النهضة الأوربية، يُعدّ فكره خليطًا من الفلسفة والتصوف والسِّحر. وقد أدى به قلقه الروحي ونقده الفكري إلى الشك في تعاليم الكنيسة؛ فحكمت عليه محكمة التفتيش العليا بالموت عام ١٦٠٠م، وأُحرِق حيًّا في روما.

سارعت محكمة التفتيش إلى تحريم قراءة كتاب كوبرنيكس(١) وإلى إعدام برونو -الذي طور آراء كوبرنيكس وأضاف إليها من عنده- حرقًا في ميدان عامٍّ(٢). وأفكار كوبرنيكس كانت هي البداية والأساس لأفكار جاليليو(٣)، ولأجلها تمت محاكمته وهو على مشارف السبعين من عمره، وهي محاكمة تعمدت إذلاله حتى تراجع بصراحة عن كل آرائه، ثم أعطته حكمًا بالسجن مدة مفتوحة، وأجبرته على قراءة مزامير الكفارة السبعة يوميًّا لمدة سبع سنوات(٤).

وهذا غيض من فيض، والأمثلة على ذلك جِدُّ كثيرة، ولم تتوقَّف فقط على محاكمات كوبرنيكس وجاليليو وغيرهما مما ذكرناه، حتى إنهم توسَّعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضدَّ العلماء. قامت المحكمة بأعمالها حق القيام؛ ففي مدة ثماني عشرة سنة -من سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٤٩٩م- حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصًا بأن يُحرقوا وهم أحياء فأحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا، وعلى سبعة وتسعين ألفًا وثلاثة وعشرين شخصًا بعقوبات مختلفة(٥). كما أصدرت قرارات تُحرِّم قراءة كتب جاليليو، وجيوردا نويرنو، ونيوتن(٦) لقوله بقانون الجاذبيَّة، وتأمر بحرق كتبهم، وقد أَحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ٨٠٠٠ كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة(٧)!

وهذا الواقع الرهيب والمظلم عاشته أوربا قرونًا طويلة، سُمِّيت بالعصور المظلمة، وتُسمَّى أيضًا بالقرون الوسطى، حيث استغرقت نحو ألف عام من الزمان، وقد رسَّخ

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٧/ ١٣٨.

(٢) انظر قصة برونو في: قصة الحضارة ٢٧/ ٢٨٨-٣٠٠.

(٣) جاليليو: (١٥٦٤- ١٦٤٢م) عالم فلكي، وفيزيائي إيطالي، كان يُدعى مؤسس العلوم التجريبية المعاصرة. استدعته الكنيسة الرومانية مرتين للتحقيق معه في صحة مناصرته لنظرية كوبرنيكس، وحكمت عليه عام ١٦٣٣م بالسجن المؤبد.

(٤) انظر قصة جاليليو في: قصة الحضارة ٢٧/ ٢٦٤-٢٨٠.

(٥) الإمام محمد عبده: الاضطهاد في النصرانية والإسلام. مقال بمجلة المنار، المجلد الخامس، ص٤٠١.

(٦) نيوتن: السِّير إسحاق نيوتُن (١٦٤٢- ١٧٢٧م) عالم رياضيات وفلكي إنجليزي اكتشف نظرية جاذبية الأرض، كما اكتشف أسرار الضوء والألوان، وابتكر فرعًا من الرياضيات يسمَّى حساب التفاضل والتكامل.

(٧) مانع بن حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/ ٦٠٤.

هذا الواقع في أذهان العلماء والفلاسفة (أمثال ديكارت[١] وفولتير[٢]) وعموم الناس أنه لا أمل في طلب العلم والابتكار إلا بهدم سلطان الكنيسة، وإلا بمحو الدين تمامًا من الصدور، والاتجاه إلى الإلحاد بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ؛ فأعلنوا صراحة معارضتهم للكتب المقدَّسة كالتوراة والإنجيل؛ لاحتوائهما على ما يتعارض مع الحقائق العلميَّة، ولاعتقادهم بأن الدين -كما رأوا- هو اضطهاد العلم والعلماء، وهو الحَجْر على العقول. وقد راحوا يَدْعُون بعد ذلك إلى إعلاء العقل في مقابلة النصوص الرئيسية، وحُجَّتهم أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلميَّة، ويستطيع التمييز بين الخير والشرِّ.

وقد ساعدت الجمعية الوطنيَّة الفرنسيَّة في أعقاب الثورة الفرنسية على هذا التحرُّر، وذلك بإصدار قرارات سنة (١٧٩٠م)، كان من شأنها أن قصمت ظهر الكنيسة، حيث سرَّحت الرهبان والراهبات، وأجبرت رجال الكنيسة على الخضوع للدستور المدني، وأخذت تعيِّن هي رجال الكنيسة بدلاً من البابا، ثم جاء القانون الذي أقرَّته الحكومة الفرنسيَّة عام (١٩٠٥م) بفصل الدين عن الدولة على أساس التفريق بينهما، وإعلان حياد الدولة تجاه الدين، كقاصمة أخرى شجَّعت المعارضين للكنيسة على نقد نصوص الكتاب المقدَّس والكنيسة بحرِّيَّة، كما أجبر هذا القانون رجال الكنيسة على أن يُقْسِموا يمين الولاء للطاعة والشعب والملك والدستور المدني الجديد. وقد توالت القرارات بعد ذلك لتعمَّ دول أوربا كلها؛ ليتقلَّص بذلك دور الكنيسة من محاولة السيطرة على أمور العلم والسياسة، ولتنزوي تمامًا داخل الجدران، فتمارس فقط الوعظ والترانيم[٣]!

لكن الدين الإسلامي لم يكن يومًا كالكنيسة، ولم يقف أبدًا معارضًا أو عائقًا في طريق المسلمين للعلم، سواء في الجانب النظري أو في الجانب العملي التطبيقي، وإنما دعا إلى العلم وحثَّ عليه، مطلِقًا للعقل عنان الحرية، ومطلق النظر والتفكر والتدبُّر، بعيدًا عن

---

(١) ديكارت: رينيه ديكارت (١٥٩٦- ١٦٥٠م) فيلسوف ورياضي وعالم فرنسي كثيرًا ما يُلَقَّب بأبي الفلسفة الحديثة. وقد اخترع ديكارت الهندسة التحليلية، وكان أول فيلسوف وصف الكون المادي من حيث المادة والحركة.

(٢) فولتير: (١٦٩٤- ١٧٧٨م) واحد من أشهر الكتاب والفلاسفة الفرنسيين وأكثرهم تأثيرًا، ويعتبر كتابه كانديد (١٧٥٩م) أشهر أعماله؛ إذ ترجم إلى أكثر من مائة لغة.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، فصل بعنوان الكاثوليك، ٢/ ٦٠٤، ٦٠٥.

سطوة العادات والتقاليد والأهواء والميول، وكيف لا وقد شرّف الله سبحانه العقل بالخطاب وجعله مناط التكليف!

فكان ثَمَّة بونٌ شاسع بين الفكر الإسلامي القائم على الحرية الفكرية والصلة بين الله وبين العبد دون وسيط -ذلك الفكر الذي يمجّد العقل ويخاطبه- وبين الفكر المسيحي في العصور الوسطى الذي يصادر حرية الفكر ويضع السلطان الكنسي بين العباد وبين الرب، وهذا يوضح تمامًا لماذا احتاجت الحضارة الأوربية في الغرب ألف عام قبل أن تأخذ في الازدهار التدريجي، مع أنها كانت لديها الفرصة المناسبة لتبدأ قبل الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة بقرنين أو ثلاثة، ثم تقوم نهضتها بعد ذلك على أكتاف المسلمين[(١)].

* * *

(١) انظر زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٧٢، ٣٧٣.

المبحث الثاني
عمومية قضيـــة العلم

لقد كان العلماء قبل الإسلام منعزلين عن العامَّة، وكانت الفجوة بينهما كبيرة، فالعلماء في فارس أو في روما أو عند اليونان كانوا يعيشون في عزلة تامَّة، تقوم بينهم المناظرات والنقاشات، ويتوارثون العلم فيما بينهم، بينما تعيش العامَّة في جهل مُطبِق، وبُعدٍ تامٍّ عن أي صورة من صور العلم، لكن الإسلام كان شيئًا آخر!

فقد جاء رسول الله ﷺ ليقول بالحرف الواحد: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[١]. لتصبح القضية واجبًا دينيًا، وقضيَّة شعبيَّة مفروضة على الجميع؛ إذ يجب أن يطلب الجميعُ العلمَ، ليصبحوا جميعًا متعلِّمين، لم يُستثنَ من ذلك رجل أو امرأة.

وقام رسول الله ﷺ بالتطبيق العملي لهذا المنهج عندما وافق أن يُطلِق سراح أسرى غزوة بَدْر في نظير أن يقوم كل منهم بتعليم عشرة من أهل المدينة المنورة القراءة والكتابة، فكان هذا فكرًا حضاريًا لم يكن معروفًا البتَّة في العالم في ذلك الوقت، ولا حتى بعد ذلك الوقت بقرونٍ.

وقد أمر الإسلام أتباعه في ذلك بأن يجعلوا قضية العلم قضية أساسيَّة في حياتهم، وأمرهم أن يرفعوا من قدر العلماء، إلى الدرجة التي قال فيها رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[٢].

ولقد استمرَّت هذه الحركة العلميَّة الشعبيَّة بعد وفاة الرسول ﷺ، فظهرت آثارها ومظاهرها الرائعة، والتي كانت تُعَدُّ أحلامًا بالنسبة للأوربيين. ونكتفي هنا بذكر ثلاثة

---

(١) ابن ماجه (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والسيوطي في الجامع الصغير (٧٣٦٠). قال الشيخ الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٣٩١٣).

(٢) أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧٦٣)، وابن حبان (٨٨)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٦٢٩٧).

مظاهر لهذه الحركة العلميَّة الشعبيَّة التي أَسَّس لها الإسلام:

١ - **المكتبات العامة**: فانطلاقًا من هذا الحثِّ وذاك التشجيع الذي بات من صميم الدين، أَسَّس المسلمون المكتبات العامَّة المفتوحة لعموم الناس، فكانوا يقرءون فيها بالمجَّان، وينسخون ما يريدون من صفحات العلم المختلفة، بل وكان كبار الخلفاء والأمراء يستضيفون في هذه المكتبات طلاَّب العلم من البلاد المختلفة، ويُنْفِقون عليهم من أموالهم الخاصَّة. وقد وُجِدَتْ هذه المكتبات بكثرة في كل مدن العالم الإسلامي[١]، ولعلَّ من أشهرها مكتبات: بغداد، وقرطبة، وإشبيلية، والقاهرة، والقدس، ودمشق، وطرابلس، والمدينة، وصنعاء، وفاس، والقيروان.

٢ - **ظهور مجالس العلم الضخمة**: فقَبْلَ الإسلام لم يكن هناك من يتكلَّم من العلماء مع عامَّة الناس، أمَّا بعد ظهور هذا الدين العظيم فقد انتشرت حلقات العلم في كل ربوع العالم الإسلامي، وكانت تصل في بعض الأحيان إلى أرقام غير متخيَّلة؛ فمجلس ابن الجوزي[٢] مثلاً كان يحضره أكثر من مائة ألف إنسان! كلهم من عامَّة الشعب، وكذلك مجالس الحسن البصري، وأحمد بن حنبل، والشافعي، وأبي حنيفة، والإمام مالك، بل وكان هناك أحيانًا في داخل كل مسجد أكثر من حلقة علم في وقت واحد؛ فهذه في تفسير القرآن، وهذه للفقه، وأخرى للحديث النبوي، ورابعة للعقيدة، وخامسة لدراسة الطبِّ، وهكذا.

٣- **اعتبار أن الإنفاق على العلم صدقة وقربة إلى الله ﷻ**: وهذا جعل الموسرين من أبناء الأُمَّة يُنْفِقون أموالهم على بناء المدارس ودور العلم، بل ويُوقفون الأوقاف الكثيرة لرعاية طلاَّب العلم، وبناء المكتبات، وتطوير المدارس، فصار هذا الإنفاق على العلم بابًا من أبواب الخير لرجال الاقتصاد كذلك، وليس لرجال العلم فقط.

وهكذا كانت قضية العلم عامَّة، تهم وتخص الجميع؛ حيث طلب العلم واجب وفريضة على كل مسلم، ومِن ثَمَّ انتشرت المكتبات وكثرت مجالس وحلق العلم، وانمحت الأمية أو كادت!

---

(١) سنتعرض لذلك في فصل خاص عن التعليم والمكتبات في الحضارة الإسلامية.

(٢) ابن الجوزي: هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي (٥١٠ - ٥٩٢هـ) فقيه حنبلي، ومؤرخ، وموسوعي، صنَّف في الكثير من العلوم والفنون، ولد وتوفي في بغداد. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٥.

الفصل الثاني

الإسلام وتغيير تفكير العلماء

كما رأينا في الفصل السابق فإن الإسلام قد جاء برؤية جديدة للعلم مغايرة لما كانت عليه الحضارات السابقة، على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، حيث ساقت هذه الرؤية الجديدة للعلم المسلمين ودفعتهم دفعًا إلى التوصل إلى أصول علمية جوهرية هي من صميم البحث العلمي لم تكن أيضًا موجودة من قبل!

وبإمكاننا أن نشير إلى بعض هذه المبادئ وتلك الأصول في المباحث التالية:

- المبحث الأول: المنهج التجريبي
- المبحث الثاني: الجانب العملي
- المبحث الثالث: الفرق العلميَّة
- المبحث الرابع: الأمانة العلميَّة

المبحث الأول

المنهـــج التجريبي

يُعَدُّ التوصُّل إلى المنهج العلمي التجريبي الرصين في البحث -والقائم على القياس والاستقراء، والمستند إلى المشاهدة والتجربة والتمثيل- يُعَدُّ إضافةً إسلاميَّة هائلة لمسيرة العلم في العالم.

وهو منهج مخالف تمامًا لما كان عليه اليونانيون أو الهنود أو غيرهم؛ فهذه الحضارات كانت تكتفي في كثير من الأحيان بافتراض النظريات دون محاولة إثباتها عمليًّا، فكانت في أغلبها فلسفات نظريَّة، لا تطبيق لها في الكثير من الأحايين، حتى وإن كانت صحيحة، وكان يؤدِّي هذا إلى الخلط الشديد بين النظريات الصحيحة والباطلة، إلا أن جاء المسلمون فابتكروا الأسلوب التجريبي في تناولهم للمعطيات العلمية والكونية من حولهم، وهو ما أدَّى إلى تأسيس قواعد المنهج العلمي التجريبي، الذي ما زال العلم المعاصر يسير على هَدْيِه.

وقد أدَّى تطبيق المسلمين للمنهج التجريبي على النظريات السابقة، ودون اعتبار إلى اسم صاحب النظرية مهما كان مشهورًا، أدَّى إلى اكتشاف الكثير من الأخطاء التي توارثها العلماء على مدار قرون متتالية.

فلم يكن العلماء المسلمون يكتفون بنقد النظريات السابقة واختبارها، ولكن كانوا كثيرًا ما يفترضون الافتراضات الجديدة، ثم يختبرونها حتى يتحوَّل الافتراض إلى نظرية -إذا أُثبت قربه من الحقيقة- ثم يختبرون النظريَّة حتى يثبت لهم في النهاية أنها أصبحت حقيقة وليست نظريَّة، وفي سبيل هذا كانوا يُجْرُون الكثير من التجارِب دون ملل.

ومن العلماء المسلمين الذين كان لهم باع طويل في هذا المجال جابر بن حيان[1]،

---

(١) جابر بن حيان: هو أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي (ت ٢٠٠هـ/ ٨١٥م) فيلسوف كيميائي، كان يُعرف بالصوفي. من أهل الكوفة، وأصله من خراسان، وتوفي بطوس. انظر: ابن النديم: الفهرست ص٤٩٨-٥٠٣، والزركلي: الأعلام ٢/ ١٠٣.

والخوارزمي، والرازي[١] والحسن بن الهيثم[٢]، وابن النفيس[٣]، وغيرهم كثير.

فهذا جابر بن حيان شيخ الكيميائيين يقول: «ومِلاك كمال هذه الصنعة العمل والتجرِبة؛ فمَنْ لم يعمل ولم يجرِّب لم يظفر بشيء أبدًا»[٤]. وفي كتاب (الخواصّ الكبير) المقالة الأولى يقول: «إننا نذكر في هذه الكتب خواصَّ ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحنَّاه وجرَّبناه، فما صحَّ أوردناه، وما بَطَل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضًا قايسناه على أحوال هؤلاء القوم»[٥].

ولذلك يُعَد جابر أوَّل مَنْ أدخل التجربة العلميَّة المخبريَّة في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده، وكان أحيانًا ما يُسمِّي التجرِبة بالتدريب، فكان يقول: «فمَنْ كان دَرِبًا كان عالمًا حقًّا، ومن لم يكن دَرِبًا لم يكن عالمًا، وحسبُك بالدُّرْبَة في جميع الصنائع أن الصانع الدَّرِب يحذق، وغير الدَّرِب يعطل»[٦]!!

وعليه يكون جابر قد قطع خطوة أبعد مما قطع علماء اليونان قبله في وضع التجرِبة أساس العمل لا اعتمادًا على التأمُّل الساكن. يقول قدري طوقان: يمتاز جابر على غيره من العلماء بكونه في مقدِّمة الذين عملوا التجارِب على أساس علمي، وهو الأساس الذي نسير عليه الآن في المعامل والمختبرات؛ إذ دعا إلى الاهتمام بالتجرِبة وحثَّ على إجرائها مع دقَّة الملاحظة، كما دعا إلى التأنِّي وترك العجلة، وقال: إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة، وإن المعرفة لا تحصل إلاَّ بها[٧].

---

(١) الرازي: هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥١- ٣١٣هـ/ ٨٦٥- ٩٢٥م) الطبيب الفيلسوف، ولد في الرَّيِّ، وتوفي ببغداد. من كتبه: «الحاوي في الطب». انظر: ابن النديم: الفهرست ص٤١٥-٤١٧، والصفدي: الوافي بالوفيات ٣/ ٦٢.

(٢) الحسن بن الهيثم: هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم (٣٥٤- ٤٣٠هـ/ ٩٦٥- ١٠٣٩م)، ويلقَّب ببطليموس الثاني، رياضي، مهندس، طبيب، حكيم. ولد بالبصرة، وتوفي بالقاهرة. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/ ٣٧٢-٣٧٦، وكحالة: معجم المؤلفين ٩/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٣) ابن النفيس: هو علاء الدين علي بن أبي الحزم القَرْشي (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، أعلم أهل عصره بالطب. أصله من بلدة قَرْش (في ما وراء النهر)، ومولده في دمشق، وتوفي بمصر. انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٤٠٠، ٤٠١.

(٤) جابر بن حيان: كتاب التجريد، ضمن مجموعة حققها ونشرها هولميارد بعنوان: مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر ابن حيان، باريس ١٩٢٨م.

(٥) جابر بن حيان: كتاب الخواص الكبير ص٢٣٢.

(٦) جابر بن حيان: كتاب السبعين ص٤٦٤.

(٧) قدري طوقان: مقام العقل عند العرب ص٢١٧، ٢١٨.

ولعل الرازي يكون هو أول طبيب في العالم يستخدم هذا المنهج التجريبي، وذلك من خلال إجراء تجاربه على الحيوانات، وخاصةً القرود، لاختبار طرق العلاج الجديدة قبل أن يُجْرِيَها على الإنسان، وهو منهج علمي رائع لم يُقِرَّه العالَمُ إلاَّ منذ فترة وجيزة؛ ففي منهجه الذي سار عليه تراه يقول: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة مع النظريَّة السائدة يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظريات السائدة تأييدًا لمشاهير العلماء»[(١)]! فهو يقرِّر أن الجميع قد ينبهر بآراء العلماء المشهورين الكبار، ويتوقَّف عند نظرياتهم، إلاَّ أن التجرِبة أحيانًا ما تتعارض مع النظرية، فهنا يجب علينا رفض النظرية -وإن كانت لمشاهير العلماء- وقَبول التجرِبة والواقعة، والبدء في تحليلها والاستفادة منها.

وبسبب المنهج التجريبي أيضًا حفلت كتب ابن الهيثم بانتقادات كثيرة لنظريات إقليدس[(٢)] وبطليموس[(٣)]، مع علوِّ قدرهما العلمي، ويتَّضح منهج ابن الهيثم العلمي إجمالاً من مقدِّمة كتابه (المناظر)، فقد بيَّن فيه بإيجاز الطريقة التي هداه تفكيره إلى أنها الطريقة المثلى في البحث، والتي اتَّبعها في بحوثه، يقول ابن الهيثم: «... ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفُّح أحوال المبصرات، وتمييز خواصِّ الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخصُّ البصر في حال الإبصار، وما هو مطَّرد لا يتغيَّر، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نرتقي في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدِّمات والتحفُّظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفَّحه استعمال العدل لا اتِّباع الهوى، ونتحرَّى في سائر ما نميِّزه ونتنقده طلب الحقِّ لا الميل مع الآراء»[(٤)].

فابن الهيثم أخذ في بحوثه بالاستقراء والقياس، واعتنى في البعض منها بالتمثيل، وهي عناصر البحوث العلميَّة العصريَّة، وابن الهيثم -كواحد من علماء المسلمين الذين

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٧٧، ٧٨.

(٢) إقليدس: (٣٢٥ ق.م - ٢٦٥ ق.م) هو رياضي يوناني، يعدّ مؤسس علم الهندسة، وأشهر كتبه كتاب الأصول.

(٣) بطليموس: هو كلاوديوس بطليموس (بين ٨٣- ١٦١م) أشهر الفلكيين الإغريق، وهو فلكي ورياضي وفيلسوف، ويعرف ببطليموس الحكيم، اختلف في نسبته إلى اليونان أو مصر، أشهر كتبه المجسطي في الفلك.

(٤) ابن الهيثم: المناظر، تحقيق د. عبد الحميد صبره ص٦٢.

أسَّسوا للمنهج التجريبي- لم يسبق فرنسيس بيكون[١] إلى طريقته الاستقرائيَّة فحسب، بل سما عليه سموًّا كبيرًا، وكان أوسع منه أفقًا وأعمق تفكيرًا، وإن لم يَعْنِ كما عَنِيَ بيكون بالتفلسف النظري.

ويذهب الأستاذ مصطفى نظيف[٢] إلى أكثر من هذا فيقول: «بل وإن ابن الهيثم قد عمَّق تفكيره إلى ما هو أبعد غورًا بما يظن أول وهلة، فأدرك ما قال من بعد (ماك) و(كارل بيرسون[٣]) وغيرهما من فلاسفة العلم المحدَثِين في القرن العشرين، وأدرك الوضع الصحيح للنظريَّة العلميَّة، وأدرك وظيفتها الحقَّة بالمعنى الحديث»[٤].

بل إن بعض علماء المسلمين اعتبر الكتابة غير دقيقة إن لم تسبقها تجارِب، فقال الجلدكي[٥] أحد أعلام الكيمياء من علماء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) عن الطغرائي[٦] (ت ٥١٣هـ) الكيميائي المعروف: «كان الطغرائي رجلاً على جانب عظيم من الذكاء، ولكنه لم يعمل إلاَّ قليلاً من التجارِب، وهذا أمر يجعل كتاباته غير دقيقة»[٧].

وهكذا يكون المسلمون قد توصَّلوا إلى المنهج العلمي التجريبي، والذي من خلاله تعلَّمت البشريَّة كيف تصل إلى الحقيقة العلميَّة بثقةٍ واقتدار، بعيدًا عن الظنون والأوهام والأهواء.

---

(١) فرانسيس بيكون Francis Bacon: (١٥٦١-١٦٢٦م) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف في الغرب بأنه مؤسس العلم التجريبي القائم على الملاحظة والاستنتاج، والرافض لأنْ يكون منطق أرسطو صالحًا للحكم العلمي.

(٢) مصطفى نظيف: (١٨٩٣- ١٩٧١م) من أبرز العلماء المصريين في القرن العشرين، تخصص في الطب والفيزياء، وكان له اهتمام عظيم بالتراث العلمي للحضارة الإسلامية، وأولى اهتمامًا خاصًّا بتراث الحسن بن الهيثم، وكان من أوائل المطالبين بتعريب العلوم.

(٣) كارل بيرسون Karl Pearson: (١٨٥٧- ١٩٣٦م) هو محام ورياضي إنجليزي، يعدّ واضع أسس الإحصاء الرياضي. أسس أول قسم للإحصاء في العالم في كلية لندن عام ١٩١١م.

(٤) قدري طوقان: مقام العقل عند العرب ص٢٢٣.

(٥) الجلدكي: (ت بعد ٧٤٢هـ- بعد ١٣٤١م) هو عز الدين علي بن محمد بن أيدمر الجلدكي، كيميائي وفيلسوف، أحد أشهر علماء الكيمياء. ينسب إلى «جلدك» بخراسان. من كتبه: «كنز الاختصاص في معرفة الخواص». انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون ٢/ ١٥١٢، والزركلي: الأعلام ٥/ ٥.

(٦) الطُّغرائي: هو أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد الأصبهاني (٤٥٣- ٥١٣هـ/ ١٠٦١- ١١١٩م)، المعروف بالطغرائي، أديب، خبير بصناعة الكيمياء. ولد بأصبهان، وولي ديوان الإنشاء والوزارة، وقُتل. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٨٥-١٩٠، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٢/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٧) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص٢١٨.

المبحث الثاني

الجانـــب العملـي

يُعَدُّ «الجانب العملي» طريقة جديدة أيضًا ظهرت في عصر المسلمين، وخاصة إذا قورنت حضارة المسلمين فيها بحضارة الإغريق واليونان.

فكثيرًا ما كان العلماء الأقدمون قبل الإسلام يبتكرون النظريات المختلفة، وكثيرًا ما تكون هذه النظريات صحيحة، بل عبقريَّة، ومع ذلك فإن أغلبها -مع صحَّته ودقَّته- كان يظلُّ حبيس الأوراق والمجلدات، ولم يجد التطبيق العملي في واقع الناس، وهذا هو ما نعنيه بالجانب العملي في العلوم، حيث تطبيق النظريات بما يخدم ويفيد الإنسانيَّة، حتى إذا كان في وسائل الترفيه.

فعندما جاء المسلمون، ومن منطلق إعمار الأرض وإصلاحها بدأ العلماء المسلمون في تحويل كل نظريَّة صحيحة إلى عمل مفيد يتحقَّق منه الخير للناس.

وقد كان من أمثلة ذلك ما قام به أولاد موسى بن شاكر[١] من اختراعٍ لآلات الريِّ، وآلات رفع الماء إلى أعالي الجبال، وكذلك اختراع الساعات الدقيقة، معتمدين في ذلك على نظريَّات قديمة، إضافةً إلى نظريات استحدثوها، جعلتهم في النهاية ينفعون مجتمعهم، بل والإنسانية كلها، بدلاً من الاعتكاف للتفكير فقط!

كذلك فعل الزهراوي[٢] فاخترع عددًا هائلاً من الآلات الجراحيَّة، وكان على سبيل المثال يعلم نظريًّا أن الدواء إذا اختلط بالدم مباشرة فإنه يُحدِث أثرًا أسرع، فأدَّى هذا إلى اختراعه الحقنَةَ، لكي يصل فعلاً بالدواء إلى الدم بصورة أسرع، وهكذا[٣].

---

(١) موسى بن شاكر: والد المهندسين الثلاثة المعروفين ببني موسى. كان في شبابه من قُطّاع الطرق، وتاب فدخل في خدمة المأمون، وتعلم التنجيم وهيئة الأفلاك. مات (نحو ٢٠٠هـ/ نحو ٨١٥م) وأبناؤه صغار، فجُعلوا في بيت الحكمة، ونبغوا. انظر: ابن العبري: مختصر الدول ص٢٦٤، والزركلي: الأعلام ٧/ ٣٢٣.

(٢) الزهراوي: هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م) طبيب، عالم، يعدّ أول من ألّف في الجراحة، وأول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف. ولد في الزهراء (قُرب قرطبة)، وإليها نسبته. انظر: ابن بشكوال: الصلة ١/ ٢٦٤، والزركلي: الأعلام ٢/ ٣١٠.

(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٣١، ٣٣٢.

وكذا فعل ابن البيطار[(١)] عندما أدخل أكثر من ثمانين دواءً مفيدًا إلى ساحة الطبِّ[(٢)]، وكذلك جابر بن حيان الذي استغلَّ بعض المعادلات الكيميائيَّة لاختراع (معطف) للمطر لا يتأثَّر بالماء، ولاختراع أوراق لا تحترق يُكتب عليها المعلومات المهمَّة جدًّا[(٣)].

ولعلنا ندرك بعدُ قيمة بحوث علماء المسلمين عندما نرى النظريات الفلسفيَّة الكثيرة التي ألَّفها علماء الإغريق واليونان لكنهم لم يسقطوها على الواقع، وبالتالي لم يستفيدوا منها، ولم تستفد كذلك البشريَّة.

***

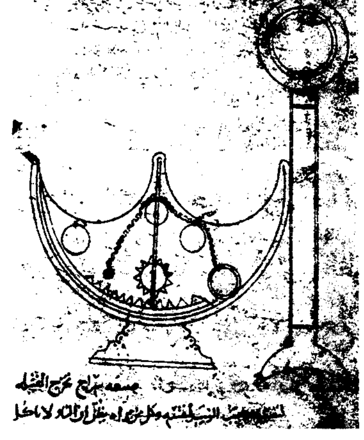
(١) ابن البيطار: هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، إمام النباتيين وعلماء الأعشاب، وهو صاحب كتاب «الأدوية المفردة». توفي بدمشق. انظر: الكتبي: فوات الوفيات ٢/ ١٥٩، ١٦٠.

(٢) المقري: نفح الطيب ٢/ ٦٩٢.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٧٥، ٤٧٦.

المبحث الثالث
الفـــــرق العلميَّـــة

«الفرق العلمية» أساس جديد كذلك غيَّر به المسلمون من نمط وطريقة تفكير العلماء السابقين؛ فلأوَّل مرَّة في التاريخ يُكوِّن المسلمون فريقًا علميًّا متكاملاً، فيه أكثر من عالم في أكثر من مجال؛ ليُخرِجوا لنا في النهاية عملاً متكاملاً مفيدًا، لم يكن ليرى النور إلا باعتماده على أكثر من تخصُّص من العلوم.



صورة (١) كتاب الحيل لأولاد موسى بن شاكر

ويُنسب إلى أولاد موسى بن شاكر (محمد والحسن وَأحمد) أنهم أوَّل وأشهر فريق علمي جماعي في التاريخ؛ حيث كان محمد عالمًا في الهندسة، وَأحمد عالمًا في الفلك، والحسن عالمًا في الميكانيكا، وقد ألَّفوا معًا كتاب (الحيل) الذي اتَّضحت فيه رُوح الفريق العلمي بشكل مباشر، وتجسَّد فيه مبدأ العمل الجماعي القائم على المشاركة والتعاون؛ فالكتاب من أوَّله إلى آخره ينطق بصيغة الجماعة.

ومن قبيل ذلك: «قال محمد والحسن وَأحمد: الشكل الأول، نريد أن نبيِّن كيف نعمل كأسًا يصبّ فيه مقدار من الشراب أو الماء، فإن زيد عليه زيادة بقدر مثقال من الشراب أو الماء خرج كل شيء فيه»[١]. «ونريد أن نبيِّن كيف نعمل جرَّة لها بُزَال مفتوح، إذا صُبَّ فيها الماء لم يخرج من البُزَال شيء، فإذا انقطع الصب خرج الماء من البُزَال، فإذا أُعِيدَ الصبُّ انقطع أيضًا، وإن قطع الصبُّ خرج الماء، وهكذا لا يزال..»[٢]. «ونريد أن نبيِّن كيف نعمل فوَّارتين يفور من أحدهما شبه القناة ومن الآخر شبه السوسنة مدَّة من الزمان، ثم يتبادلان فيخرج من التي كانت تفور قناة سوسنة، ومن التي كانت تفور سوسنة قناة

(١) بنو موسى بن شاكر: كتاب الحيل، تحقيق أحمد يوسف الحسن وآخرون، معهد التراث العلمي العربي، ١٩٨١م، مقدمة المحقق، ص٥٧.
(٢) المصدر السابق ص٩.

مقدار ذلك من الزمان، ولا يزال على هذا ما دام الماء ملصقًا فيها»[1].

وغير ذلك كثير، مما يدل على نضج عقليَّة أولاد موسى بن شاكر كفريق علمي متكامل، كما تبرز أهمية وقيمة العمل الجماعي، أو فريق العمل في المجال العلمي.

ولا ريب أن هذا التكامل وذاك المزيج من مختلف التخصُّصات بين هؤلاء الإخوة قد أدَّى إلى الوصول إلى حقائق علميَّة كان من الصعب التوصُّل إليها إلاَّ باشتراك أكثر من عالم في أكثر من تخصُّص؛ وذلك مثل القياس الدقيق لقُطْر الأرض، أو صناعة الأَسْطُرْلاَب الضخم الذي يُمَكِّن من حساب حركة الأجرام بدقَّة كبيرة.

على أن هذا الأمر لم يكن مقصورًا على هذا الفريق العلمي المتميِّز، بل تكرَّر في علوم كثيرة، ووجدنا تعاونًا لافتًا للنظر بين علماء الطبِّ والصيدلة والنبات والحيوان، وكذلك بين علماء الجيولوجيا والجغرافيا والفَلَك، وهكذا.

وقد تجسَّد ذلك مع الرازي الطبيب المشهور، بين تلامذته؛ فترى ابن النديم يصفه فيقول: «أوحد دهره، وفريد عصره، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء وسِيَّما الطب، وكان ينتقل في البُلدان... وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ أخر، وكان يجيء الرجل المريض فيصف ما يجد لأوَّل من تلقَّاه، فإن كان عندهم علم وإلاَّ تعدَّاهم إلى غيرهم، فإن أصابوا وإلاَّ تكلم الرازي في ذلك، وكان كريمًا متفضِّلاً بارًّا بالناس، وحَسَنَ الرأفة بالفقراء والأعِلاَّء (المرضى)، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم»[2].

فكان تلاميذ الرازي بمنزلة فرق علمية، كل فريق منهم يدلي برأيه ودلوه في المسألة المطروحة، حتى يصلون فيها إلى نتيجة، وعلى رأسهم جميعًا يجلس الرازي الذي يسمع ويتابع ويصوِّب، ثم يقف معهم في معضلات المسائل فيبسطها هو معهم!

على أن الأمر لم يكن مقتصرًا فقط على العلوم الحياتية، بل رأينا كذلك الفِرَق العلمية في المجالات الشرعية؛ فرأينا المجامع الفقهية التي تجتمع لبحث قضية معينة مستعينة في ذلك بمجموعة كبيرة من العلماء في مجالات القرآن والحديث والفقه والعقيدة وغير ذلك؛ مما أثرى جدًّا الحركة العلمية، وأدَّى إلى سرعة نضوجها.

---

(١) كتاب الحيل ص٣٥٦.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص٣٥٦.

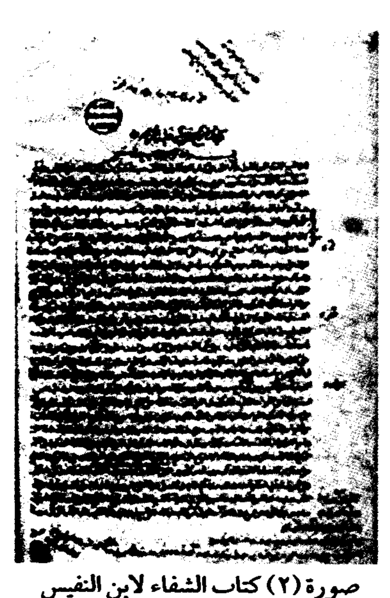
المبحث الرابع

الأمـــــانة العلميَّة

مبدأ الأمانة العلميَّة مبدأ جديد كذلك لم يُعرف إلا بعد ظهور الإسلام، وذلك أنه في ظلِّ غياب الدين والخُلُق لن يتورَّع إنسان عن نسبة الاكتشافات المختلفة لنفسه بُغْيَة التربُّح والشهرة.

وإن كانت الأمانة العلميَّة تقتضي احترام الحقوق الفكريَّة والعلميَّة، ونسبة الجُهد والاكتشاف لصاحبه وأهله، إلاَّ أن علماء المسلمين عانوا كثيرًا من سرقة أبحاثهم واكتشافاتهم، ونسبتها إلى غيرهم من علماء الغرب ممن وُلِدُوا بعدهم بعشرات أو مئات السنين.

وليس خافيًا على أحد الآن تلك السرقة الشنيعة التي حدثت لعالمنا الجليل ابن النفيس مكتشف الدورة الدمويَّة الصغرى (Pulmonar Circulation)، حيث قام بتسجيلها بدقَّة في كتابه (شرح تشريح القانون)، غير أن هذه الحقيقة ظلَّت مختفية قرونًا طويلة، ونُسِبت فيما بعد وهمًا إلى الطبيب الإنجليزي وليام هارفي[1] الذي بحث في دورة الدم بعد وفاة ابن النفيس بأكثر من ثلاثة قرون، وظلَّ الناس يتداولون هذا الوهم حتى أبان عن الحقيقة الدكتور المصري محيي الدين التطاوي.



صورة (٢) كتاب الشفاء لابن النفيس

وكان الطبيب الإيطالي ألباجو قد ترجم في سنة (٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م) أقسامًا من كتاب ابن النفيس (شرح تشريح القانون) إلى اللاتينيَّة، وهذا الطبيب أقام ما يقرب من ثلاثين عامًا في (الرُّها)، وأتقن اللغة العربيَّة لينقل منها إلى اللاتينيَّة، وكان القسم

(١) وليام هارفي: William Harvey (١٥٧٨ - ١٦٥٧م) طبيب إنجليزي، يعرف في الغرب على أنه مكتشف حقيقة الدورة الدموية، وعمل القلب كمضخَّة.

المتعلق بالدورة الدمويَّة في الرئة ضمن ما ترجمه من أقسام الكتاب، غير أن هذه الترجمة فُقِدَت، واتُّفِقَ أن عالمًا إسبانيًّا ليس من رجال الطبِّ كان يُدْعَى (سيرفيتوس) كان يدرس في جامعة باريس اطَّلع على ما ترجمه ألباجو من كتاب ابن النفيس، ونظرًا لاتهام سيرفيتوس في عقيدته، فقد طُرِد من الجامعة، وتشرَّد بين المدن، وانتهى به الحال إلى الإعدام حرقًا هو وأكثر كُتُبِه في سنة (١٠٦٥هـ/ ١٥٥٣م)، وشاء الله أن تبقى بعض كتبه دون حرق، وكان من بينها ما نقله من ترجمة ألباجو عن ابن النفيس فيما يخصُّ الدورة الدموية، واعتقد الباحثون أن فضل اكتشافها يعود إلى هذا العالم الإسباني ومِنْ بعده هارفي حتى سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م)، حتى صحَّح الطبيب المصري الدكتور محيي الدين التطاوي هذا الوهم، وأعاد الحقَّ إلى صاحبه؛ وذلك حين عثر على نسخة من مخطوطة (شرح تشريح القانون) لابن النفيس في مكتبة برلين، وقام بإعداد رسالة في الدكتوراه عنها، وعُنِيَ فيها بجانب واحد من جوانب هذا الكتاب العظيم، ألا وهو موضوع: (الدورة الدموية تبعًا للقرْشي)، وذلك سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م).

وقد ذُهل أساتذتُه والمشرفون على الرسالة، وأصابتهم الدهشة حين اطَّلعوا على ما فيها، وما كادوا يصدقونه! ولجهلهم باللغة العربيَّة بعثوا بنسخة من الرسالة إلى المستشرق الألماني الدكتور (مايرهوف)[1] الذي كان آنذاك مقيمًا في القاهرة، وطلبوا رأيه فيما كتبه الباحث، وكانت النتيجة أن أيَّد مايرهوف الدكتور التطاوي، وكتب في أحد بحوثه عن ابن النفيس: «إن ما أذهلني هو مشابهة، لا بل مماثلة، بعض الجمل الأساسيَّة في كلمات سيرفيتوس لأقوال ابن النفيس التي تُرجِمت ترجمة حرفيَّة... أي أن سيرفيتوس، وهو رجل دين متحرِّر وليس طبيبًا، قد ذكر الدورة الدمويَّة في الرئة بلغة ابن النفيس الذي عاش قبله بما يزيد على القرن والنصف». ثم أبلغ مايرهوف حقيقة ما كشفه من جهود ابن النفيس إلى المؤرِّخ (جورج سارتون)[2]، فنشر هذه الحقيقة في آخر جزء من كتابه المعروف

---

(١) ماكس مايرهوف Max Meyerhof: (١٢٩١- ١٣٦٤هـ/ ١٨٧٤- ١٩٤٥م) مستشرق وطبيب عيون ألماني، وأحد أبرز المستشرقين الغربيين، تعلم العربية وزار مصر عام ١٩٠٣م واستقر بها، وتوفي بالقاهرة. اهتم اهتمامًا خاصًّا بتاريخ الطب والصيدلة في الحضارة الإسلامية.

(٢) جورج سارتون George Sarton: (١٨٨٤- ١٩٥٦م) من أبرز مؤرخي العالم، بلجيكي الأصل، متخصص في العلوم الطبيعية والرياضية، حاضر في الجامعات الأمريكية وفي الجامعة الأمريكية في بيروت، أشهر كتبه (تاريخ العلم).

(تاريخ العلم)[١]!!

وقد اطلع (ألدو ميلي)[٢] على المَتْنَيْنِ فقال: «إن لابن النفيس وصفًا للدوران الصغير تُطابِق كلماتُه كلمات سيرفيتوس تمامًا، وهكذا فمن الحق الصريح أن يُعْزَى كشف الدوران الرئوي إلى ابن النفيس لا إلى سيرفيتوس أو هارفي»[٣].

وإن مثل هذه السرقات وانعدام مبدأ الأمانة العلميَّة في حقِّ العلماء المسلمين ليست بالشيء القليل، ويكفي أن نسرد سريعًا هنا الحقائق التالية:

- نُسب علم الاجتماع إلى دوركايم[٤] اليهودي الفرنسي، بينما الذي اكتشف هذا العلم وأسَّسه -كما سيأتي بيانه- هو العلاَّمة المسلم ابن خلدون.

- نُسبت قوانين الحركة لإسحاق نيوتن، بينما الذي اكتشف هذه القوانين -كما سيتَّضح ذلك أيضًا فيما بعد- عالمان مسلمان هما: ابن سينا، وهبة الله بن مَلْكا[٥].

- وجدنا في كتاب روجر بيكون[٦] المعروف بـ (Cepus Majus) فصلاً كاملاً، هو الفصل الخامس، ما هو إلا ترجمة حرفية لكتاب المناظر لابن الهيثم، وذلك دون أن يشير بتاتًا إلى المؤلِّف الأصلي للمادَّة.

لقد حدث كل ذلك مع المسلمين، أمَّا المسلمون فكان دَيْدَنُهم منهجًا آخر، إنه منهج الأمانة العلميَّة، ونسبة الجُهد والفضل لأهله، وهو المنهج الذي لم يجعل عالمًا منهم يدَّعي

(١) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٨، وعلي عبد الله الدَّفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥١.

(٢) ألدو ميلي Aldo Mieli: (١٨٧٩- ١٩٥٠م) مستشرق إيطالي، وصاحب كتاب (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي).

(٣) راجع علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥١.

(٤) دوركايم Durkheim: (١٨٥٨- ١٩١٧م) عالم اجتماع فرنسي، عمل محاضرًا لعلم الاجتماع في جامعة بوردو، وفي السوربون في باريس، يعرف في الغرب بأنه مؤسس علم الاجتماع.

(٥) هبة الله بن مَلْكا: هو أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البَلَدي (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)، المعروف بأوحد الزمان، طبيب، من سكان بغداد. كان يهوديًّا وأسلم في آخر عمره، وكان في خدمة المستنجد بالله العباسي، وحظي عنده. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ٣١٣- ٣١٦، والزركلي: الأعلام ٨/ ٧٤.

(٦) روجر بيكون: (١٢١٤- ١٢٩٢م) كان فيلسوفًا وعالمًا إنجليزيًّا، وهو يعدّ واحدًا من الشخصيات الرائدة في تطوير العلوم في القرون الوسطى. عُرف في الغرب بصفته مؤسسًا للعلوم التجريبية، وبأنه أحد الباحثين الأوائل في دراسة علم البصريات.

اكتشافًا أو سبقًا علميًّا نقله من عالم آخر من علماء الحضارات الأخرى، بل امتلأت كتبهم بأسماء العلماء الذين نقلوا عنهم، وذلك مثل: أبقراط[1] وجالينوس[2] وسقراط وأرسطو وغيرهم، وقد أنزلوهم منزلتهم، وأعطوهم التقدير الكافي والتبجيل الواضح، ولم يكن يُغْفَل اسم واحد منهم، حتى ولو كان إسهامه في الكتاب قليلاً.

وعلى سبيل المثال فقد ذكر أولاد موسى بن شاكر في كتابهم (معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكريَّة) ما نصُّه: **«فكل ما وصفنا في كتابنا فإنه من عملنا، إلا معرفة المحيط من القطر؛ فإنه من عمل أرشميدس[3]، وإلا معرفة وضع مقدارين بين مقدارين لتتوالى على نسبة واحدة؛ فإنه من عمل مانالاوس[4]»[5].**

ولك أن تستمع أيضًا إلى كلام العلاّمة الإسلامي الطبيب المشهور أبي بكر الرازي صاحب كتاب (الحاوي) -من أعظم الكتب في تاريخ الطب- وهو يقول: «.. ولقد جمعتُ في كتابي هذا جملاً وعيونًا من صناعة الطبِّ مما استخرجتُه من كتب (أبقراط)، و(جالينوس)، و(أرماسوس)... ومَنْ دونهم من قدماء فلاسفة الأطباء، ومَنْ بعدهم من المحدَثِين في أحكام الطبِّ مثل: (بولس)، و(آهرون)، و(حنين بن إسحاق)[6]، و(يحيى ابن ماسويه)[7]... وغيرهم»[8].

---

(١) أبقراط: هو أبقراط بن أيراقليدس (٤٦٠ ق.م - ٣٥٥ ق.م)، يلقب بأبي الطب، من أشهر الشخصيات العلمية في التاريخ، تعلم الطب على أبيه وبرع فيه، وينسب إليه فكرة القسم الذي يقسمه الأطباء.

(٢) جالينوس: (١٣٠ - ٢٠٠م) طبيب يوناني من أشهر الأطباء في التاريخ، ويعدّ من مؤسسي الطب الكبار، خصوصًا علم التشريح.

(٣) أرشميدس: (٢٨٧ ق.م - ٢١٢ ق.م) عالم طبيعة ورياضيات، يعدّ من أعظم علماء الرياضيات في العصور القديمة، وهو أبو الهندسة.

(٤) مانالاوس: هو آكر مانالاوس، عاش في حدود القرن الأول الميلادي، من أعلام الهندسة اليونانيين، له مؤلفات اعتنى بها المسلمون في الأشكال الكرية وفي الأسطرلاب. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ١٤٢.

(٥) بنو موسى بن شاكر: كتاب معرفة مساحة الأشكال، بتحرير نصير الدين الطوسي، ص٢٥.

(٦) حنين بن إسحاق: هو أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي (١٩٤- ٢٦٠هـ/ ٨١٠- ٨٧٣م) طبيب، مؤرخ، مترجم، من أهل الحيرة بالعراق، كان عالمًا باللغة اليونانية والسريانية والفارسية، اتصل بالخليفة المأمون فجعله رئيسًا لديوان الترجمة. انظر: ابن النديم: الفهرست ص٤٠٩، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٢٨-١٣٧.

(٧) يحيى بن ماسويه (يوحنا): هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه، طبيب خبير بصناعة الطب. سرياني الأصل، عربي المنشأ. خدم الرشيد والمأمون ومن بعدهما إلى أيام المتوكل، بمعالجتهم وتطبيب مرضاهم. توفي بسامرَّاء سنة (٢٤٣هـ/ ٨٥٧م). انظر: ابن النديم: الفهرست ص٤١١، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٠٩-١٢٢.

(٨) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٧٠.

وفوق هذا فإننا كنا نجد في المكتبة الإسلاميَّة كتب العلماء الأجانب مترجمة في نسخ منفصلة منسوبة لأصحابها، وكان كثيرًا ما يقوم عالم من علماء المسلمين بالتعليق عليها دون أن يتدخَّل في مَتْنِهَا؛ لكي يحافظ على فكرة المؤلِّف دون تحريف، وهذا مثل تعليق العالم المسلم الفارابي[1] على كتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو.

فهذه الأمانة العلميَّة المشرِّفة كانت بالفعل من أعظم مناقب علماء المسلمين، ومن أهمِّ الأُسُس التي غيَّر بها المسلمون من نمط وطريقة تفكير العلماء السابقين، وخاصَّة أن المعاصرين من أبناء الأمم الأخرى لم يكونوا يعرفون تاريخ أجدادهم، وبالتالي فقد كان من السهل جدًّا أن تُسرق أبحاثهم، لولا البُعد الأخلاقي العميق عند علماء المسلمين.

***

(١) الفارابي: هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (٢٦٠- ٣٣٩هـ/ ٨٧٤- ٩٥٠م) التركي الحكيم المشهور، وهو أكبر فلاسفة المسلمين. ولد في فاراب، وتوفي بدمشق. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٥٣-١٥٦.

الفصل الثالث
المؤسسة التعليمية

ساعدت المؤسسات التعليمية على ازدهار الحضارة الإسلامية ورقيها، وكانت لجميع المراحل العمرية، بدءًا من الكُتَّابِ وانتهاءً بالأكاديمية العلمية، وقد تأسَّست في العالم الإسلامي المعاهد، والجامعات، والكليات، والمراصد، والمكتبات الكبرى، وكلها كانت أماكن للبحث والدرس والتأليف الأصيل.

ومن دون شك، فإن ظهور الإسلام كان بمنزلة ثورة علمية حقيقية في بيئة ما أَلِفَتْ رُوح العلم، وما تَعَوَّدَتْ عليه؛ لدرجة أن المرحلة السابقة لنزول أوَّل كلمات القرآن صارت تُعْرَفُ باسم (الجاهلية)! فصفة (الجهل) ترتبط بما هو قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام ليبدأ العلم، ولِتُنَار الدنيا بنور الهداية الربانية.

فقد اقترن ظهور الإسلام بالدعوة إلى التعليم منذ بداية التنزيل، «فالرسالة لم تبدأ بالدعوة إلى إقامة الشعائر -بمعناها الخاصِّ من صوم وصلاة وحج وزكاة- ولا بالحديث عن أركان الإسلام وأسس بنائه، ولا ببيان نظام التعامل الاقتصادي، ولا بمرتكزات الحياة السياسيَّة ومقوماتها، ولا ببيان القيم الأخلاقيَّة، ولا حتى ببيان أركان العقيدة، وإنما بدأ بمِفْتَاح ذلك كلِّه، ومحورِ ذلك كلِّه -كما سبق أن ذكرنا- بدأ بـ ﴿ اقْرَأْ﴾»[1].

ولهذا كان لا بُدَّ من وجود أَمْكِنَة للتعليم، ينهل منها طلاب العلم، ويتمكَّنُونَ من لقاء الشيوخ والعلماء، وتُعْقَدُ فيها حلقات العلم والمناظرات، في جوٍّ يتلاءم مع الحياة العلمية. وعلى هذا فيُمْكِنُ عرضُ بعضٍ من المؤسسات التعليمية التي كانت مراكز تعليم في الحضارة الإسلامية في المباحث الآتية:

- **المبحث الأول: الكتاتيب**
- **المبحث الثاني: المساجد**
- **المبحث الثالث: المدارس**

---
(١) د. قطب مصطفى سانو: النظم التعليمية الوافدة في إفريقيا ص١٧.

المبحث الأول

الكتـــــاتيب[1]

يُعَدُّ الكُتَّاب من أقدم المراكز التعليمية عند المسلمين، وقيل بأن العرب عَرَفُوه قبل الإسلام، ولكن على نطاق محدود جدًّا، وكانت مكانة الكُتَّاب في القرون الهجرية الأولى عالية الشأن؛ إذ يُعِدُّ لبداية تعليم أعلى، «فكان الكُتَّاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر، وكان من الكثرة بحيث عدَّ ابن حوقل[2] ثلاثمائة كُتَّاب في مدينة واحدة من مدن صقلية»[3].

وكان الهدف من إنشاء الكتاتيب قد تمثّل في تعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، وقد اهتم النبي ﷺ بتعليم الأطفال والشباب، إذ أمر ﷺ أسرى المشركين عقب بَدْر، أن يُعلِّم كل واحد منهم «عشرةً من الغلمان الكتابة، ويخلِّي سبيله، فيومئذٍ تعلّم الكتابةَ زيدُ بن ثابتٍ في جماعةٍ من غلمة الأنصار»[4].

وكان الأطفال في الكتاتيب يُعلَّمون احترام اللغة العربية، خاصةً إذا كتبوا في ألواحهم آيات من القرآن الكريم، أو أحاديث النبي ﷺ؛ فقد قيل لأنس بن مالك الصحابي الجليل رضي الله عنه (ت ٩٣هـ): «كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم؟ قال أنس: كان المؤدب له أجانة[5]، وكل صبي يأتي كل يوم بنوبته (بترتيبه) ماء طاهرًا، فيصبُّونه فيها، فيمحون به ألواحهم. قال أنس: ثم يحفرون حُفرة في الأرض، فيصبون ذلك الماء فيها فينشف. قلت: أفترى أن يلعط[6]؟ قال: لا بأس به، ولا يُمسح بالرجل، ويُمسحُ بالمنديل وما أشبهه. قلت: فما ترى فيما يكتب الصبيان في الكتاب من المسائل؟ قال: أما ما كان من ذكر الله فلا يمحوه برجله، ولا بأس أن يمحو

(١) الكَتَاتِيبُ جمع كُتَّاب: وهو موضع تعليم الكُتَّاب أي الصبيان. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كتب ١/ ٦٩٨.
(٢) ابن حوقل: هو أبو القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٥٠هـ) رحّالة وجغرافي ومؤرخ، أشهر مؤلفاته هو التعليق والتنقيح لكتاب المسالك والممالك للإصطخري، وتعليقه بنفس الاسم. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ١١١.
(٣) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١٠٠.
(٤) السهيلي: الروض الأنف ٣/ ١٣٥.
(٥) إناء من فخار يُوضع فيه الماء.
(٦) يلعط أي يلحس، ولعل المراد هنا انطباع الأحبار على الأيدي أو الأرجل.

غير ذلك مما ليس في القرآن»[١].

فهذه الصورة الرائعة تعبر أصدق تعبير عما كان في نفوس أبناء ذلك العصر من احترام للحرف العربي عندما يكتب به الوحي الإلهي، فيختارون الماء الطاهر لمسحه، ويحفرون له في الأرض ويصبونه لينشف[٢].

وقد اشتهر عدد من المعلِّمين في الكتاتيب وذاع صيتهم، فكان الحجاج بن يوسف الثقفي[٣] مُعَلِّمًا بأحد الكتاتيب؛ يُعَلِّم الصبيان ويأجرونه خبزًا[٤]، وعُرِفَ عن الضحاك ابن مزاحم أنه كان مُؤَدِّبًا للصبيان في أحد كتاتيب الكوفة، وكان لديه ثلاثة آلاف صبي[٥]! ويَرْوِي ياقوت الحموي[٦] في (معجم الأدباء) أن كُتَّاب أبي القاسم البلخي كان به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان فسيحًا جدًّا يَتَّسِعُ لهذا العدد؛ لذا احتاج البلخي أن يركب حمارًا ليتردَّدَ بين هؤلاء وأولئك، ويُشْرِفَ على جميع تلاميذه[٧].

وقد تعلم كثير من كبار الفقهاء والعلماء في الكتاتيب في صغرهم، فيحكي الإمام الشافعي عن مرحلة الكُتَّاب في صغره فيقول: «كنت يتيمًا في حجر أُمِّي، فدفعتني في الكُتَّاب، فلمَّا خَتَمْتُ القرآن دخلتُ المسجد فكنتُ أُجَالِس العلماء»[٨].

وظهرت الكتاتيب في الشام بعد الفتح مباشرة، وتعلم فيها أبناء الفاتحين، يقول أدهم بن محرز الباهلي الحمصي[٩]: «أنا أول مولود ولد بحمص -يعني من المسلمين- وأول

---

(١) ابن سحنون: آداب المعلمين ص٤٠، ٤١.

(٢) انظر: أكرم العمري: عصر الخلافة الراشدة ص٢٨١.

(٣) الحجاج بن يوسف الثقفي: هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي (٤٠- ٩٥هـ/ ٦٦٠- ٧١٤م)، قائد، داهية، خطيب. ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ثم العراق. ولد ونشأ في الطائف، وتوفي بواسط (بين الكوفة والبصرة). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١١/ ٢٣٦-٢٤١، والزركلي: الأعلام ٢/ ١٦٨.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٣٠.

(٥) الذهبي: العبر ١/ ٩٤.

(٦) ياقوت الحموي: هو أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي (٥٧٤- ٦٢٦هـ/ ١١٧٨- ١٢٢٩م) مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين. من أشهر مصنفاته: (معجم البلدان)، و(إرشاد الأريب). انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ١٢٨.

(٧) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١/ ٤٩١.

(٨) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤٧٣.

(٩) أدهم بن محرز: هو أدهم بن محرز بن أسيد الباهلي (نحو ١٠٠هـ/ ٧١٨م) تابعي فارس، وقائد عسكري كبير، وشاعر من أهل حمص. كان فارس أهل الشام ورجلهم في أيامه. انظر: الزركلي: الأعلام ١/ ٢٨٢.

مولود رُئِي في كتف -يعني يحمل كتفًا مكتوبًا فيه القرآن- وأنا أختلف إلى الكُتَّاب أتعلم الكتاب -يعني القرآن-»[١]. وممن تعلم في كتاتيب الشام وهو صبي إياس بن معاوية المزني قاضي البصرة الشهير[٢].

وقد كان الآباء يحرصون على أن يذهب أبناؤهم إلى المعلمين المجيدين، الذين لهم باع ودُربة على تعليم الأطفال، فكان من جملة هؤلاء، المسلم بن الحسين بن الحسن أبو الغنائم، (ت ٥٤٤ هـ) الذي قال عنه ابن عساكر: «اشتغل بتأديب الصبيان، فحسن أثره في ذلك، وظهر له اسم في إجادة التعليم والحذق بالحساب حتى كثر زبونه»[٣].

وقد كان الأمراء والخلفاء يحترمون المعلمين والمؤدبين، وينزلون على آرائهم؛ احترامًا لهم، ولذلك كان المعلمون يتمتعون بالاحترام الوافي من قبل الناس جميعًا، فقد بعث هارون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله يستحضره؛ «ليسمع منه ابناه الأمين والمأمون، فأبى عليه، وقال: إن العلم يُؤتى، لا يأتي. فبعث إليه ثانيًا، فقال: أبعثهما إليك يسمعان مع أصحابك. فقال مالك: بشريطة أنهما لا يتخطيان رقاب الناس، ويجلسان حيث ينتهي بهما المجلس. فحضراه بهذا الشرط»[٤].

وقد شاركت المرأة في نشر التعليم في الكتاتيب منذ وقت مبكر، قال التابعي عبد ربه ابن سليمان: كتبت لي أم الدرداء في لوحي فيما تعلمني: «تعلموا الحكمة صغارًا تعملوا بها كبارًا»، وقالت: «إن لكل حاصد ما زرع من خير أو شر»[٥].

ولم تكن مُقَرَّرَات وموادُّ التعليم واحدة في العالم الإسلامي، بل اختلفت من قُطْرٍ لآخر، وإن كانت تشتمل على القرآن الكريم، والقراءة والكتابة، وأحاديث الأخبار[٦]، وبعض الأحكام الدينية، والشعر، وبعض مبادئ الحساب، وبعض قواعد اللغة العربية، وكانت مدَّة بقاء الطفل في الكُتَّاب خمسة أو ستة أعوام على الأكثر، وتكون في الغالب ابتداءً من السَّنَةِ الخامسة أو السادسة، ويحفظ الطفل خلال هذه الفترة القرآن كله أو

(١) ابن بدران: تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ٢/ ٣٦٧.
(٢) ابن بدران: السابق ٣/ ١٨٠.
(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٥٨/ ٧٤.
(٤) ابن عساكر: السابق ٨/ ٢٦٩.
(٥) ابن عساكر: السابق ٧٠/ ١٥٨.
(٦) أي الأخبار التاريخية والقصص.

بعضه، وعندما يُتِمُّ الطفل مدَّة الدراسة في الكُتَّاب، ويحفظ القرآن؛ يمتحنه المعلِّمُ ليتأكَّد منه، فإذا اجتاز الامتحان احتفل بالختمة[1].

ولأهمية تعليم الأطفال وتأديبهم، اهتم كثير من فقهاء ومؤلفي الإسلام بتربية الأطفال، وإرساء القواعد التربوية المهمَّة التي تُعين المدرسين والآباء على تعليم أبنائهم، فهذا الإمام الحجة أبو حامد الغزالي[2] يضع فصلاً في كتابه القيم «إحياء علوم الدين» بعنوان «بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم»، ومما جاء فيه: «اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبيان أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمْهُ نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب، وإن عُوِّد الشر، وأهمل إهمال البهائم، شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القَيِّم عليه والوالي له»[3].

ونتيجة لمهارة بعض هؤلاء المعلمين والمؤدبين؛ فقد ترقَّى بعضهم في وظائف الدولة حتى صار وزيرًا، مثل إسماعيل بن عبد الحميد الذي كان يعلِّم الصبيان، ثم تقلبت به الأحوال إلى أن صار وزيرًا لمروان بن محمد[4]، وكذلك الحجاج بن يوسف الثقفي الذي صار كبيرًا لوزراء عبد الملك بن مروان.

وكان كثير من هؤلاء المعلمين يأخذون أجرة نظير تعليمهم للصبيان، ولكن الأعجب من ذلك، أننا وجدنا الشيخ أبا عبد الله التاودي (ت ٥٨٠هـ)، وهو من أهل مدينة فاس بالمغرب، أنه «كان يعلِّم الصبيان، فيأخذ الأجر من أولاد الأغنياء، فيردُّه على أولاد الفقراء!»[5].

وكانت أوقات الدراسة في الكتاتيب تحدد بعلامات طبيعية، فشروق الشمس كان

---

(١) انظر: رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٤٧-١٤٩.

(٢) الغزالي: هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي (٤٥٠- ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨- ١١١١م) الملقب حُجَّة الإسلام، الفقيه الشافعي، الفيلسوف المتصوف. مولده ووفاته في الطابران بخراسان. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢١٦-٢١٨، والسبكي: طبقات الشافعية ٦/ ١٩١-٢١١.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/ ٧٢.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٦٠.

(٥) أبو العباس الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢/ ٢١٠.

بدء اليوم الدراسي، يطول ويقصر تبعًا لشروق الشمس، وأذان العصر»[١].

وقد كان الأطفال يتعلمون في المساجد، إلا أن ذلك لم يكن بصورة منتظمة، فحينما كثر الهرج في المساجد؛ بسبب الأطفال عام ٤٨٣هـ، فقد «استُفْتِي على معلمي الصبيان أن يُمنعوا من المساجد صيانةً لها، فأفتوا بمنعهم...»[٢].

وأما بالنسبة للراحة والعطلات المدرسية، فقد لوحظ اهتمام المسلمين بإعطاء الصبي قسطًا من الراحة بعد عناء الدراسة، فهذا ابن الحاج العبدري - وهو من علماء المالكية بفاس في بلاد المغرب (ت ٧٣٧هـ) - يقول: «إن ذلك مستحب لقوله ﷺ: «رَوِّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ»[٣]. فإذا استراحوا يومين في الجمعة[٤] نشطوا لباقيها»[٥]. وهناك تعطيل في أيام الأعياد، وحالات المرض، والرياح والعواصف والبرد والمطر الشديد.

وأما المعلم فإذا تغيّب لشغل طارئ «فعليه أن يستأجر للصبيان من يكون فيهم بمثل كفايته إذا لم تطل مدة ذلك... كذلك إن هو سافر فأقام من يوفيهم كفايته لهم، إن كان سفرًا لا بد منه، قريبًا اليوم واليومين وما أشبههما، فيستخف ذلك إن شاء الله، وأما إن بَعُد أو خيف بعد القريب لما يعرض في الأسفار من الحوادث، فلا يصلح له ذلك»[٦].

وقد وصف لنا ابن جبير[٧] في رحلته، مدى التقدم المنهجي الذي وصل إليه تعليم الصبيان في دمشق، فقال: «وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويُعلَّمون الخط في الأشعار وغيرها؛ تنزيهًا لكتاب الله ﷻ عن ابتذال الصبيان له بالإثبات

---

(١) حسن عبد العال: التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ص١٨٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٦٨.

(٣) مسند الشهاب القضاعي (٦٢٩)، والأصبهاني: حلية الأولياء ٣/ ١٠٤، ويشهد له حديث: «يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً». مسلم: كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة... (٢٧٥٠).

(٤) يقصد في الأسبوع.

(٥) ابن الحاج العبدري: المدخل ٢/ ٣٢١.

(٦) حسن حسني عبد الوهاب: مقدمة كتاب آداب المعلمين ص٥٧، وعلي بن نايف الشحود: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل ص٣٨.

(٧) ابن جبير: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (٥٤٠- ٦١٤هـ / ١١٤٥- ١٢١٧م) [illegible] أديب، زار المشرق ثلاث مرات، ألّف في إحداها كتابه «رحلة ابن جبير». ولد في بلنسية، ومات بالإسكندرية. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣١٩، ٣٢٠.

والمحو، وقد يكون في أكثر البلاد الملقِّن على حدة، والمُكَتِّب على حدة، فينفصل من التلقين التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة، ولذلك ما يتأتّى لهم حسن الخط؛ لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم، والصبي في التعلُّم كذلك، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه»[1].

إذن، وصل تعليم الصبيان في الكتاتيب إلى أعظم مراحله؛ فقد عرف المسلمون نظام الفصل في المواد، وجعلوا لكل مادة دراسية معلمًا متخصصًا فيها، بل اهتم المشارقة بتحسين خطوط أبنائهم، وهذا ما انتبه إليه ابن جبير، وجعله من أهم ما يميِّز مؤسسة التعليم في المشرق الإسلامي.

وقد ظل نظام تعليم الأطفال في المشرق ينتهج ذات النهج الذي أخبر به ابن جبير في العام ٥٨٠هـ، فقد وجدنا ابن بطوطة[2] في رحلته الشهيرة، يُخبر عما أخبر به ابن جبير من قبله بما يزيد على مائة وخمسين عامًا، فقال عن معلمي المسجد الأموي في دمشق: «وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله، يستندُ كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يُلقِّن الصبيان ويُقرِئُهُم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهًا لكتاب الله تعالى، وإنما يقرءون القرآن تلقينًا، ومُعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جادَ خطُّه؛ لأن المعلِّم للخط لا يُعلِّم غيره»[3]. ومما يُلاحظ أن الأطفال كانوا يتعلمون في المساجد القرآن الكريم، ثم ينتقلون من بعده إلى دراسة التكتيب والخط؛ ليتعلموا على يد المُكتِّب صحيحَ القراءة والكتابة.

وأما تأديب الأطفال والصبيان عن طريق الضرب، فقد وضع الفقهاء لذلك مجموعة من الضوابط، مما يعني أن المسلمين قد اهتموا بتربية الأطفال وتأديبهم منذ فترة مبكرة؛ فقد ذكر ابن مفلح المقدسي (ت ٧٦٣) في «الآداب الشرعية» قوله: «سئل أبو عبد الله (أحمد بن حنبل) عن ضرب المعلِّم الصِّبيان، فقال: على قدر ذنوبهم، ويتوقَّى بجهده

---

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٢٤٥.

(٢) ابن بطوطة: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي (٧٠٣- ٧٧٩هـ/ ١٣٠٤- ١٣٧٧م) رحّالة، مؤرخ. ولد ونشأ بغرناطة، وطاف بلادًا كثيرة، وتوفي في مراكش. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٣٥.

(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص٨٧.

الضَّرب، وإن كان صغيرًا لا يعقل فلا يضربه»[١].

وقد حذّر كثير من الفقهاء والعلماء، المؤدِّبين والمعلمين من الإسراف والتفنن في ضرب الأطفال، أو معاملتهم معاملة قاسية، فقد قال العبدري: «وليحذرِ الحذرَ الكُلّيِّ من فعل بعض المؤدبين في هذا الزمان (القرن الثامن الهجري)، وهو أنهم يتعاطون آلة اتخذوها لضرب الصبيان مثل: عصا اللوز اليابس، والجريد المشرح، والأسواط النوبية، والفلقة، وما أشبهُ ذلك مما أحدثوه، وهو كثير ولا يليق هذا بمن ينسب إلى حمل الكتاب العزيز؛ إذ إنه كما ورد في الحديث: «مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّمَا أُدْرِجَتِ النُّبُوَّةُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يُوحَى إِلَيْهِ»[٢]. وينبغي له أن يُعلِّمهمُ الخطّ والاستخراجَ، كما يعلِّمهم حفظ القرآن؛ لأنهم بذلك يتسلَّطُون على الحفظ والفَهْم، فهو أكبر الأسباب المعينة على مطالعة الكتب وفهم مسائله»[٣].

ولم تكن مهام الكتاتيب تربوية أو تعليمية فقط، بل كان لها دور اجتماعي مهم جدًّا، فلم يسمح المسلمون أن تقوم عزلة وحواجز بين الكُتَّاب والمجتمع، ولذلك فهو يتفاعل مع مجتمعه، ويشارك في حياته اليومية، «فإذا مات عالم جليل أفاد العباد بعلومه، أو رئيسٌ نفع البلاد بآرائه وأعماله، أو أميرٌ عادل أنصف في أحكامه، أغلقت الكتاتيب أبوابها، وعطّل الأحداث دراستهم يوم دفنه؛ مشاركةً في المصاب العمومي، وإظهارًا للتأسي، وإجلالاً لخدمة الصالح العام»[٤].

ولما كان والي مصر أحمد بن طولون[٥] قد اشتدت علة مرضه، وزادت عليه أوجاعه، قرر معلمو الصبيان في مصر الخروج بصبيانهم إلى الصحراء؛ ليدعوا الله أن يشفي ابن طولون[٦].

---

(١) ابن مفلح: الآداب الشرعية ٢/ ٦١.

(٢) روي بلفظ: "مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدِ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يُوحَى إِلَيْهِ". رواه الحاكم (٢٠٢٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) ابن الحاج العبدري: المدخل ٢/ ٣١٧.

(٤) حسن حسني عبد الوهاب: مقدمة كتاب آداب المعلمين لابن سحنون ص٥٧.

(٥) أحمد بن طولون: (ت ٢٧٠هـ) أمير الشام والثغور ومصر ولاه المعتز بالله مصر. وكان عادلاً، جوادًا، شجاعًا، متواضعًا، حَسَنَ السيرة، يباشر الأمور بنفسه، ويعمر البلاد، ويتفقد أحوال زعاياه، ويحب أهل العلم. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ٨٧٠.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم ٥/ ٧٣.

ولذلك حرص المعلمون والمؤدبون على إشراك الصبيان في القضايا العامة التي تلم بالمجتمع، فيقول ابن سحنون[١]: «إذا أجدب الناس، واستسقى الإمام، فأُحِبَّ للمعلم أن يخرج بهم من يعرف الصلاة منهم، وليبتهلوا إلى الله بالدعاء ويرغبوا إليه، فإنه بلغني أن قوم يونس -صلى الله على نبينا وعليه السلام- لما عاينوا العذاب خرجوا بصبيانهم، فتضرعوا إلى الله بهم»[٢].

واللافت للنظر اهتمام الفقهاء المربين بصحة الصبيان في الكُتَّاب، فنصحوا بعزل الصبي المريض عن رفاقه حتى لا ينتشر المرض بينهم، يقول ابن الحاج العبدري: «ينبغي إذا اشتكى أحد من الصبيان وهو بالمكتب بوجع عينيه، أو شيء من بدنه، وعُلِم صدقُه أن يصرفه (المعلم) إلى بيته ولا يتركه يقعد في المكتب»[٣]؛ وذلك ليترك لأهله الاهتمام به، والعمل على معالجته؛ خوفًا من انتشار عدوى المرض بين الصبيان.

وطلب إلى معلم الصبيان منعهم من أكل الطعام والحلوى المكشوفة والمعروضة من قِبل الباعة الجوَّالين «فلا يدع المعلم أحدًا من البياعين يقف على المكتب ليبيع للصبيان؛ إذ فيه المفاسد إن اشترى منه»[٤]، وبلغ الحرص عندهم لدرجة «ترتيب طبيب يحضر بالمكتب في كل شهر»[٥].

إن اهتمام الحضارة الإسلامية بالأطفال منذ النبي ﷺ، ليُدلل على أن هذه الحضارة لم تفرق بين الكبير والصغير، بل على العكس؛ فقد عَلِمَتْ أن صغار اليوم هم قادة الغد، فعملت على تنشئتهم تنشئة صالحة نافعة، عن طريق إقامة الكتاتيب التي هي بمنزلة المدارس الابتدائية في عصرنا الحاضر، فتخرج من هذه الكتاتيب العلماء الأجلاّء، الذين أضافوا للبشرية العلم النافع، ومِن ثَمَّ الرخاء والتقدُّم.

---

(١) ابن سحنون: هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام (سحنون) بن سعيد بن حبيب التنوخي (٢٠٢-٢٥٦هـ/ ٨١٧-٨٧٠م)، فقيه مالكي مناظر، كثير التصانيف. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٠٤.

(٢) ابن سحنون: آداب المعلمين ص١١١.

(٣) ابن الحاج العبدري: المدخل ٢/ ٣٢٢.

(٤) ابن الحاج العبدري: السابق ٢/ ٣١٣.

(٥) عبد الغني محمود عبد العاطي: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ص١٤٥، ومحمد منير سعد الدين: بحث بعنوان «دور الكتّاب والمساجد عند المسلمين» ص٣.

المبحث الثاني

المســـــــاجد

ارتبط تاريخ التعليم في المجتمع الإسلامي بالمسجد ارتباطًا وثيقًا؛ فهو المركز الرئيسي لنشر الثقافة الإسلامية، وهو أحد أهمِّ دور التعليم.

وقد اتخذ الرسول ﷺ مسجد المدينة مكانًا للدراسة؛ حيث كان يجتمع مع الصحابة فيتلو عليهم ما ينزل من القرآن، ويُعَلِّمهم أحكام الدِّينِ بالقول والعمل، وظلَّ المسجد يُؤَدِّي رسالته زمن الخلفاء الراشدين، واستمرَّ في عهد الأمويين والعباسيين، وبعد ذلك؛ حيث كان يجلس العلماء يُحَدِّثون ويُفَسِّرون آيات الكتاب المبين، وكان المحدِّثُونَ يَرْوُونَ أحاديث رسول الله ﷺ، وكان من بينهم الإمام مالك بن أنس ﷺ، وكذلك مسجد دمشق؛ حيث كان مركزًا مهمًّا من مراكز الثقافة، فكانت تُعْقَد فيه حلقات العلم[1]، وكان فيه «عِدَّة زوايا يتَّخِذُها الطلبة للنسخ والدرس، كما كان للخطيب البغدادي[2] حلقة كبيرة يُلقي فيها الدروس، ويجتمع إليه الناس كل يوم»[3].

وقد كان للصحابة رضى الله عنهم حلقات للعلم في المسجد النبوي، فقد ذكر مكحول عن رجل أنه قال: «كنا جلوسًا في حلقة عمر بن الخطاب ﷺ في مسجد المدينة نتذاكر فضائل القرآن، فذُكِر الحديثُ في أعجوبة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»[4].

وكان لأبي هريرة ﷺ حلقة في المسجد النبوي يُعلِّم فيها حديث رسول الله ﷺ، وكانت هذه الحلقة تعكس سعة حفظ أبي هريرة ﷺ، كما كانت تجيش بعواطفه الصادقة تجاه النبي ﷺ؛ فقد دخل رجل على معاوية ﷺ فقال: «مررت بالمدينة، فإذا أبو هريرة جالس في المسجد، حوله حلقة يحدثهم، فقال: حدثني خليلي أبو القاسم ﷺ. ثم استعبر، فبكى. ثم عاد، فقال: حدثني خليلي ﷺ نبي الله أبو القاسم. ثم استعبر، فبكى، ثم قام!»[5].

---

(١) عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٤.

(٢) الخطيب البغدادي: هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي (٣٩٢- ٤٦٣هـ/ ١٠٠٢- ١٠٧٢م) أحد الحفاظ المؤرخين المقدَّمين، عارفًا بالأدب، يقول الشعر، ولوعًا بالمطالعة والتأليف. من مصنفاته: «تاريخ بغداد». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٣١١- ٣١٣.

(٣) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٩١.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٧/ ٢١٦.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٦١١.

وقد وصف أبو إسحاق السبيعي تنظيم الحلقة العلمية في مجلس الصحابي البراء بن عازب، فقال: «كنا نجلس عند البراء بعضنا خلف بعض»[١]، وهو نص يشير أيضًا إلى سعة الحلقة. ومن الحلقات المعروفة آنذاك في المسجد النبوي حلقة الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري[٢].

وكذلك كان لمعاذ بن جبل ﷺ حلقة شهيرة في مسجد دمشق، وصفها لنا أبو إدريس الخولاني، فقال: «دخلت مسجد دمشق فإذا أنا بفتى براق الثنايا، طويل الصمت، وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا في الشيء، أسندوه وصدروا عن رأيه، فسألت عنه، فقيل هذا معاذ بن جبل»[٣].

ولذلك كانت حلق العلم في المساجد بمنزلة نظام التعليم العالي في وقتنا الحاضر، وقد كانت كل طوائف المجتمع الإسلامي حريصة على الإقبال على العلم، حتى المجتهدون والعلماء وعِلية القوم منهم كانوا يُقبلون على هذه الحلق، ومِن ثَمَّ ذكر ابن كثير أن علي بن الحسين كان «إذا دخل المسجد تخطى الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جبير بن مطعم: غفر الله لك! أنت سيِّد الناس وقريش، تأتي تخطي حلق أهل العلم حتى تجلس مع هذا العبد الاسود؟! فقال له علي بن الحسين: إنما يجلس الرجل حيث ينتفعُ، وإن العلم يُطلب حيث كان»[٤].

وقد اشتهرت كثير من الحلقات في تاريخ الإسلام، فقد كانت أشهر حلقة في المسجد الحرام لحبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، فلما مات كانت هذه الحلقة لعطاء بن أبي رباح[٥].

ولم يكن يؤبه لسن المُعلم في هذه الحلقات، وإنما كان يُنظر لفقهه وعلمه وورعه، سواءٌ كان كبيرًا أم صغيرًا؛ فقد ذكر الحافظ المؤرخ الفسوي (ت ٢٨٠) عن أحد روَّاد

---

(١) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٧٤.

(٢) أكرم العمري: عصر الخلافة الراشدة ص٢٧٨.

(٣) الفسوي: المعرفة والتاريخ ٢/ ١٨٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٢٤.

(٥) المصدر السابق ٩/ ٣٣٧.

حلق العلم في المساجد أنه قال: «أدركتُ هذا المسجد وما فيه حلقة يذكر فيها الفقه إلا حلقة مسلم بن يسار. قال: إن في الحلقة من هو أسن منه غير أنها كانت تنسب إليه»(١).

وقد كان المعلمون في حلق العلم يبعثون -في بعض الأحيان- بطلب من له الخبرة الكافية، والعلم العميق، فقد ذكر ابن عساكر(٢) أن رجلاً رأى «أبا إدريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني(٣) في زمان عبد الملك بن مروان، وأن حلق المسجد بدمشق يقرءون القرآن يدرسون جميعًا، وأبو إدريس جالس إلى بعض العُمُد، فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها، وأنصتوا له وسجد بهم وسجدوا جميعًا بسجوده، وربما سجد بهم ثنتي عشرة سجدة، حتى إذا فرغوا من قراءتهم قام أبو إدريس يقصُّ»(٤).

ولا نعجب من هذه القصة إذا عرفنا أن أبا إدريس الخولاني كان أعلم الناس بالقراءات في دمشق، ومن ثَمَّ كان المعلمون في مسجد دمشق يتحرجون من قراءة آية سجدة، وأبو إدريس بجوارهم يسمع، بل كانوا يشركونه في حلقهم؛ إجلالاً له، وتعظيمًا لعلمه، واستفادة منه.

ولشهرة بعض هذه الحلق، فقد كان طلاب العلم يؤمونها من كافة بقاع العالم الإسلامي، وقد كانت حلقة نافع بن عبد الرحمن القارئ(٥) في مسجد رسول الله ﷺ من أشهر الحلقات يومئذٍ في قراءة وتعلم كتاب الله؛ ولذلك كان الطلاب يفدون إليه من كل مكان، وقد حكى الإمام ورش المصري(٦) عن تجربته في حلقة الإمام نافع في المسجد النبوي، فقال: «خرجتُ من مصر لأقرأ على نافع، فلما وصلتُ إلى المدينة صرتُ إلى مسجد نافع، فإذا هو لا تُطاق القراءة عليه من كثرتهم، وإنما يُقْرِئ ثلاثين، فجلستُ خلف

---

(١) الفسوي: المعرفة والتاريخ ٢/ ٤٩.

(٢) ابن عساكر: هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (٤٩٩- ٥٧١هـ/ ١١٠٥- ١١٧٦م) المؤرخ الحافظ الرحّالة، كان محدث الديار الشامية. من كتبه: «تاريخ دمشق الكبير». انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٠٥.

(٣) أبو إدريس الخولاني: هو عائذ الله بن عبد الله بن عمرو الخولاني العوذي الدمشقي (٨- ٨٠هـ/ ٦٣٠- ٧٠٠م) تابعي، فقيه. كان واعظ أهل دمشق، وقاصهم في خلافة عبد الملك. وتولى القضاء. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٣٩.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٢٦/ ١٦٣.

(٥) نافع القارئ: هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني القارئ (ت ١٦٩هـ/ ٧٨٥م)، أحد القراء السبعة الأعلام، وأصله من أصبهان.

(٦) ورش: هو عثمان بن سعيد بن عدي المصري (١١٠- ١٩٧هـ/ ٧٢٨- ٨١٢م)، من كبار القراء. غلب عليه لقب «ورش» لشدة بياضه. أصله من القيروان، ومولده ووفاته بمصر. انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٠٥.

الحلقة، وقُلتُ لإنسان: من أكبر الناس عند نافع؟ فقال لي: كبير الجعفريين. فقلتُ: فكيف به؟ قال: أنا أجيء معك إلى منزله. وجئنا إلى منزله، فخرج شيخٌ، فقُلتُ: أنا من مصر، جئتُ لأقرأ على نافع فلم أصل إليه، وأُخبرتُ أنك من أصدق الناس له، وأنا أريد أن تكون الوسيلة إليه. فقال: نعم وكرامة. وأخذ طيلسانه ومضى معنا إلى نافع، وكان لنافع كنيتان أبو رويم وأبو عبد الله فبأيها نودي أجاب، فقال له الجعفري: هذا وسيلتي إليك جاء من مصر، ليس معه تجارة ولا جاء لحج، إنما جاء للقراءة خاصة. فقال: تُرى ما ألقى من أبناء المهاجرين والأنصار؟ فقال صديقه: تحتال له. فقال لي نافع: أيمكنك أن تبيت في المسجد. قلت: نعم. فبتُّ في المسجد، فلما أن كان الفجر، جاء نافع فقال: ما فعل الغريب؟ فقلت: ها أنا، رحمك الله. قال: أنت أولى بالقراءة. قال: وكنتُ مع ذلك حسن الصوت، مدادًا به. فاستفتحت فملأ صوتي مسجد رسول الله ﷺ فقرأتُ ثلاثين آية، فأشار فسكتُّ، فقام إليه شابٌّ من الحلقة، فقال: يا معلم -أعزك الله- نحن معك، وهذا رجل غريب، وإنما رحل للقراءة عليك، وقد جعلت له عشرًا، واقتصر على عُشرين. فقال: نعم وكرامة. فقرأتُ عُشرًا. فقام فتى آخر فقال كقول صاحبه، فقرأتُ عُشرًا وقعدتُ، حتى لم يبق له أحد ممن له قراءة، فقال لي: اقرأ. فأقرأني خمسين آية، فما زلتُ أقرأ عليه خمسين في خمسين حتى قرأتُ عليه ختمات قبل أن أخرج من المدينة»[1].

وهذه الحكاية من التلميذ المجتهد الإمام ورش، تعطي لنا صورة واضحة عن حلقات العلم في القرن الثاني الهجري؛ من اجتهاد، وتحمل عناء السفر ومشقته من مصر إلى المدينة المنورة لأخذ القراءة من إمام المدينة الإمام نافع، كما تعكس لنا صورة صادقة عن العَلاقة بين المعلم وطلابه من احترام وتقدير، ثم هي تحدد أن اليوم الدراسي في حلقة الإمام نافع كان يبدأ عقب صلاة الفجر.

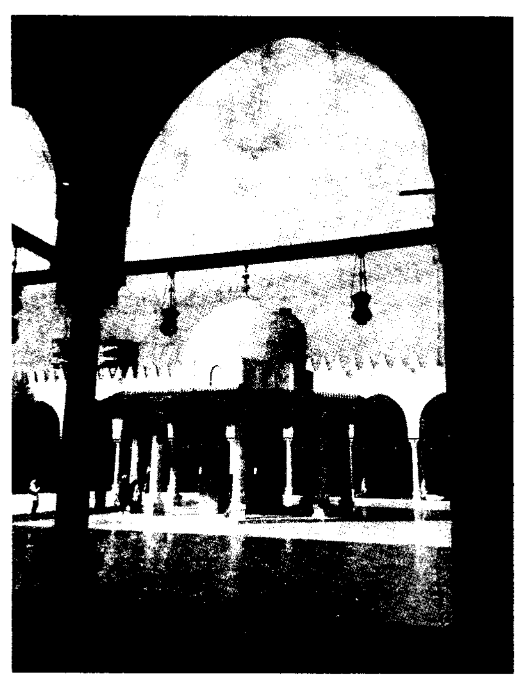
وقد كانت حلق العلم كثيرة، وكانت كثرتها تبعًا لتخصص كل حلقة في علم من العلوم، وكانت بعض حلق العلم عظيمة العدد، ومن ثَمَّ فإنها كانت تلفت أنظار الوافدين عليها، وهذا ما حدث للإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله إذ قال: «ولدت سنة

(١) الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ١/ ١٥٤، ١٥٥.

ثمانين، وحججت مع أبي سنة ست وتسعين، وأنا ابن ست عشرة سنة، فلما دخلتُ المسجد الحرام رأيتُ حلقة عظيمة فقلت لأبي: حلقة من هذه؟ قال: حلقة عبد الله بن جزء الزبيدي صاحب النبي ﷺ. فتقدمت فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ تَفَقَّهَ فِي دِينِ اللهِ كَفَاهُ اللهُ هَمَّهُ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ...**»[1].

وكان بمسجد بغداد ما يزيد على أربعين حلقة، وقد اختُزلت كلها في حلقة الإمام الشافعي لعلمه الغزير، وأصل هذه القصة ما يرويه اللغوي الشهير الزجاج[2]؛ إذ قال: «لما قدم الشافعي إلى بغداد، وكان في المسجد إما نَيِّف وأربعون أو خمسون حلقة، فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله، وقال الرسول، وهم يقولون: قال أصحابنا. حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره»[3].

كذلك الحال في مصر؛ حيث كان الإمام الشافعي يلتقي مع طلبة العلم في مسجد عمرو بن العاص، وإلى جانب ذلك، فقد اشتهرت بعض الجوامع بتدريس مختَلَفِ أنواع العلوم، وتَخَصَّصَ بعض المدرِّسِينَ للتدريس فيها، كما كان الولاة يُعَيِّنُون البعض الآخر.



صورة (٣) مَسجد عمرو بن العاص

وكان من حق العامة أن يعترضوا على الحلق والمجالس العلمية التي لا تتوافق مع حالة المجتمع وما يمر به من مصائب وأحداث؛ إذ أولوية تنبيه الناس بواقعهم، وما يُفيدهم في حالهم مقدَّم

(١) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ١/ ٤٩.
(٢) الزجاج: هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (٢٤١- ٣١١هـ/ ٨٥٥- ٩٢٣م) عالم بالنحو واللغة، ولد ومات في بغداد. من كتبه: «معاني القرآن». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٥/ ٢٢٨.
(٣) المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٧٥.

على أي شيء آخر، فقد حدّث أحمد بن سعيد الأموي، فقال: «كانت لي حلقة وأنا بمكة، أجلس فيها في المسجد الحرام ويجتمع إليّ فيها أهل الأدب، فإنّا يومًا لنتناظر في شيء من النحو والعروض، وقد علت أصواتنا وذلك في خلافة المهتدي (ت ٢٥٦هـ) إذ وقف علينا مجنون[١] فنظر إلينا ثم قال:

أما تستحون الله يا معدن الجهل شُغلتم بذا والناس في أعظم الشُّغل

إمامكم أضحى قتيلاً مُجَدّلاً وقد أصبح الإسلام مفترق الشمل

وأنتم على الأشعار والنحو عُكَّفًا تصيحون بالأصوات في استٍ أم ذا العَقْل

فانصرف المجنون وتفرقنا، وقد أفزعنا ما ذكره المجنون وحفظنا»[٢].

وكان سبب هذه الأشعار أن قائلها أراد أن يُنبه العلماء وأهل الحلق، بما يدور في مجتمعهم، فقد كانت الفتنة على أشُدِّها في العاصمة بغداد، بين قادة الأتراك ومؤسسة الخلافة التي كان على رأسها الخليفة المهتدي، فكأنه أراد منهم أن يُشاركوا بقوَّة في أحداث المجتمع من حولهم.

وقد اشتهرت حلق الإمام أبي الوليد الباجي[٣] في كافة أنحاء الأندلس، بعد رحلته إلى المشرق؛ حيث «أصبحت له شخصية المحدِّث الحافظ، وتأهل بحق ليكون إمام المحدثين بالأندلس، حتى بعُد صيته واستدعي لميورقة؛ ليناظر ابن حزم في اتباع المذهب المالكي، فاستوطنها ودرس العلم بها وبإشبيلية، والموطأ بمرسية، كما حدث عن نفسه بذلك قائلاً: «وكان لي في ذلك الوقت مجلس يجتمع إلي فيه للمذاكرة في الموطأ بمسجد الموضع الذي كنت أسكن فيه...»، وسمع منه الجم الغفير صحيح البخاري بدانية، وفي رجب سنة (٤٦٣هـ) بسرقسطة وفي سنة (٤٦٨هـ) بمسجد رحبة القاضي ببلنسية، وغيرها من المدن. ومما يبرز شخصية أبي الوليد الحافظ، تسابق طلاب الحديث من الشرق

(١) لعله إنسان رثّ الهيئة، غريب الأطوار، إذ ليس من المعقول أن يقول هذا الشعر الرصين مجنون غير مدرك لما يمر به، أو يحدث حوله.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٤/ ٥٥٧، ٥٥٨.

(٣) أبو الوليد الباجي: هو سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي (٤٠٣- ٤٧٤هـ/ ١٠١٢- ١٠٨١م)، محدث وفقيه مالكي كبير، أصله من بطليوس، ومولده في باجة بالأندلس، وتولى القضاء. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ١٢٥.

والغرب وتنافسهم في الأخذ عنه، فقد قصده أكثرهم من أبعد الأقاليم فضلاً عن أدناها، داخل بلده وخارجها، كأريولة، وإشبيلية، ولشبونة، ورندة، وبلنسية، وبغداد، وتطيلة، وحلب، ودانية، وطرطوشة، وطليطلة، والكوفة، ولورقة، ومالقة، ومرباطر، ومرجيق، ومرسية...»[1].

وقد كان للمرأة دور لا ينكره أحد في التدريس في حلقات المساجد، وقد سجلت المصادر التاريخية عشرات المعلمات اللاتي جلسن للتدريس، وكان لهنّ حلق خاصة بهن، وكانت أم الدرداء، واسمها هُجيمة بنت حُيي، صاحبة حلقة في مسجد دمشق، وقد روت عن أبي الدرداء، وعن سلمان الفارسي، وفضالة بن عبيدة رضى الله عنهم، واللافت أن عبد الملك بن مروان قد أخذ العلم عنها، وكان مواظبًا على حضور درسها حتى بعد كونه أميرًا للمؤمنين، حيث كان يجلس «في مؤخر المسجد بدمشق، فقالت له: بلغني أنك شربت الطِّلا بعد العبادة والنسك.

فقال: أيْ والله، والدِّمَا أيضًا قد شربتها. ثم جاءه غلامٌ كان قد بعثه في حاجة، فقال: ما حبسك لعنك الله؟ فقالت أم الدرداء: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإني سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَعَّانٌ...»[2].

كما ذكر ابن بطوطة في رحلته أنه سمع صحيح الإمام مسلم في الجامع الأموي في دمشق على يد الشيخة المعلمة زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم (ت ٧٤٠هـ)، كما أجازت له الشيخة الجليلة عائشة بنت محمد بن مسلم الحراني (ت ٧٣٦هـ) التي كانت تروي فضائل الأوقات للإمام البيهقي[3].

وقد كان طلبة العلم يُقْبِلُون على هذه الجوامع من كل صوب، حيث هُيِّئَتْ لهم جميع الوسائل لأَجْلِ مواصلة دراستهم والتفرُّغ لها، فكانت تُجْرَى عليهم الأرزاق، وتُبْنَى لهم المساكن، وتُنْفَقُ عليهم الأموال[4]، ومن بين هذه الجوامع:

---

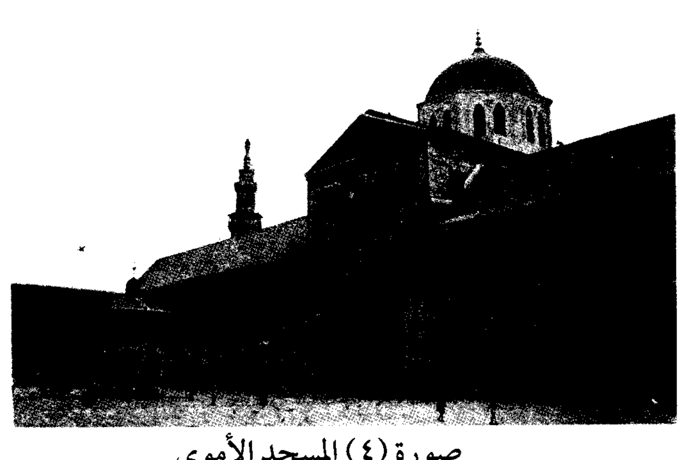
(١) سليمان بن خلف الباجي: التعديل والتجريح ١/١٠٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/٦٦.

(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص٧٠، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٦/٣٤٨.

(٤) انظر عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٤.

الجامع الأموي بدمشق، والذي بناه الوليد بن عبد الملك، وكانت حلقات الدرس فيه مختلفة؛ إذ كان للمالكية فيه زاوية، وكذلك للشافعية، وكان للخطيب البغدادي حلقة يجتمع الناس إليه ليقرأ لهم دروسًا في الحديث، ولم يقتصر المنهج فيه على العلوم الدينية، بل شمل العلوم اللغوية والأدب، والحساب والفلك.



صورة (٤) المسجد الأموي

وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط بمصر، وكان به أكثر من أربعين حلقة دراسية يَؤُمُّهَا الطلبة للدراسة والبحث؛ منها حلقة الإمام الشافعي، وفي منتصف القرن الرابع الهجري بَلَغَتْ حلقاته مائة وعشر حلقات، خُصِّصَ بعضها للنساء، ثم ظهر نظام الإجازة (الشهادات العالية)؛ حيث يُسْتَخْدَم الطالب بعد الإجازة كُتُبَ أستاذه، ويمكنه الرواية عنه[1].

والجامع الأزهر الذي اكتمل بناؤه في سنة (٣٦١هـ)، وأصبح منارة للطلاب من البلاد الإسلامية، وقد أوقف الخلفاء الأوقاف للأزهر، وعَيَّنُوا به المدرِّسِينَ في مختَلَفِ أنواع العلوم؛ ونتيجة للشهرة الفائقة التي امتاز بها جامع الأزهر، وللتسهيلات

صورة (٥) الجامع الأزهر

(١) رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٥٠.

الجمَّة التي كان يجدها طلاب العلم، فقد كان الطلبة يُقْبِلُونَ على هذا الجامع من كل صوب، حتى قد بلغ عدد الملازمين للجامع سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) -كما يذكر المقريزي[١]- سبعمائة وخمسين رجلاً، ما بين عجم وزيالعة[٢]، ومن أهل ريف مصر، ومغاربة، ولكل طائفة رواق[٣] يُعْرَفُ بهم.

وقد استمرَّ هذا الجامع مركزًا علميًّا مُشِعًّا، يُؤَدِّي رسالته عَبْرَ التاريخ؛ فيُخْرِج العلماء، وتُؤَلَّف به المؤلَّفات، فكان بحقٍّ مدرسة جامعة للعلم وأهله[٤].



صورة (٦) مسجد الزيتونة

وجامع الزيتونة بتونس، الذي تمَّ بناؤه زمن خلفاء بني أمية؛ حيث كان المؤسِّس الأوَّل لجامع الزيتونة الأمير عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية من قبل هشام بن عبد الملك، ثم حصلت زيادات عديدة في الجامع سنة (٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)؛ حيث قام زيادة الله بن الأغلب – في عهد دولة الأغالبة – بتوسعته، وكان لهذا الجامع منزلة سامية لتدريس مختَلَفِ أنواع العلوم، قام بتدريسها كبار العلماء؛ أمثال: عبد الرحمن بن زياد المعافري[٥]، حيث كان من كبار المحدِّثِينَ، وكذلك أبو سعيد سحنون

---

(١) المقريزي: هو تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (٧٦٦- ٨٤٥هـ)، شيخ المؤرخين المصريين، عاش زمن المماليك، من أشهر كتبه: السلوك لمعرفة دول الملوك، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط و الآثار (المعروف بخطط المقريزي).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣١٠.

(٣) الرواق: مُقَدَّم البيت، أو ما بين يديه، وهو بيت كالفُسطاط يُحمل على عمود واحد في وسَطه، أو سقيفة للدراسة في مسجد. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة روق ١٠/ ١٣١، والمعجم الوسيط، مادَّة روق ١/ ٣٨٣.

(٤) راجع عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٧.

(٥) عبد الرحمن بن زياد (بن أنعم): هو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري الإفريقي (٧٥- ١٦١هـ/ ٦٩٤- ٧٧٨م)، اشتهر بالجرأة على الملوك وزجرهم عن الجور والعسف. ولد ببرقة، ونشأ بها، وولي قضاء القيروان مرتين.

التنوخي، ومنهم الإمام المازري[١]، وغيرهم[٢].

وكان طلاب العلم يُقْبِلُون على هذا الجامع من كل صوب لطلب العلم؛ حيث كانت تُدَرَّس فيه كتب التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، ويَصِفُ الحشائشي[٣] الحالة العلمية في جامع الزيتونة فيقول: «كان مستبحرًا بالعلوم على اختلاف أنواعها؛ عقليّة ونقليّة، مقاصد ووسائل، حتى كان يقال: إن حذاء كل سارية من غالب سواريه مُدَرِّسًا، وفي خزانته ما ينيف على المائتي ألف مجلد»[٤].

وجامع القرويين، وتم تأسيس هذا الجامع بمدينة فاس بالمغرب، في عهد دولة الأدارسة، سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، وفي سنة (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م)، تعهد الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي – من الأمراء الزناتيين– توسعته وزيادته، ومع أوائل القرن السادس الهجري، تمَّ توسعة الجامع وزيادة مساحته حتى اكتسب شهرة فائقة، وكان الجامع يمتاز بمكانته العلمية الفائقة، فكان طلاب العلم يُقْبِلُون عليه من كل صوب؛ للتزوُّد من مَعِينِه، وكان لهذا الجامع ميزانية خاصَّة، نتيجة للأموال الموقوفة، إضافةً إلى الأموال التي كان يتبرَّع بها الأمراء وغيرهم؛ ونتيجة للشهرة



صورة (٧) مسجد القرويين

---

(١) المازري: هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري (٤٥٣- ٥٣٦هـ/ ١٠٦١- ١١٤١م) محدث، حافظ، فقيه، أديب. من مؤلفاته: «نظم الفرائد في علم العقائد». انظر الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٥٢، وكحالة: معجم المؤلفين ١١/ ٣٢.

(٢) انظر: محمد بن عثمان الحشائشي: تاريخ جامع الزيتونة ص٣٦.

(٣) الحشائشي: هو محمد بن عثمان الحشائشي الشريف فاضل (١٢٧١- ١٣٣٠هـ/ ١٨٥٥- ١٩١٢م) من أهل تونس. كان عمله تفقد خزائن الكتب العلمية بجامع الزيتونة. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٦٣.

(٤) عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٥.

الفائقة التي اشتهر بها الجامع، فقد كان طلاب العلم يَفِدُون إليه من البلاد الأخرى، بل إن طلاب أوربا أخذوا يُقْبِلُون على هذا المعهد العلمي، ومِمَّا يُذْكَر أن الأسقُفَّ جيربير[(١)] الذي أصبح فيما بعدُ بابا في رومية باسم سلفستر الثاني سنة (٩٩٩- ١٠٠٣م)- تعلَّم في جامع القرويين بعد أن تعلَّم في جامعة قرطبة[(٢)].

***

(١) انظر تفصيلاً: عبد الهادي التازي: أحد عشر قرنًا في جامعة قزوين ص١٩.

(٢) عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٦.

المبحث الثالث

المدارس

بدأت الحضارة الإسلامية تعرف المدارس منذ القرن الخامس الهجري، وكان الداعي لذلك كثرة الحلق التي غاصت بها المساجد، وأول مسجد قد حوِّل إلى مدرسة كان الجامع الأزهر عام ٣٧٨هـ، وقد ملأت المدارس مدن العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، وهي التي قامت على الأوقاف الكثيرة التي تبرَّع بها الأغنياء من قادة، وعلماء، وتجار، وملوك، وأمراء.

والحق أن المدارس في الحضارة الإسلامية قديمةٌ قدم هذه الحضارة، وقد ذكر ابن كثير في حوادث عام ٣٨٣هـ، أن الوزير أبا نصر سابور بن أردشير(١)، قد اشترى «دارًا بالكرخ، وجدد عمارتها، ونقل إليها كتبًا كثيرة، ووقفها على الفقهاء، وسمّاها دار العلم، وأظنُّ (ابن كثير) أن هذه أول مدرسة وقفت على الفقهاء، وكانت قبل النظامية بمدة طويلة»(٢).

وما لبث إنشاء المدارس، أن أخذ طريقه نحو التوسع والانتشار؛ فقد بُنيت أول مدرسة في دمشق في عام ٣٩١هـ، بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله(٣)، وسميت بالمدرسة الصادرية(٤)، وتبعه بعد ذلك مقرئ دمشق: رشأ بن نظيف(٥)، حيث قام بتأسيس المدرسة الرشائية في حدود الأربعمائة، وإلى هذه المدارس خرج الطلبة من الحلق التي كانت تعقد في المسجد إلى مكان يختص بتلقي علم معين، فيوقف عليهم وعلى شيوخهم المال، وتوفر لهم أسباب التعليم(٦).

---

(١) سابور بن أردشير: هو أبو نصر سابور بن أردشير (ت ٤١٦هـ) وزير بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة؛ كان من أكابر الوزراء. وكان شهمًا مهيبًا كافيًا، جوادًا ممدحًا، له دار علم ببغداد. انظر: الذهبي: سير الأعلام ١٧/ ٣٨٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٣٥٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣١٢.

(٣) صادر بن عبد الله: هو صاحب المدرسة الصادرية داخل باب البريد على باب الجامع الأموي الغربي، أنشأها بدمشق سنة ٤٩١هـ. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٢/ ٤٦.

(٤) عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤١٣.

(٥) رشأ بن نظيف: هو أبو الحسن رشأ بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي (٣٧٠- ٤٤٤هـ/ ٩٨٠- ١٠٥٢م) مقرئ، من العلماء، أصله من المعرة، تعلم في مصر وسوريا والعراق، وعاش في دمشق. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٢١.

(٦) عارف عبد الغني: نظام التعليم عند المسلمين ص٨٩.

وقد كانت هذه المدارس في أول أمرها أهليَّة، ثم تدخلت في إنشائها وإدارتها مؤسسة الحكم والخلافة، بدءًا من الوزير الشهير نظام الملك الطوسي[1]، الذي أضحت المدارس منذ عصره حكومية، تنفق مؤسسة الحكم عليها، وتُجلِب المعلمين والمدرسين إليها.

وقد أسدى هذا الوزير للحضارة الإسلامية ما خلّد ذكره، وفاق كل أعماله في دنيا الحكم والسياسة، بإنشائه عددًا من المدارس في أنحاء الدولة نسبت إليه، فسميت بـ«المدارس النظامية»، وهي تعدّ أول نوع من المؤسسات العلمية والمدارس التعليمية النظامية ظهر في تاريخ الإسلام، وقد هيأ لطلابها أسباب العيش والتعليم. وقد خصصت المدارس النظامية لتعليم الفقه والحديث، وكان الطلاب يتناولون فيها الطعام، وتجري على كثير منهم رواتب شهرية.

ونتيجة لتحمس نظام الملك، وتبنيه إنشاء المدارس في المناطق المختلفة، فقد ترتّب على ذلك أن امتلأت بلاد العراق وخراسان بعشرات المدارس؛ حتى قيل فيه: إنَّ له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة، وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، وكان كلَّما وَجَدَ في بلدةٍ عالمًا قد تميَّز وتبحَّر في العلم بنى له مدرسة، ووقف عليها وقفًا، وجعل فيها دارَ كُتبٍ، وكان التلاميذ يتعلَّمُون فيها بالمجَّان، وللطالب الفقير فوق كل ذلك شيءٌ معلوم يتقاضاه من الريع المُخَصَّصِ لذلك[2].

ومن أهم المدارس التي أنشأها نظام الملك: المدرسة النظامية ببغداد التي بُدئ في بنائها سنة ٤٥٧هـ وانتهى بناؤها في عام ٤٥٩هـ[3]، وبلغ من اهتمام الخليفة العباسي بها أنه كان يعيِّن الأساتذة فيها بنفسه، وكان يدرّس فيها الفقه والحديث، وما يتصل بهما من علوم، وقد درّس فيها مشاهير الفكر والثقافة مثل حُجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين[4]، في الوقت الذي كان يدرّس في نظامية نيسابور إمام

---

(١) نظام الملك الطوسي: هو أبو علي الحسن بن علي الطوسي، الملقب نظام الملك (٤٠٨- ٤٨٥هـ/ ١٠١٨- ١٠٩٢م)، أصله من نواحي طوس، اشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالسلطان ألب أرسلان، فاستوزره، أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وغيرها. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٩٤، والزركلي: الأعلام ٢/ ٢٠٢.

(٢) انظر: مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١٠٣، ١٠٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٩٢.

(٤) المصدر السابق ١٢/ ١٦٩.

الحرمين «أبو المعالي الجويني[(١)]»[(٢)].

وقد أسهمت هذه المدارس التي انتشرت في بغداد وأصفهان ونيسابور ومرو في تثبيت قواعد المذهب السني والدفاع عنه ضد مختلف البدع والمذاهب المنحرفة التي انتشرت في ذلك الوقت، وقد بلغ ما ينفقه نظام الملك في كل سنة على أصحاب المدارس والفقهاء والعلماء ثلاثمائة ألف دينار، فلما راجعه السلطان السلجوقي ملكشاه في هذا الأمر؛ قال له الوزير العالم: «قد أعطاك الله تعالى وأعطاني بك ما لم يعطه أحدًا من خلقه، أفلا نعوضه عن ذلك في حَمَلة دينه وحَفَظة كتابه ثلاثمائة ألف دينار»[(٣)].

ولذلك، فإن انتشار المدارس في الحضارة الإسلامية منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ليُدلل على أسبقية الحضارة الإسلامية على نشر العلم بين طبقات المجتمع المختلفة، وهو ما لم تعرفه حضارات الشرق والغرب، وجدير بالذكر أن أوربا في هذه الآونة كانت لا تملك من حطام المعرفة إلا النذر اليسير، بل كانت الكنيسة وقتئذٍ محتكرة لأسباب المعرفة، وقد ترتّب على ذلك أن عاش الأوربيون في ظلام وجهل وتخلف، وحروب طاحنة بين

صورة (٨) المدرسَة المستنصرية

(١) أبو المعالي الجويني: هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (٤١٩-٤٧٨هـ/ ١٠٢٨-١٠٨٥م) أبو المعالي ابن ركن الإسلام أبي محمد الجويني، إمام الحرمين، فخر الإسلام، إمام الأئمة على الإطلاق. انظر: تقي الدين الصيرفيني: المنتخب ١/ ٣٦١.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٦٧.

(٣) عبد الهادي محمد رضا: نظام الملك ص٦٥١.

القبائل المختلفة، خاصة القبائل الجرمانية التي كانت تصارع الدولة الرومانية حينًا، وتصارع القبائل الأخرى في أحيانٍ أخرى. كما أن النظام الطبقي كان له وضعه المقدس في أوربا، مما نتج عنه اضمحلال وإهمال النظام التعليمي الأوربي[1].

والعجيب أنه حتى في زمن الضعف السياسي والعسكري للدولة الإسلامية، فإن الحركة العلمية لم تتأثر بذلك، بل على النقيض؛ فقد بُنِيَتْ المدرسة المستنصرية في سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م)، وكان التتار في ذلك الوقت يجتاحون شرق العالم الإسلامي، ويهدِّدُون الخلافة العباسية تهديدًا مباشرًا، وقد وصلت الخلافة العباسية إلى أضعف درجاتها، ومع ذلك تمَّ إنشاء هذه المدرسة الخالدة، وقد علّق ابن كثير رحمه الله على هذه المدرسة بقوله: «ولم يُبنَ مدرسةٌ قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهًا، وأربعة معيدين، ومدرِّس لكل مذهب وشيخ حديث وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طبٍّ، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطبِّ، ومكتب للأيتام، وقدّرَ للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد، ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها، وحضر الخليفة المستنصر بالله -بنفسه الكريمة- وأهلُ دَوْلَتِه من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يَتَخَلَّف أحد من هؤلاء، وعُمِلَ سماط عظيم بها؛ أَكَلَ منه الحاضرون، وحُمِلَ منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواصِّ والعوامِّ، وخُلِعَ[2] على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يومًا مشهودًا، وأَنْشَدَتِ الشعراءُ الخليفةَ المدائح الرائقة والقصائد الفائقة، وقد ذكر ذلك ابن الساعي[3] في تاريخه مُطَوَّلاً مبسوطًا شافيًا كافيًا، وقدّرَ لتدريس الشافعية بها الإمام محيي الدين أبو عبد الله بن فضلان[4]، وللحنفية الإمام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد

---

(١) انظر: يوهان هويزنجا: اضمحلال العصور الوسطى ص١٧٥.

(٢) خلع: أعطاهم أموالاً من خِيار المال، وهي من الخُلْعةُ أي خِيار المال. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة خلع ٨/ ٧٦.

(٣) ابن الساعي: هو أبو طالب علي بن أنجب بن عبد الله (٥٩٣- ٦٧٤هـ/ ١١٩٧- ١٢٧٥م)، من كبار المصنفين في التاريخ. مولده ووفاته ببغداد. كان خازن كتب المستنصرية. من تصانيفه: الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير. انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٦٥.

(٤) ابن فضلان: هو محيي الدين أبو عبد الله بن فضلان البغدادي الشافعي، مدرِّس المستنصرية، قاضي القضاة. برع في المذهب، ورحل إلى خراسان، وناظر علماءها. تُوُفِّي في شوال سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٥/ ١٣٢.

الفرغـاني[(١)]، وللحنابلـة الإمـام العـالم محيـي الـدين يوسـف بـن الشـيخ أبي الفـرج بـن الجوزي[(٢)]، ودَرَّس عنـه يومئـذٍ ابنـه عبـد الـرحمن[(٣)] نيابـة لغيبتـه في بعـض الرسـالات إلى الملوك، ودَرَّس للمالكية يومئذ الشيخ الصالح العالم أبو الحسن المغربي المالكي نيابـة أيضًـا، حتى يُعَيَّنَ شيخٌ غيره، ووُقِفَتْ خـزائن كتـب لم يُسْمَعْ بمثلهـا في كثرتهـا وحُسْـنِ نسـخها، وجودة الكتب الموقوفة بها»[(٤)].

وقد كثرت المدارس في ظل الدولة الأيوبية كثرة لافتـة للانتبـاه؛ إذ كـان الغـرض مـن إنشاء هذه المدارس، القضاء على المذهب الشيعي الذي كان متأصـلاً في مصر منـذ الدولـة العبيدية التي سبقت الأيـوبيين، ومِـن ثَـم اهتمـت مؤسسـة الحكـم بإقامـة المـدارس ذات الاختصاصات المختلفة في جميع أنحاء مصر، والغريـب أن صـلاح الـدين كـان يُقـيم هـذه المدارس بُغية نشر العدل والفضيلة والأمن بين الناس، فقد ذكر ابـن الأثـير[(٥)] في حـوادث عام ٥٦٦هـ أنه «كان بمصر دار للشحنة (الشرطة) تسمى دار المعونة يُحبس فيها مـن يريـد حبسه، فهدمها صلاح الدين، وبناها مدرسة للشافعية، وأزال ما كان فيها من الظلـم»[(٦)]، وقد كان صلاح الدين أول من اهـتم ببنـاء المـدارس في تـاريخ مصر الإسـلامية، فقـد بنـى المدرسة الصلاحية والناصرية والقمحية[(٧)].

وكان الأمراء والأغنياء والتجار -أيضًا- يتسابقون في بنـاء المـدارس والوقـفِ عليهـا بـما يضـمن اسـتمرارها وإقبـال الطـلاب عليهـا، وكثـيرون جـدًّا جعلـوا بيـوتهم مـدارس،

---

(١) الفرغاني: هو عمر بن محمد بن الحسين بن أبي عمر بن محمد بن أبي نصر الأندكاني، تُوُفِّي سنة (٦٣٢هـ) . انظر: ابـن أبي الوفاء القرشي: الجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢/ ٦٦٢، ٦٦٣.

(٢) يوسف بن الجوزي: هو محيي الدين يوسف بن الجوزي القرشي البغدادي (٥٨٠- ٦٥٦هـ/ ١١٨٥- ١٢٥٨م) ، وهـو ابن العلامة أبي الفرج بن الجوزي، تفقه على أبيه وغيره، ولي الحسبة ببغداد، والنظر في الوقوف. قتله التتـار شـهيدًا صَبْرًا، هو وأولاده الثلاثة. انظر: الزركلي: الأعلام ٨/ ٢٣٦.

(٣) عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي: توفي شهيدًا مع والده، قتل ببغـداد عنـد دخـول هولاكـو إليهـا سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) وقد جاوز الخمسين. من آثاره: ديوان شعر. انظر: كحالة: معجم المؤلفين ٥/ ٢٠٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٣٩، ١٤٠.

(٥) ابن الأثير: هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (٥٥٥- ٦٣٠هـ/ ١١٦٠- ١٢٣٣م) مؤرخ متبحر، ولـد في جزيرة ابن عمر، وتوفي بالموصل. من مصنفاته: «الكامل في التاريخ». انظر: الذهبي: سير الأعلام ٢٢/ ٣٥٤-٣٥٦.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣١، ٣٢.

(٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٥/ ١٧٣. وعرفت باسم المدرسة القمحية؛ لأن القمـح كـان يـوزع على فقهائهـا مـن ضـيعة بالفيوم أوقفها صلاح الدين عليها. ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ١٩٧، ١٩٨.

وجعلوا ما فيها من كُتب وما يتبعها من عقار وقفًا على طلاب العلم الدارسين فيها؛ وبذلك كثرت المدارس في المشرق كثرة هائلة مدهشة، حتى إن ابن جبير الرحّالة الأندلسي هاله ما رأى في المشرق من كثرة المدارس والغلاَّت الوافرة التي تَغُلُّها أوقافها، فدعا المغاربة أن يرحلوا للمشرق لتلقِّي العلم، وكان ممَّا قاله: «وتكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد المشرقية كلها وبخاصة دمشق...، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد، فيَجِد الأمورَ المُعِينَة على طلب العلم كثيرةً، وأوَّلها فراغ البال من أمر المعيشة»[(١)].

ومما يُدلل على تسابق السلاطين والأمراء لبناء المدارس والعناية بها، أن السلطان إبراهيم بن محمد بن مسعود سُلطان غزنة وأطراف الهند، لم يكن يبني لنفسه بيتًا إلا وسبقه ببناء مدرسة والاعتناء بها[(٢)]!

وقد كان من حق النساء في الحضارة الإسلامية أن يُقمن المدارس النافعة لأبناء وبنات هذه الحضارة، فقد أنشأت السيدة ربيعة خاتون بنت أيوب -وهي أخت صلاح الدين- المدرسة الصاحبية لتدريس المذهب الحنبلي على سفح جبل قاسيون في دمشق[(٣)].

أمَّا في وصف المدارس في بغداد فيقول عنها ابن جبير أيضًا: «والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلاَّ وهي يقصرُ القصرُ البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية، وهي التي ابتناها نظام الملك، وجُدِّدَتْ سنة أربعة وخمسمائة، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة، وعقارات مُحُبَّسة، تتصَيَّر إلى الفقهاء المدرِّسين بها، ويُجْرُونَ بها على الطلبة ما يَقُومُ بهم»[(٤)].

وأمَّا في مصر فيصف ابن بطوطة عدد مدارسها فيقول: «أمَّا المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها»[(٥)]. وقد ذكر المقريزي ما يَزِيدُ على سبعين مدرسة كانت منتشرة في مصر[(٦)].

---

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٢٥٨.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٥٧.
(٣) المصدر السابق ١٢/ ٣١٧.
(٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٢٠٥.
(٥) رحلة ابن بطوطة ص٢٠.
(٦) انظر: الخطط المقريزية ٢/ ٣٦٢-٤٠٠.

ويصف (هلام) حالة المدارس في العالم الإسلامي في ذلك الوقت فيما ينقله عنه بطرس البستاني[(١)] قائلاً: «كان للعرب مدارس زاهرة العلوم، منتشرة من بغداد إلى قرطبة، وكان لهم سبع عشرة مدرسة كلية، كانت مدرسة قرطبة أشهرها، ويقال: إنه كان فيها مكتبة تحتوي على ٦٠٠ ألف مجلد. وكانوا يدرسون الصرف، والنحو، والشعر، والتاريخ، والجغرافيا، وعلم الهيئة[(٢)]، وعلم النجوم، والكيمياء، والرياضيات، والطب... وكان لهم مدرسة ابتدائية بجانب كل مسجد يُعَلّمون فيها القراءة والكتابة»[(٣)].

والملاحظ هنا أيضًا أن الدراسة في هذه المدارس لم تقتصر على العلوم الدينية، بل كانت تُدَرَّسُ بجانبها العلوم الطبيعية؛ كالهندسة، والطب، والرياضيات، بل كانت هناك مدارس خصوصية تُدَرَّس فيها هذه العلوم، وفي ذلك يقول هلام: «وكان للعلوم الطبيعية مدارس خصوصية، وكانوا يُعَلّمون الطبَّ في المستشفيات»[(٤)].

وفي الأندلس كانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد، بَيْدَ أنها كانت تتقاضى أجورًا نظير التعليم، ولذلك أضاف الخليفة الأموي الحكم الثاني (ت ٣٦٦هـ) إليها سبعًا وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجّان، وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء، وكان التعليم العالي يقوم به أساتذة مستقلون يُلقون محاضراتهم في هذه المدارس، وقد كوّنت المناهج التي كانت تُدرّس العمود الفقري لجامعة قرطبة في عهد الخلافة الأموية في الأندلس، كما أُنشئت الكليات في كل من غرناطة وطليطلة وإشبيلية ومرسية وألمرية وبلنسية وقادس[(٥)].

وقد اهتم أمراء وسلاطين المغرب ببناء المدارس، فقد خرَّجت المدارس التي بناها المرابطون في المدن والبوادي وخاصة في منطقة سوس مجموعة من العلماء النابهين في

---

(١) بطرس البستاني: هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣م)، عالم مشارك في أنواع من العلوم. ولد في الدبية من إقليم الخروب بلبنان. انظر: كحالة: معجم المؤلفين ٣/ ٤٨.

(٢) علم الهيئة: هو تعيين الأشكال للأفلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها. ابن خلدون: المقدمة ص٤٧٩.

(٣) دائرة المعارف ٦/ ١٦١، ١٦٢ نقلاً عن عبد الله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص٥٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٣٠٦.

تخصصات عِدَّة رفعتهم إلى مصافّ رجال الفكر في العالم الإسلامي. وقد بلغت مدارس سوس نحو أربعمائة مدرسة، تحدث محمد المختار السوسي[١] في كتابه «سوس العالمة» عن خمسين مدرسة منها[٢]، وفي «مدارس سوس العتيقة» عن مائة مدرسة منها[٣].

وكانت القبائل هي التي تمول هذه المدارس عن طريق تخصيص بعض أعشار محصولاتها الزراعية لها، وتحبيس بعض الأملاك من أجل الصيانة والتموين وتحمُّل تكاليف المدرسة، وكانت القبائل السوسية تتنافس في بناء المدارس بالجبال والسهول، وكانت لكل قبيلة مدرسة أو مدرستان أو ثلاث مدارس، ومن أبرز المدارس التي شيِّدت في عصر المرابطين -إضافةً إلى ما سبق- نذكر «مدارس سبتة، وقد كانت هناك عدة مدارس أخرى بطنجة، وأغمات، وسجلماسة، وتلمسان، ومراكش. وكانت هذه المدارس تأوي علم القيروان وثقافة الأندلس المشهورة، حيث نبغ فيها أعلام كبار، منهم القاضي عياض[٤]، وأبو الوليد بن رشد[٥] مؤلف كتاب المقدمات الأوائل للمدونة، والبيان والتحصيل، إلى آخر كتبه القيِّمة»[٦].

والذي يجب أن ننبه عليه أن الطلبة في هذه المدارس -في المشرق والمغرب- كانوا يُكفون المؤنة، من الطعام والشراب والأموال والسُّكنى، ولذلك عرفت الحضارة الإسلامية نظام المدن الجامعية قبل الغرب بمئات السنين؛ ففي عام ٧٢١هـ أمر سلطان الدولة المرينية في المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب (ت ٧٣١هـ) ببناء «المدرسة التي بفاس الجديدة، فبنيت أتقن بناء وأحسنه، ورتَّبَ فيها الطلبة لقراءة القرآن، والفقهاء

---

(١) المختار السوسي: هو محمد المختار بن علي بن أحمد الإلغي السوسي (١٣١٨- ١٣٨٣هـ/ ١٩٠٠- ١٩٦٣م) مؤرخ، فقيه، أديب، يقول الشعر، ويُعرف بوزير التاج. من كتبه كتاب «المعسول في تاريخ سوس». انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٩٣.

(٢) محمد المختار السوسي: سوس العالمة ص١٥٤-١٦٧.

(٣) محمد المختار السوسي: مدارس سوس العتيقة ص٩٣-١٣٤.

(٤) القاضي عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦- ٥٤٤هـ/ ١٠٨٣- ١١٤٩م)، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٨٣، ٤٨٥.

(٥) ابن رشد: هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (٥٢٠- ٥٩٥هـ/ ١١٢٦- ١١٩٨م) العلامة الفيلسوف، المعروف بابن رشد الحفيد. ولد بقرطبة، وتوفي بمراكش. انظر: الذهبي: سير الأعلام ٢١/ ٣٠٧-٣٠٩، وابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٣٦٧.

(٦) الحسن السائح: الحضارة المغربية ٢/ ٦٤.

لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر، وحبس (أوقف) عليها الرِّباع والضياع؛ ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده»[١].

وقد كان السلطان أبو سعيد من أشهر سلاطين المرينيين الذين اهتموا ببناء المدارس، ففي عام ٧٢٣هـ «في فاتح شعبان منها، أمر السلطان أبو سعيد ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين، فبُنيت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار، وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست، وشرع في بنائها بمحضره، فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبنِ ملكٌ قبله مثلها، وأجرى بها ماء معينًا من بعض العيون هنالك، وشحنها بالطلبة، ورتب فيها إمامًا ومؤذنين وقَوَمة يقومون بأمرها، ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم، وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشترى عِدَّة أملاك ووقفها عليها احتسابًا بالله تعالى»[٢].

واشتهر العصر المملوكي بكثرة المدارس التي بنيت فيه، فقد تسابق أمراء وسلاطين المماليك في بناء المدارس الشرعية والعلمية، فتفننوا في بنائها وعمارتها، بل اهتموا بتعيين أفاضل العلماء وكبرائهم في هذه المدارس، فقد «درَّس الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام[٣] بالمدرسة الصالحية بين القصرين»[٤] وذلك في عام ٦٥٠هـ، كما درّس في هذه المدرسة تقي الدين بن بنت الأعز[٥] في عام ٦٨٠هـ، وسراج الدين البُلقيني[٦] في المدرسة الناصرية ٧٧٩هـ، والعلامة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في المدرسة القمحية في سنة

---

(١) أبو العباس الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٣/ ١١١، ١١٢.

(٢) الناصري: المصدر السابق ٣/ ١١٢.

(٣) العز بن عبد السلام: هو عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي (٥٧٧- ٦٦٠هـ/ ١١٨١- ١٢٦٢م)، ولقبه عز الدين، وهو المعروف بسلطان العلماء، فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد، ولد ونشأ في دمشق، وتولى القضاء في مصر. من كتبه: التفسير الكبير. انظر الزركلي: الأعلام ٤/ ٢١.

(٤) المقريزي: السلوك ٥/ ٤٨٥.

(٥) تقي الدين بن بنت الأعز: محمد بن أحمد بن عبد الوهاب بن خلف العلائي (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م) القاضي شهاب الدين ابن القاضي علاء الدين ابن قاضي القضاة تاج الدين، المعروف بابن بنت الأعز المصري الشافعي. انظر: الفاسي: ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد ١/ ٥٢.

(٦) سراج الدين البلقيني: هو أبو حفص عمر بن رسلان بن صالح الكناني (٧٢٤- ٨٠٥هـ/ ١٣٢٤- ١٤٠٣م)، مجتهد حافظ للحديث، وُلِدَ في بلقينة من غربية مصر، وتعلم بالقاهرة. وولي قضاء الشام سنة ٧٦٩هـ، وتوفي بالقاهرة. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٤٦.

٧٨٦هـ، وغيرهم من كبار العلماء على مدار تاريخ المماليك[١].

وقد كان العلماء والفقهاء والرعية ومعهم السلاطين، يحتفلون غاية الاحتفال عند افتتاح مدرسة من المدارس، ففي عام ٦٦١هـ افتتح الملك الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية، فاجتمع أهل العلم في هذه المدرسة بين القصرين عند تمام عمارتها، «وحضر القُرّاء وجلس أهل كل مذهب في إيوانهم. وفوض تدريس الحنفية للصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين بن العديم، وتدريس الشافعية للشيخ تقي الدين محمد ابن الحسن بن رزين، والتصدير لإقراء القرآن للفقيه كمال الدين المحلِّي، والتصدير لإفادة الحديث النبوي للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي. وذكروا الدروس ومدت الأسمطة، وأنشد جمال الدين أبو الحسين الجزار[٢]...، وأنشد عدة من الشعراء أيضًا، ومنهم السراج الوراق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب، فخلع عليهم، وكان يومًا مشهودًا، وجعل السلطان بهذه المدرسة خزانة كتب جليلة، وبنى بجانبها مكتبًا للسبيل، وقرر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز في كل يوم، والكسوة في فصل الشتاء والصيف»[٣].

وكان هناك من أمراء المماليك من يبني المدارس بجوار بيته؛ حبًّا فيها، ورغبة في نشر العلم بين أهله وجيرانه، ففي عام ٧٣٠هـ بنى الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي[٤] مدرسة بجوار داره، قريبًا من درب ملوخيا بالقاهرة، ووقف عليها أوقافًا جليلة[٥].

وقد كانت هناك وظيفة أخرى لبعض المدارس المملوكية، بجوار التدريس، فقد كانت بعض هذه المدارس بمنزلة دار للقضاء والمحاكمة، والنظر في الجرائم الكبرى، كما حدث مع أحد المجرمين العتاة ويُسمى بابن سبع، حينما حكم عليه فقهاء الشافعية بحقن

---

(١) المقريزي السلوك ٤/ ٣٤٧، ٥/ ١٦٣.

(٢) الجزار: هو يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد (٦٠١- ٦٧٩هـ/ ١٢٠٤- ١٢٨٠م) شاعر مصري ظريف. انظر: الزركلي: الأعلام ٨/ ١٥٣.

(٣) المقريزي السلوك ٢/ ٣..

(٤) مغلطاي: هو أبو عبد الله علاء الدين مغلطاى بن قليج بن عبد الله المصري الحنفي (٦٨٩- ٧٦٢هـ/ ١٢٩٠- ١٣٦١م) كان نقادة، له مآخذ على المحدثين وأهل اللغة. صنف أكثر من مئة مؤلف، منها (شرح البخاري). انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٢٧٥.

(٥) المقريزي: السلوك ٣/ ١٣٣.

دمه، ومن ثَمَّ سجنه، خلافًا لما ارتأه المالكية بإراقة دمه وقتله، وقد حدثت هذه المحاكمة في المدرسة الصالحية بين القصرين في عام ٧٩١هـ[١].

وقد كانت هناك مدارس متخصصة للعلوم التجريبية والتطبيقية: كالمدارس المخصصة لتدريس الطب وعلومه، مثل المدرسة الظاهرية البرانية في دمشق، التي كانت تستقطب أعظم العلماء المتخصصين في هذه الصنعة؛ ففي عام ٧٢٤هـ استوفد عالم الطب الشهير في عصره نجم الدين عبد الرحيم بن الشحام الموصلي[٢]، للتدريس في المدرسة الظاهرية البرانية بعدما تعلَّم الطب وفنونه من بلاد الأزبك[٣] عبر رحلة علمية استغرقت بضع سنين[٤].

وكانت المدرسة الدخوارية -كانت قبلي الجامع الأموي في دمشق- من أشهر مدارس وكليات الطب في الشام، وقد أنشئت في عام ٦٢١هـ، أنشأها الطبيب الدمشقي الشهير المهذب الدخوار عبد الرحيم بن علي حامد[٥]، شيخ الطب، وواقف هذه المدرسة، وقد مدحه الطبيب الشهير ابن أبي أصيبعة[٦] فقال: «كان أوحد عصره، وفريد دهره، وعلاّمة زمانه، وإليه انتهت رئاسة الطب على ما ينبغي، أتعبَ نفسه في الاشتغال؛ حتى فاق أهل زمانه، وحظي عند الملوك»[٧].

وكانت بعض المدارس في مصر بمنزلة جامعة متعددة الفروع والأقسام، كالمدرسة المنصورية التي أنشأها سلطان مصر المنصور قلاوون الألفي بين القصرين في القاهرة،

---

(١) المقريزي: السلوك ٥/ ٢٤١.

(٢) عبد الرحيم بن الشحام الموصلي: هو نجم الدين بن الشحام الشافعي (٦٥٣- ٧٣٠هـ) تعلم الفقه، ثم قدم دمشق سنة ٧٢٤هـ، وولي مشيخة خانقاه القصرين، وكان يعرف الفقه على مذهب الشافعي والطب. انظر الحافظ العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣/ ١٥٠.

(٣) بلاد في آسيا الوسطى، موقعها الآن دولة أوزبكستان.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢٦١.

(٥) مهذب الدين الدخوار: هو عبد الرحيم بن علي بن حامد الدخوار (٥٦٥- ٦٢٨هـ/ ١١٧٠- ١٢٣٠م)، ولد ونشأ في دمشق، واتصل بالملك العادل الأيوبي. من كتبه: «الجنينة» في الطب، و«مختصر الأغاني» للأصفهاني. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٤٧.

(٦) ابن أبي أصيبعة: هو أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (٥٩٦- ٦٦٨هـ/ ١٢٠٠- ١٢٧٠م) الطبيب المؤرخ، صاحب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء». توفي في صَرْخد بسوريا. انظر: محمد الخليلي: أدباء الأطباء ١/ ٥٢.

(٧) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤/ ٣١٨.

فكانت مقسمة لتدريس المذاهب الفقهية، لكل مذهب مدرس مخصص، ومكان معين، كما خُصص فيها قسم لتدريس العلوم الطبية، وقسم لدراسة الحديث النبوي، وقسم لتفسير القرآن الكريم، «وكانت هذه التداريس لا يليها إلاّ أجلُّ الفقهاء المعتبرين»[(١)].

وقد اهتمت بعض المؤلفات التاريخية بحصر المدارس المذكورة في كل بلد على حدة، فقد ألف عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧هـ) كتابه الشهير «الدارس في تاريخ المدارس» وتناول هذا الكتاب الأبواب التالية: دور القرآن - دور الحديث - ثم دور القرآن والحديث معًا - المدارس ومنها مدارس الطب - الخوانق - الرباطات - الزوايا - الترب - المساجد والجوامع، وأما أسلوبه، فكان يذكر اسم المدرسة مثلاً ويحدد موقعها ويذكر ترجمة بانيها، ويعدِّد ما أوقف عليها، ثم يذكر المدرِّسين الذين تعاقبوا فيها إلى زمن المؤلف وسيرهم، ومن المعلوم أن هذا الكتاب قد خُصّص لمدارس مدينة دمشق فقط.

وقد فعل المقريزي مثل ذلك في موسوعته الشهيرة «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» فقدم للدارسين خدمة كبيرة، حيث ذكر مدارس القاهرة في العصرين الأيوبي والمملوكي[(٢)].

إن اهتمام المسلمين بإنشاء المدارس في كافة أنحاء المجتمع الإسلامي، ليُدلل على أن هذه الحضارة، قد أخذت بعين الاعتبار أن العلم أساس كل تقدُّم، بل قدمت للعالم نموذجًا فريدًا في نشر العلم بين الفقير والغني، والكبير والصغير، والرجل والمرأة حتى أصبحت الحضارة الإسلامية متربّعة على قمة التطور العلمي طوال قرون متعددة.

***

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣/ ٤٨٠.

(٢) انظر: فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص٢٢٤.

الفصل الرابع
المكتبات في الحضارة الإسلامية

لم يكن غريبًا أن يهتمَّ الخلفاء المسلمون بتأسيس المكتبات العامَّة، ويجمعوا فيها الكتب العربية والمترجمة عن اللغات الأخرى؛ إذ إن الإسلام - كما رأينا - حضَّ على العلم، ودعا إلى المعرفة وإلى التعلُّم، وإلى إنارة العقول بالقراءة والكتابة، كما حثَّ على تفعيل العقل في أمور الحياة.

والحقيقة أن تاريخ المكتبات في الإسلام جزءٌ لا يتجزَّأ من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية والفكر الإسلامي؛ ارتقت بارتقائه، وساعدت على ازدهاره، ونضجت معه، وتاريخ الكتب عند المسلمين أساس ومهمٌّ جدًّا لاستقصاء تطوُّر المعرفة الإنسانية عندهم؛ ذلك أنه لم تتفوَّقْ على المسلمين أُمَّة من الأمم في حُبِّهِمْ للكتب والعناية بالمكتبات والمعرفة عامَّة، والمكتبات من أهمِّ وسائل نشر المعرفة على مدى العصور، وقد انتشرت المكتبات في الإسلام انتشارًا واسعًا، فكانت ثمرة من ثمار هذه الحضارة الإسلامية الخالدة؛ فالأطوار التي مرَّت بها هي أطوار الحضارة الإسلامية بشكل عامٍّ[1].

هذا، وقد عرفت الحضارة الإسلامية أنواعًا عدَّة من المكتبات، سنتعرف على هذه الأنواع من خلال المباحث التالية:

- **المبحث الأول: المكتبات وأنواعها**
- **المبحث الثاني: مكتبة بغداد (جامعة إسلامية متطورة)**

---

(١) انظر: سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي ص٢.

المبحث الأول

المكتبات وأنواعها

عرفت الحضارة الإسلامية أنواعًا متعددة من المكتبات لم تعرفها أي حضارة أخرى، ولقد انتشرت هذه المكتبات في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، فوُجدت المكتبات في قصور الخلفاء، وفي المدارس، والكتاتيب، والجوامع، وكما وُجدت في عواصم الإمارات وُجدت كذلك في القرى النائية، والأماكن البعيدة؛ مما يؤكد على تأصُّل حُبِّ العلم لدى أبناء هذه الحضارة، وكان من جملة ما عرفته الحضارة الإسلامية من مكتبات:

١) المكتبات الأكاديمية: وهي من أشهر المكتبات في الحضارة الإسلامية؛ ومن أهمِّها مكتبة بغداد (بيت الحكمة)، وسنتحدَّث عنها في المبحث القادم.

٢) المكتبات الخاصَّة: وقد انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع أنحاء العالم الإسلامي بشكل واسع وجيِّدٍ؛ ومن أمثلتها مكتبة الخليفة المستنصر[(١)]، ومكتبة الفتح بن خاقان، الذي «كان يمشي والكتاب في كُمِّه ينظر فيه»[(٢)]. ومكتبة ابن العميد وزير آل بويه الشهير، وقد ذكر ابن مسكويه المؤرخ الشهير أنه كان خازنًا لمكتبة ابن العميد، فذكر واقعة سرقة تعرَّض لها بيته، وكانت فيه مكتبته، وقد حزن ابن العميد أكثر الحزن على مكتبته؛ ظنًّا منه أنها سُرِقَتْ مع باقي المسروقات، وفي معرض حديثه عن هذه الواقعة نرى أن هذه المكتبة كانت كثيرة الكتب، عظيمة القدر، فقد قال ابن مسكويه: «اشتغل قلب الوزير ابن العميد بدفاتره، ولم يكن شيء أعزَّ عليه منها، وكانت كثيرة، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب، يُحمل على مائة وِقْر[(٣)]، فلما رآني سألني عنها فقلتُ: هي بحالها لم تمسسها يد. فسُرِّي عنه، وقال: أشهد أنك ميمون النقيبة، أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض، وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها. ورأيته قد أسفر وجهه، وقال: باكر بها غدًا إلى الموضع الفلاني. ففعلتُ،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٨٦.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ١٨/ ٣٧٥.

(٣) الوِقْر: الثِّقْلُ يُحمل على ظهر أو على رأس. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وقر ٥/ ٢٨٩.

وسلِمت بأجمعها من بين جميع ماله»[١]. ومكتبة القاضي أبي المطرف، الذي «جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس»[٢].

٣) المكتبات العامَّة: وهي مؤسسات ثقافية يُحْفَظُ فيها تراث الإنسانية الثقافي وخبراتها؛ ليكون في متناول المواطنين من كافَّة الطبقات، والأجناس، والأعمار، والمهن، والثقافات؛ وكان من أمثلتها: مكتبة قرطبة التي أَسَّسَهَا الخليفة الأموي الحكم المستنصر سنة (٣٥٠هـ/ ٩٦١م) في قرطبة، وقد أقام لها موظَّفِين مخصَّصِين للعناية بشئونها، وجمع فيها النسَّاخ، وعيَّن لها عددًا كبيرًا من المجلِّدِين، وقد ظلَّتْ محطَّ أنظار العلماء وطلاب العلم في الأندلس، وقد وفد إليها الأوربيون للنهل من مَعِينِهَا، والتزوُّد من علومها، وقد كانت عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعًا وأربعين فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط[٣]. وأيضًا مكتبة بني عمار في طرابلس الشام، وكان لهم وكلاء يجوبون العالم الإسلامي؛ بحثًا عن الروائع لضمِّها إلى المكتبة، وكان بها خمسة وثمانون ناسخًا، يشتغلون بها ليل نهار في نسخ الكتب.

٤) المكتبات المدرسية: حيث أَوْلَتِ الحضارة الإسلامية اهتمامها لإنشاء المدارس من أَجْلِ تعليم الناس جميعًا، وقد أُلْحِقَت المكتبات بهذه المدارس، وهو الشيء الطبيعي المكمِّل لهذا الرقي والازدهار، وبشكل عامٍّ فقد انتشرت المدارس في الإسلام انتشارًا واسعًا في مدن العراق وسوريا ومصر وغيرها، وقد أُلحقت بمعظم المدارس الإسلامية مكتبات، فنور الدين محمود بنى مدرسة في دمشق وألحق بها مكتبة، وكذلك فعل صلاح الدين، أما القاضي الفاضِل وزير صلاح الدين فقد أسس مدرسة في القاهرة سماها الفاضلية، وأودع فيها حوالي مائتي ألف مجلد مما أخذه من خزائن العبيديين، ويذكر ياقوت الحموي عدة مدارس كانت في مرو، كانت تحوي في زمانه مكتبات ضخمة، وكانت أبوابها مفتوحة للجميع[٤].

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٢٨٦.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٨/ ٦١.
(٣) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ١/ ١٩٠.
(٤) ربحي مصطفى عليان: المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية ص١٣٤.

٥) مكتبات المساجد والجوامع: ويُعْتَبَرُ هذا النوع من المكتبات الأوَّل في الإسلام؛ حيث نشأت المكتبات في الإسلام مع نشأة المساجد، ومن أمثلتها: مكتبة الجامع الأزهر، ومكتبة الجامع الكبير في القيروان[١].

هذا، وكان «الإنفاق على المكتبات بصفة عامَّة من ريع الأوقاف التي تُوقَف عليها؛ حيث كانت الدولة تُخَصِّصُ لها أوقافًا مُعَيَّنَة، ويُقَدِّمُ لها بعض الأغنياء وأهل الخير أوقافًا تساعد في الإنفاق عليها»[٢].

***

(١) انظر: سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي ص١٨-٧٨ بتصرف.

(٢) محمد حسين محاسنة: أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين ص١٦١.

المبحث الثاني

مكتبة بغداد (جامعة إسلامية متطورة)

كان للمكتبات العلمية الإسلامية تأثير بالغ في نموِّ الحضارة الإنسانية وتطوُّرها حتى ظهرت بصورتها الحديثة، لكن أشهر تلك المكتبات بلا ريب كانت مكتبة بيت الحكمة ببغداد، التي تُعَدُّ أعظم دُورِ العِلْـمِ في الأرض بلا أدنى مبالغة، وأَحَدَ الكنوز العلمية التي أنتجها الفكر الإسلامي قديمًا، كما أنتج غيرها من المكتبات العلمية في سائر الأقطار الإسلامية، والتي تناسى الناس دَوْرَها على الرغم من أنها كانت بمنزلة جامعة علمية عالمية، يقصدها الطلاب على اختلاف أجناسهم وأديانهم من الشرق والغرب؛ لدراسة فنون العلم المختلفة، وبلغات متعدِّدَة، وظلَّ نورها يُضِيء للبشرية طريقها قرابة خمسة قرون، حتى دُمِّرَتْ على أيدي التتار.

وقد قام على إنشاء هذه المكتبة الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في عاصمة الخلافة بغداد؛ حيث خَصَّصَ بِنَاية مستقلَّة جمع فيها نفائس الكتب ونوادرها من المؤلفات العربية والمترجمة عن اللغات المختلفة، ولمَّا تولَّى الخليفة هارون الرشيد (حكم من سنة ١٧٠ إلى سنة ١٩٣ هـ)، وكان من أعظم خلفاء بني العباس وأكثرهم ذِكْرًا في التاريخ، اتَّجَه إلى إخراج الكتب والمخطوطات - التي كانت تُحْفَظُ في قصر الخلافة بعد أن تَضَخَّمَ رصيدها - من التراث المدوَّن والمخطوطات المؤلَّفَة المترجمة، وإفرادها بمبنًى خاصٍّ بها، يصلح لاستيعاب أكبر عدد من الكتب، ويكون مفتوحًا أمام كل الدارسين وطلاب العلم، فأسس دارًا رحبة ضخمة، نقل إليها كل الذخائر وسمَّاها: (بيت الحكمة)؛ تقديرًا لجلال رسالتها، والتي تطوَّرَتْ فيما بعدُ وأصبحت أشهر أكاديمية علمية عُرِفَتْ في التاريخ[1]، ثم كان التطور الأكبر لها في عهد المأمون الذي استطاع أن يجلب لها كبار المترجمين والناسخين والعلماء المؤلفين، بل كان يُرسل بعثات علمية إلى بلاد الروم، التي كان لها أعظم الأثر في نهضة وعلو هذه الجامعة العلمية الفريدة[2].

---

(١) عن مكتبة بغداد انظر: خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص٢٩.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ٤/ ٣٣٦.

فنشأ بيت الحكمة - أوَّل ما نشأ - كمكتبة خاصَّة، ثم أصبح مركزًا للترجمة، ثم مركزًا للبحث والتأليف، ثم ما لبث أن أصبح دارًا للعلم يتمُّ إعطاء الدروس فيها ومنح الإجازات العلمية، ثم أُلحق بها بعد ذلك مرصد فلكيٌّ، وعلى هذا فإن هذه الدار كانت تنقسم إلى عدة أقسام كما يلي:

المكتبة:

كان قسم المكتبة هو المنوط به اقتناء الكتب من كل حدب وصوب، وتنظيمها على الرفوف ومناولتها لمن يطلبها، ويلحق بذلك قسم النسخ والتجليد الذي كان يُنَاط به بطبيعة الحال استنساخ الكتب وتجليدها، وترميم ما يفسد ممَّا هو موجود، وكانت طرق تزويد بيت الحكمة بالكتب كثيرة منها: الشراء؛ حيث كان المأمون يُرْسِلُ بعثات إلى القسطنطينية لإحضار الكتب أيًّا كان نوعها، وكان في بعض الأحوال يسافر هو بنفسه ويشتري الكتب ويُرسلها إلى بيت الحكمة، ومنها - أيضًا - الاستهداء؛ حيث كان الخلفاء يبعثون وفودًا إسلامية إلى الدول الأجنبية، فكانت تهديهم من الكتب الموجودة لديهم، ومنها - أيضًا - أنه كان في بعض الأوقات يقبل الجزية ممَّن تجب عليهم كُتبًا! كما كان يحضر مئات النُّسَّاخ، والشُّرَّاح، والمترجمين من شتى اللغات؛ لتعريب ونقل الكتب من لغتها الأصلية، وكذلك كان منها التأليف، وهكذا تجمَّعَتْ لهذه المكتبة طرق مختلفة ومتعدِّدَة لِتَصِلَ بكتبها إلى حدٍّ لم تبلغه مكتبة قبلها عددًا ونوعًا.

وفي أمر البعثات كتب الخليفة المأمون إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من العلوم القديمة المخزونة الموروثة عن اليونان، وكانت تقاليد الروم وقتها تمنع من مطالعتها، ثم أجابه إلى ذلك بعد امتناع، فجهز المأمون بعثة علمية، وزوَّدَها بنفر من المترجمين، وجعل على رأسها المشرف على مكتبة بيت الحكمة، وتجوَّلَتْ تلك البعثة في كثير من الأماكن المختلفة التي يُظَنُّ أن فيها مخازن للكتب اليونانية القديمة، وعادت إليه بطرائف الكتب، وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والطب والفلك، وغير ذلك من العلوم، كما راسل المأمون باقي الملوك في عصره؛ يسألهم أن يسمحوا لبعثاته بالبحث والتنقيب عن الكتب في المخازن القديمة، ومن أطرف ما حُكِيَ في ذلك أن إحدى هذه

البعثات العلمية وَجَدَتْ تحت حصن قديم ببلاد فارس صناديق، بها كتب كثيرة قد تعفَّنَتْ حتى فاحت منها رائحة نتنة، فأخذها رجال البعثة، وحملوها إلى بغداد وبَقِيَتْ حولاً كاملاً حتى جَفَّتْ وتَغَيَّرَتْ، وزالت الرائحة عنها، ثم أقبلوا بعد ذلك على دراسة ما فيها[١]!

مركز الترجمة:

اجتمعت لدى المأمون ثروة هائلة من الكتب القديمة، فَشَكَّل لها هيئة من المترجمين المهرة والشُّرَّاح والوَرَّاقين؛ للإشراف على ترميمها ونقلها إلى العربية، وعَيَّنَ مسئولاً لكل لغة يُشْرِفُ على مَنْ يترجمون تراثها، وأجرى عليهم الرواتب العظيمة؛ حيث جعل لبعضهم خمسمائة دينار في الشهر[٢]، (أي ما يساوي اثنين من الكيلو جرامات ذهبًا تقريبًا)!

وكان قسم الترجمة منوطًا به ترجمة الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، وأحيانًا من العربية إلى لغات أخرى، وكان يُعَيَّنُ في هذا القسم نَقَلَة يختلفون من الناحية العملية والإدارية عن الخَزَنَة الذين يُعَيَّنُونَ في قسم المكتبة، وكان من هؤلاء: يوحنا بن ماسويه، وجبريل بن بختيشوع[٣]، وحنين بن إسحاق الذي أُرسل في رحلة إلى بلاد الروم ليتَمَكَّنَ من اللغة اليونانية، وكانت الكتب الأجنبية تُجْلَبُ إلى المكتبة وتُتَرْجَم فيها، كما كان بعض النقلة يُترجم خارج المكتبة ويمدُّ المكتبة بترجماته، وكان الخليفة المأمون يُقَدِّم مكافآت سخية للمترجمين إلى حدِّ وزن الترجمة بقيمتها ذهبًا[٤]!

وقد ذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست) أسماء لعشرات ممن كانوا يقومون بالترجمة من اللغات الهندية، واليونانية، والفارسية، والسريانية، والنبطية، وهؤلاء لم يقوموا بترجمة الكتب إلى العربية فقط، وإنما إلى سائر اللغات الحية المنتشرة داخل المجتمع الإسلامي؛

---

(١) انظر: ابن النديم: الفهرست ص ٣٠٤، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص١٧٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٣٣.

(٣) جبريل بن بختيشوع: هو جبريل أو جبرائيل بن بختيشوع الجنديسابوريّ (ت ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م) طبيب حاذق، خدم الرشيد والمأمون وغيرهما. من آثاره: «رسالة إلى المأمون في المطعم والمشرب»، و«المدخل إلى صناعة المنطق». انظر: القفطي: أخبار الحكماء ٩٣-١٠١، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٤-٣٥، وكحالة: معجم المؤلفين ٣/ ١١٣.

(٤) انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص١٧٢.

كي ينتفع بها جميع من يعيش داخل البلاد الإسلامية على اختلاف جنسياتهم، وبعضهم كان يقوم بترجمة الأصل إلى لغته هو، ثم يقوم مترجم آخر بنقله إلى العربية وغيرها، كما كان يفعل يوحنا بن ماسويه الذي كان ينقل الكتاب إلى السريانية، ثم يُكَلّف غيره بنقله إلى العربية، مع الاحتفاظ بالأصل بعد صيانته وتجليده[1].

ومَنْ يُرَاجِع كتب الفهارس التي نقلت عن هذه المكتبة يجد إشارات كثيرة تدلُّ على أن الكثير من الكتب كان يوجد منها نسخ نبطية، وقبطية، وسريانية، وفارسية، وهندية، ويونانية، وقد قَدَّمَ علماء المسلمين بذلك خدمة جليلة للبشرية كلها؛ بنقلهم لهذا التراث الذي كان مُهَدَّدًا بالزوال، ولولاهم ما عرف الناس في العصر الحديث شيئًا عن المصنفات اليونانية والهندية الثمينة القديمة؛ حيث كان يُحَرَّمُ الاطلاع عليها في كثير من البلدان التي جُلِبَتْ منها، وكان يُحْرَق منها ما يُعْثَرُ عليه، كما فُعِلَ بكتب أرشميدس العالم الشهير؛ إذ أَحْرَق الرومُ منها خمسة عشر حِمْلاً[2]!

وبالطبع لم يقتصر دور هؤلاء العلماء على الترجمة، وإنما قاموا بالتعليق على هذه الكتب، وتفسير ما فيها من نظريات، ونقلها - كما سبق أن رأينا - إلى حَيِّزِ التطبيق، وإكمال ما فيها من نقص، وتصويب ما فيها من خطأ؛ حيث كان عملهم يشبه ما يُسَمَّى بالتحقيق الآن، كما يُفْهَمُ من تعليقات ابن النديم على بعض تلك الكتب[3].

وقد ذكر القاضي صاعد الأندلسي في كتابه «طبقات الأمم» أطوار عملية الترجمة في بيت الحكمة، واهتمام الخليفة المأمون بهذه المكتبة الرائعة، فقال: «لما أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع منهم (من العباسيين) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد... تمم ما بدأ به جدُّه المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، واستخراجه من معادنه، بفضل همته الشريفة، وقوة نفسه الفاضلة، فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة، وسألهم صِلَتَهُ بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون، وأرسطاطاليس، وأبقراط، وجالينوس، وأوقليدوس، وبطليموس، وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لها مهَرَة التراجمة، وكَلَّفهم إحكام ترجمتها، فتُرجمت له على غاية ما

---

(١) انظر: ابن النديم: الفهرست ص٣٠٤ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص٤٣.

(٣) المصدر السابق ٣٣٩، وما بعدها.

أمكن، ثمَّ حضَّ الناس على قراءتها، ورَغَّبهم في تعليمها، فنفقت[١] سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إحصائه لمنتحليها، واختصاصه لمتقلديها، فكان يخلو بهم، ويأنس بمناظرتهم، ويلتذُّ بمذاكرتهم، فينالون عنده المنازل الرفيعة، والمراتب السنية»[٢].

إن هذا النص من القاضي صاعد الأندلسي يُدلل على أن الخليفة المأمون أنشأ أكاديمية مختصة لترجمة العلوم المختلفة، واستطاع أن يجلب لها كبار المترجمين من كافة بقاع الأرض، فاستوفد أبا يحيى بن البطريق وهو من علماء الإغريق، وكذلك حنين بن إسحاق، وكان من بين المترجمين العالم الشهير ابن ماسويه[٣].

وما أن انتهى عصر المأمون حتى كانت معظم الكتب اليونانية، والفارسية، وغيرها من الكتب القديمة في علوم الرياضة، والفلك، والطب، والكيمياء، والهندسة موجودة بصورتها العربية الجديدة بمكتبة (بيت الحكمة)، وفي ذلك يقول ول ديورانت صاحب كتاب (قصة الحضارة): «لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين، وتأتي الهند في المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان»[٤].

مركز البحث والتأليف:

وهو من أهمِّ روافد المكتبة؛ حيث كان المؤلِّفون يُؤَلِّفون كُتبًا خاصة لهذه المكتبة، وكان هؤلاء المؤلفون يقومون بذلك داخل قسم التأليف والبحث في المكتبة، أو يقومون بذلك خارج المكتبة، ثم يُقَدِّمُون نتاج تأليفهم إليها، وكان المؤلف يُثَاب على ذلك بمكافأة سخية من قِبَلِ الخليفة[٥]، بل كان النسَّاخون في بيت الحكمة يُنتقون حسب معايير خاصة، وذلك تلافيًا لأي خلط يحدث منهم، ومن ثم وجدنا علان الشعوبي - وهو من علماء القرن الثالث - ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون[٦].

---

(١) نَفَق البيع: راج ونفقت السلعة غَلَتْ ورغب فيها. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نفق ١٠/ ٣٥٧.

(٢) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص٤٩.

(٣) منصور سرحان: المكتبات في العصور الإسلامية ص٥٦.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ٤٠.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٣/ ١٣١.

(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/ ٣٦٧.

المرصد الفلكي:

أنشأ المأمون هذا المرصد في حي الشماسية بالقرب من بغداد ليكون تابعًا لبيت الحكمة؛ وذلك ليكون تعليم الفلك فيها تعليمًا عمليًّا؛ حيث يُجرِّب فيها الطلاب ما يدرسونه من نظريات علمية، وكان يعمل فيه علماء الفلك والجغرافيا والرياضيات[١]؛ مثل: الخوارزمي، وأولاد موسى بن شاكر، والبيروني ومن خلال هذا المرصد استطاع المأمون بفريقين من العلماء أن يحسب محيط الأرض[٢].

المدرسة:

قرَّب الخلفاءُ الذين جاءوا من بَعْدِ الرشيد العلماء الذين اشتهروا في عصرهم، وأوكلوا إليهم تعليم أبنائهم وتأديبهم، فأجزلوا لهم العطاء؛ ومن أمثال هؤلاء: الكسائي علي بن حمزة[٣] الذي حَظِيَ[٤] عند المأمون، وعهد إليه بتعليم ابنيه النحو، وله مؤلفات عظيمة في النحو واللغة، وابن السكيت[٥]، وكان يؤدِّب ولد جعفر المتوكل[٦]، وارتفعت ثقافة بعض العلماء وتنوَّعَتْ، فسُجِّلَتْ أسماؤهم مع الفقهاء، وكان البعض يأخذ أرزاقًا في هذه الطوائف كلها، كالزجاج الذي كان له رزق في الفقهاء وفي العلماء، ومبلغ ذلك ٢٠٠ دينار كل شهر[٧]، وقد أجرى الحاكم المقتدر على ابن دريد[٨] خمسين دينارًا في كل شهر، حينما قَدِمَ بغداد فقيرًا[٩].

---

(١) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ص٧٥.

(٢) إدوارد فندك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص٢٣٥.

(٣) الكِسَائي: هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله الكوفي، إمام في النحو واللغة، وأحد القرّاء السبعة المشهورين. وهو مؤدب الأمين بن هارون الرشيد. ولد بالكوفة، وتوفي بالرَّيِّ سنة (١٨٩هـ/ ٨٠٥م). انظر: الحموي: معجم الأدباء ٤/ ١٧٣٧-١٧٥٢، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٥، ٢٩٦.

(٤) حَظِيَ عنده: علا شأنه وأحبه، وبالرزق نال حظًّا منه. المعجم الوسيط مادة حظي ص١٨٣.

(٥) ابن السِّكِّيت: هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (١٨٦- ٢٤٤هـ/ ٨٠٢- ٨٥٨م)، إمام في اللغة والأدب. اتصل بالمتوكل العباسي، فعهد إليه بتأديب أولاده، وجعله في عداد ندمائه، ثم قتله. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ٣٩٥-٤٠١.

(٦) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٢/ ٣٤٩.

(٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٦٠.

(٨) ابن دريد: هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد البصري (٢٢٣- ٣٢١هـ/ ٨٣٨- ٩٣٣م)، إمام عصره في اللغة والآداب. ولد بالبصرة، وتوفي ببغداد. من كتبه: «جمهرة اللغة». انظر: الحموي: معجم الأدباء ٦/ ٢٤٨٩-٢٤٩٦، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٣٢٣-٣٢٨.

(٩) الزركلي: الأعلام ٦/ ٨٠.

وعندما أنشئت المدارس، وعُيِّنَ المدرسون بها أصبحت لهم مرتبات شهرية منتظمة من الخزانة العامة، أو من إيراد الأوقاف التي كانت عادة تُعَيَّنُ لِيُنْفَق من ريعها على هذه المنشآت، وقد كانت هذه المرتبات تختلف باختلاف مكانة المدرِّس وريع الوقف، ولكنها كانت على العموم أميل إلى الجود والسخاء(١).

وقد حظي بيت الحكمة في عهدي الرشيد والمأمون بجعله دار إقامة للطلاب والأساتذة على حَدٍّ سواء(٢).

وأمَّا عن المنهج المتَّبَع في الدراسة في بيت الحكمة، فكان يتمُّ من خلال نظامين: نظام المحاضرات، ونظام الحوار والمناظرة والمناقشة، وكان المدرس يُحَاضِرُ في بعض العلوم العالية في قاعات كبيرة، يساعده المعيد؛ فيجتمع بفئة من الطلاب، ويشرح لهم ما استغلق من المحاضرة، ويناقشهم في مادتها، والأستاذ أو الشيخ هو المرجع الأخير في موضوعه، وكان الطلاب ينتقلون من حلقة إلى أخرى؛ يعالجون في كلٍّ منها فرعًا من فروع العلم(٣).

وكان التدريس يشمل من العلوم الفلسفة، والفلك، والطب، والرياضيات، واللغات المختلفة؛ كاليونانية، والفارسية، والهندية، إلى جانب اللغة العربية، وعندما يُنْهِي خِرِّيج بيت الحكمة دراسة عِلْم من العلوم يمنحه أستاذه إجازةً، تشهد بأنه قد أتقن ذلك العلم، فإذا كان من الممتازين نَصَّتِ الشهادة على أنه قد أجيز له تدريسه، فكان حقُّ مَنْح الشهادة للأستاذ دون غيره، وكانت طريقة المنح أن يكتب الأستاذ للخرِّيج إجازة يَذْكُر فيها اسم الطالب، وشيخه، ومذهبه الفقهي، وتاريخ الإجازة(٤).

إدارة بيت الحكمة:

تَعَاقَبَ على إدارة بيت الحكمة في بغداد عدد من المديرين العلماء، وكان يُطْلَقُ على المدير لقب (صاحب)، فكان مدير بيت الحكمة يُسَمَّى (**صاحب بيت الحكمة**)، وأوَّل

---

(١) انظر: النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤١٨، ٢/ ١٨، ٥٢، ٣٠٦.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٣١٩، وأحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص١٨٤، وخضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص٢٤٦.

(٣) خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص١٤٠.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ٣٦.

مدير لبيت الحكمة هو سهل بن هارون الفارسي (ت ٢١٥هـ/ ٨٣٠م)، وقد ولاَّه هارون الرشيد القيام بخزانة كتب الحكمة، وكان ينقل من الفارسي إلى العربي ما يجده من الحكمة الفارسية، وحين تولَّى المأمون الخلافة عَيَّنَهُ مديرًا لبيت الحكمة[١]، وكان يُعاونه في هذا المنصب شخص آخر، هو سعيد بن هارون الملقب بابن هريم[٢]، وكان ممَّن تولَّى إدارة بيت الحكمة أيضًا الحسن بن مرار الضبي[٣].

هذا، وقد قال القلقشندي في وصف مكتبة بغداد: «إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن: إحداها: خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد؛ فكان فيها من الكتب ما لا يُحْصَى كثرة، ولا يقوم عليه نفاسة...»[٤]. وكانت الخزانة الثانية هي التي بالقاهرة، والثالثة هي التي بقرطبة.

على أنه كان ثمة الكثير من المكتبات التي لم تَقِلَّ شأنًا عن مكتبة بغداد في العالم الإسلامي؛ وذلك لأن الخلفاء والأمراء المسلمين كانوا يتنافسون في جمع الكتاب، حتى إن الحكم بن عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس كان يبعث رجالاً إلى جميع بلاد المشرق؛ ليشتروا له الكتب عند أوَّل ظهورها[٥].

وقد أدَّت مكتبة بغدَاد - مع كثير من المكتبات الإسلامية الأخرى - دورًا كبيرًا في حدوث نهضة علمية في سائر المجالات عند المسلمين الأوائل، ومَنْ تتلمذ على أيديهم من أبناء الأمم الأخرى، نهضة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً قبل العصر الحديث، مما كان له بالغ الأثر على الحضارة الإنسانية، في الوقت الذي كانت أوربا في حال مزرية من البداوة والتخلُّف[٦].

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن تلك المكتبة هي التي عَمِلَتْ على نبوغ كثير من العلماء الذين صاروا أصحاب الريادة في علوم شتى، نذكر منهم: الخوارزمي مُبْتَكِر علم الجبر، وقد حكى ابن النديم عن ذلك وعن دوره الواسع في علم الفلك فقال: «وكان منقَطِعًا إلى

(١) انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ١٤٤.
(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ٥/ ٨٦.
(٣) انظر: الكتبي: فوات الوفيات ١/ ١٢٢.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٥٣٧.
(٥) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ١/ ٢٢٦.
(٦) انظر: قدري طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص٢٥٠.

خزانة الحكمة للمأمون، وهو من أصحاب علوم الهيئة، وكان الناس قبل الرصد وبعده يُعَوِّلُونَ على زِيجَيْهِ الأول والثاني، ويُعْرَفَان بالسند هند»[١].

وكذلك كان الرازي، وابن سينا، والبيروني، والبتَّاني[٢]، وابن النفيس، والإدريسي[٣]، ومئات غيرهم ممن أنتجهم الفكر الإسلامي، الذي أرست قواعده مكتبة بغداد وغيرها من المكتبات الإسلامية.

وممَّا يَحْزَنُ له القلب، ويندى له الجبين أن هذا المَعْلَمَ الحضاري وتلك المنارة، قد أُبِيدَتْ تحت وقع هجمات التتار الذين عَلَتْهُم الهمجية، لقد حمل التتار الكتب الثمينة، ملايين الكتب الثمينة، وفي بساطة شديدة- لا تخلو من حماقة وغباء- ألقوا بها جميعًا في نهر دجلة!

لقد كان الظن أن يحمل التتار هذه الكتب القيمة إلى «قراقورم» عاصمة المغول ليستفيدوا - وهم لا يزالون في مرحلة الطفولة الحضارية - من هذا العلم النفيس.. لكن التتار أمة همجية.. لا تقرأ ولا تريد أن تتعلم.. يعيشون للشهوات والملذات فقط، ألقى التتار بمجهود القرون الماضية في نهر دجلة، حتى تحوَّل لون مياه نهر دجلة إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب، وحتى قيل أن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى! وكان هذا جريمة في حق الإنسانية كلها[٤].

ومن العجب أن القليل من المؤلَّفات العلمية - التي نَجَتْ من الدمار على أيدي هؤلاء الغزاة وغيرهم - كانت من أهمِّ أسباب النهضة العلمية الحديثة في أوربا، وقد شهد بذلك كثير من العلماء المنصفين في الغرب.

وعلى هذا، فقد أَدَّت مكتبة بيت الحكمة ببغداد عَظِيمَ الفضل للحضارة الإنسانية، وكانت حلقة وصل مهمَّة من حلقاتها.

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص٣٣٣.

(٢) البتَّاني: هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني (ت ٣١٧هـ/ ٩٢٩م)، فلكي مهندس، وتوفي بسامراء. انظر: القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٨٤، ١٨٥، والصفدي: الوافي بالوفيات ٢/ ٢٠٩.

(٣) الإدريسي: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (٤٩٣- ٥٦٠هـ/ ١١٠٠- ١١٦٥م) من علماء الجغرافية، رحل إلى صقلية، فنزل على روجار الثاني، ووضع له كتابًا سمّاه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٣٨.

(٤) راغب السرجاني: قصة التتار من البداية إلى عين جالوت ص١٦١، ١٦٢.

الفصل الخامس
هيئة العلماء

خرَّجت الحضارة الإسلامية آلافًا من العلماء الأجلاء الذين كان لهم الفضل في تقدم هذه الحضارة ورقيها، وبالطبع فإن كل حضارة إنسانية كان لها من العلماء ما خلَّدُوا ذكرها، ورفعوا قدرها بين الأمم.

على أن أكثر ما يجذب الانتباه في الحضارة الإسلامية، أنها وضعت لنفسها نظامًا منهجيًّا رائعًا، استطاعت أن تسير عليه طيلة مسيرتها العامرة، وكان تقدم هذا النظام مطردًا مع تقدم الحالة العلمية التي شهدتها هذه الحضارة.

ولم يكن تربع علماء المسلمين للمكانة العلمية المرموقة التي وصلوا إليها من فراغ، بل كان عبر رحلة طويلة من قصص المعاناة والصبر، وتحمل كافة الأعباء المادية والمعنوية للوصول إلى المكانة العلمية الفريدة التي وصلوا إليها، وسنعرض لهذا الموضوع من خلال المباحث التالية:

- **المبحث الأول: طلب العلم وتنشئة العلماء**
- **المبحث الثاني: مكانة العلماء في الدولة الإسلامية**
- **المبحث الثالث: الإجازة**

***

المبحث الأول

طلب العلم وتنشئة العلماء

إن أول ما يجب التنبيه عليه أن طلاب العلم في الحضارة الإسلامية، كانوا يضعون نُصب أعينهم غاية عظيمة، تتمثل في تقدُّم وإعلاء حضارتهم إلى مصافّ الحضارات العالمية، ولم تكن هذه الغاية مطلبًا في حد ذاتها بقدر ما كانت طريقًا لإرضاء رب العالمين.

ويعجب الإنسان حينما يقرأ أن العلماء في الحضارة اليونانية القديمة كانوا أضحوكة للعوام، ومثلاً صارخًا لمن أراد أن يُستهزأ به في تلك الحضارة التالدة[١]!

غير أن الحضارة الإسلامية قد أعلنتها صريحة منذ نزول الوحي على النبي ﷺ، أن أكثر الناس خشية لله تعالى هم العلماء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢]، ومن ثَمَّ غُرست تلك القيم الربانية عند كل فرد من أفراد هذه الحضارة، فعرف المسلمون أن العلماء هم السادة الحقيقيون لهذه الأمة؛ لأن «الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ»[٣].

ومن هذا المنطلق، نهض آلاف من أبناء هذه الحضارة -منذ نعومة أظفارهم- لطلب العلم، وتلقيه من كل حدبٍ وصوب، فكانت تنشئة هؤلاء العلماء مثالاً يُحتذى، وقَصصًا خالدًا.

ولقد استعان طلاب العلم في هذه الحضارة بالتواضع والمثابرة في تحصيل العلوم، فقد رَوَى حَبْر هذه الأمة، وعالمها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه «لما قُبض رسول الله ﷺ قلتُ لرجل من الأنصار: هَلُمَّ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير. فقال: واعجبًا لك يابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم[٤]؟ قال: فتركَ ذلك، وأقبلتُ أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فآتي بابه وهو قائلٌ[٥] فأتوسَّد ردائي على

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٣٢٧.

(٢) (فاطر: ٢٨).

(٣) سنن أبي داود (٣٦٤١)، وسنن الترمذي (٢٦٨٢).

(٤) أي أن أصحاب رسول الله ﷺ كثير، والناس يلجئون إليهم، ولن يلجئوا إليك.

(٥) نائم وقت الظهيرة.

بابه تَسْفِي عليَّ الرياح من التراب، فيخرج فيراني فيقول: يابن عم رسول الله، ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث. فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني. قال: هذا الفتى كان أعقل مني»[(١)].

ولذلك كانت المنافسة بين الخلاّن في تحصيل العلم سمة من سمات هذه الحضارة، ولا نكاد نقرأ في عصر من عصور الحضارة الإسلامية إلا ووجدنا المنافسة بين الصديقين في تحصيل العلم قائمة، وفيها من المواقف والقصص ما يلفت الانتباه، ويجذب المتلقي؛ فقد روى فقيه المدينة صالح بن كيسان (ت ١٤٠هـ) أنه قال: «اجتمعتُ أنا والزُّهري (محمد ابن شهاب) ونحن نطلب العلم فقلنا: نحن نكتبُ السنن. فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ، ثم قال لي: هَلُمَّ فلنكتب ما جاء عن أصحابه؛ فإنه سُنَّة. فقلتُ: إنه ليس بسُنَّة فلا نكتب. قال: فكتب ما جاء عنهم ولم أكتب، فأَنْجَحَ وضَيَّعْتُ»[(٢)].

والعجيب أن الخلفاء والأمراء كانوا يحرصون على طلب العلم وتحصيله منذ صغرهم، بل رأينا منهم من كان يتشوَّق للعودة لهذه الأيام الجليلة، ويغبط طلبة العلم الفقراء، السُّعاة دون كلل أو ملل؛ فقد «كان المنصور (ت ١٥٨هـ) في شبيبته يطلبُ العلم من مظانّه، والحديث والفقه، فنال جانبًا جيدًا، وطرفًا صالحًا، وقد قيل له يومًا: يا أمير المؤمنين، هل بقي شيء من اللذات لم تنله؟ قال: شيء واحد. قالوا: وما هو؟ قال: قولُ المحدِّثِ للشيخ من ذكرتَ رحمك الله. فاجتمع وزراؤه وكُتَّابه وجلسوا حوله وقالوا: ليُمل علينا أمير المؤمنين شيئًا من الحديث. فقال: لستم بهم، إنما هم الدَّنِسةُ ثيابهم، المشققة أرجلُهم، الطويلةُ شعورهم، روّاد الآفاقِ، وقُطّاعِ المسافات، تارةً بالعراق، وتارة بالحجاز، وتارة بالشام، وتارة باليمن، فهؤلاء نقلة الحديث»[(٣)].

وقد اهتم الآباء بتعليم أبنائهم، وتوجيههم ناحيته منذ صغرهم؛ وتربيتهم على الرحلة في طلب العلم، فهذا علامة الأندلس الحميدي (المولود قبل عام ٤٢٠هـ) يحمله

---

(١) الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ٢٩٨.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٧٦، ٣٧٧.
(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٣٢/ ٣٣٠.

والده على كتفه لسماع الحديث وذلك في عام ٤٢٥هـ، ورحل سنة ٤٤٨هـ، وقدم مصر، وكان قد سمع بالأندلس من ابن عبد البر[(١)] وابن حزم ولازمه وقرأ عليه مصنّفاته وأكثر من الأخذ عنه، وشهر بصحبته، وصار على مذهبه إلاّ أنّه لم يكن يتظاهر به، وسمع بدمشق وغيرها، وروى عن الخطيب البغدادي وكتب عن أكثر مصنّفاته، وسمع بمكة من الزنجاني، وأقام بواسط مدة بعد خروجه من بغداد، ثم عاد إلى بغداد واستوطنها، وكتب بها كثيرًا من الحديث والأدب وسائر الفنون، وصنّف مصنّفات كثيرة، وكان إمامًا من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته، حتى قال بعض الأكابر ممّن لقي الأئمة: لم تر عيناي مثل أبي عبد الله الحميدي في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه في أهله[(٢)].

بل الأعجب من ذلك أن الآباء كانوا يشتركون مع أبنائهم في الخروج لطلب العلم، وهو ما حدث مع عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصّامت وأبيه الوليد، حيث قال: «خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحيّ من الأنصار، قبل أن يهلكوا، فكان أوَّل من لقينا أبو اليسر صاحب النبي ﷺ ومعه غلام له. فذكر الحديث»[(٣)].

ومِن ثَم كانت الرحلة في طلب العلم مع الأبناء إضافة إسلامية جديدة في مسار الحضارة الإنسانية، لم تتميز بها طائفة على أخرى، فقد رحل أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك إلى عطاء هو وابناه، «فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما انفتل إليهما، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حوّل قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه: قوما. فقاما، فقال: يا بَنِيَّ، لا تنيا في طلب العلم»[(٤)]. وكذلك رحل خليفة المسلمين هارون الرشيد بولديه الأمين والمأمون لسماع موطأ الإمام مالك في المدينة المنورة[(٥)].

وقد كان بعض الآباء يمنعون أبناءهم من طلب العلم؛ نظرًا لشظف العيش، وضيق

---

(١) ابن عبد البر: هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي المالكي (٣٦٨- ٤٦٣هـ/ ٩٧٩- ١١٧١م)، إمام عصره في الحديث والأثر، يقال له: حافظ المغرب. من مصنفاته: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب». انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/ ٦٦-٧١، والذهبي: تذكرة الحفاظ ٣/ ٢١٧، ٢١٨.

(٢) المقري: نفح الطيب ٢/ ١١٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٣٤١.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٤٠/ ٣٧٥.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٠/ ٤١.

ذات اليد، بَيْدَ أنَّ المجتمع كان يحرص على مساعدة هؤلاء النُّجباء من الطلاب على الاستمرار في تلقي العلم، وتحصيله، وقد روى ابن كثير أن «هاشم بن بشير بن أبي حازم القاسم أبو معاوية السلمي الواسطي، كان أبوه طباخًا للحجاج بن يوسف الثقفي، ثم كان بعد ذلك يبيع الكوامخ[(١)]، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على شغله، فأبى إلا أن يسمع الحديث. فاتفق أن هاشمًا مرض، فجاءه أبو شيبة قاضي واسط عائدًا له ومعه خلق من الناس، فلما رآه بشير فَرِح بذلك، وقال: يا بُنيَّ، أبلَغَ من أمرك أن جاء القاضي إلى منزلي؟ لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث. وكان هاشم من سادات العلماء، وحدّث عن مالك وشعبة[(٢)] والثوري[(٣)] وخلق غير هؤلاء، وكان من الصُّلحاء العُبَّاد»[(٤)].

لا ريب أن هذه المسئولية الاجتماعية التي تجعل قاضي المدينةِ، وكثيرًا من أعيانها يأتون لشابٍّ يافع فقير مغمور، لا يملك من حطام الدنيا إلا المثابرة على تحصيل العلم، والمجاهدة في التفوق فيه، ليؤكد لدينا أن الحضارة الإسلامية تحترم العلم وكل المشتغلين به، بدءًا من طلابه، وانتهاءً بالعلماء والمدرسين. ومن دون شك فإن هذا الموقف وأمثاله ليعمِّق لدينا أن الحضارة الإسلامية وضعت طلبة العلم في مكانة متقدمة في منظومتها الاجتماعية، وهو ما لم نجده عند أي أُمَّة من الأمم الأخرى، التي كانت تجعل الأمور المادية من المال والملك والقوَّة والسلطان والخرافة، مقدَّمة على أي شيء آخر.

وقد كان للأمهات دور غير منكور في حض الأبناء على طلب العلم في هذه الحضارة، وقد ضربت بعضهن أروع الأمثلة الدالة على الوعي التام الذي تمتعت به المرأة في تلك العصور الخالدة، فمن أُولاء الأمهات الجليلات، كانت أم «ربيعة الرأي»[(٥)]، شيخ

---

(١) مفردها الكامخ، وهو إدام يؤتدم به، وخصه بعضهم بالمخللات التي تستعمل لتشهي الطعام.

(٢) شعبة بن الحجاج: هو أبو بسطام شُعبة بن الحجاج بن الورد الأزدي البصري (٨٢- ١٦٠هـ/ ٧٠١- ٧٧٦م)، من أئمة الحديث والشعر والأدب، قال الشافعي: «لولا شعبة ما عُرف الحديث بالعراق». انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ١٦٤.

(٣) سفيان الثوري: هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧- ١٦١هـ/ ٧١٦- ٧٧٨م)، أمير المؤمنين في الحديث، ولد ونشأ بالكوفة ومات بالبصرة، ألف (الجامع الكبير) و(الجامع الصغير) في الحديث. انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ١٠٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ١٩٨.

(٥) ربيعة الرأي: هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن التيمي مولاهم أبو عثمان المدني المعروف بربيعة الرأي، يقول ابن حجر عنه: ثقة فقيه مشهور. مات سنة ١٣٦هـ على الصحيح. انظر تقريب التهذيب، ص ٢٠٧ - تاريخ بغداد ٨/ ٤٢٠ - الباجي: التعديل والتجريح ٢/ ٥٧٣.

الإمام مالك، حيث خرج زوجها فرُّوخ في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية، وترك ربيعة حملاً في بطنها، لتقوم هي على تنشئته وتربيته وتعليمه، وقد ترك عندها ثلاثين ألف دينار.. ولما رجع بعد سبعٍ وعشرين سنة، دخل مسجد المدينة، فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، وإذا فيها مالك والحسن وأشراف أهل المدينة، ولما سأل عن صاحب هذه الحلقة، أجابوه بأنه ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ابنه)!!

فرجع إلى منزله وقال لزوجته وأم ولده: «لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحدًا من أهل العلم والفقه عليها». فقالت له: فأيُّهما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار، أم هذا الذي هو فيه؟! فقال: لا -والله- بل هذا. فقالت: أنفقتُ المال كله عليه. قال: فوالله ما ضيَّعتيه[1]!!

وإنَّا لَنَعجَبُ حين نعلم أنَّ سفيان الثوري رحمه الله - فقيه العرب ومحدثهم، وأمير المؤمنين في الحديث، والذي قال فيه زائدة[2]: «الثوري سيِّد المسلمين»[3]. وقال فيه الأوزاعي[4]: «لم يبقَ من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان»[5]- كان وراءه أمٌّ صالحة، تكفلت بتربيته والإنفاق عليه، فكان هو ثمرتها.

يصوِّر ذلك بنفسه فيقول: «لما أردت أن أطلب العلم؛ قُلتُ: يا ربِّ، لا بد لي من معيشة. ورأيت العلم يَدْرُس (أي: يذهب ويندثر) فقلت: أُفرِّغ نفسي في طلبه. قال: وسألتُ الله الكفاية»، يعني أن يكفيه أمر الرزق، فكان من كفاية الله له في ذلك الشأن أن قيَّض له أُمَّه التي قالت له: «يا بُنَيَّ، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي»[6].

فكانت -رحمها الله- تعمل بالمغزل، وتقدم لولدها نفقة الكتب والتعلُّم؛ ليتفرغ هو للعلم، بل والأكثر من ذلك أنها كانت كثيرًا ما تتخوله بالموعظة والنصيحة لتحضه على

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) زائدة بن قدامة الثقفي: هو أبو الصلت الكوفي، من كبار أتباع التابعين، قال الذهبي: ثقة حُجَّة صاحب سُنَّة، توفي غازيًا بالروم سنة (١٦١هـ). انظر: الذهبي: الكاشف ١/ ٤٠٠، وابن حجر: تقريب التهذيب ص٢١٣.

(٣) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١/ ١١٨.

(٤) أبو عمرو الأوزاعي: هو عبد الرحمن بن عمرو (٨٨- ١٥٧هـ)، إمام أهل الشام في زمانه في الحديث والفقه، كان ثقة مأمونًا، سكن بيروت، وبها مات. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ٤٨٨، والمزي: تهذيب الكمال ١٧/ ٣٠٨.

(٥) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٤.

(٦) أبو نعيم: حلية الأولياء ٦/ ٣٧٠.

تحصيل العلم، فكان مما قالته له ذات مرة: «يا بُنيَّ، إذا كتبت عشرة أحرف فانظرْ هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تَرَ ذلك فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك»[١].

وهكذا كانت أمه فكان هو.. تَبوَّأ السيادة في العلم والإمامة في الدين!!

ولا يفوتنا هنا أن ننوِّه بدور الأم في حياة الأئمة المشهورين، مثل البخاري أمير أهل الحديث، فقد نشأ البخاري يتيمًا في حِجْر أمه، لتقوم هي على تربيته أفضل تربية، فتتعهده بالرعاية والدعاء، وتدفعه إلى التعلم والصلاح، وتزين له أبواب الخير، بل وترحل به وهو في سن السادسة عشرة إلى مكة للحج، ثم تتركه هناك وترجع، ليطلب العلم بلسان قومه.. ليرجع ويكون هو البخاري، ولتُعلِّم أمهات المسلمين -والأرامل منهن خاصَّة- كيف تكون تربية الأبناء، وما دور الأمهات في جهادهن لرفعة الأمة والنهوض بها!

أما أم الشافعي فقد ارتحلت به حين بلغ عامين من عمره من غزَّة -مسقط رأس الشافعي- إلى مكة، حيث العلم والفضل، وحيث البادية حولها، والتي فيها يقوِّم لسان الغلام وتصح لغته[٢]، وكان الشافعي هو ثمرة جهود تلك المرأة الفاضلة.

وقد كانت الرحلة في طلب العلم أمرًا محببًا لمن أراد أن يتلقى العلم من ينابيعه، ومن ثَمَّ كان مكحول الدمشقي -وهو تابعي جليل- يقول مفتخرًا: «طفتُ الأرض كلها في طلب العلم»[٣]. ولذلك صار مكحول رحمه الله من أكابر علماء المسلمين، وهو ما جعل الإمام الكبير محمد بن شهاب الزُّهري يقول في حقه: «العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالحجاز، والحسن البصري بالبصرة، والشعبي بالكوفة، ومكحول بالشام»[٤].

وقد كان هؤلاء العلماء يُعانون أشد المعاناة في مرحلة طلبهم للعلم، فقد ذكر ابن أبي حاتم الرازي في تقدمة كتابه «الجرح والتعديل»، ما لاقاه والده أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي[٥]

---

(١) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٣/ ١٨٩.

(٢) راجع في قصة أم الشافعي: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص١٠، ١١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٣٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٣٣٤.

(٥) أبو حاتم الرازي: هو محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران (١٩٥- ٢٧٧هـ/ ٨١٠- ٨٩٠م)، ولد بالري وتوفي ببغداد، له «طبقات التابعين»، و«تفسير القرآن العظيم»، و«أعلام النبوة». انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٧.

في طلبه للعلم، فقد نقل عنه أنه قال: «أول سنة خرجتُ في طلب الحديث أقمتُ سبع سنين، أحصيتُ ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ[1]، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته، وأمَّا ما سرتُ أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصى كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مراتٍ كثيرة، وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا إلى مصر ماشيًا، ومن مصر إلى الرملة ماشيًا، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن أنطاكية إلى طرسوس، ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليَّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعتُ، ثم خرجت من حمص إلى بيْسان، ومن بيسان إلى الرَّقة، ومن الرَّقة ركبتُ الفرات إلى بغداد، وخرجتُ قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيًا، كل هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة، أجول سبع سنين، خرجت من الرّي سنة ثلاث عشرة ومائتين...، ورجعت سنة إحدى وعشرين ومائتين، وخرجتُ المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين، ورجعتُ سنة خمس وأربعين، أقمت ثلاث سنين»[2].

وقد كانت الرحلة عند الأندلسيين أمرًا مهمًّا جدًّا، وعاملاً من عوامل أفضلية بعض العلماء على بعض، ولذلك قال المقري[3] عن أبي عمرو الداني[4] إنه «من الراحلين من الأندلس إلى المشرق، وهو الأحق بالتقديم والسبق، الشهير عند أهل الغرب والشرق، الحافظ المقرئ الإمام الرباني، ولد سنة ٣٧١هـ، وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧هـ، ورحل إلى المشرق سنة ٣٩٧هـ، فمكث بالقيروان أربعة أشهر، ودخل مصر في شوَّالها، فمكث بها سنةً، وحجَّ، ورجع إلى الأندلس في ذي القعدة سنة ٣٩٩هـ»[5].

---

(١) يقدر الفرسخ بـ ٤,٨ كم.

(٢) أبو حاتم الرازي: الجرح والتعديل ١/ ٣٥٩، ٣٤٠.

(٣) المقري: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي التلمساني (ت ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م)، صاحب كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ولد ونشأ في تلمسان، وتوفي بمصر. انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٣٧.

(٤) أبو عمرو الداني: هو عثمان بن سعيد بن عثمان، ويقال له ابن الصيرفي (٣٧١- ٤٤٤هـ/ ٩٨١- ١٠٥٣م)، من موالي بني أمية، أحد حفاظ الحديث، ومن الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٠/ ٢٠، والزركلي: الأعلام ٤/ ٢٠٦.

(٥) المقري: نفح الطيب ٢/ ١٣٥.

مما سبق نستيقن أن هذه الحضارة قد ربَّتْ أبناءها على ضرورة طلب العلم، مهما كان مصدره، ولذلك وجدنا آلافًا من أبناء هذه الحضارة كالنحل في نشاطه، لا يتوقف عند حدود قُطر بعينه، أو شيخ محدد، وهذا ما لم نجده عند أبناء أي حضارة أخرى؛ إذ كان العلم قضية عامة عند المسلمين، وهو ما ميزهم عن غيرهم طيلة قرون عِدَّة.

* * *

المبحث الثاني
مكانة العلماء في الدولة الإسلامية

لا يقِلُّ دور الدولة في تنشئة العلماء عن دور الأسرة، بل إن دورها قد يفوق دور الأسرة في أحيانٍ كثيرة.. وقد يكون لزامًا على الدولة في سبيل بناء نهضتها، وفي سبيل قيادة مسيرتها نحو التقدم والاستقلالية، والبعد عن ذُلِّ التبعية، أن تحوز نصيب الأسد في كفالة العلماء، ورعايتهم وتنشئتهم، وتفقد أحوالهم.

والحقيقة أن الدولة الإسلامية لم تغفل يومًا دورها المحوري في هذا المجال، بل ربما كان هو الدور الغالب عليها، حتى إنك لتجد المدارس، والمعاهد العليا، والمكتبات العامة، وكذلك الخاصة، وقد ازدانت بها مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.. وفي ذلك يذكر التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب جمًّا غفيرًا من خلفاء المسلمين وأمرائهم، الذين كان لهم دورٌ كبير في رعاية العلماء وطلاّب العلم.

ويأتي في مقدمة هؤلاء الخلفاء، الخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي قال عنه عبد الله بن المبارك[1]: «ما رأيتُ عالمًا، ولا قارئًا للقرآن، ولا سابقًا للخيرات، ولا حافظًا للحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين والصحابة، أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثماني سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعِلم، ويروي الحديث، ويجمع الدواوين، ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة»[2]؛ ولم يكن ذلك إلا بكثرة إنفاقه، واهتمامه بالعلم والعلماء وطلابه منذ الصغر!!

ونظرة واحدة على عدد المدارس على اختلاف أقسامها، والبيمارستانات التي شُيِّدَت في عصر النهضة والحضارة الإسلامية تُوقِفُك على ما كان من دور الدولة في رعاية العلماء وتنشئتهم منذ الصغر.. فقد كانت هناك مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره،

---

(١) عبد الله بن المبارك: هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن المبارك القرشي بالولاء (ت ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م)، قاضي حلوان (في العراق)، من حفاظ الحديث الثقات. انظر: ابن ماكولا: الإكمال ٧/ ٢٣٩، والزركلي: الأعلام ١/ ٢٢٢.

(٢) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، وهو المعروف بتاريخ الخلفاء، ٢/ ١٥٧.

ومدارس للحديث الشريف، ومدارس للفقه، وأخرى للطب، كما كان هناك مدارس خاصة بالأيتام، كما مرّ بنا في الفصل الثالث من هذا الباب.

وبعد مرحلة الصغر كان للدولة الدور البارز أيضًا في الاهتمام بأبنائها العلماء ورعايتهم بما يليق ومكانتهم، فكانت أولاً توفر لهم من المرتبات ما يكفي لمعيشتهم عيشة هانئة، وهذا عدا ما كان يُعطَون من رواتب أخرى كحاجات معاشية، فقد كان الشيخ نجم الدين الخبوشاني ممن عيَّنه السلطان صلاح الدين ليدرِّس في مدرسته الصلاحية، وقد جعل له كل شهر أربعين دينارًا عن التدريس، وعشرة دنانير للإشراف على أوقاف المدرسة، وستين رطلاً مصريًّا من الخبز كل يوم، وراويتين من ماء النيل كل يوم[(١)].

وكان من رواتب شيوخ الأزهر الشهرية، راتب يأخذه الشيخ لنفقات بغلته، إذْ كان من أوقاف الأزهر وقف خاص لبغلة الشيخ ونفقاتها[(٢)].

ومثل هذا يُعَدُّ من أبواب تفريغ العلماء للتأليف والابتكار، وأيضًا تعليم الناس، وإفادتهم، دينيًّا ودنيويًّا، ومما يستحق التنويه به، أنه كان للمعلمين في ذلك الوقت المبكر نقابة خاصة بهم، وكان جماعة المعلمين هم الذين يختارون النقيب، وما كان يتدخل السلطان إلا إذا وقع خلاف بين الأعضاء فيصلح بينهم..

وفي ذلك يروي أبو شامة[(٣)] في الروضتين عن مقلد الدولعي أنه قال: لما مات الحافظ المرادي، وكُنّا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد؛ فمنّا مَن مال إلى المذهب، وأراد أن يستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون[(٤)]، وكان بالموصل، ومنّا من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن يستدعي القطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدس، ثم عاد إلى بلاد العجم؛ فوقع بيننا كلام بسبب ذلك، ووقعت فتنة بين الفقهاء،

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ٢/ ٥٧.

(٢) انظر مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١٠٢.

(٣) أبو شامة: هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (٥٩٩- ٦٦٥هـ/ ١٢٠٢- ١٢٦٦م)، محدث ومفسر وفقيه وأصولي ومقرئ. وُلد بدمشق ونشأ فيها، وتولى مشيخة دار الحديث الأشرافية. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٦/ ٣، والشاطبي: إبراز المعاني من حرز الأماني ١/ ١.

(٤) ابن أبي عصرون: هو عبد الله بن محمد بن هبة الله التميمي (٤٩٢- ٥٨٥هـ/ ١٠٩٩- ١١٨٩م)، فقيه شافعي، ولد بالموصل، وانتقل إلى بغداد، واستقر في دمشق، فتولى بها القضاء سنة ٥٧٣هـ. وإليه تنسب المدرسة «العصرونية» في دمشق.

فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين بن الدّاية نائبًا عنه، وقال لهم: ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع، وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق. وقد قال المولى نور الدين: نُرضي الطائفتين، ونستدعي الشيخين. فاستدعاهما جميعًا، وولَّى شرف الدين المدرسة التي سُمِّيَت باسمه، وولى قطب الدين مدرسة النفري[1].

وفي مرحلة أخرى فإن دور الدولة في التعامل مع العلماء المبدعين كان له شأنٌ آخر، فهذا الخليفة الموحدي الثالث المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يُنشئ «بيت الطلبة» للنابغين ويشرف عليه بنفسه، حتى إن بعض حاشيته حسدوا هؤلاء الطلبة على موضعهم منه، وتقريبه إياهم، وخلوته بهم دونهم، ولما بلغ ذلك المنصور الموحدي فزع وخاطبهم قائلاً: «يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمرٌ فزع إلى قبيلته، وهؤلاء الطلبة لا قبيلة لهم إلا أنا، فمهما نابهم من أمرٍ فأنا ملجأهم، وإليَّ فزعهم، وإليَّ يُنسَبون...»[2]، فكان أن قامت دولة الموحدين، وسادت وعمَّت الأرجاء.

ولأبي عُبَيد القاسم بن سلام[3] قصة طريفة مع عبد الله بن طاهر[4] تدل على تقدير الأمراء لعقول العلماء، وتكريم النابغين منهم، فإنه لما وضع أبو عبيد القاسم بن سلام كتاب «غريب الحديث» عرضه على عبد الله بن طاهر، فاستحسنه وقال: «إن عقلاً بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيقٌ أن لا يُحْوَجَ إلى طلب المعاش»، ثم أجرى له كل شهر عشرة آلاف درهم[5].

وقد اشتهر أمر الجوائز العظيمة والهبات الجزيلة التي كان يمنحها الخلفاء والحكام

---

(١) انظر: أبو شامة المقدسي: الروضتين في أخبار النورية والصلاحية ص١٧.

(٢) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٨١.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام: هو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (١٥٧- ٢٢٤هـ/ ٧٧٤- ٨٣٨م) من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، ولد بهراة، وتعلم بها، ورحل إلى بغداد ومصر، وتوفي بمكة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٠-٤٩٢.

(٤) عبد الله بن طاهر: هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي (١٨٢- ٢٣٠هـ/ ٧٩٨- ٨٤٤م)، من أشهر الولاة في العصر العباسي، ولي الشام ومصر وخراسان وطبرستان وكرمان والري. توفي بنيسابور، وقيل: بمرو.

(٥) انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٦، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٩/ ٧٤، وابن حجر: تهذيب التهذيب ٨/ ٢٨٤.

للعلماء بهدف التشجيع على تحصيل العلوم، وكانت هذه الجوائز في صورة أقرب إلى الخيال، وكان من ذلك إعطاء وزن الكتاب المُترجَم -من لغة غير العربية إلى اللغة العربية- ذهبًا للعالِم الذي يقوم بترجمته[١]!!

وقد كان من جرَّاء ذلك أن نشطت حركة الترجمة، ونُقِلَت علوم هائلة على إثرها إلى المسلمين.

وأروع من ذلك ما قامت به الخلافة العثمانية، وذلك حين نجحت في تجميع النابغين من جميع القرى والأمصار، ووفرت لهم الرعاية التي جعلت كل نابغة يعطي ما عنده من فنٍّ وعلم؛ وهو الأمر الذي ساعد على ازدهار الدولة حضاريًّا وعسكريًّا حتى باتت الدولة الأولى في العالم.

ولم يكن اهتمام الدولة يقتصر على رعاية العلماء من أبنائها، بل كان الحكام يستدعون العلماء من شتى الأمصار ليستفيدوا من علومهم، ويسعدوا برعايتهم، فها هو الأمير المعز بن باديس، أحد أمراء دولة الصنهاجيين في المغرب الإسلامي، كان لا يسمع بعالم جليل إلا أحضره عنده، بل وجعله من خاصَّته، وبالغ في إكرامه، وعوَّل على آرائه، ومنحه أسمى الرُّتب[٢].

وها هو السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكانه أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته، وبذَل له ما يستعين به على أمور دنياه[٣].

وإن هذه الصورة لتتضح في وصيته لابنه وهو على فراش الموت؛ فقد جاء فيها: «... وبما أن العلماء هم بمنزلة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظِّم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحدٍ منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك، وأكرمه بالمال»[٤].

وهذا ما وجدناه في تعامل الدولة مع كافة العلماء، لا فرق في ذلك بين المسلمين

---

(١) انظر: ابن صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص٤٨، ٤٩.

(٢) انظر في ذلك ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ص١٢٩.

(٣) علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ص١٤٠.

(٤) المصدر السابق ص١٤٨.

وغيرهم من أبناء الملل والعقائد الأخرى، فهذه أسرة بختيشوع النسطورية، كان أبناؤها أطباء الأسرة العباسية لقُرَابة ٧٠ سنة، من زمن المنصور إلى المعتمد، فكانت لهم الرعاية والاهتمام الخاص[1]. وكان من هذه الأسرة جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس (ت ٢١٣هـ)، والذي كان طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله، حتى إنه ليقال: إن منزلته ما زالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه: من كانت له حاجة إليَّ فليخاطب بها جبرائيل[2]!!

وكذلك كان ابن ميمون اليهودي الأندلسي له رعاية واهتمام خاص عند صلاح الدين الأيوبي، وكان طبيبه الخاص[3]!!

على أن الحكام والأمراء كانت لهم وسائل أخرى إذا لم يستطيعوا أن يجتذبوا العلماء، وكان من هذه الوسائل: شراء مؤلَّفات العلماء العلمية فور انتهاء أصحابها من تأليفها.

وعلى سبيل المثال فإنه لما سمع الحكم الخليفة الأموي بالأندلس بكتاب «الأغاني» المشهور الآن في الأدب، ما كان منه إلا أن أرسل إلى مؤلِّفه أبي الفرج الأصفهاني[4] ألف دينار من الذهب ثمن نسخة منه ليرسله إليه في بلده، وكان له ما أراد؛ حيث أرسل إليه أبو الفرج بنسخة من كتابه المذكور، فكان أن قُرِئ الكتاب في الأندلس قبل أن يُقرَأ في العراق موطن المؤلف!!

إن اهتمام الخلفاء والأمراء وأصحاب الجاه والمكانة في الحضارة الإسلامية بالعلماء، والاعتناء بهم، والتخفيف من آلامهم، وتفريغهم لنشر العلم، ليُدلل على أسبقية هذه الحضارة في احتضانها للعلماء، وهذا -بلا ريب- نقيض لما رأيناه في أوربا؛ من تقتيلٍ للعلماء، وحرق لمصنفاتهم، وإجبار المؤسسات الحاكمة للشعب -بمختلف طوائفه- للانصياع خلف خُرافات الكنيسة.

---

(١) الزركلي: الأعلام ٢/ ٤٤، ٤٥.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١١.

(٣) الزركلي: الأعلام ٧/ ٣٢٩.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني: هو علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الأصبهاني الكاتب، مصنف كتاب «الأغاني»، يذكر أنه من ذرية الخليفة هشام بن عبد الملك، وهو أصبهاني الأصل، بغدادي المنشأ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٠١، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣٠٧.

المبحث الثالث

الإجـــــازة

تُعرّف الإجازة بأنها الإذن بالإفتاء أو التدريس[(١)]، وتعريفها عند المحدِّثين وغيرهم: الإذن بالرواية، سواء رواية حديث أم رواية كتاب[(٢)].

وقد وضع علماء المسلمين مجموعة من المعايير التي من خلالها يستطيع طالب العلم أن يترقى في هذه المنظومة التعليمية؛ ليصل في نهاية المطاف إلى سُدَّة التدريس أو الإفتاء، ومن ثَمَّ كانت «الإجازة» هي المعيار الرئيسي الذي من خلاله يُقرّ المدرس أن تلميذه أصبح قادرًا على الجلوس للتدريس في حلقة مستقلة، ولقسمٍ معين من أقسام العلوم المختلفة.

وأما طريقة الإجازة، فتتمثل في السماح في نقل العلم إلى الآخرين، وذلك أن يعطي الشيخ كتبه أو بعضها لتلميذه، أو لأحد العلماء مؤكدًا لهم أنها بخط يده، ويخبرهم باسم الشيخ الذي نقل عنه، وأخذ منه هذا العلم، ثم يُجيزهم بإعطائها للآخرين[(٣)].

وقد عرفت الحضارة الإسلامية طريقة الإجازة منذ فترة مبكرة جدًّا، وقد كان الهدف منها في بداية الأمر، الاحتراز من الوقوع في الخلط بين الأحاديث الشريفة، فوضع علماء الحديث طريقة الإجازة، وكانت نوعًا من أنواع الثقة المتبادلة بين الأساتذة وتلاميذهم.

والإجازة في حقيقة الأمر إضافة إسلامية مهمَّة في مسار الحضارة الإنسانية عبر آلاف السنين؛ إذ إنها بمنزلة الشهادة الموثَّقة التي يحصل عليها طلاب العلم الآن.

ولذلك ما خلا عصر من العصور الإسلامية المتفاوتة إلا ووجدنا الإجازة شرطًا من الشروط المهمَّة في تعيين أحد العلماء في مكان من الأماكن الحساسة في الدولة.

فقد أجاز إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل رحمه الله لابنه عبد الله؛ حيث «روى عنه

(١) حاشية ابن عابدين ١/ ١٤.

(٢) وزارة الأوقاف المصرية: الموسوعة الإسلامية العامة ص٤٣.

(٣) كرم حلمي فرحات: التراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع للهجري ص٦٩.

المسند ثلاثين ألفًا، والتفسير مائة ألف حديث وعشرون ألفًا»[١]، وقد أجاز الإمام محمد بن شهاب الزهري للإمام ابن جريج[٢] رحمهما الله[٣].

وقد كان من حق النساء في الحضارة الإسلامية أن يتعلمن العلم، ويُعلِّمنه، وكانوا كالرجال في ذلك سواء بسواء، فلم يكن يُسمح أن تتصدر امرأة للتعليم من دون الحصول على إجازات من العلماء، ومن اللافت للنظر أن مرضعة الإمام الذهبي[٤] «وعمته ست الأهل بنت عثمان، قد حصلت على الإجازة من ابن أبي اليسر، وجمال الدين بن مالك، وزهير بن عمر الزرعي، وجماعة آخرين، وسمعت من عمر بن القواس وغيره، وروى الذهبي عنها»[٥].

ولم تكن الإجازة في العلوم الشرعية فقط، بل كانت تشمل كافة العلوم الشرعية والحياتية، ومن ثَمَّ كانت الإجازة من الأمور المأخوذ بها في تدريس العلوم الطبية؛ فقد أجاز رئيس الأطباء في القرن الرابع الهجري سنان بن ثابت[٦] لكل من يرغب في أن يعمل في مهنة الطب، بعد اجتياز امتحان يُعقد له في التخصص الذي يُريد العمل به[٧]. وكذلك أجاز مؤسس المدرسة الدخوارية في دمشق، مهذب الدين الدخوار، للعلامة علاء الدين ابن النفيس، الذي استطاع بعد هذه الإجازة أن يعمل في كبرى مستشفيات عصره، وهي المستشفى النوري في دمشق[٨]، بل كان الرازي يقول في كتابه الحاوي: يمتحن المتقدم للإجازة الطبية في التشريح أولاً، فإذا لم يعرفه فلا حاجة بك أن تمتحنه على المرضى[٩].

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٠٩.

(٢) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي (٧٠- ١٥٠هـ)، مولى بني أمية، كان أحد أوعية العلم، وهو أول من صنَّف التصانيف في الحديث. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/ ١١٩، ١٢٠، وانظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ١٦٠.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٣٢.

(٤) الذهبي: هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (٦٧٣- ٧٤٨هـ/ ١٢٧٤- ١٣٤٨م) حافظ، مؤرخ، علامة محقق، تركماني الأصل، مولده ووفاته في دمشق، تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المائة. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣٢٦.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، مقدمة التحقيق ١/ ١٧

(٦) سنان بن ثابت: هو أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الحراني (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٣م) طبيب عالم، كان رفيع المنزلة عند المقتدر العباسي، وجعله رأسًا للأطباء، وقد توفي في بغداد. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٥/ ١٥٢.

(٧) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٢٠٤.

(٨) الذهبي: تاريخ الإسلام ٥١/ ٣١٢.

(٩) الرازي: الحاوي في الطب ٧/ ٤٢٦.

وقد كانت الإجازة من كبار العلماء فخرًا للتلميذ، يتذكره طوال عمره، فهذا القلقشندي يأتي بنص الإجازة التي أخذها من علامة عصره سراج الدين بن الملقن في الفقه الشافعي، يأتي بها في كتابه الموسوعي «صبح الأعشى» مدللاً على حبِّه وافتخاره لهذه الإجازة، فمِمَّا جاء فيها: «استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العلامة الحبر الفهامة فريد دهره، ونسيج وحده، جمال العلماء، أوحد الفضلاء، عمدة الفقهاء والصلحاء سراج الدين مفتي الإسلام والمسلمين أبو حفص عمر...، وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه (القلقشندي) -أدام الله تعالى معاليه- أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني أبي عبد الله محمد بن إدريس المطلبي الشافعي ﷺ وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه حيث حل وأقام كيفما شاء، ومتى شاء، وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطًّا ولفظًا على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته...»[(١)].

ومن هنا، ندرك أن «الإجازة» كانت سبقًا إسلاميًّا فريدًا في مسيرة الإنسانية كلها، فقد سبقت كبرى الكليات والجامعات الأوربية بما يزيد على عشرة قرون كاملة؛ مما يُدلل على عظمة الحضارة الإسلامية في هذا الشأن، وإضافتها لشيء تنظيمي جديد، لطالما سارت جميع الأمم على نهجه حتى يومنا هذا.

* * *

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٣٦٦، ٣٦٧.

الباب الرابع

إسهامات المسلمين في علوم الحياة



يُطْلَق على هذه العلوم تسميات أخرى مثل: العلوم الكونية، العلوم التقنية، العلوم التطبيقية، العلوم التجريبية.. وقد آثرتُ تسميتها بعلوم (الحياة) وذلك في مقابل علوم الشرع؛ لأني أرى أن بها تنصلح الحياة على الأرض، وهي تعني: العلوم النافعة التي يهتدي إليها الناس بعقولهم وتجارِبهم ومشاهداتهم، ويستطيعون من خلالها عمران الأرض وإصلاحها وتسخير إمكانياتها، واستكشاف الكون والبيئة، وهي مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والجغرافيا، وعلوم الأرض والنبات والحيوان، وغير ذلك من العلوم التي تشمل الماديات المبثوثة في الكون، والتي يحتاج إليها البشر في إصلاح حياتهم.

ولقد بلغت مكانة علوم الحياة في ظلِّ الإسلام مبلغًا عظيمًا، حتى أصبح المسلمون فيها سادة، وقد ملكوا ناصيتها كما ملكوا ناصية العالم، فغدت جامعاتهم مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا من بلادهم لطلب تلك العلوم، وطفق ملوك أوربا وأمراؤها يَفِدُون إلى بلاد المسلمين ليعالَجوا فيها، وهو ما دعا العلاّمة الفرنسي جوستاف لوبون يتمنى لو أن المسلمين استولوا على فرنسا؛ لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانيا المسلمة[١]! وقال أيضًا تعبيرًا عن عظمة الحضارة العلميَّة في الإسلام: «إن أوربا مدينة للعرب (المسلمين) بحضارتها»[٢].

وفي هذا الباب نتناول جوانب من إسهامات المسلمين في علوم الحياة، ونبرز عظمة هذه الإسهامات، ومكانة ذاك التغيير الذي أثّر -ولا يزال- في مسيرة الإنسانيَّة، وذلك في الفصلين التاليين التالية:

- الفصل الأول: **تطوير العلوم المتداولة**
- الفصل الثاني: **ابتكار علوم جديدة**

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ص١٣، ٣١٧.

(٢) السابق ص٥٦٦.

الفصل الأول
تطوير العلوم المتداوَلَة

لا شكَّ أنه كانت هناك علوم كثيرة متداولة قبل المسلمين، ساهمت فيها الحضارات السابقة بآثار طيِّبة، وهو ما اتَّكأ عليه المسلمون -ولهم الفخر في إعلان ذلك والتصريح به- عند بدء نهضتهم وقيام حضارتهم، غير أنهم -وهذا هو المعيار والأساس- لم يقتصروا على مجرَّد النقل عن غيرهم ممن سبقوهم، وإنما توسَّعوا وأضافوا إضافات باهرة من ابتكاراتهم واكتشافاتهم، واستطاعوا أن يسطروا في تلك العلوم التي كانت متداولة قبلهم تاريخًا ناصعًا مشرِّفًا، وهو ما نتبيَّنه ونتلمَّسه من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: الطب
- المبحث الثاني: الفيزياء
- المبحث الثالث: البصريات
- المبحث الرابع: الهندسة
- المبحث الخامس: الجغرافيا
- المبحث السادس: الفلك

* * *

المبحث الأول

الطب

يُعدُّ علم الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان للمسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضارتهم الزاهرة، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولاً وتميُّزًا وتصحيحًا للمسار؛ حتى ليُخيَّل للمطَّلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن طبٌّ قبل حضارة المسلمين!!

ولم يقتصر الإبداع على علاج الأمراض فحسب، بل تعدَّاه إلى تأسيس منهج تجريبي أصيل انعكست آثاره الراقية والرائعة على كافَّة جوانب الممارسة الطبيَّة وقايةً وعلاجًا، أو مرافق وأدوات، أو أبعادًا إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي.

وإن روعة الإسهامات الإسلامية في الطبِّ لتتجلَّى في تخريج هذا الحشد من العبقريات الطِّبِّيَّة النادرة، التي كان لها -بَعْدَ الله ﷻ- الفضل الكبير في تحويل مسار الطبِّ إلى اتجاه آخر، تابعت المسير على نهجه أجيالُ الأطباء إلى يوم الناس هذا.

وإن بدايات تلك الصنعة تكمن في أن الإنسان منذ وُجِدَ على ظهر الأرض وهو يهتدي -بإلهام ربِّه- إلى أنواع من التطبيب تتَّفِق مع مستواه العقلي وتطوُّره الإنساني، وكان ذلك النوع من الطبِّ يُعرف بالطبِّ (البدائي) انسجامًا مع المستوى الحضاري للإنسان، ولذلك نجد ابن خلدون يذكر أن: «... للبادية من أهل العمران طبًّا يبنونه في أغلب الأمر على تجربة قاصرة، ويتداولونه متوارثًا عن مشايخ الحيِّ، وربما صحَّ منه شيء، ولكنه ليس على قانون طبيعي»[1].

ولما جاء الإسلام كان للعرب في الجاهلية مثل هذا الطب، فحثَّ رسول الله ﷺ على التداوي فقال - كما روى أسامة بن شريك ﷺ: «تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَمُ»[2]. وعُرف عن رسول الله ﷺ التداوي بالعسل والتمر

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٦٥٠.

(٢) أبو داود: كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (١٨٤٧٧)، والحاكم (٨٢٠٦)، وقال: حديث صحيح. ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٩٣٠).

والأعشاب الطبيعية، وغيرها مما عُرف بـ «الطب النبوي».

غير أن المسلمين لم يَقِفُوا عند حدود ذلك الطبِّ النبوي، بل أدركوا منذ وقت مبكر أن العلوم الدنيوية -والطبّ أحدها- تحتاج إلى دوام البحث والنظر، والوقوف على ما عند الأمم الأخرى منها؛ وذلك تطبيقًا لهدي الإسلام الدافع دومًا للاستزادة من كل ما هو نافع، والبحث عن الحكمة أنَّى وُجدت.. فنرى أطباء المسلمين يأخذون في التَّعَرُّفِ على الطبِّ اليوناني من خلال البلاد الإسلامية المفتوحة، كما أن الخلفاء بدءوا يستقدمون الأطباء الروم، الذين سرعان ما أخذ عنهم الأطباء المسلمون، ونشطوا في ترجمة كل ما وقع تحت أيديهم من مؤلَّفات طبية، ولعلَّ هذا يُعْتَبَرُ من أعظم أحداث العصر الأموي.

وقد تميَّز علماء الطبِّ المسلمون بأنهم أوَّل مَنْ عَرَفَ التخصُّص؛ فكان منهم: أطباء العيون، ويسمَّون (الكحَّالين)، ومنهم الجراحون، والفاصدون (الحجَّامون)، ومنهم المختصُّون في أمراض النساء، وهكذا. وكان من عمالقة هذا العصر المبهرين أبو بكر الرازي، والذي يُعْتَبَرُ من أعظم علماء الطبِّ في التاريخ قاطبةً، وله من الإنجازات ما يعجز هذا الكتاب عن ضمِّه!

وما كادت عجلة الأيام تدور في العصر العباسي حتى أجاد المسلمون في كل فرع من فروع الطبِّ، وصحَّحوا ما كان من أخطاء العلماء السابقين تجاه نظريات بعينها، ولم يَقِفُوا عند حَدِّ النقل والترجمة فقط، وإنما واصلوا البحث وصوَّبوا أخطاء السابقين.

فقد تطوَّر طبُّ العيون (الكحالة) عند المسلمين، ولم يُطاوِلهم فيه أحدٌ؛ فلا اليونان من قَبْلِهِمْ، ولا اللاتين المعاصرون لهم، ولا الذين أَتَوْا من بعدهم بقرون بلغوا فيه شَأْوَهم؛ فقد كانت مؤلَّفاتهم فيه الحُجَّة الأُولَى خلال قرون طِوَال، ولا عجب أن كثيرين من المؤلِّفين كادوا يَعْتَبِرُون طبَّ العيون طبًّا عربيًّا، ويُقَرِّر المؤرِّخون أن **علي بن عيسى الكحال**[1] كان أعظم طبيب عيون في القرون الوسطى بِرُمَّتِهَا، ومؤلَّفه (التذكرة) أعظم مؤلَّفاته[2].

---

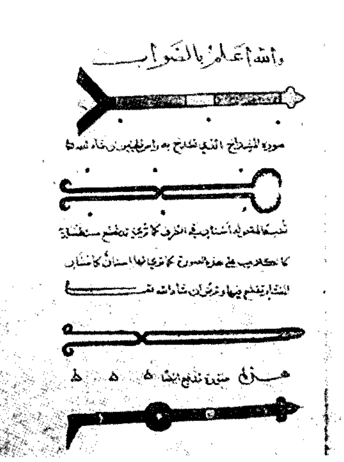
(١) علي بن عيسى الكَحّال: هو علي بن عيسى بن علي الكَحّال، (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م) . طبيب حاذق في أمراض العين ومداواتها. وكانوا يسمونها «صناعة الكحل»، اشتهر بكتابه «تذكرة الكحالين». انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ٢٦٣، والزركلي: الأعلام ٤/ ٣١٨.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٢/ ٢٦٣.

وإذا طوينا تلك الصفحة المشرقة للرازي وابن عيسى الكحال فإننا نجد أنفسنا أمام عملاق آخر يُعْتَبَرُ من أعظم الجرَّاحين في التاريخ، إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق، وهو **أبو القاسم الزهراوي** (ت ٤٠٣هـ) الذي تمكّن -كما أشرنا قبل ذلك- من اختراع أُولَى أدوات الجراحة كالمشرط والمقصّ الجراحي، كما وَضَع الأُسُسَ والقوانين للجراحة، والتي من أهمّها ربط الأوعية لمنع نزفها، واخترع خيوط الجراحة، وتمكَّن من إيقاف النزف بالتخثير.

وقد كان الزهراوي هو الواضع الأوّل لعلم (المناظير الجراحية) وذلك باختراعه واستخدامه للمحاقن والمبازل الجراحية، والتي عليها يقوم هذا العلم، وقام بالفعل بتفتيت حصوة المثانة بما يشبه المنظار في الوقت الحاضر، إلى جانب أنه أوّل مخترع ومستخدم لمنظار المهبل، ويُعْتَبَرُ كتابه **(التصريف لمن عجز عن التأليف)**، والذي قام بترجمته إلى اللاتينية العالم الإيطالي جيراردو[1] تحت اسم (ALTASRIF)، موسوعة طبية متكاملة لمؤسسي علم الجراحة بأوربا، وهذا باعترافهم، ولقد حلَّ الجزء الذي تكلَّم فيه الزهراوي عن الجراحة محلَّ كتابات القدماء، وظلَّ العمدةَ في فنِّ الجراحة حتى القرن السادس عشر (أي لما يزيد على خمسة قرون من زمانه)، ويشتمل على صور توضيحية للعديد من آلات الجراحة (أكثر من مائتي آلة جراحية!) كان لها أكبر الأثر فيمن أتى مِنْ بعده من الجرَّاحين الغربيين، وكانت باللغة





صورة (٩) صفحة من كتاب التصريف

(١) جيراردو دا كريمونا Gerardo da Cremona (١١١٤ - ١١٨٧م) : مستشرق إيطالي، مولده ووفاته في (كريمونا) من مدن إيطاليا الشمالية، أقام زمنًا في طليطلة (بالأندلس) ، فترجم عن العربية إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتابًا في مختلف العلوم.

الأهمية على الأخصِّ بالنسبة لأولئك الذين أصلحوا فنَّ الجراحة في أوربا في القرن السادس عشر؛ يقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالر: «إن جميع الجراحين الأوربيين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر قد نهلوا واستقوا من هذا المبحث»[(١)].

وقد برزت شخصيات إسلامية أخرى لامعة في ميدان علم الطب من أمثال ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) الذي استطاع أن يُقَدِّم للإنسانية أعظم الخدمات بما توصَّل إليه من اكتشافات، وما يسَّره الله له من فتوحات طبية جليلة؛ فقد كان أوَّل من اكتشف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن، فهو الذي اكتشف لأوَّل مَرَّة طُفَيْل (الإنكلستوما)، وسمَّاها الدودة المستديرة، وهو بذلك قد سبق العالِم الإيطالي (دوبيني) بنحو ٩٠٠ سنة، كما أنه أوَّل من وصف الالتهاب السحائي، وأوَّل من فرَّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ، والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفًا بذلك ما استقرَّ عليه أساطين الطبِّ اليوناني القديم، فضلاً عن أنه أوَّل من فرَّق بين المغص المعوي والمغص الكلوي[(٢)]، كما كشف ابن سينا -لأوَّل مَرَّة أيضًا- طُرُقَ العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجُدَرِيِّ والحصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحيَّة الدقيقة في الماء والجوِّ، وقال: «إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدًّا لا تُرى بالعين المجرَّدة، وهي التي تسبِّب بعض الأمراض»[(٣)]. وهو ما أكَّدَهُ (فان ليوتهوك) في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخِّرون من بعده بعد اختراع المجهر.

ولهذا فإن ابن سينا يُعَدُّ أوَّل من أرسى (علم الطفيليات) الذي يحتلُّ مرتبة عالية في الطبِّ الحديث؛ فقد وَصَفَ لأوَّل مَرَّة (التهاب السحايا الأولي) وفرَّقه عن (التهاب السحايا الثانوي) -وهو الالتهاب السحائي- وغيره من الأمراض المماثلة، كما تحدَّث عن طريقة استئصال (اللوزتين)، وتناول في آرائه الطبية أنواعًا من السرطانات كسرطان الكبد، والثدي، وأورام العقد الليمفاوية، وغيرها[(٤)].

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٥٩١.

(٢) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٣٢، ١٣٣.

(٣) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٩٨.

(٤) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٣٣، وانظر: فوزي طوقان: العلوم عند العرب ص١٧.

وكان ابن سينا جرَّاحًا بارعًا؛ فقد قام بعمليات جراحية دقيقة للغاية، مثل استئصال الأورام السرطانية في مراحلها الأولى[١]، وشقّ الحنجرة والقصبة الهوائية، واستئصال الخرَّاج من الغشاء البلوري بالرئة، كما عالج البواسير بطريقة الربط، ووصف -بدقَّة- حالات النواسير البولية، إلى جانب أنه توصَّل إلى طريقة مُبْتكَرَة لعلاج الناسور الشرجي لا تزال تُسْتَخْدَم حتى الآن! وتعرَّض لحصاة الكُلَى وشرح كيفية استخراجها والمحاذير التي يجب مراعاتها، كما ذَكَرَ حالات استعمال القسطرة، وكذلك الحالات التي يُحذر استعمالها فيها[٢].

كما كان له باعٌ كبير في مجال الأمراض التناسلية؛ فوصف بدقَّة بعض أمراض النساء؛ مثل: الانسداد المهبلي، والإسقاط، والأورام الليفية، وتحدث عن الأمراض التي يمكن أن تصيب النفساء؛ مثل: النزيف، واحتباس الدم، وما قد يُسَبِّبُه من أورام وحُمِّيَات حادَّة، وأشار إلى أن تَعَفُّنِ الرحم قد ينشأ من عُسْرِ الولادة، أو موت الجنين، وهو ما لم يكن معروفًا من قبل، كما تعرَّض أيضًا للذكورة والأنوثة في الجنين، وعَزَاهَا إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمر الذي أَكَّدَه مؤخَّرًا العلم الحديث[٣].

وإلى جانب كل ما سبق كان ابن سينا على دراية واسعة بطبِّ الأسنان، وكان واضحًا دقيقًا في تحديده للغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال: «الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تآكل؛ وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه، وتحليل المادَّة المؤدية إلى ذلك». ونلاحظ أن المبدأ الأساسي لمداواة الأسنان هو المحافظة عليها، وذلك بإعداد الحفرة إعدادًا فنيًّا ملائمًا، مع رفع الأجزاء النخرة منها، ثم يعمد إلى مَلْئِهَا بالمادَّة الحاشية المناسبة؛ لتعويض الضياع المادِّيِّ الذي تعرَّضَتْ له السِّنُّ؛ ممَّا يُعِيدُهَا بالتالي إلى أداء وظيفتها من جديد[٤].

ولم تكن تلك حالات استثنائية للعبقرية الإسلامية في مجال الطبِّ، فقد حفل سجلُّ الأمجاد الحضارية الإسلامية بالعشرات، بل المئات من الروَّاد الذين تتلمذتْ عليهم البشرية قرونًا طويلة[٥].

---

(١) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص١٤٨.

(٢) انظر: ابن سينا: القانون ٣/ ١٦٥.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٥٨٦.

(٤) انظر: ابن سينا: القانون ١/ ١٩٢.

(٥) سنتعرض في فصل آخر -بعون الله- للمؤسسة الصحية في الحضارة الإسلامية بصفة عامة، ومدى ما قدمته من نزعة إنسانية بلغت الذروة في السمو والعالمية.

المبحث الثاني

الفيزيـــــاء

شأن كل العلوم التي تتقدَّم وتتطوَّر مع تعاقب الأمم والحضارات، قامت العلوم الطبيعيَّة عند المسلمين في بدئها على مؤلَّفات اليونان، تلك التي استند فيها اليونانيُّون إلى الفلسفة المجرَّدة في محاولاتهم فَهْم الطبيعة، ودون أن يكون للتجربة دور يُذْكَر في تلك المحاولات، غير أن العلماء المسلمين ما لبثوا أن طوَّروا هذا الأساس، وخاضوا غمار علم الفيزياء ببراعة وذكاء منقطعَي النظير، حتى لكأنهم أنشئوا علمًا جديدًا، وذلك حين جعلوا علم الفيزياء عِلمًا يستند إلى التجربة والاستقراء، عوضًا عن الاعتماد على الفلسفة أو التأمُّلات والأفكار المجرَّدة.

فكان من جرَّاء ذلك أنهم استنتجوا نظريات جديدة وبحوثًا مبتكرة، مثل: قوانين الحركة، والقوانين المائية، وقانون الجاذبية الأرضيَّة، كما بحثوا في الوزن النوعي للمعادن والسوائل، واستطاعوا قياس الوزن النوعي للسوائل، والذي يُعَدُّ في هذا العصر، بما فيه من وسائل متطوِّرة، أمرًا عسيرًا!

فقد اتَّكأ المسلمون في البدء على كتب السابقين، مثل كتاب (الطبيعة) لأرسطوطاليس الذي تحدث فيه عن علم الحركة، وكذلك مؤلفات أرشميدس التي تحوي معلومات عن الأجسام الطافية في الماء والوزن النوعي لبعض الموادِّ، ومصنفات أكتسبيوس التي تتضمَّن نتائج علميَّة عن المضخَّة الرافعة والساعات المائيَّة، وكذلك هيرون السكندري[1] الذي تحدَّث عن البكرة والعجلة وقانون الشغل[2]. ثم ما لبث العلماء المسلمون أن طوَّروا نظريات وأفكار السابقين الفيزيائية، واستطاعوا أن يخرجوها من طور النظريَّة المجرَّدة إلى طور التجربة العمليَّة، والتي هي عماد هذا العلم.

فبحث العلماء المسلمون في علم الصوت وفي منشئه وكيفيَّة انتقاله، فكانوا أول من

---

(١) هيرون السكندري: (ت ١٥٠ م) عالم رياضيات ومهندس مصري، يعدّ أول من اخترع الإبر، وجهازًا لتوليد طاقة الرياح ومولدًا يعمل بالطاقة الحرارية.

(٢) علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١١٥.

عرف أن الأصوات تنشأ عن حركة الأجسام المحدِثة لها، وانتقالها في الهواء على هيئة موجات تنتشر على شكل كروي، وهم أول من قسَّم الأصوات إلى أنواع، وعلَّلوا سبب اختلافها عن الحيوانات باختلاف طول أعناقها، وسعة حلاقيمها وتركيب حناجرها، وكانوا أول من علَّل الصدى وقالوا: إنه يحدث عن انعكاس الهواء المتموِّج من مصادفة عالٍ كجبل أو حائط، ويمكن أن لا يقع الحسُّ بالانعكاس لقرب المساحة؛ فلا يُحَسُّ بتفاوت زمانَي الصوت وانعكاسه[1].

وفي علم السوائل أَلَّف العلماء المسلمون فصولاً متخصِّصة في كيفية حساب الوزن النوعي لها؛ إذ ابتدعوا طرقًا عديدة لاستخراجه، وتوصَّلوا إلى معرفة كثافة بعض العناصر، وكان حسابهم دقيقًا ومطابقًا -أحيانًا- لما هو عليه الآن، أو مختلفًا عنه بفارقٍ يسير[2].

وكان من علماء المسلمين الذين اشتهروا بالفيزياء أبو الريحان البيروني، وهو الذي «عيَّن الكثافة النوعيَّة لثمانية عشر نوعًا من أنواع الحجارة الكريمة، ووضع القاعدة التي تنصُّ على أن الكثافة النوعيَّة للجسم تتناسب مع حجم الماء الذي يزيحه... وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعيَّة، والآبار الارتوازية بنظرية الأواني المستطرَقة»[3].

وقد أبدع الخازني[4] في حقل الفيزياء أيَّما إبداع، وخاصَّة موضوعَي الحركي (الديناميكا) وعلم السوائل الساكنة (الهيدروستاتيكا)، لدرجة أدهشت الباحثين الذين أتوا بعده، ولا تزال نظرياته تدرَّس في حقل الحركيَّة في المدارس والجامعات إلى يومنا هذا، ومن هذه النظريات نظرية الميل والانحدار ونظريَّة الاندفاع، وهاتان النظريتان أدَّتا دورًا مهمًّا في علم الحركيَّة، ويَعتبر الكثير من المؤرِّخين في تاريخ العلوم الخازنيَّ أستاذ الفيزياء لجميع العصور، وقد خصَّص الخازني جُلَّ وقته لدراسة موضوع السوائل الساكنة، فاخترع آلة لمعرفة الوزن النوعي للسوائل، وناقَش ضمن دراسته موضوع المقاومة التي

(١) رحاب خضر عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام ٤/ ٥٧.

(٢) انظر الموسوعة العربية العالمية على الرابط: http://www.alargam.com/general/arabsince/7.htm

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٨٦، وانظر محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٣٣.

(٤) الخازني: هو أبو الفتح عبد الرحمن الخازن أو الخازني، حكيم فلكي مهندس، كان غلامًا روميًّا لعلي الخازن المروزي، فنسب إليه، حصّل علوم الهندسة والمعقولات، وصنف (ميزان الحكمة) و(الزيج). انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٠٥.

يعانيها الجسم من أسفل إلى أعلى عندما يغمر في سائل، واستخدم الخازني نفس الجهاز الذي استخدمه أستاذه الكبير أبو الريحان البيروني في تعيين الثقل النوعي لبعض المواد الصلبة والسائلة، ووصل الخازني في مقاديره إلى درجة عظيمة من الدقَّة، لفتت انتباه معاصريه ومَنْ تَبِعَهُم[(١)].

وقد ناقش روبرت هول في مقالة عن الخازني في قاموس الشخصيات البارزة في العلوم كيفية إيجاد الخازني لكثافة الأجسام الصلبة والسائلة، واختراعه ميزانًا لوزن الأجسام في الهواء والماء له خمس كفات تتحرك إحداها على ذراع مدرَّج، ويقول كلٌّ من حميد موراني وعبد الحليم منتصر في كتابهما (قراءات في تاريخ العلوم عند العرب): «لقد سبق الخازني تورشيللي في الإشارة إلى مادَّة الهواء ووزنه، وأشار إلى أن للهواء وزنًا وقوَّة رافعة كالسوائل، وأن وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي، وأن مقدار ما ينقصه من الوزن يتوقَّف على كثافة الهواء، وبيَّن أن قاعدة أرشميدس لا تسري فقط على السوائل، ولكن تسري أيضًا على الغازات، وكانت مثل هذه الدراسات هي التي مهَّدت لاختراع البارومتر (ميزان الضغط)، ومفرغات الهواء والمضخَّات، وما أشبه؛ وبهذا يكون الخازني قد سبق تورشيللي، وباسكال[(٢)]، وبويل[(٣)]، وغيرهم»[(٤)].

وغير ما سبق، وإذا ما عددنا قوانين الحركة والجاذبيَّة من بحوث علم الفيزياء، فإن لعلماء المسلمين الفضل في اكتشاف هذه القوانين، وتوضيح ذلك كما يلي:

قوانين الحركة

تكمن أهمية قوانين الحركة في أنها تُعَدُّ صُلب الحضارة المعاصرة؛ حيث إن كل علوم الآلات المتحرِّكة في العصر الحاضر، ابتداءً من السيارة والقطار والطائرة إلى صواريخ

---

(١) علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص٣٣١.

(٢) باسكال: بليس باسكال (١٦٢٣- ١٦٦٢م) فيزيائي، ورياضي، وفيلسوف فرنسي اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات. انظر: الموسوعة العربية الكبرى.

(٣) بويل: روبرت بويل (١٦٢٧-١٦٩١م) عالم أيرلندي، يعتبر مؤسس الكيمياء الحديثة. ساعد في ترسيخ دعائم الطريقة التجريبية في الكيمياء والفيزياء. وأكثر ما اشتهر به (بويل) تجاربه على الغازات التي أدت إلى إرساء قانون بويل. انظر الموسوعة العربية الكبرى.

(٤) علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص٣٣١.

الفضاء والصواريخ العابرة للقارَّات وغيرها، إنما تقوم وترتكز عليها، وبقوانين الحركة غزا الإنسان الفضاء الخارجي، واستطاع أن يهبط على سطح القمر. وقوانين الحركة تُعَدُّ كذلك أساس جميع العلوم الفيزيائية التي تقوم على الحركة؛ فالبصريات هي حركة الضوء، والصوت هو حركة الموجات الضوئية، والكهرباء هي حركة الإلكترونات... إلخ. والمشهور عند عموم الناس في الشرق والغرب أن مكتشف هذه القوانين هو العالم الإنجليزي إسحاق نيوتن، وذلك منذ أن نشرها في كتابه المسمَّى (الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية).

وقد ظلَّت هذه هي الحقيقة المعروفة في العالم كله، بل وفي جميع المراجع العلمية - ومنها بالطبع مدارس المسلمين- حتى مطلع القرن العشرين، وذلك حين تصدَّى للبحث جماعة من علماء الطبيعة المسلمين المعاصرين، وكان في مقدمتهم الدكتور مصطفى نظيف أستاذ الفيزياء، والدكتور جلال شوقي أستاذ الهندسة الميكانيكية، والدكتور علي عبد الله الدفاع أستاذ الرياضيات.. فتوفَّروا على دراسة ما جاء في المخطوطات الإسلاميَّة في هذا المجال، فاكتشفوا أن الفضل الحقيقي في اكتشاف هذه القوانين إنما يرجع إلى علماء المسلمين، وأن ما كان دور نيوتن وفضله فيها إلا تجميع مادَّة هذه القوانين وصياغتها، وتحديده لها في قالب رياضي!

وبعيدًا عن العاطفة والكلام النظري المجرَّد؛ فإن جُهد علماء المسلمين في ذلك جاء واضحًا وصريحًا، تدعمه النصوص الكثيرة الموثَّقة في مخطوطاتهم، والتي ألَّفوها قبل مجيء نيوتن بسبعة قرون، ولنحتكم إلى تلك النصوص:

القانون الأوَّل للحركة: يشير القانون الأول للحركة في علم الفيزياء إلى أنه إذا كان مجموع الكَمِّيَّات الموجَّهة من القوى التي تؤثِّر على جسم ما صفرًا، فسوف يظلُّ هذا الجسم ساكنًا، وبالمثل فإن أي جسم متحرِّك سيظلُّ على حركته بسرعة ثابتة في حالة عدم وجود أيَّة قوى تؤثِّر عليه، مثل قوى الاحتكاك. وقد جاء ذلك في قالب نيوتن الرياضي حيث قال: «إن الجسم يبقى في حالة سكون أو في حالة حركة منتظمة في خطٍّ مستقيم ما لم تُجبره قوى خارجيَّة على تغيير هذه الحالة».

وإذا جئنا إلى علماء المسلمين ودورهم في ذلك؛ فإن الشيخ الرئيس ابن سينا في كتابه (الإشارات والتنبيهات) صاغ ذلك بلفظه فقال: «إنك لتعلم أن الجسم إذا خُلِّي وطباعه، ولم يَعْرِضْ له من خارجٍ تأثيرٌ غريبٌ، لم يكن له بُدٌّ من موضع معيَّن وشكل معيَّن، فإن في طباعه مبدأ استيجاب ذلك، وليست المعاوقة للجسم بما هو جسم، بل بمعنى فيه يطلب البقاء على حاله».

والواضح لنا من النصِّ السابق أن تعبير ابن سينا للقانون الأول للحركة يمتاز عن تعبير إسحاق نيوتن الذي جاء بعده بأكثر من ستَّة قرون؛ وفيه يؤكِّد على أن الجسم يبقى في حالة سكون أو حركة منتظمة في خطٍّ مستقيم ما لم تجبره قوى خارجيَّة على تغيير هذه الحالة؛ بما يعني أن ابن سينا هو أول من اكتشف هذا القانون!

القانون الثاني للحركة: وهذا القانون يربط بين مجموع القوى المؤثِّرة على الجسم وعلى زيادة سرعته، وهو ما يُعرف بالعجلة، وتكون العجلة متناسبة مع حجم القوَّة وفي نفس اتجاهها، ويُعتبر ثابتُ هذا التناسب بمنزلة كتلة الجسم (ك).

وقد جاء ذلك في قالب نيوتن الرياضي حيث قال: «إن القوَّة اللازمة للحركة تتناسب تناسبًا طرديًّا مع كلٍّ من كتلة الجسم وتسارعه، وبالتالي فإنها تُقاس كحاصل ضرب الكتلة × التسارع، بحيث يكون التسارع في نفس اتجاه القوَّة وعلى خطِّ ميلها».

وإذا جئنا إلى علماء المسلمين، فلك أن تتأمل -مثلاً- قول هبة الله بن ملكا البغدادي (٤٨٠-٥٦٠هـ/ ١٠٨٧-١١٦٤م) في كتابه (المعتبر في الحكمة)؛ حيث يقول: «وكل حركة ففي زمان لا محالة، فالقوة الأشدُّ تُحرِّك أسرع وفي زمن أقصر... فكلَّما اشتدَّت القوَّة ازدادت السرعة فقصر الزمان، فإذا لم تتناهَ الشدَّة لم تتناهَ السرعة، وفي ذلك تصير الحركة في غير زمان أشدَّ؛ لأن سلب الزمان في السرعة نهاية ما للشدَّة». وفي الفصل الرابع عشر الموسوم (الخلاء) قال بلفظه: «تزداد السرعة عند اشتداد القوَّة، فكلما زادت قوَّة الدفع زادت سرعة الجسم المتحرِّك، وقصر الزمن لقطع المسافة المحدَّدة». وهو بالضبط ما نسقه نيوتن في قالبه الرياضي، وأسماه القانون الثاني للحركة!!

القانون الثالث للحركة: وهو يعني أنه إذا تفاعل جسمان، فإن القوَّة التي يؤثِّر

بها الجسيم الأول في الجسيم الثاني (تسمَّى قوَّة الفعل) تساوى بالقيمة المطلقة، وتعاكس بالاتجاه القوَّة التي يؤثِّر بها الجسيم الثاني في الأول (تسمَّى قوَّة رد الفعل). وقد صاغ نيوتن ذلك القانون في قالبه الرياضي فقال: «لكل فعل ردٌّ فعل، مساوٍ له في المقدار ومضادٌّ له في الاتجاه».

وقبله بقرون، وفي كتابه (المعتبر في الحكمة) أورد أبو البركات هبة الله بن ملكا ما نصُّه: «إن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر، وليس إذا غلب أحدهما فَجَذَبَهَا نحوه يكون قد خلت من قوة جذب الآخر، بل تلك القوة موجودة مقهورة، ولولاها لما احتاج الآخر إلى كل ذلك الجذب».

وهو نفس المعنى الذي ورد أيضًا في كتابات الإمام فخر الدين الرازي[1] في كتابه (المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات) حيث يقول: «الحلقة التي يجذبها جاذبان متساويان حتى وقفت في الوسط، لا شكَّ أن كل واحد منهما فعل فيها فعلاً معوَّقًا بفعل الآخر».

بل إن ابن الهيثم كان له نصيب منه أيضًا، حيث قال في كتابه (المناظر): «المتحرِّك إذا لقي في حركته مانعًا يمانعه، وكانت القوة المحرِّكة له باقية فيه عند لقائه المانع، فإنه يرجع من حيث كان في الجهة التي منها تحرَّك، وتكون قوَّة حركته في الرجوع بحسب قوَّة الحركة التي كان تحرَّك بها الأوَّل، وبحسب قوَّة الممانعة».

ولا ريب بعدُ في أن ما أورده علماء المسلمين في هذه النصوص هو أصل القانون الثالث للحركة، والذي صاغه نيوتن بطريقته بعد أن استولى على مادَّته!!

قانون الجاذبية

متابعة لإنجازات المسلمين السابقة وجهودهم في اكتشاف أهمِّ قوانين الفيزياء، وهي قوانين الحركة الثلاثة، وتنويهًا باكتشافاتهم الباهرة في الفيزياء، والتي ما فتئت تُنسب

---

(١) فخر الدين الرازي: هو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن (٥٤٤ - ٦٠٦هـ/ ١١٥٠ - ١٢١٠م) من أئمة المفسرين، وأحد أعلم أهل زمانه في المنقول والمعقول وعلم الأوائل، ولد بالري، وتوفي بهراة، له: (مفاتيح الغيب) في تفسير القرآن الكريم. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٨-٢٥٢.

لغيرهم ممن أتوا بعدهم بقرون وقرون.. كان هناك أيضًا «قانون الجاذبية»، والذي تكمن أهميته في أنه يربط الأجرام السماويَّة ويحفظ تماسكها وانتظامها في مداراتها، وباكتشافه استطاع العلماء تفسير سقوط الأجسام نحو الأرض، وفَهْم المزيد عن حركة الكواكب حول الشمس في مدارات دائريَّة تقريبًا، وذلك بفرض أن التجاذب بين الشمس وكواكبها هو السبب في تلك الحركة الدورانيَّة.

والمشهور عند عموم الناس أيضًا في الشرق والغرب، ويدرسه طلاب المدارس والجامعات أن مكتشف هذا القانون هو إسحاق نيوتن، وذلك عندما سقطت عليه يومًا تفاحة من شجرة كان يجلس تحتها، وحينها أخذ يفكر في سبب سقوطها حتى توصَّل إلى قانون الجاذبية هذا ووضع صياغته، والذي يُثبت فيه أن كل جسم مادِّي يجذب غيره من الأجسام المادِّيَّة، بقوَّة تزيد أو تنقص حسب الكتلة والمسافة بينهما!

لكن هل هذه هي الحقيقة؟ إن طبيعة العلم التراكميَّة لَتُؤَكِّد أنه ما كان يمكن لنيوتن أن يتوصَّل إلى صياغة قانونه الشهير هذا -كما كان الحال مع قوانين الحركة الثلاثة- لولا أنه وقف على أكتاف سابقيه من جهابذة العلماء، وعلى مرِّ العصور، ولعلَّ في سرد الدكتور أحمد فؤاد باشا للقصَّة من أولها ما يُظهِر هذه الحقيقة المهمَّة.

يقول الدكتور أحمد فؤاد باشا بعد أن أشار إلى محاولةِ الفيلسوف اليوناني أرسطو النظريةِ لتفسير السقوط الحرِّ للأجسام: «وقد اهتدى علماء المسلمين -بفضل دينهم الحنيف- إلى المنهج العلمي السليم في تحصيل العلوم والمعارف، فلم يقبلوا تمامًا البراهين الفلسفيَّة للآراء التي يمكن اختبار صحَّتها تجريبيًّا، وفطنوا إلى أن التفسير العلمي لظواهر الكون يكتسب دقَّته من مدى تعبيره عن الحقيقة العلميَّة الكامنة وراء سلوك هذه الظواهر، وقدَّموا لأول مرَّة في تاريخ العلم أساسًا مقبولاً لتفسير السقوط الحرِّ للأجسام تحت تأثير الجاذبيَّة الأرضيَّة»[١].

وقد بدأ الهمداني[٢] هذه الثورة العلميَّة بقوله في كتابه (الجوهرتين العتيقتين المائعتين

---

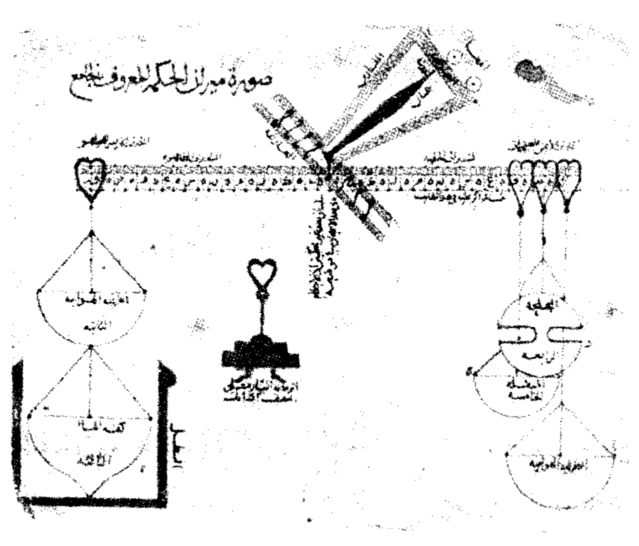
(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٩٠.

(٢) الهمداني: هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (٢٨٠- ٣٣٤هـ/ ٨٩٣- ٩٤٥م)، مؤرخ، عالم بالفلك والفلسفة والأدب، شاعر مكثر، من أهل اليمن، ولد ونشأ بصنعاء. انظر: السيوطي: بغية الوعاة ١/ ٤٩٨، والزركلي: الأعلام ٢/ ١٧٩.

من الصفراء والبيضاء) في سياق حديثه عن الأرض وما يرتبط بها من مياه وهواء: «فمن كان تحتها[١] فهو في الثابت في قامته كمن فوقها، ومسقطه وقدمه إلى سطحها الأسفل كمسقطه إلى سطحها الأعلى، وكثبات قدمه عليه، فهي بمنزلة حجر المغناطيس الذي تجذب قواه الحديد إلى كل جانب...» [٢].

وبهذا التوضيح يكون الهمداني قد أرسى أول حقيقة جزئيَّة في فيزياء ظاهرة الجاذبيَّة، وهي ما يُعرف -كما يقول الدكتور أحمد فؤاد باشا- بـ (طاقة الموضع) أو (طاقة الكمون) الناتجة أصلاً عن ارتفاع الأجسام عن الأرض، وإن لم يقل في النصِّ صراحة أن الأجسام تجذب بعضها البعض، وهو المعنى الأساسي الشامل لقانون الجذب العام لنيوتن.

ويأتي بعده **أبو الريحان البيروني** ويؤكِّد ما سبق إليه الهمداني من أن الأرض تجذب ما فوقها نحو مركزها وذلك في كتابه (القانون المسعودي)، كما ذَكَر الخازني في كتابه (ميزان الحكمة) أن الجسم هو الذي يتحرَّك بقوَّة ذاتية أبدًا إلى مركز الأرض فقط، وكذلك فطن الرازي إلى تعميم فكرة الجاذبيَّة على



صورة (١٠) كتاب ميزان الحكمة

جميع الأجسام الموجودة في الكون، ثم نجح **هبة الله بن ملكا البغدادي** في تصحيح الخطأ الجسيم الذي وقع فيه أرسطو، عندما قال بسقوط الأجسام الثقيلة أسرع من الأجسام الخفيفة، وسبقَ جاليليو في إثبات الحقيقة العلميَّة المهمَّة التي تقضي بأن سرعة الجسم

---

(١) أي تحت الأرض عند الأسفل.

(٢) الحسن بن أحمد الهمداني: الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، تحقيق ودراسة د. أحمد فؤاد باشا، نقلاً عن أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٩٠.

الساقط سقوطًا حُرًّا تحت تأثير الجاذبيَّة الأرضية لا تتوقَّف إطلاقًا على كتلته، وذلك عندما تخلو الحركة من أي معوقات خارجيَّة، ويعبِّر عن هذه الحقيقة بكلماته في كتابه (المعتبر في الحكمة) فيقول: «... وأيضًا لو تحرَّكت الأجسام في الخلاء لتساوت حركة الثقيل والخفيف، والكبير والصغير، والمخروط المتحرِّك على رأسه الحاد، والمخروط المتحرك على قاعدته الواسعة في السرعة والبطء؛ لأنها إنما تختلف في الملاء بهذه الأشياء بسهولة خرقها لما تخرقه من المقاوم المخروق كالماء والهواء وغيرهما»[1].

ومن ناحية أخرى، أضاف البغدادي حقائق جديدة عن ظاهرة الجاذبيَّة من خلال دراسته لحركة المقذوفات، من حيث إن حركتها إلى أعلى عند القذف تعاكس فعل الجاذبيَّة الأرضيَّة، أو أن القوَّة القسرية التي قُذِف بها الجسم إلى أعلى تعمل في تضادٍّ مع قوَّة الجاذبيَّة الأرضيَّة، فهو يقول: «... فكذلك الحجر المقذوف فيه ميل مقاوم للميل القاذف؛ إلا أنه مقهور بقوة القاذف؛ ولأن القوة القاسرة عرضية فيه، فهي تضعف لمقاومة هذه القوة والميل الطبيعي ولمقاومة المخروق... فيكون الميل القاسر في أوَّله على غاية القهر للميل الطبيعي، ولا يزال يضعف ويُبطِئ الحركة ضعفًا بعد ضعف وبطئًا بعد بطء حتى يعجز عن مقاومة الميل الطبيعي، فيغلب الميل الطبيعي فيحرك إلى جهته».

يقول الدكتور أحمد فؤاد باشا معلِّقًا: وهنا تجدر الإشارة إلى أن البغدادي لا يستخدم مفهوم (الميل) كقوة خفيَّة أو (وحشيَّة) طبيعيَّة في اتجاه الحنين إلى حضن الأمِّ كوكب الأرض، مثلما قال أرسطو، ولكنه عنى به القوة الماديَّة التي تتحكم علميًّا في حركة المقذوف صعودًا ضدَّ الجاذبيَّة وهبوطًا في اتجاهها، والسؤال الذي طرحه البغدادي فيما يتعلَّق بهذه القضية العلميَّة هو: هل يتوقف الحجر المقذوف عند أعلى نقطة يصل إليها حين يبدأ في الارتداد إلى سطح الأرض؟ ويجيب هو نفسه بالنصِّ الواضح الصريح: «مَنْ تَوَهَّم أن بين حركة الحجر علوًّا المستكرِهة بالتحليق وبين انحطاطه وقفةً فقد أخطأ، وإنما تضعف القوَّة المستكرِهة له وتقوى قوى ثقله، فتصغر الحركة، وتخفى حركته على الطرف، فيتوهَّم أنه ساكن».

(١) انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٩١.

ويتابع الدكتور أحمد فؤاد باشا فيقول: «وتحدَّث الخازن عن التسارع (أو العجلة) في سقوط الأجسام نحو الأرض، وضمن كتابه (ميزان الحكمة) ما يدلُّ على معرفته بالعَلاقة الصحيحة بين السرعة التي يسقط بها الجسم نحو سطح الأرض والبُعد الذي يقطعه والزمن الذي يستغرقه، وهي العَلاقة التي تنصُّ عليها المعادلات الرياضية المنسوبة لجاليليو في القرن السابع عشر الميلادي. وهكذا يتَّضح أن علماء الحضارة الإسلاميَّة قد نجحوا في التوصُّل إلى حقائق جزئيَّة على طريق استكمال التصوُّر الإنساني لظاهرة الجاذبيَّة، بعيدًا عن الآراء الفلسفيَّة القديمة، واستنادًا إلى ما أثبتوه من أن مناهج البحث في المعرفة تعتمد على طبيعة موضوعاتها، ولولا هذه الثورة الهائلة التي أحدثوها في منهجيَّة التفكير والبحث العلمي السليم لظلَّت خرافات القدماء قائمة حتى وقتنا هذا، ولما وجد إسحاق نيوتن مَنْ يقف على أكتافهم من عمالقة العلماء لكي يصنع مجده وشهرته»[1].

وإذا كان من قول أو تعليق فإنما هو إعادة النظر في تاريخ قوانين الحركة، وأيضًا قانون الجاذبيَّة، وردّ الحقِّ إلى أصحابه.

* * *

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد للآتي؟ ص٩٢.

المبحث الثالث
البصريـــــــات

كغيره من العلوم التي ظهرت قبل المسلمين، كان لليونانيين وغيرهم من الشعوب القديمة اهتمام بعلم البصريات، وكان لهم فيه آثار طيبة اتَّكأ عليها المسلمون عند ممارستهم لهذا العلم، فقد نقلوا عن اليونان آراءهم في انكسار الضوء، والمرايا المحرِقَة وغيرها، ولكنهم لم يقتصروا على مجرَّد النقل بل توسَّعوا وأضافوا إضافات باهرة من ابتكاراتهم، واستطاعوا أن يسطِّروا في علم البصريات تاريخًا مشرِّفًا.

ففي أوَّل الأمر كانت البصريَّات الإغريقيَّة تحوي رأيين متعارضين؛ الأول: هو الإدخال، أي دخول شيء ما يمثل الجسم إلى العينين، والثاني: الانبعاث، أي حدوث الرؤية (الإبصار) عندما تنبعث أشعة من العينين وتعترضها الأجسام المرئية. وقد ظلَّت الحضارة الإغريقيَّة تتناول البصريات بأخذٍ وردٍّ بين هذين الرأيين، وكانت مجهودات أرسطو تفتقر إلى تفصيل حتميٍّ، وكذلك إقليدس رغم مجهوداته الملموسة، إلاَّ أن نظرياته كانت مقصورة على تقديم شرح كامل للإبصار؛ لأنها أغفلت العناصر الفيزيائيَّة والفسيولوجيَّة والسيكولوجيَّة للظواهر البصريَّة، حيث ذهب إلى أن العين تُحْدِث في الجسم الشفاف المتوسِّط بينها وبين المبصَرَات شعاعًا ينبعث منها، وأن الأشياء التي يقع عليها هذا الشعاع تُبْصَر، والتي لا يقع عليها لا تُبْصَر، وأن الأشياء التي تُبْصَر من زاوية كبيرة تُرى كبيرة، والتي تبصر من زاوية صغيرة ترى صغيرة. أما بطليموس فرغم إبداعه في التوفيق بين التناول الهندسي والتناول الفيزيائي إلا أنه فشل في نهاية الأمر؛ لأن استخدامه كان مقصورًا على دعم استنتاجات سبق التوصُّل إليها فعلاً، بل إن معالجة النتائج التجريبيَّة كانت تجري أحيانًا بجواز مروره لهذه الاستنتاجات[1].

وقد ظلَّت البحوث في علم البصريات تدور في هذا الفلك السابق دون تقدُّم أو رقيٍّ، وبقيت على ذلك حتى جاءت الحضارة الإسلاميَّة، فكان لإسهامات المسلمين في علم البصريات

(١) انظر: دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا ص١٠٢.

نسق آخر متطوِّر وفريد؛ وذلك نظرًا لنبوغهم في العديد من العلوم المرتبطة بهذا العلم مثل الفلك والهندسة الميكانيكيَّة وغيرهما، إذ إن ابتكاراتهم قد تتداخل فيها هذه العلوم.

فقد جاء الفيلسوف أبو يوسف الكندي[1]، والذي يُعَدُّ من أوائل العلماء المسلمين الذين طرقوا ميدان علم الطبيعة وعلم البصريات؛ حيث تناول الظواهر الضوئيَّة وعالجها في كتابه الشهير (علم المناظر)، وقد أخذ بنظريَّة الانبعاث الإغريقيَّة، إلا أنه أضاف كذلك وصفًا دقيقًا لمبدأ الإشعاع، وصاغ من خلال ذلك أساس نظام تصوُّريٍّ جديد يحلُّ في نهاية الأمر محلَّ نظريَّة الانبعاث، وكان لكتابه (علم المناظر) صدًى في المحافل العلميَّة العربيَّة، ثم الأوربيَّة خلال العصور الوسطى[2].

ومن بعده جاء الحسن بن الهيثم والذي تُعَدُّ أعماله العلميَّة فتحًا جديدًا ووثبة خطيرة في عالم البصريات وفسيولوجية الإبصار، وكانت أعماله هي الأساس الذي بنى عليه علماء الغرب جميع نظرياتهم في هذا الميدان، وكان في طليعة العلماء الأجانب الذين اعتمدوا على نظرياته -بل أغاروا عليها ونسبوها لأنفسهم- روجر بيكون وفيتلو وعلماء آخرون، ولا سيما في بحوثهم الخاصَّة بالمجهر والتلسكوب والعدسة المكبِّرَة[3].

بدأ ابن الهيثم أوَّلا بمناقشة نظريات إقليدس وبطليموس في مجال الإبصار، وأظهر فساد بعض جوانبها، ثم في أثناء ذلك قدَّم وصفًا دقيقًا للعين وللعدسات وللإبصار بواسطة العينين، ووصف أطوار انكسار الأشعة الضوئيَّة عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الأرضية بعامَّة، وخاصَّة إذا نفذ من جسم شفَّاف كالهواء والماء والذرَّات العالقة بالجوِّ، فإنه ينعطف -أي ينكسر- عن استقامته، وبَحَثَ في (الانعكاس) وتبيان الزوايا المترتِّبة على ذلك، كما تطرَّق إلى شرح أن الأجرام السماويَّة تظهر في الأفق عند الشروق قبل أن تصل إليه فعلاً، والعكس صحيح عند غروبها، فإنها تبقى ظاهرة في المجال الأفقي بعد أن تكون قد احتجبت تحته، وهو أول من نوَّه باستخدام الحجرة السوداء التي تُعتبر

(١) الكندي: هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، (١٨٥-٢٥٦هـ/ ٨٠٥-٨٧٣م) فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كندة. نشأ بالبصرة، وانتقل إلى بغداد، فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٧٢ - ١٧٧، ابن النديم: الفهرست ص٣١٥.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٣٨.

(٣) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٣٨.

أساس التصوير الفوتوغرافي[١].

والكتاب الذي خلَّد اسم ابن الهيثم عبر القرون هو (كتاب المناظر)، ويوضِّح هذا الكتاب تصوُّر البصريات كنظريَّة أوليَّة في الإبصار، مختلفة جذريًّا عن فرض الشعاع المرئي الذي حافظ عليه التقليد الرياضي منذ إقليدس وحتى الكندي، ولقد أدخل ابن الهيثم أيضًا منهجيَّة جديدة على هذا التفسير لعمليَّة الإبصار، وبهذا تمكَّن من صياغة مسائل كانت إمَّا غير مفهومة طبقًا لنظرية الشعاع البصري، أو مهملة من جانب فلاسفة يهدفون أساسًا إلى تفسير ماهيَّة الرؤية أكثر من اهتمامهم بشرح كيفيَّة حدوث الإبصار[٢].

وقد أَلَّفَ ابن الهيثم في البصريات وحدها ما يقرب من أربعة وعشرين موضوعًا، ما بين كتاب ورسالة ومقالة، غير أن أكثر هذه الكتب قد فُقد فيما فُقِدَ من تراثنا العلمي، وما بقي منها فقد ضمَّته مكتبات إستانبول ولندن وغيرهما، وقد سلم من الضياع كتابه العظيم (المناظر) الذي احتوى على نظريات مبتكرة في علم الضوء، وظلَّ المرجع الرئيسي لهذا العلم حتى القرن السابع عشر الميلادي بعد ترجمته إلى اللاتينيَّة[٣]. فكان كتاب (المناظر) ثورة في عالم البصريات، وفيه لم يتبنَّ ابن الهيثم نظريات بطليموس ليشرحها ويُجْرِي عليها بعض التعديل فحسب، بل إنه رفض عددًا من نظرياته في علم الضوء، بعدما توصَّل إلى نظريات جديدة غدتْ نواة علم البصريات الحديث.

فقد كان بطليموس -كما ذكرنا- يزعم أن الرؤية تتمُّ بواسطة أشعَّة تنبعث من العين إلى الجسم المرئي، وقد تبنَّى العلماء اللاحقون هذه النظرية، ولما جاء ابن الهيثم نسف هذه النظريَّة، وبيَّن أن الرؤية تتمُّ بواسطة الأشعة التي تنبعث من الجسم المرئي باتجاه عين المبصر، وبعد سلسلة من الاختبارات أجراها ابن الهيثم بيَّن أن الشعاع الضوئي ينتشر في خطٍّ مستقيم ضمن وسط متجانس، وقد أثبت ذلك في كتاب (المناظر)[٤].

كذلك برهن ابن الهيثم رياضيًّا وهندسيًّا على كيفيَّة النظر بالعينين معًا إلى الأشياء في

---

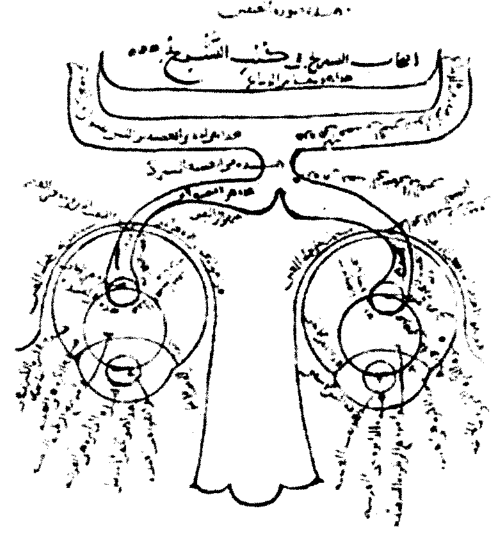
(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا ص١٠٢.

(٣) في مؤلفات ابن الهيثم انظر: علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية ص٣٢٥.

(٤) انظر: ابن الهيثم: المناظر ص١٣٣.

آنٍ واحد دون أن يحدث ازدواج في الرؤية برؤية الشيء شيئين، وعلَّل ابن الهيثم ذلك بأن صورتَي الشيء المرئي تتطابقان على شبكيَّة العينين، وقد وضع ابن الهيثم بهذه البرهنة وذلك التعليل الأساس الأول لما يُعرف الآن باسم الاستريسكوب، وكان ابن الهيثم أوَّل من درس العين دراسة علميَّة، وعرف أجزاءها وتشريحها ورسمها، وأول من أطلق على أجزاء العين أسماء أخذها الغرب بنطقها أو ترجمها إلى لغاته، ومن هذه الأسماء: القرنية (Cornea)، والشبكية (Retina)، والسائل الزجاجي(Vitrous Humour)، والسائل المائي (Aqueous Humour)[1].


صورة (١١) تشريح العين لابن الهيثم

ومن أهم إنجازات ابن الهيثم بصفة عامَّة في البصريات: أنه أول مَنْ أجرى تجارِب بواسطة آلة الثقب، أو البيت المظلم، أو الخزانة المظلمة، واكتشف منها أن صورة الشيء تظهر مقلوبة داخل هذه الخزانة، فمهَّد بهذا الطريق إلى ابتكار آلة التصوير، وبهذه الفكرة وتلك التجارِب سبق ابنِ الهيثم العالمين الإيطاليين (ليوناردو دوفنشي[2]) و(دلا بورتا) بخمسة قرون[3].

كما وضع ابن الهيثم -ولأول مرَّة- قوانين الانعكاس والانعطاف في علم الضوء، وعلَّل لانكسار الضوء في مساره، وهو الانكسار الذي يحدث عن طريق وسائط كالماء

(١) H. Crew: The Rise Of Modern Physics P. 59 نقلاً عن جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٥. وانظر: دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، ص١٠٤ وما بعدها.

(٢) ليوناردو دوفنشي: ليوناردو دا فينشي (١٤٥٢ - ١٥١٩م) يعدّ من أشهر فناني النهضة الإيطاليين على الإطلاق، وهو مشهور كرسام، نحات، معماري، وعالم. كانت مكتشفاته وفنونه نتيجة شغفه الدائم للمعرفة والبحث العلمي.

(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٤.

والزجاج والهواء، فسبق ابنُ الهيثم بما قاله العالمَ الإنجليزي نيوتن[1].

وكان أحد أبرز إنجازات ابن الهيثم في كتابه المذكور تجربة الصندوق الأسود، وتُعتبر الخطوة الأولى في اختراع الكاميرا، وكما تقول الموسوعة العلمية: فابن الهيثم يُعتبر أولَ مخترع للكاميرات، وهي ما يُسمَّى عمليًّا: (Camera obscura)[2].

ومَنْ يطَّلع على كتاب (المناظر) والموضوعات التي تتعلَّق بالضوء وما إليه يخرج بأن ابن الهيثم قد طبع علم الضوء بطابع جديد لم يُسبق إليه، وقد أَلَّف هذا الكتاب عام (٤١١هـ/ ١٠٢١م)، وفيه استثمر عبقريته الرياضيَّة، وخبرته الطبيَّة، وتجاربه العلميَّة، فتوصَّل فيه إلى نتائج وضعته على قمَّة عالية في المجال العلمي، وصار بها أحد المؤسِّسين لعلوم غيَّرت من نظرة العلماء لأمور كثيرة في هذا المجال[3].

وعلى الرغم من مكانة ابن الهيثم وبحوثه المبتكَرة في علم الضوء، إلاَّ أنه ظلَّ مغمورًا لا يعرفه كثير من الناس، حتى قَيَّض الله من يكشف عن جهوده وينقب عن آثاره ويجليها، وكان من هؤلاء العالم المصري مصطفى نظيف، وذلك حين كتب عنه دراسة طبية رائدة نشرتها جامعة القاهرة في مجلدين، وقد بذل فيها جهدًا مضنيًا في قراءة مخطوطات ابن الهيثم ومئات المراجع الأخرى، حتى خلص إلى حقيقة صادقة، وهي أنَّ ابن الهيثم خليقٌ بأن يُعدَّ بحقٍّ رائد علم الضوء في مستهلِّ القرن الحادي عشر[4].

وليس كل ما ذكرناه إلا جزءًا بسيطًا من الإنجاز الهائل الذي قدمه المسلمون لعلم البصريات، فما أروعه من إنجاز!!

***

(١) المصدر السابق ص٣٠٣.

(٢) انظر: جورج سارتون: مقدمة لتاريخ العلم ١/ ٧٢١.

(٣) المصدر السابق ص٨٤ وما بعدها.

(٤) راجع كلمة الدكتور مصطفى نظيف في الاجتماع التخليدي لذكرى الحسن بن الهيثم في ٢١/ ١٢/ ١٩٣٩م بالقاهرة، وذلك بمناسبة احتفال الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية بذكرى مرور ٩٠٠ سنة على وفاته بالقاهرة.

المبحث الرابع

الهندسة

الهندسة علم عرفه الإنسان القديم لاحتياجه الطبيعي للقياس، سواء للمساحات أو للبناء، بل يذهب البعض ليقول بأنه علم غريزي؛ فالحيوانات نفسها تعرف أن أقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم[١].

يمكننا أن نبدأ الهندسة منذ قدماء المصريين، إذ إنهم طبّقوا النظرية التي عُرفت فيما بعدُ بنظرية فيثاغورث، وآثارهم تشهد بتفوقهم، وتوجد وثيقة ترجع لعهد أحمس أي قبل ٤٠٠٠ سنة، تحوي الأفكار الهندسية لمساحات وحجوم الأشكال المختلفة. ثم أضاف البابليون إضافات جيدة، وهي التي تلقاها منهم اليونانيون، ولقد برع اليونانيون في هذا العلم كثيرًا واشتهر منهم إقليدس مؤلف كتاب (أصول الهندسة)، وهو الكتاب الأشهر عبر التاريخ، وهو الكتاب الذي انتقل إلى أوربا عبر الترجمة العربية له[٢].

دخل علم الهندسة إلى العرب عبر الترجمات للأعمال الإغريقية، وخصوصًا كتاب إقليدس (أصول الهندسة). ويرصد دونالد ر. هيل[٣] تطور علم الهندسة في الحضارة الإسلامية فيقول: «وأعقبت مرحلة الترجمة مرحلة الإبداع، وعلى الرغم من أن أساتذة مثل إقليدس وأبولونيس وأرشميدس نالوا احترامًا يبلغ حد التوقير والتبجيل، إلا أن العلماء العرب لم يتهيبوا أن يفندوا نتائجهم بل ويصوِّبوها في بعض الحالات، كذلك قدّم العلماء العرب إسهاماتٍ فَذَّة في مجال الهندسة النظرية»[٤].

وربما تزداد دهشتنا حين نعلم أن هذه «الإسهامات الفذة» كانت في جانب «الهندسة النظرية»، وهو الجانب الذي لم يعطه المسلمون كثير اهتمام.

---

(١) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٦٧.

(٢) المصدر السابق ص٦٧-٦٩.

(٣) دونالد ر. هيل: Donald R. Hill باحث غربي معاصر وخبير في التراث العلمي العربي حقق العديد من كتب علماء الحضارة الإسلامية، وله العديد من المؤلفات التي تبرز الأثر العلمي للحضارة الإسلامية في الهندسة والكيمياء والرياضيات والعمارة.

(٤) دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص٤٦.

فهم قسّموا الهندسة إلى قسمين: عقليَّة وحسيَّة؛ فالعقليَّة هي الهندسة النظريَّة، والحسيَّة هي التطبيقيَّة العملية. ولم يضيفوا كثيرًا إلى الهندسة العقلية النظرية غير أنهم شرحوها وعلّقوا عليها، أما الاهتمام الأكبر فقد انصبّ على الهندسة الحسية التطبيقية العملية، فطبقوها في مجالات الصناعة والعمران والفنون والبناء[١]، لدرجة أن كلمة «هندسة» التي كانت في الأصل تستخدم لتدل فقط على «علم الهندسة النظرية»، أصبحت تستخدم عادةً في اللغة العربية الحديثة بمعنى الهندسة التطبيقية[٢].

سنجد في بعض مؤلَّفات البيروني نظريات ودعاوى هندسيَّة وطرق البرهنة عليها، وهي طرق جديدة فيها ابتكار وفيها عمق، وهي تُغَاير الطرق التي سار عليها فلاسفة اليونان ورياضيوهم، وسخَّر المسلمون -ولا سيما ابن الهيثم- الهندسة بنوعيها، المستوية والمجسمة في بحوث الضوء وتعيين نقطة الانعكاس في أحوال المرايا الكروية والأسطوانية والمخروطية، المحدَّبة منها والمقعَّرة، وابتكروا لذلك الحلول العامَّة وبلغوا فيها الذروة[٣].

صورة (١٢) كتاب نصير الدين الطوسي

وقد بيَّن العلماء المسلمون كيفية إيجاد نسبة محيط الدائرة إلى قطرها (ط)، كما أظهروا تفوُّقًا في الهندسة المستوية، ولا سيما فيما يتعلَّق بالمتوازيات؛ فكان نصير الدين الطوسي[٤] مثلاً أول مَنْ لفت الانتباه

(١) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٧٠، ٧١.

(٢) دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص٤٧.

(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٥٨.

(٤) نصير الدين الطوسي: هو أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن (٥٩٧- ٦٧٢هـ/ ١٢٠١ - ١٢٧٤م) كان رأسًا في العلوم العقلية، علاَّمة بالأرصاد والرياضيات. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٤٧.

لنقص إقليدس في قضية المتوازيات، وقام بتقديم الأدلة المبنية على فروض في كتابه **(الرسالة الشافية عن الشكِّ في الخطوط المتوازية)**.

عرف الرياضيون المسلمون كذلك علم تسطيح الكرة؛ وهو علم عرَّفه حاجي خليفة بأنه «عِلْمٌ يُتَعَرَّف به كيفية نقل الكرة إلى السطح مع حفظ الخطوط والدوائر المرسومة على الكرة، وكيفية نقل تلك الدوائر على الدائرة إلى الخطِّ»[(١)].

وتظهر منفعة هذا العلم -كما يقول القونجي- في الارتياض بعلم هذه الآلات وعملها وكيفيَّة انتزاعها من أمور ذهنيَّة مطابقة للأوضاع الخارجيَّة، والتوصل بها إلى استخراج المطالب الفلكيَّة، ومن مصنفاتهم في هذا الفرع من الهندسة كتاب (الكامل) للفرغاني، و(الاستيعاب) للبيروني، و(دستور الترجيح في قواعد التسطيح) لتقي الدين الشامي[(٢)] رحمهم الله[(٣)].

وقد ألَّف المسلمون مصنفات كثيرة في المسائل الهندسيَّة، وفي التحليل والتركيب الهندسي، وفي موضوعات متصلة بذلك مثل تقسيم الزاوية، ورسم المضلَّعات المنتظمة وربطها بمعادلات جبرية، ويقال: إن ثابت بن قرة[(٤)] قسَّم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية بطريقة تخالف الطرق التي عرفها اليونان. ويقول الأستاذ قدري طوقان: إن الجيوب استُعملت بدل الأوتار في بداية القرن الثالث للهجرة، غير أنه من الصعب تعيين الشخص الذي خطا هذه الخطوة، ولكن ثبت أن ثابتًا هو الذي وضع دعوى (منالاوس) في شكلها الحاضر، وفوق ذلك فقد حلَّ بعض المعادلات التكعيبيَّة بطرق هندسيَّة استعان بها بعض علماء الغرب في بحوثهم الرياضيَّة في القرن السادس عشر الميلادي، مثل كاردان وغيره من كبار الرياضيين.

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون ص٤٠٣.

(٢) تقي الدين الشامي: محمد بن معروف ويلقب بالراصد والشامي (٩٢٧ - ٩٩٣ هـ/ ١٥٢١ - ١٥٨٥ م)، أحد الموسوعيين الكبار عالم بالفلسفة والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والصيدلة والزراعة والهندسة، وله أكثر من ٩٠ كتابا في علوم متعددة.

(٣) القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ١٤٨.

(٤) ثابت بن قرة: هو أبو الحسن ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت (٢٢١ - ٢٨٨هـ/ ٨٣٦-٩٠١م) عالم بالرياضيات والفلك، اتصل بالخليفة العباسي المعتضد. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٨٥، وابن النديم: الفهرست ص٣٣١.

يضيف الأستاذ طوقان قائلاً: إن بعض الذين يعنون بالعلوم الرياضية قد لا يصدِّقون أن ثابتًا من الذين مهَّدوا لإيجاد (التكامل والتفاضل)، ولا يخفى ما لهذا العلم من شأن في الاختراع والاكتشاف، فلولا هذا العلم ولولا التسهيلات التي أوجدها في حلول كثيرٍ من المسائل العويصة، والعمليات الملتوية، لما كان في الإمكان الاستفادة من القوانين الطبيعيَّة واستغلالها لخير الإنسان، وثابت من الذين اشتغلوا بالهندسة التحليلية وأجادوا فيها، وله فيها ابتكارات لم يسبقه أحد إليها، وقد وضع كتابًا في الجبر بيَّن فيه عَلاقة الجبر بالهندسة وكيفيَّة الجمع بينهما[١].

ويسرد المستشرق الفرنسي البارون كارا دي فو[٢] الإنجازَ الذي حققته الحضارة الإسلامية فيقول: «أنجز العرب أعظم المكتشفات العلمية فعلاً، فعلَّمُونا استعمال الصِّفر، ولو أنهم لم يكونوا مبتكريه، وهكذا ابتدعوا حساب الحياة اليومية. إنهم جعلوا (الجبر) علمًا متقنا وتقدموا به، ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية، وهم -بلا منازع- مُوجِدو علمي المثلثات المستوية والكروية اللذين لم يكن للإغريق فضل في وجودهما إذا ما توخينا الدقة والإنصاف»[٣].

إن التطور العظيم الذي يمكن اعتباره قفزة في تاريخ العلم كان استخدام العرب للأرقام الهندية وبالذات للصِّفر، الذي وإن دار خلاف حول أوَّل من عرفه، فلا خلاف أن العرب هم من استخدموه، فاعتبروه معبرًا عن المكان الخالي، وبهذا استقامت الحسابات التي أُسِّست باعتبار الخانات: خانة الآحاد، وخانة العشرات، وخانة المئات... وهكذا أمكن حساب العمليات الكبيرة والمطوَّلة، وهو ما كان يستحيل مع الأرقام اللاتينية وقتها[٤].

---

(١) قدري طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص٨٤ وما بعدها، نقلاً عن جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٥٩.

(٢) كارا دي فو: (1868 – 1939، Baron Carra De Vaux) مستشرق فرنسي، اهتم بالتراث العلمي العربي وحقق عددا من المؤلفات التراثية لعلماء المسلمين، من أشهر كتبه (مفكرو الإسلام – ٥ أجزاء) وله العديد من المؤلفات الأخرى.

(٣) تراث الإسلام بإشراف أرنولد ص٥٦٣، ٥٦٤.

(٤) انظر: عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص٦٤.

وتلفت المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه النظر إلى أن استعمال هذه الأرقام لم يكن مجرَّد صدفة أو نوعًا من الحظ السعيد للعرب، بل إن عبقريتهم التي التقطت هذه الأرقام من فوق الهدايا والبضائع الهندية هي صاحبة الفضل، إذ «برهنوا على أنهم كانوا يتمتعون بفَهْمٍ عميق وإدراك واسع عندما اكتشفوا فوائد هذه الشخوص الصغيرة التي تزيِّن الهدايا الهندية، من غير أن يتطلعوا تطلعهم إلى أشياء مدهشة ليلقوا بها جانبًا آخر الأمر، أَوَلَم تكن هذه الأرقام معروفة في الإسكندرية وفي حواضر العلم السورية؟ ولكنها ما كانت لتشتعل نورًا وهّاجًا إلا حين وصلت إلى العرب»(١).

«يعتبر الرياضيون الصِّفر أعظم اختراع وصلت إليه البشرية، وفعلاً فإنه يستحيل دون الصفر وجود الكمية الموجبة والكمية السالبة مثلاً في علم الكهرباء، والموجب والسالب في علم الجبر»(٢).

ثم كانت قفزة أخرى في علم الهندسة حين وضع الخوارزمي علم الجبر والمقابلة، وهو العلم الذي سنتحدث عنه في باب قادم حين الحديث عن الإضافات التي أضافها المسلمون للعلوم البشرية.

أما في مجال المساحة فسنجد أن من أهم أعمال أولاد موسى بن شاكر في علم الهندسة كتاب (معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكرّية)، فالأقدار الثلاثة: الطول والعرض والسمك، تحدُّ عِظَم كل جسم، وانبساط كل سطح، والعمل في تقدير كمياتها إنما يُتَبَيَّن بالقياس إلى الواحد المسطَّح والواحد المجسم، والواحد المسطح الذي به يقاس السطح، وكل مضلَّع يحيط بدائرة، فسطح نصف قطر تلك الدائرة في نصف جميع أضلاع ذلك المضلع هو مساحته(٣).

وقد شكَّل هذا الكتاب تطويرًا مهمًّا لكتابي أرشميدس عن (حساب مساحة الدائرة)، وعن (الكرة والأسطوانة)، والذي استغلَّ فيه الإخوة الثلاثة منهج الاستنزاف لدى

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص١٥٧.
(٢) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٥٦.
(٣) بنو موسى بن شاكر: كتاب معرفة مساحة الأشكال، تحرير نصير الدين الطوسي ص٢، نقلاً عن خالد أحمد حربي: علوم حضارة الإسلام ودورها في الحضارة الإنسانية ص١٥٤.

يودوكس، ومفهوم الكميات متناهية الصغر لدى أرشميدس، وقد كان لهذا الكتاب بالغ التأثير في الشرق الإسلامي، وفي الغرب اللاتيني معًا[١].

أمَّا في المساحات فقد تناولها العلماء المسلمون في ثنايا المصنفات الرياضية باعتبارها فرعًا من الهندسة؛ فنجد أن بهاء الدين العاملي[٢] (ت ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م) يخصِّص لها الفصول الثلاثة الأولى من الباب السادس من كتاب (خلاصة الحساب)، ويتناول في مقدِّمته بعض تعريفات أولية في المساحة عن السطوح والأجسام، ثم في الفصل الأول مساحة السطوح المستقيمة الأضلاع كالمثلث، والمربَّع، والمستطيل، والمعيَّن، والأشكال الرباعيَّة، والمسدس، والمثمَّن وغيرها، ويتناول في الفصلين الثاني والثالث طرق إيجاد مساحة الدوائر والسطوح المنحنية كالأسطوانات، والمخاريط التامَّة والناقصة، والكرة، كما يذكر في الباب السابع أشياء تتعلَّق بالمساحة على سطح الأرض لإجراء المسح لشقِّ القنوات، ومعرفة مقدار الارتفاعات وعرض الأنهار وأعماق الآبار.

وقد كان من الطبيعي أن ينقل المسلمون معارفهم الهندسيَّة ويطبِّقوها على فنِّهم المعماري من مساجد وقصور ومدن، وغيرها، واهتمُّوا بالزخارف الهندسيَّة التي اتَّسمت بالتناسق والدقَّة، وهذا وإن فاضت به الدراسات عن الفن الإسلامي إلا أنه يعبِّر عن أصالة في الهندسة المعمارية، تلك التي يشهد لها مارتن إس بريكز، وهو مستشرق متخصص في العمارة الإسلامية، بالأصالة والتميز فيقول: «ولكن مع احتمال جهل العرب في أمور الهندسة المعمارية في أوائل عهد الفتوح، فإن الحقيقة الساطعة عن العمارة الإسلامية هي أنها بقيت نسيج وحدها في كل البلاد وكل العصور التي مرَّ بها الإسلام، مع بقاء أصولها معقَّدة غاية التعقيد (أي مصادر التأثُّر والاقتباس). هنالك شيء يميزها عن آثار جميع المدارس المعمارية المحلية التي كانت أداة فنية لخلقها»[٣].

ومن هنا تتجلَّى عظمة المسلمين في علم الهندسة، ولا يستطيع أن ينكر دورهم في ذلك

---

(١) عبد الحميد صبره: أبناء موسى بن شاكر، ضمن كتاب عبقرية الحضارة العربية منبع النهضة الأوروبية، تحرير ر. ب. ويلدر ص٢٥، نقلاً عن خالد أحمد حربي: المصدر السابق ص١٥٥.

(٢) بهاء الدين العامِلي: هو محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي (٩٥٣- ١٠٣١هـ/ ١٥٤٧- ١٦٢٢م) عالم أديب إمامي، ولد في بعلبك، وتوفي بأصفهان. أشهر كتبه: (الكشكول)، و(المخلاة). انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ١٠٢.

(٣) تراث الإسلام بإشراف أرنولد ص٢٣٢.

إلا جاحد، يقول محمد كرد علي: «وللعرب (المسلمين) في باب الهندسة الإبداع الذي أقرَّهم عليه كل عارف، ولم ينازعهم فيه منازع، ولم يخترع العرب أبنية خاصة بهم، بل تجلى في هندستهم حبُّهم للزخرف واللطف، واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين، وجعل تفنُّنهم في هندسة القباب والسقوف والمعرَّشات من الأشجار والأزهار لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها، ودلَّت كل الدلالة على إيغالهم في حبِّ النقوش والزينة، كأن أبنيتهم ومصانعهم ثياب من ثياب الشرق تفنن حائكها في رقشها ونقشها، كما قال أحد العارفين من الإفرنج»[1].

هذه هي بعض إسهامات المسلمين في تطوير علم الهندسة، حيث بدت معالمه الكُلِّيَّة واضحة جلية، وذلك بعد اطّلاعهم على إرث الحضارات السابقة عليهم.

***

(١) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١/ ٢٣٨.

المبحث الخامس

الجغرافيـــــا

«ما زالت مؤلفات المسلمين في الجغرافيا تحتل مكانًا مهمًّا حتى يومنا هذا؛ لأن المعلومات التي تتضمنها تزيد في علمنا بالجغرافيا التاريخية المتعلقة بالبلدان التي تناولتها هذه المؤلفات، وبالتالي تنمِّي بصورة غير مباشرة معلوماتنا عن تاريخ تلك البلدان؛ فتراث الإسلام في هذا الميدان له أهمية خاصة»(١).

هذه ليست كلماتنا، بل هي كلمات الباحث الغربي مارتن بلسنر.

والجغرافيا كعلم بدأ قبل الإسلام، ولكن «كان من نتائج ريادات العرب ومعارفهم الفلكية أن اتفق لعلم الجغرافيا تقدُّم مُهِمٌّ، ولا غَرْوَ فالعرب الذين اتخذوا في البداية علم اليونان ولا سيما بطليموس، أَدِلاَّء لهم في علم الجغرافيا - لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم»(٢).

وتلك أيضًا ليست كلماتنا، بل هي للمفكر الفرنسي الكبير جوستاف لوبون.

ولعلّه يمكننا رسمَ مسيرة إبداعات وإنجازات المسلمين في علم الجغرافيا من خلال ثلاث مراحل:

- تصحيح الأغلاط السابقة عليهم.
- الوصف المتميز للمعالم والبلدان.
- إضافاتهم واكتشافاتهم.

وبهذا التصوُّر يمكن القول إن مسيرة الإبداع قد بدأت بإثباتهم **كروية الأرض**؛ فقد كان الإغريق يعتقدون أن الأرض قرص دائري مسطَّح تحيط به مياه المحيطات من كل جانب، وها هو هكتاتيوس (سنة ٥٠٠ ق. م)، والذي يُعتبر أبا الجغرافيا الإغريقيَّة، يرسم خرائطه على أساس القرص المستدير، وبالرغم من أن أفلاطون (سنة ٣٤٨ ق. م) أتى

(١) مارتن بلسنر: مبحث العلوم، منشور في كتاب تراث الإسلام بإشراف شاخت وبوزورث ٢/ ١٥٤.
(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٦٨.

بأول نظرية عن كرويَّة الأرض إلاَّ أنه لم يلقَ التأييد الكافي ممن جاء بعده، بل إن الدولة الرومانيَّة رفضت هذه الفكرة، وكتب كوزماس (COSMAS) أبو الجغرافيا الرومانيَّة في (سنة ٥٤٧م): «إن العالم يشبه العجلة، وإن مياه المحيط حوله من كل الجهات...». وبلغ الأمر ذروته حين تبنَّت الكنيسة وآباؤها الأوائل، وعلى رأسهم لكتانشيوس هذه النظرية بشدَّة، وقالوا بأن الأرض مسطَّحة، وأن الجانب الآخر غير مأهول؛ وإلا سقط الناس في الفضاء[١]!!

ولما جاءت الحضارة الإسلاميَّة، عملت على إحياء نظرية كروية الأرض وتبنَّتها، وربما كان من أهمِّ أسباب ذلك أن القرآن أشار بصور مختلفة إلى كروية الأرض، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[٢]. والدحية في اللغة هي الكرة، كما أن هناك آيات تتحدَّث عن دوران هذه الكرة حول نفسها بما يُحدِث الليل والنهار، فيقول تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[٣].

يقول ابن خرداذبه[٤] (ت ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) مثلاً: «إن الأرض مُدَوَّرَةٌ كدوران الكرة، موضوعة كالمُحَّة[٥] في جوف البيضة»[٦]. كما كتب ابن رُستة[٧] (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م): «إن الله ﷻ وضع الفلك مستديرًا كاستدارة الكرة، أجوف دوَّارًا، والأرض مستديرة أيضًا ومصمتة في جوف الفلك»[٨].

وللأديب الشهير ابن عبد ربه[٩] وهو صاحب كتاب العقد الفريد، أبيات له يردُّ فيها

(١) المصدر السابق، وجلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٧، ٣٩٨.

(٢) (النازعات: ٣٠).

(٣) (الزمر: ٥).

(٤) ابن خرداذبه: هو أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه (٢٠٤ - ٢٧٢هـ/ ٨٢٠ - ٨٨٥م) مؤرخ جغرافي، أسلم على أيدي البرامكة، من أشهر مصنفاته: (المسالك والممالك). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/ ٢٢٩.

(٥) المُحَّة: صفار البيض. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة محح ٢/ ٥٨٩.

(٦) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص٤.

(٧) ابن رُستة: هو أبو علي أحمد بن عمر (ت نحو ٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، عالم جغرافي من أهل أصفهان، من أهم كتبه: (الأعلاق النفيسة). انظر: الزركلي: الأعلام ١/ ١٨٥.

(٨) ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص٨.

(٩) ابن عبد ربه: أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم، أبو عمر (٢٤٦ - ٣٢٨هـ/ ٨٦٠ - ٩٤٠م)، الأديب الإمام صاحب العقد الفريد، من أهل قرطبة. انظر الزركلي: الأعلام ١/ ٢٠٧.

على أبي عبيدة مسلم بن أحمد الفلكي[1]، عرفنا منها أن أبا عبيدة الفلكي قال بكروية الأرض، ولكن ابن عبد ربه لم يوافق على هذا وقال:

أبا عبيدة ما المسئول عن خبرٍ تحكيه إلا سُؤالاً للذي سألا
أبيت إلا شذوذًا عن جماعتنا ولم تعب رأي من أرجى أو اعتزلا
وقلت إن جميع الخلق في فَلكٍ بهم يحيط وفيهم يُقسم الأجَلا
والأرض كورِيَّة حفَّ السماء بها فوقًا وتحتًا فصارتْ نُقطة مَثَلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها قد صار بينهما ها وذا دُوَلا
فإنَّ كانونَ في صَنعا وقرطبة بردٌ وأيلولُ يُذكِي فيهم الشُّعَلا

وإنه من اللافت للنظر أن نجد أنَّ أبا عبيدة هذا يُذكر في ترجمته أن السقوط من السماء إلى الأرض أهون عليه من الكذب. فإنها وإن كانت معلومة أخلاقيَّة بالمقام الأول إلا أنها تعطي انطباعًا كذلك على دقة التحري، وطول البحث قبل النطق بالنتيجة.

وهو من علماء القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي)، ومن أوائل من اشتغل بالفلك في الأندلس. إن هذا مهمٌّ في أن نعرف أن العالم الإسلامي لم يقاوم ولم يعارض تلك الاكتشافات العلمية مهما بدتْ له غريبة، وأن ما كان له من معارضة لم يتعدَّ السجال الطبيعي، ذلك جدير أن نتذكره حين نتذكر كيف كانت مسيرة التطور العلمي مختلطة بالدماء والحرائق ومحاكم التفتيش بعد ذلك في أوربا بخمسة قرون.

جديرٌ أيضًا أن نقول إن عالِم الدين الإسلامي لم يقف في صف العامَّة، بل وجد في الإسلام ما يؤكِّد الحقيقة العلمية ويعارض منكريها؛ فينقل ابن حزم مثلاً إجماع أئمة المسلمين على كروية الأرض فيقول: «قالوا: إن البراهين قد صحَّت بأن الأرض كرويَّة، والعامَّة تقول غير ذلك، وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحدًا من أئمة المسلمين المستحقِّين لاسم الإمامة بالعلم ﷺ لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يُحفَظ لأحدٍ منهم في

(١) أبو عبيدة الفلكي: (ت ٢٩٥ هـ) أبو عبيدة مسلم بن أحمد. كان عالما بحركات الكواكب وأحكامها وكان صاحب فقه وحديث وكان بصيرا بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض والفقه والحديث والأخبار والجدل. انظر: المقري: نفح الطيب ٣/ ٣٧٤

دفعه كلمةٌ، بل البراهين من القرآن والسُّنَّة قد جاءت بتكويرها، قال الله ﷻ: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[1]، وهذا أوضح بيانٍ في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من: كوَّر العمامة، وهو إدارتها، وهذا نصٌّ على تكوير الأرض...»[2].

وقد ذكر الشريف الإدريسي ما نصُّه: «... وإن الأرض مدوَّرة كتدوير الكرة، والماء لاصقٌ بها، وراكد عليها ركودًا طبيعيًّا لا يفارقها، والأرض والماء مستقرَّان في جوف الفلك كالمُحَّة في جوف البيضة، ووَضْعُهُما وَضْعٌ متوسط، والنسيم يحيط بها (يقصد الغلاف الجوي) من جميع جهاتها»[3].



صورة (١٣) خريطة العالم للإدريسي

وعن الخرائط التي رسمها الإدريسي يقول ول ديورانت: «وكانت هذه الخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط في العصور الوسطى، لم ترسم قبلها خرائط أتم منها، أو أدق، أو أوسع وأعظم تفصيلاً. وكان الإدريسي يجزم كما تجزم الكثرة الغالبة من علماء المسلمين بكريَّة الأرض، ويرى أن هذه حقيقة مُسلَّم بصحتها»[4].

والعجيب -بعد كل ما سبق- أن بعض الكتب والمراجع العربيَّة ما زالت تنقل عن المراجع الأجنبيَّة أن المسلمين لم يعرفوا نظرية كرويَّة الأرض، وأن هذه النظرية لم تُعْلَنْ إلاَّ بفضل (كوبرنيكس)!! وحَسبُك الآن مقارنة تاريخ وفاة كوبرنيكس

---

(١) (الزمر: ٥).

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل ٢/ ٧٨.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص٧.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٣٥٨.

(١٥٤٣م) بأعوام وَفَيَات علماء المسلمين الذين سبق ذكرهم؛ ليتبيَّن لك: مَن أخذ ممَّن؟!

وإذا ما قد أثبت المسلمون كروية الأرض، فإنه ينسب إلى الخليفة العباسي المأمون (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م) أنه أوَّل مَنْ قام **بمحاولة لقياس أبعاد الكرة الأرضيَّة**، حيث جاء بفريقين من علماء الفلك والجغرافيا، فريق برئاسة سند بن علي[1]، وفريق بقيادة علي بن عيسى الأسطرلابيّ[2] (ويقال: إن رئاسة أحد الفريقين كانت لبني موسى بن شاكر) واتفق معهما أن يذهبا إلى بقعتين مختلفتين على الدائرة العظمى من محيط الأرض شرقًا وغربًا، ثم يقيسا مقدار درجة واحدة من خطوط الطول (التي تبلغ ٣٦٠ خطَّ طول). ويحكي ابن خلِّكان[3] أن كل فريق اختار بقعة واسعة مسطَّحة، ورَكَز في مكانٍ منها وتدًا، واتخذ النجم القطبي نُقطةً ثابتةً، ثم قاس الزاوية بين الوتر وبين النجم القطبي والأرض، ثم سار شمالاً إلى مكان زادت فيه تلك الزاوية، وقاس كل فريق المسافة بين الوتدين، وكانوا يقيسون المسافات على الأرض بحبال يشدُّونها على الأوتاد[4].

والعجيب أن النتائج جاءت دقيقة وقريبة مما توصَّل إليه العلم المعاصر؛ فقد أخذ المأمون متوسط قياس الفريقين، فوجده ٥٦,٦٦ ميلاً تقريبًا، والذي توصَّل إليه العلم المعاصر هو ٥٦,٩٣ ميلاً، وعلى قياس المأمون هذا فإن محيط الأرض يبلغ ٢٠,٤٠٠ ميل، أي حوالي: ٤١,٢٤٨كم، ومن خلال مقارنة هذه القيمة مع القيمة التي قيست بواسطة الأقمار الصناعية في العصر الحديث، وهي ٤٠,٠٧٠ كم، يتَّضح أن نسبة الخطأ في قياسات فريق المأمون لم تتجاوز (٣٪)!! وهو أمر جديرٌ بالتقدير[5].

وكان كتاب جغرافيا بطليموس من الكتب الأساسيَّة التي اعتمد عليها المسلمون في

---

(١) سند بن علي: هو أبو الطيب سند بن علي اليهودي (كان حيًّا قبل عام ٢١٨هـ)، منجم، رياضي، فلكي. اتصل بخدمة المأمون، وأسلم على يده. من أهم كتبه: «المنفصلات»، و«المتوسطات». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٤٢.

(٢) علي بن عيسى الأَسْطُرلابيّ: (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) من مشاهير الرياضيين الفلكيين. عاش في بغداد، وكان من بين العلماء الذين عهد إليهم المأمون بقياس طول درجة من دائرة خط الاستواء.

(٣) ابن خلكان: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (٦٠٨- ٦٨١هـ/ ١٢١١- ١٢٨٢م) مؤرخ موسوعي، ولي القضاء في مصر ودمشق، من أشهر مصنفاته: (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان). انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٣٧١- ٣٧٤.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٦٢.

(٥) انظر في ذلك يوهانس فيلارز: كنوز علم الفلك ص٢٥.

إرساء قواعد علمهم، وهو يكاد يكون الكتاب الوحيد الذي تناولوه في هذا الموضع من تراث السابقين مع كتاب مارينوس الصوري[١] الأقل أهمية[٢].

وصحح المسلمون ما وقع بطليموس فيه من الأخطاء عند تحديد الأطوال والأعراض، ومن هذه الأخطاء أنه بالغ كثيرًا في تحديد طول البحر المتوسط، وبالغ في تحديد امتداد الجزء المعمور من الأرض المعروف له، وجعل المحيط الهندي والهادي بحيرة، وذلك عندما وصل جنوبي آسيا بجنوبي إفريقيا، وبالغ في تحديد حجم جزيرة سيلان، وأخطأ في تحديد وضع بحر قزوين والخليج العربي خطأً فاحشًا، وقد صحَّح المسلمون كل هذه الأخطاء وغيرها، ثم خَلَّفوا للعالم جغرافيتهم الوصفيَّة التي اشترك في إعطائها صورتها الأخيرة جمهرةٌ من العلماء والرحَّالة طوال خمسة قرون على الأقل، فتركوا بذلك أثرًا -نَسِيجَ وَحْده[٣]- من آثار العصور الوسطى[٤].

«كانت مواضع المدن الكثيرة التي عيّنها بطليموس تعيينًا جغرافيًّا غير مطابقة للحقيقة تمامًا، وبلغ مقدار غلطه في تعيين طول البحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ.

ويكفي أن نقابل بين الأمكنة التي عيّنها الأغارقة والأمكنة التي عينها العرب؛ ليظهر لنا مقدار التقدُّم الذي تم على يد العرب»[٥].

ويُعدُّ المسلمون أول مَنْ وضع خطوط الطول وخطوط العرض على خريطة الكرة الأرضية، وقد وضعها العالم أبو علي المراكشي (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)؛ وذلك لكي يستدلَّ المسلمون على الساعات المتساوية في بقاع الأرض المختلفة للصلاة، كما وضع البيروني قاعدة حسابيَّة لتسطيح الكرة؛ أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطحٍ

(١) مارينوس: هو مارينوس الصوري نسبة إلى مدينة صور على ساحل البحر المتوسط، عاش مارينوس بين أواخر القرن الأول الميلادي والثاني، وقد اعترف بطليموس صراحة أنه تلميذ مارينوس الصوري، ومن أهم مصنفات مارينوس الصوري (تصحيح الجغرافيا).

(٢) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٠.

(٣) أي: الذي لا نظيرَ له، ولا يُعْمَلُ على مثاله. ابن منظور: لسان العرب، مادة نسج ٢/ ٣٧٦، ومادة وحد ٣/ ٤٤٦.

(٤) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٠، ٣٩٣.

(٥) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٦٨.

مسطَّح وبالعكس، وبهذا سهَّل رسم الخرائط الجغرافية[١].

وفي الوقت الذي كان العالم لا يتخيَّل فيه أن الأرض كرة لم يكن هناك مَنْ يناقش مسألة دوران الكرة حول نفسها، ولكن ثلاثة من علماء المسلمين كانوا أول من ناقش فكرة دوران الأرض في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، وهم علي بن عمر الكاتبي[٢]، وقطب الدين الشيرازي من الأندلس، وأبو الفرج علي من سوريا، فقد كان هؤلاء الثلاثة أول من أشار في التاريخ الإنساني إلى احتمال دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرَّة كل يومٍ وليلة، وعن هؤلاء العلماء يقول سارتون: «إن أبحاث هؤلاء العلماء الثلاثة في القرن الثالث عشر لم تذهب سُدًى، بل كانت أحد العوامل التي أثَّرت في أبحاث كوبرنيكس في نظريته التي أعلنها سنة (١٥٤٣م)» [٣].

لقد وضع علماء الحضارة الإسلامية في علم الجغرافية موسوعات جغرافية حقيقية، منها مثلاً كتاب ياقوت الحموي (معجم البلدان)، ذلك الذي يقول فيه ديورانت: «موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة في العصور الوسطى. ولم يكد يترك شيئًا من هذه المعلومات إلا أدخله في هذه الموسوعة؛ من فلكٍ، وطبيعة، وعلوم آثار، والجغرافية البشرية، والتاريخ، هذا إلى ما أثبته فيها من أبعاد المدن بعضها عن بعضٍ، وأهميتها، وحياة مشهوري أهلها وأعمالهم، ولسنا نعلم أن أحدًا أحبَّ الأرض كما أحبها هذا العالم العظيم»[٤].

يقول جوستاف لوبون: «وكُتُب العرب التي انتهت إلينا في علم الجغرافيا مهمَّة إلى الغاية، وكان بعضها أساسًا لدراسة هذا العلم في أوربا قرونًا كثيرة»[٥].

---

(١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٤٥٩، وجلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٧.

(٢) علي بن عمر الكاتبي: هو نجم الدين علي بن عمر بن علي الكاتبي القزويني (٦٠٠- ٦٧٥ هـ/ ١٢٠٣- ١٢٧٧م) حكيم منطقي، من تلاميذ نصير الدين الطوسي، له تصانيف كثيرة منها (الشمسية) و(حكمة العين). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١/ ٢٤٤.

(٣) سارتون: مقدمة في تاريخ العلم ١/ ٤٦.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٣٥٩.

(٥) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٦٩.

ثم يضيف لوبون: «وخريطة الإدريسي التي نشرتُ صورتها والتي اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة -أي على هذه الأماكن التي لم يكتشفها الأوربيون إلا في العصر الحاضر- أكثرُ خرائطِه طرافةً، فهي تثبت أن معارف العرب في جغرافية إفريقيا أعظم مما ظُنَّ زمنًا طويلاً»[1].

وكان للخرائط الإسلامية وما كتبه المسلمون في علوم البحار أثرٌ بالغ في تقدُّم الملاحة الغربية[2].

وبالنسبة إلى الاكتشافات البحرية: فكان من أهمها اكتشاف أمريكا، والذي يُعْزَى إلى كريستوفر كولومبوس[3] سنة (١٤٩٢م)؛ فمنذ أعلن المسلمون كرويَّة الأرض، وأثبتوا ذلك بالبراهين الفلكيَّة والحسابيَّة، بدأت الإشارات تظهر في كتبهم إلى أنه لا بُدَّ من وجود جزرٍ معمورة في الوجه الآخر من الكرة الأرضية لم تُكتَشَف بعدُ، وقد بُنِيَتْ هذه النظرية على أنه ليس من المعقول أن يكون أحد سطحي الكرة يابسة بالكامل بينما يغطِّي الماء الجانب الآخر؛ لأنَّ هذا سيؤدِّي إلى اختلال توازن الأرض وانتظام دورانها[4]. وقد كان البيروني أول من أشار إلى هذه الحقيقة وبَشَّر بها في كُتُبه، وبناءً على هذه النظريَّة ابتدأتْ مغامرات الكشف الجغرافي التي جاء ذكرها في مخطوطات كبار الجغرافيين المسلمين، ومنهم المسعودي[5] في كتابه (مروج الذهب)، والإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق)، وغيرهما.

ويعضِّد ذلك ما ذكره العالم المؤرِّخ اللغوي الأب أنستاس الكرملي[6] من أن المسلمين قد وصلوا أمريكا من لشبونة قبل كولومبوس بفضل معرفتهم لتيار الخليج الحار في

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٧٠.

(٢) مارتن بلسنر: مبحث العلوم من كتاب تراث الإسلام بإشراف شاخت وبوزوروث ٢/ ١٥٤.

(٣) كولومبوس: هو كريستوفر كولومبوس (١٤٥١ - ١٥٠٦م) رحالة إيطالي مشهور ينسب إليه اكتشاف العالم الجديد (أمريكا) والبهامس وجزر البحر الكاريبي، وقد توفي في إسبانيا نتيجة اشتداد المرض عليه.

(٤) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام ص٣٩٦، ٣٩٧.

(٥) المسعودي: هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، مؤرخ، رحالة، بحاثة، من أهل بغداد، أقام بمصر وتوفي فيها. من تصانيفه (مروج الذهب). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١/ ٦، ٧، والزركلي: الأعلام ٤/ ٢٧٧.

(٦) أَنِسْتاس الكَرْمِلي: هو بطرس جبرائيل يوسف عواد (١٢٨٣ - ١٣٦٦هـ/ ١٨٦٦ - ١٩٤٧م)، عالم بالأدب ومفردات العربية وفلسفتها وتاريخها، أصله من لبنان، وولد ببغداد. انظر: الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٥.

الأطلسي، فيقول: «سَبَقَ العربُ سائرَ الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصِّه، وإلى حركته من المكسيك إلى أيرلندا وبالعكس...»[(١)].



صورة (١٤) خريطة محيي الدين الريس

إلا أن أكثر الإشارات إبهارًا وإثارة للدهشة على اكتشاف المسلمين لأمريكا هي تلك الخريطة التي اكتشفها المستشرق الألماني بول كاله Kahle[(٢)] في مكتبة (طوب كابي سراي) بإستانبول، ونشرها على العالم سنة (١٩٢٩م)، بعد تحقيق علمي دُوَلِيٍّ استمرَّ عِدَّة سنوات، فقد حيَّرت هذه الخريطة العلماء وأذهلت العالم، وهي من تأليف جغرافي مسلم هو بيري ريس[(٣)]، واسمه الكامل محيي الدين بن محمد الريس، وكان أحد قادة البحرية في الأسطول العثماني الذي كان سيِّد البحار في تلك الآونة. وهذه الخريطة تنقسم في الواقع إلى عدَّة خرائط مفردة؛ فهي تبيِّن شرقي المحيط الأطلسي حيث السواحل الإسبانية والإفريقية الغربية، أما في غربي المحيط فأنت ترى القارة الأمريكية بسواحلها وجزرها

---

(١) الأب أنستاس الكرملي: عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها الغرب، نُشر هذا البحث في مجلة المقتطف عدد (١٠٦)، وأشار إليه العقاد في كتابه أثر العرب في الحضارة ص٤٧.

(٢) بول كاله: P. Kahle (١٨٧٥ - ١٩٦٤م) مستشرق ألماني شهير، تعلم اللغات الشرقية في جامعات ماربورج وبرلين، عيِّن قسيسًا للبروتستانت في رومانيا والقاهرة.

(٣) بيري ريس: هو محيي الدين بن محمد الريس (٨٧٧- ٩٦٢هـ/ ١٤٧٠ - ١٥٥٥م) كان ربانًا في معركة مودان البحرية عام ١٥٠٠م، استطاع بيري أن يضع خريطتين للعالم وُصفتا - فيما بعد - بأنهما الأدق تفصيلاً، من مصنفاته: (كتاب بحرية).

وموانيها وحيْواناتها، فضلاً عن سكانها الأصليين (الهنود الحمر) الذين يرسمهم عُراةً وهم يرعون الغنم.

ويذكر المستشرق كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) تعليلاً لهذه الخريطة أنه لا بُدَّ أن يكون الريس قد بناها على أساس خرائط كولومبوس التي ربما تكون قد سقطت في يده عندما انتصر الأسطول التركي على أسطول البندقية سنة (١٤٩٩م)، وأَسَرَ بعض سُفُنِه[١]، إلاَّ أن هذا الرأي يلقى معارضة من كثير من الباحثين؛ لأن الخريطة بها تفاصيل لأماكن لم يعرفها كولومبوس، ولم يكن اكتشفها، ولكن هؤلاء الباحثين لم يقدِّموا تعليلاً بديلاً يكشف سِرَّ هذه الخريطة الغامضة.

وممَّا هو جدير بالذكر أن صحف البرازيل نشرت في عام (١٩٥٢م) تصريحًا للدكتور جغرز[٢] أستاذ العلوم الأثرية الاجتماعية في جامعة ويتواترستراند في جمهورية إفريقيا الجنوبية، جاء فيه أن كتب التاريخ تخطئ عندما تنسب اكتشاف أمريكا إلى كريستوفر كولومبس؛ ذلك لأن العرب (المسلمين) في الواقع هم الذين اكتشفوها قبله بمئات السنين[٣]. وقد اعتمدت دراسة الأستاذ المذكور، والتي دامت ستَّ سنوات، على دراسة للهياكل البشريَّة التي عُثر عليها في ولاية (غرنادة) البرازيلية[٤].

اكتشاف القارة السادسة في القطب الجنوبي: وإنَّ أعجب ما في خرائط محيي الدين الريس أنها عَادَتْ لِتَشغل العلماء بعد عصر رحلات الفضاء وتصوير الأرض من الأقمار الصناعيَّة؛ فقد كان الاعتقاد الأوَّل لدى علماء الخرائط في أمريكا وأوربا في القرن العشرين أن الخرائط غير دقيقة، وأن بها أخطاءً في الرسم حسب أحدث معلوماتهم عن الشاطئ الأمريكي، ولكنهم فُوجِئوا بعد ظهور أول صورة مأخوذة من القمر الصناعي لهذه المناطق أن خرائط محيي الدين الريس أدقُّ من كل ما عرفوه وتصوَّروه! وأنها تطابق تمامًا صور القمر الصناعي، وأن معلوماتهم هي التي كانت خاطئة، وعلى أثر ذلك عكف

(١) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢/ ٥٦٢.

(٢) جغرز: أستاذ العلوم الأثرية الاجتماعية بجامعة وايتوتر ستراند بإفريقيا الجنوبية.

(٣) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٢٢٥.

(٤) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٥٠٠.

فريق من العلماء في وكالة الفضاء الأمريكيَّة على إعادة دراسة الخرائط مقطعيًّا بعد تكبيرها عدَّة مرات، فكانت المفاجأة الثانية، وهي أن محيي الدين الريس قد وضع في خرائطه القارة السادسة في القطب الجنوبي والمسماة Antarctica قبل اكتشافها بأكثر من قرنين، كما أنه وصف جبالها ووديانها التي لم تكتشف حتى سنة (١٩٥٢م).

ويحكي الكاتب إريك فون دانيكن في كتابه: (Chariots of the gods) أن خرائط محيي الدين الريس سُلِّمت إلى الدكتور ماليري آرلنجتون أستاذ الخرائط الجغرافية في الجامعات الأمريكية، الذي قرَّر بعد فحص دقيق أنها تحتوي على كل الحقائق الجغرافية حول أمريكا، ولكنه شكَّ في وجود خطأ أو عدم دقَّة في بعض الأماكن، فطلب الاستعانة بجغرافيي الأسطول الأمريكي، الذين أظهرت دراساتهم أن خرائط بيري ريس قد نقلت الطبوغرافيا الداخلية للقارات (أي التضاريس) بدقَّة مذهلة؛ فتظهر فيها الجبال والأنهار والسهول، وكأنها أُخِذَت من الفضاء الخارجي[١]!

وفي سنة (١٩٥٧م) عكف فريق من علماء الجغرافيا بالمراصد الكبرى والبحريَّة الأمريكيَّة على مزيد من دراسة خرائط الريس، وبعد دراسات على أجهزة متطوِّرة وجدوا أن صِوره عن القارة السادسة Antarctica صحيحة ودقيقة بدرجة مذهلة، حتى بالنسبة للمناطق التي لم يُستكمَل اكتشافها في عصرنا الحاضر؛ فالجبال على قارة القطب الجنوبي لم تُكْتَشَف حتى عام (١٩٥٢م)، فهي دائمًا مغطَّاة بطبقة سميكة من الثلوج؛ بحيث إن اكتشاف وجودها على الخرائط الحديثة كان باستعمال أجهزة صدى الصوت Echo-Sounding apparatus.

والجدير بالذكر هنا أيضًا هو اهتمام وكالة الفضاء الأمريكية بمواصلة دراسة هذه الخرائط؛ حيث اتَّضح أنها تشبه تمامًا الصور المأخوذة للكرة الأرضيَّة من مركبة فضائيَّة أثناء مرورها فوق منطقة القارة القطبيَّة الجنوبيَّة، وهي صور تغطي مسافة (خمسة آلاف ميل)، فوجَدوا تشابهًا مذهلاً بين صور القمر الصناعي وبين خريطة بيري ريس[٢]!

---

(١) إريك فون دانكين: عربات الآلهة ص٢٩.

(٢) أحمد شوقي الفنجري: العلوم الإسلامية، الرابط:
http://www.islamset.com/arabic/asc/fangry1.html

كشف الطريق إلى الهند من إسبانيا: وصف القلقشندي المتوفَّى سنة (١٤١٨م) في كتابه (صبح الأعشى) اتصال المحيط الأطلسي بالمحيط الهندي وصفًا دقيقًا يبيِّن معرفة المسلمين بهذه القضيَّة قبل فاسكو دي جاما[١] فيقول عن المحيط الأطلسي: «إنه يأخذ في الامتداد من سواحل بلاد المغرب الأقصى من زقاق سبتة (أي مضيق جبل طارق)، الذي بين الأندلس وبَرّ العُدْوة إلى جهة الجنوب حتى يتجاوز صحراء لمتونة (وهي بادية البربر)». ثم يستمرُّ في شرح الطريق البحري فيقول: «ثم يعطف إلى جهة الشرق وراء جبال القمر التي منها منابع نيل مصر الآتي ذكرها، فيصير البحر المذكور جنوبيًّا عن الأرض ويمتدُّ شرقًا على أرض خراب وراء بلاد الزنج، ويمتد شرقًا وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند»[٢].

ويذكر كراتشوفيسكي أن ملاَّحًا عربيًّا قام بنفس رحلة فاسكو دي جاما سنة (١٤٢٠م)، ولكن بالطريق العكسي، فخرج من ميناء في المحيط الهندي ودار حول إفريقيا، حتى وصل إلى موانئ المغرب في المحيط الأطلنطي، وكان ذلك قبل فاسكو دي جاما بسبعة وعشرين عامًا[٣].

وقد ذكر فاسكو دي جاما في مذكِّراته أن الملاَّحين العرب الذين التقى بهم في رحلته كانوا يحملون بوصلات متطوِّرة لتوجيه السفن، وآلات رصدٍ، وخرائط بحريَّة، وأنه استعان بهم، وأرسل بعض خرائطهم إلى الملك مانويل، وأن ملاَّحًا مسلمًا اسمه (المعلم كانا) من مالندي هو الذي قاد سفينته من مالندي إلى كاليكوت بالهند، وفي مراجع أخرى أن الذي قاد سفينة دي جاما هو الملاح الجغرافي العربي ابن ماجد[٤] (مخترع البوصلة). ومن الملاحظ أن جميع خرائط المسلمين المتأخِّرة مثل خريطة المسعودي وخريطة الإدريسي تبيِّن بوضوح اتصال المحيط الهندي بالمحيط الأطلسي حول إفريقيا؛ فقد كانت هذه

---

(١) فاسكو دي جاما: (١٤٦٩ – ١٥٤٢ م) بحري ومستكشف برتغالي، ينسب إليه اكتشاف الطريق البحري من أوروبا إلى الهند، توفي بالهند.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٣/ ٢٣٧.

(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢/ ٥٦٣ النسخة العربية.

(٤) ابن ماجد: هو أحمد بن ماجد بن محمد النجديّ (ت بعد ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م)، الملقب بأسد البحر، من كبار ربابنة العرب، ومن علماء فنِّ الملاحة وتاريخه عند العرب. انظر: الزركلي: الأعلام ١/ ٢٠٠.

المناطق عامرة بالمراكب العربيَّة ذاهبة آتية بين الهند وغرب إفريقيا[١].

فلَكَمْ هو مذهل تتبُّع جهود المسلمين في علم الجغرافيا واكتشاف الأرض من حولهم! وكم هو مُبهر تصفُّح ثمار تلك الجهود!

«يحتاج إحصاء أهم جغرافيي العرب وما ألّفوا من الكتب إلى بيان طويل، فقد ذكر أبو الفداء[٢] وحده أسماء ستين عالمًا جغرافيًّا من الذين ظهروا قبله... لولا إصرار الأوربيين الخاص على مُبْتَسراتهم[٣] الموروثة التي لا تزال باقية حيال الإسلام لتعذُّر إيضاح السبب في (إنكار علماء الجغرافيا الغربيين الكبار) لذلك الشأن، ومع ذلك يكفي ما أتى به العرب من عملٍ كبير لإثبات قيمتهم؛ فالعرب هم الذين انتهوا إلى معارف فلكيَّة مضبوطة عُدَّت أول أساس للخرائط»[٤].

وتلك أيضًا ليست من كلماتنا، إنما لـ جوستاف لوبون.

* * *

(١) انظر هذا في: حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص١٢ وما بعدها.

(٢) أبو الفداء: هو إسماعيل بن علي بن محمود بن شاهنشاه (٦٧٢- ٧٣٢هـ / ١٢٧٣- ١٣٣١م) الملك المؤيد، صاحب حماة، مؤرخ جغرافي، كان مضطلعًا بعلم الهيئة. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٩/ ١٠٤، والزركلي: الأعلام ١/ ٣١٩.

(٣) المبتسر: هو كل ما كان غير ناضج وليس بمكتمل.

(٤) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٧١.

المبحث السادس

الفلك

ارتبط علم الفلك عند المسلمين بكثير من شعائر دينهم، فظهرت الحاجة إلى دراسته لتحديد أوقات الصلاة بحسب الموقع الجغرافي والفصل الموسمي، وكذلك تحديد اتجاه القبلة، ومتابعة حركة القمر لتحديد بدء الصوم، والحجِّ، وغير ذلك.

هذا، وقد جاءت آيات قرآنيَّة كثيرة تهتمُّ بالفلك والكون المحيط بالإنسان بكل معطياته، وأيضًا تحثُّ المسلمين على النظر في ملكوت السموات والأرض؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(١). وقال جلّ شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾(٢). ثم يذهب القرآن أبعد من ذلك، فيذكر كواكب معيَّنة ونجومًا بأسمائها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾(٤).

وإلى جانب ذلك فقد أتى القرآن بحقائق علميَّة لا يمكن لأحدٍ فهمها أو مجرَّد محاولة تفسيرها ما لم يكن لديه علم واسع بعلم الفلك، وهو ما استوجب اهتمام وعناية خاصَّة من العلماء المسلمين.

وقد اطَّلع المسلمون في بداية تطويرهم لعلم الفلك على ما خلَّفه علماء الحضارات السابقة فيه؛ فقاموا أولاً بترجمة الكتب الفلكيَّة التي ألَّفها اليونان والكلدان والسريان

(١) (يس: ٣٧-٤٠).
(٢) (يونس: ٥، ٦).
(٣) (الطارق: ١-٣).
(٤) (النجم: ٤٩).

والفرس والهنود، وكان أول كتاب قام علماء المسلمين بترجمته هو كتاب (مفاتيح النجوم) المنسوب إلى هرمس[(١)] الحكيم، ترجموه من اليونانية إلى العربيَّة، وذلك أواخر عصر الدولة الأمويَّة، وكان من الكتب الفلكيَّة المهمَّة المترجمة عن اليونانية أيضًا كتاب (المجسطي) لبطليموس في علم الفلك وحركات النجوم، وكان ذلك في العصر العباسي[(٢)].

لقد نبغ في العصر العباسي ثلاثة عرفوا بأنهم أبناء موسى بن شاكر، وموسى بن شاكر هذا هو فلكي كان في بلاط الخليفة المأمون، فلما مات تعهد المأمون أولاده بالعناية والرعاية صغارًا، وأوكلهم إلى الفلكي يحيى بن أبي منصور، وإلى حين أن يكبر الصغار كان الخوارزمي يصحِّح أخطاء بطليموس من موقعه في بيت الحكمة ببغداد. فلما كبر الصغار نبغ منهم في الفلك محمد بن موسى بن شاكر، وأفسح المأمون لفلكييه دارًا في أعلى ضاحية من بغداد، بقرب باب الشماسية لرصد النجوم رصدًا دقيقًا علميًّا، وإجراء قياسات مثيرة للإعجاب، كانت تقارن بغيرها في جنديسابور، وبأخرى تُجرى بعد ثلاث سنوات تقع على جبل قاسيون على مقربة من دمشق للمقارنة. وكان علماء الفلك يعملون مجتمعين على وضع جداول الفلك «المجرَّبة» أو «المأمونية»، وهي مراجعة دقيقة لجداول بطليموس القديمة[(٣)].

واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين -كان منهم محمد بن موسى بن شاكر- ليرصدوا الأجرام السماوية، ويسجِّلوا نتيجة هذه الأرصاد، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكي، ويدرسوا كلف الشمس. واتخذوا كرية الأرض أساسًا بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار في وقت واحد. وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلاً وثلثي ميل - وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا في الوقت الحاضر، ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل. ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئًا إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارِب العلميَّة، وكانوا يسيرون في بحوثهم على قواعد علمية خالصة»[(٤)].

---

(١) هرمس الحكيم: شخصية إغريقية اختلطت فيها الحقيقة بالأساطير.

(٢) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص٣٤٨.

(٣) زيجريد هونكه: شمس العرب ص١١٨، ١١٩.

(٤) قصة الحضارة ١٣/ ١٨٢.

والإنجاز الحقيقي أن الحضارة الإسلامية بعد حفظ علم الأمم السابقة، وتصحيح ما كان فيه من أغلاط؛ هو تحويل ذلك العلم من الحيِّز النظري إلى مجال التجارِب العمليَّة، وتطهيره ممَّا شابه مما كان يعتقده العرب في الجاهلية من الدجل والشعوذة، الذي واكب ظهور علم التنجيم في الأمم السابقة؛ حيث أبطلت الشريعة الإسلامية التنجيم وأنكرته، واعتبرته مخالفًا لعقيدة الإسلام.

وأهم ما يؤكد هذا هو كثرة بناء المراصد الضخمة والمزوَّدة بالآلات المتنوِّعة والعلماء المتفرِّغين، والتي كانت مبثوثة في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه؛ فبخلاف المراصد التي أنشأها المأمون على جبل قَاسيون[1] في دمشق، وفي الشماسيَّة في بغداد، فقد توالى بعد ذلك إنشاء المراصد في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي؛ فأقام أبناء موسى بن شاكر مرصدًا في بغداد، وفيه استخرجوا حساب العرض الأكبر، وكان مرصد مراغة ببلاد فارس الذي بناه نصير الدين الطوسي من أشهر المراصد وأكبرها، واشتهر بآلاته الدقيقة وتفوُّق المشتغلين فيه، وقد امتازت أرصاد هذه المراصد بالدقَّة، واعتمد عليها علماء أوربا في عصر النهضة وما بعده في بحوثهم الفلكيَّة. وإلى جانب هذه المراصد كانت توجد مراصد أخرى، مثل: مرصد ابن الشاطر[2] بالشام، ومرصد الدِّينَوَرِيِّ بأصبهان، ومرصد ألغ بك[3] بسمرقند، وغيرها كثير[4].

وقد استعان العلماء المسلمون في هذه المراصد بآلات وأجهزة ومعدات غاية في الدقَّة وجمال الصنعة يعرفون بها الظواهر الفلكيَّة، وكثير من هذه الآلات كان من اختراع علماء المسلمين ولم تُعرف من قبلهم، وذلك مثل: ذات الأوتار، وذات الحلق، وآلة الربع المجيب، والربع المقنطر، وذات الشعبتين، وذات السمت والارتفاع والحلقة الاعتداليَّة،

---

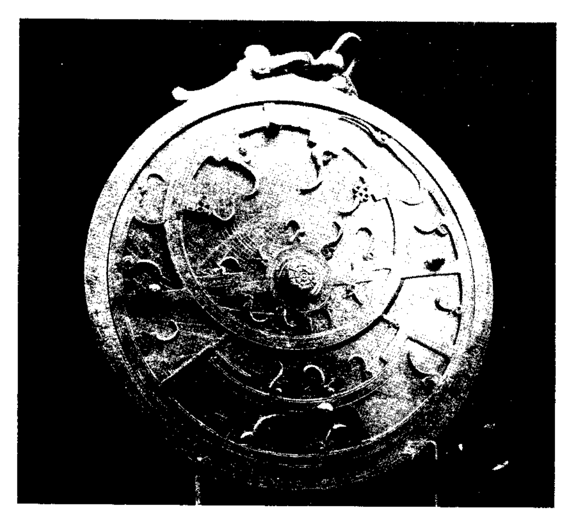
(١) قاسيون: جبل مشرف على دمشق، فيه عدة مغاور وفيها آثار الأنبياء. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٢٩٥.

(٢) ابن الشاطر: أبو الحسن علاء الدين علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الدمشقي المؤذن، المعروف بابن الشاطر (٧٠٤ - ٧٧٧هـ/ ١٣٠٤ - ١٣٧٥م)، كان رئيس المؤذنين بدمشق، من كتبه «إيضاح المغيب في العمل بالربع المجيب» ورسالة «الأسطرلاب». انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤/ ٩.

(٣) ألغ بك: محمد طرغاي بن شاه رخ بن تيمور لنك، رابع حكام الأسرة التيمورية في هراة (٧٩٦هـ - ٨٥٣هـ/ ١٣٩٣م - ١٤٤٩م)، وكان ماهرا في العلوم الرياضية. انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٣٢٨.

(٤) انظر دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص٧٤-٨٢، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٨١، ٨٢.

وأنواع مختلفة من المزاول والمشخصات لقياس الوقت[١]. كما استعان المسلمون أيضًا بآلات من اختراع الحضارات السابقة، وذلك مثل **الأَسْطُرْلاَب**، الذي احتفظ باسمه اليوناني، وقد طوَّره المسلمون وصنعوا منه نماذج عديدة تتَّفق مع اكتشافاتهم الفلكيَّة، فاخترعوا الأسطرلاب الكرويّ، وأيضًا الزورقيّ، وما زالت كثير من متاحف العلماء تحتفظ بنماذج من هذه الأسطرلابات، وهي تستخدم في قياس ارتفاعات الكواكب عن الأفق، وتعيين الزمن[٢].



صورة (١٥) الأسطرْلاب

وقد نبغ المسلمون في عمل **الأزياج** لحساب الأجرام السماويَّة، وهي من أهمِّ مستلزمات الرصد الفلكي، والزِّيج عبارة عن جداول رياضية عددية، تحدِّد مواضع الكواكب السيَّارة في أفلاكها، وقواعد معرفة الشهور والأيَّام والتواريخ الماضيَّة، والوقوف على أوضاع الكواكب من حيث الارتفاع، والانخفاض، والميول، والحركات، وتعتمد هذه الجداول على قواعد حسابيَّة وقوانين عدديَّة في منتهى الدقَّة، ومن أشهر الأزياج زِيجُ ابن يونس[٣] لعلي بن عبد الرحمن بن يونس[٤].

هذا، وقد اشتهر من علماء الفلك المسلمين عدد غير قليل، نبغوا في هذا العلم وكانوا فيه سادة لمن أَتَوْا بعدهم، فكان منهم الفرغاني، الذي ظلَّ كتابه في الفلك مرجعًا تعتمد

---

(١) صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٩٢ وما بعدها.

(٢) انظر: دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص٧٥، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٨٢، ٨٣، وعلي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١٥٠.

(٣) ابن يونس: هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن يونس (ت ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م) فلكي، من مصنفاته: (الزيج الحاكمي)، ويُعرف (بزيج ابن يونس)، وتوفي بالقاهرة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٢٩.

(٤) انظر: صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٥١.

عليه أوربا وغربي آسيا سبعمائة عام»[١].

كما كان منهم **البَتَّاني** صاحب (الزيج الصابي) المشهور الذي أحدث تأثيرًا كبيرًا في علم الفلك، فكان من الذين حقَّقُوا مواقع كثير من النجوم، وصحَّح بعض حركات القمر والكواكب السيَّارة، وخالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي، كما صحح البتاني نفسه طول السنة الشمسيَّة؛ وقد تُرْجِمَ كتابه المذكور إلى اللاتينيَّة في القرن الثاني عشر الميلادي، كما طُبِعَ في أوربا عِدَّة طبعات، ويُعَدُّ هذا الكتاب دائرة معارف فلكيَّة، وللبتاني من المصنفات في الفلك أيضًا كتاب (معرفة مطالع النجوم)، وكتاب (تعديل الكواكب)[٢].

ويُعَدُّ **عبد الرحمن الصوفي**[٣] أول مَنْ وضع جداول دقيقة للنجوم الثوابت، وصنَّف في ذلك كتابًا بعنوان الكواكب الثابتة، أوضح فيه النجوم الثابتة لعام (٢٩٩هـ/ ٩١١م)، وهذه الجداول مهمَّة حتى في العصر الحديث؛ لمن أراد البحث في تاريخ بعض الكواكب ومواقعها وحركاتها، لقد رسم فيه أكثر من ١٠٠٠ نجم، ولمكانته العلمية فلقد أُطلق اسمه على مراكز على سطح القمر[٤].

أما **أبو الوفاء البوزجاني**[٥] فقد اكتشف إحدى المعادلات لتقويم مواقع القمر سُمِّيت معادلة السرعة، ومن أهمِّ إسهاماته في علم الفلك اكتشافه للخلل في حركة القمر، وهو الاكتشاف الذي أدَّى فيما بعد إلى اتِّساع نطاق عِلْمَي الفلك والميكانيكا، وقد ظلَّ المؤرِّخون مختلفين فيما إذا كان تيخو براهي[٦] الفلكي الدنماركي هو صاحب هذا

(١) قصة الحضارة ١٣/ ١٨٢.

(٢) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٠٦ وما بعدها، وجلال مظهر: حضارة الإسلام ص٣٦٤، ٣٦٥، وشوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٥٤٣.

(٣) عبد الرحمن الصوفي: هو أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر بن سهل الرازي (٢٩١- ٣٧٦ هـ/ ٩٠٣- ٩٨٦م) عالم بالفلك، من أهل الري، من كتبه: (الكواكب الثابتة). انظر: القفطي: إخبار العلماء ص١٥٢، ١٥٣.

(٤) انظر: شوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الحديثة، ط١، دار الفكر - دمشق، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٧٣.

(٥) أبو الوفاء البوزجاني: هو أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل (٣٢٨- ٣٨٨هـ/ ٩٤٠- ٩٩٨م) مهندس فلكي رياضي، ولد في بوزجان بخراسان، وتوفي ببغداد. من كتبه: (تفسير كتاب ديوفنطس) في الجبر. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٦٧.

(٦) تيخو براهي (Tycho Brahe): هو الفلكي الدنماركي الشهير (١٥٤٦-١٦٠١م) الذي أنشأ مرصدًا في يوراني بورج Uran Borg قرب ساحل الدنمارك، وقد تبنَّى نظامًا تدور فيه كل الكواكب السيارة حول الشمس التي افتُرِض دورانها حول الأرض.

الاكتشاف أم البوزجاني، إلى أن ثبت حديثًا بعد التحريات الدقيقة أن الخلل الثالث هو من اكتشاف البوزجاني[١].

وكذلك كان **أبو إسحاق النقاش الزرقالي**[٢] من أشهر الفلكيين والرياضيين، وهو واضع ما سمِّي في الفلك باللوائح الطليطليَّة نسبة إلى مدينة طليطلة في الأندلس، وبنى هذه اللوائح على المعارف التي استقاها ممن سبقه من العلماء كبطليموس والخوارزمي وغيرهما، وقد سجَّل في هذه اللوائح نتائج إرصاداته الفلكيَّة، وله كتاب (الصحيفة الزيجيَّة) بيَّن فيه استعمال الأَسْطُرلاَب على نحو جديد، واخترع على منوال الأسطرلاب آلة سمِّيت بالصفيحة أو الزرقالة، وهو أول مَنْ جاء بدليل على أن حركة ميل أوج الشمس بالنسبة للنجوم الثوابت تبلغ ٠٥ , ١٢دقيقة، بَيْدَ أن الرقم الحقيقي هو ١٢.٨ دقيقة[٣].

ويُعَدُّ **أبو اليسر بهاء الدين الخرقي**[٤] من أشهر المشتغلين بعلم الفلك في القرن السادس الهجري، كما برع في الرياضيات والجغرافيا، وأشهر مصنَّفاته في الفلك: (التبصرة)[٥]، و(منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك)[٦].

أما **البديع الأسطرلابي**[٧] (ت ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) فقد برع في صنع الآلات الفلكيَّة، فمن آثاره جداول فلكيَّة أنجزها في قصر السلطان السلجوقي ببغداد، ووضعها في كتاب

---

(١) قدري طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص٢٣٢، انظر: أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص٣٥٥.

(٢) الزرقالي: أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى التجيبي النقاش (٤٢٠هـ- ٤٨٠هـ/ ١٠٢٩م- ١٠٨٧م)، فلكي ومخترع للعديد من الآلات، وممن أدخل تحسينات على الأسطرلاب، من كتبه (الصحيفة الزرقالية) عن الإسطرلاب.

(٣) انظر: علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٠٩، وشوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٥٤٤.

(٤) الخرقي: هو بهاء الدين محمد بن أحمد بن أبو بكر الخرقي (٤٦٩- ٥٣٣هـ/ ١٠٧٦- ١١٣٩م) كان فلكيًّا وجغرافيًّا، مقربًا من شاهات خوارزم وفلكي بلاطهم. من تصانيفه: «منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك». انظر: كحالة: معجم المؤلفين ٨/ ٢٣٨.

(٥) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٣٣٨، وعلي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢١٨.

(٦) حاجي خليفة: كشف الظنون ٢/ ١٨٥٢.

(٧) البديع الأسطرلابي: هو أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن يوسف البغدادي (ت ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) فيلسوف من علماء الأطباء، ومن كبار علماء الفلك، له كتاب في «الزيج» سماه (المعرب المحمودي). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٧/ ١٦٠.

سمَّاه الزيج المحمودي نسبة إلى السلطان محمود أبي القاسم بن محمد[١].

هذا، وقد ظلَّت رسائل **ابن الشاطر** (ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) المتخصِّصة في علم الفلك، وكذا الآلات التي قام بصنعها متداولة عدَّة قرون في الشرق والغرب، ومن أهمِّ آثاره في الفلك: زيج ابن الشاطر (إيضاح المغيَّب في العمل بالربع المجيَّب)؛ و(رسالة في الأسطرلاب)؛ و(مختصر في العمل بالأَسْطُرْلاَب)؛ و(النفع العام في العمل بالربع التام)؛ و(نزهة السامع في العمل بالربع الجامع)؛ و(كفاية القنوع في العمل بالربع المقطوع)؛ و(الزيج الجديد) وقد وضعه بطلب من مراد الأول الخليفة العثماني، وقدَّم ابن الشاطر فيه نماذج فلكيَّة ونظريات وقياسات لم يُسْبَق إليها، إلا أنها ظهرت فيما بعد باسم كوبرنيكس، واكتشف ديفيد كينج[٢] عام (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) أن كثيرًا من النظريات المنسوبة لكوبرنيكس البولندي هي لابن الشاطر، وبعد ذلك بثلاثة أعوام (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) عُثِرَ على مخطوطات عربيَّة في بولندا اتَّضح منها أن كوبرنيكس قد اطَّلع عليها[٣].

أما أولغ بك فقد رعى رجال العلم، وشيَّد في سمرقند أعظم مرصد في ذاك العصر. وقال أحد كُتَّاب السير المنمِّقين من المسلمين: «كان عالمًا، عادلاً، بارعًا نشيطًا، على درجة كبيرة من المعرفة بعلم الفلك، على حين أنه في علوم البلاغة كان شديد التدقيق». وسمت مكانة رجال العلم في عصره إلى ذروتها. وفي الهندسة فسر أدق المسائل، أما في علم الظواهر الكونية (الكوزموجرافيا) فقد شرح كتاب بطليموس، ولم يجلس على العرش ملك مثله قَطُّ حتى اليوم، وسجل ملاحظات عن النجوم بالتعاون مع العلماء الأوَّلين، وأسس في سمرقند كليةً لا يمكن أن يُوجَد لها في الأقاليم المتاخمة السبعة مثيلٌ من جمالها ومكانتها وقيمتها[٤].

وتمكَّن أولغ بك أثناء عمله مع فريق الرصد من ابتكار آلات جديدة، واستمرَّت إرصاداته من عام (٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م) إلى عام (٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م)، وقد أخرج منها زيجًا

---

(١) انظر: الباباني: هداية العارفين ص٧١٤.

(٢) ديفيد كينج: الأستاذ بجامعة جوتة بولاية فرانكفورت بألمانيا (ت١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

(٣) انظر: الباباني: المصدر السابق ص٣٨٧، وحاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٨١، وعلي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٣٦-٢٣٨.

(٤) قصة الحضارة ٢٦/ ٥١.

شاملاً سمِّي زيج أولغ بك أو السلطاني، حَسَب فيه مواقع النجوم بدقَّة بالغة، وكذلك الخسوف والكسوف، ووضع الجداول للنجوم الثابتة، ولحركات الشمس والقمر والكواكب، ولخطوط الطول والعرض لأهمِّ المدن الإسلاميَّة(١).

أما **الروداني شمس الدين الفاسي**(٢) (ت ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م) فيُعتبر من علماء المسلمين المتأخِّرين الذين استعانوا بنتاج علماء المسلمين الأوائل في مجال علم الفلك، وقد اخترع آلة كروية الشكل تبيِّن التوقيت؛ وعليها دوائر ورسوم مدهونة بالبياض المُمَوَّه بدهن الكتَّان، وقد رُكِّبت عليها كرة أخرى مقسومة نصفين وفيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها، وهي مستديرة كالتي تحتها ومصبوغة بلون أخضر، وكانت سهلة الاستعمال صالحة لبيان الأوقات في كل البلدان، وقد ألَّف لها رسالة بيِّن فيها كيفيَّة صنعها واستخدامها(٣).

وختامًا، وعلى نحو ما رأينا، فإنَّ ما قام به علماء المسلمين في مجال علم الفلك -مع الوضع في الحسبان قلَّة الوسائل العلميَّة المتاحة آنذاك- هو جدير بكل تقدير واحترام، وليس أدلّ على ما وصلوا إليه أن الكثير من النجوم لا يزال يحمل أسماء عربية؛ مثل: سُهَيل، والمجرة، والجوزاء، والدب الأكبر، والدب الأصغر، والغول، والسَّمْت، وغيرها الكثير.

***

---

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٤٣-٢٤٦.

(٢) الرُّوداني: هو أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الفاسي (١٠٣٧- ١٠٩٤هـ/ ١٦٢٧- ١٦٨٣م) محدث مغربي مالكي، عالم بالفلك، رحَّال. من مؤلفاته: (تحفة أولي الألباب في العمل بالأسطرلاب). انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ١٥١.

(٣) انظر: البابانى: هداية العارفين ص٦٠٧، وعلي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٤٨-٢٥٠.

الفصل الثاني

ابتكار علوم جديدة

جاء ظهور الإسلام رحمةً بالإنسانيَّة، ذلك الدين الذي دفع أتباعه إلى السبق والريادة؛ ما جعل الأمم المنصفة تشهد بفضلهم وسبقهم وتطوُّرهم الحضاري، التطوُّر الكامل المشتمل على جميع نواحي الحياة، وقد حضَّ القرآن الكريم المسلمين على التفكر والتدبُّر، وعدم التقيُّد بما جاء به الأوَّلون إلاَّ إذا ظهر فيه الخير بعد التفكير والتمحيص؛ فقال تعالى في معرض ذمِّه للكفَّار الذين يكتفون بالتقليد دون تفكير: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾**[1].

وإن هذا المنهج -الذي يحثُّ على إعادة النظر في كل الأمور وَفْق المنطق السليم، والتفكير المؤيَّد بأدلَّة- هو الذي دفع رسول الله ﷺ مثلاً إلى قَبُول فكرة حفر الخندق في موقعة الأَحْزَاب، مع كونها جديدة تمامًا على المجتمع العربي، ومن ثَمَّ فلم يتقيَّد رسول الله ﷺ بالقوالب العسكريَّة الجامدة التي أَلِفَها العرب لعدَّة قرون.

وقد ورث العلماء المسلمون هذا المنهج، ومِن ثَمَّ لم يتقيَّدوا بالأُطُر العلميَّة السابقة، والتي كُوِّنت في الحضارات التي سبقت الإسلام، وهذا أدَّى إلى فكر إبداعي لم يكتفِ بإضافة ابتكارات في مجالات العلوم المختلفة، بل وصل إلى ابتكار علوم جديدة من الأساس، وهي كما في المباحث التالية:

- **المبحث الأول: الكيمياء**
- **المبحث الثاني: الصيدلة**
- **المبحث الثالث: الجيولوجيا**
- **المبحث الرابع: الجبر**
- **المبحث الخامس: الميكانيكا**

---

(١) (البقرة: ١٧٠).

المبحث الأول

الكيميـــــــاء

لم تكن الكيمياء قبل الحضارة الإسلامية سوى محاولات فاشلة لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وفضة، معتمِدة في ذلك على العقل والاستدلال المنطقي، ومُنَحِّية المنهج العلمي القائم على التجربة والملاحظة جانبًا.

وظلَّت الكيمياء على ذلك حتى ظهر علماء المسلمين الذين أَسَّسوا للمنهج العلمي الدقيق، واستندوا إلى التجرِبة العلميَّة وإشراك الحس والعقل معًا في الوصول إلى الحقائق العلميَّة في هذا الحقل من العلوم بالذات، فكان أن نشأ علم الكيمياء بقواعده وأصوله، وكان جابر بن حيان أول عالم يؤسِّس هذا العلم الكبير، حتى بات يُعرَف هذا العلم في أوربا ولعدَّة قرون (بصنعة جابر).

فجابر بن حيان هو الذي جعل التجرِبة أساس العمل، ولذلك يُعَدُّ أوَّل مَنْ أدخل التجرِبة العلميَّة المخبريَّة في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده؛ وتراه في ذلك يدعو إلى الاهتمام بالتجرِبة ودقَّة الملاحظة، تلك التي يقوم عليها المنهج التجريبي، فيقول: «ومِلاكُ كمال هذه الصنعة العملُ والتجرِبة؛ فمَن لم يعمل ولم يُجرِّب لم يظفر بشيء أبدًا»[1].

يقول ديورانت: «يكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علمًا من العلوم؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان -على ما نعلم- على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة؛ فقد اخترعوا الإنبيق وسمَّوه بهذا الاسم، وحللوا عددًا لا يُحصى من المواد تحليلاً كيميائيًّا، ووضعوا مؤلفات في الحجارة، وميزوا بين القلويات والأحماض، وفحصوا عن المواد التي تميل إليها، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية، وركّبوا مئات منها. وكان علم تحوُّل المعادن إلى ذهب، الذي أخذه المسلمون من مصر هو الذي أوصلهم إلى

---

(١) جابر بن حيان: كتاب التجريد، ضمن مجموعة حقَّقها ونشرها هوليارد بعنوان: مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر ابن حيان، باريس ١٩٢٨م.

علم الكيمياء الحق، عن طريق مئات الكشوف التي يبينوها مصادفة، وبفضل الطريقة التي جروا عليها في اشتغالهم بهذا العلم، وهي أكثر طرق العصور الوسطى انطباقًا على الوسائل العلميَّة الصحيحة»[1].

وبَدْء ظهور علم الكيمياء يمثله ظهور خالد بن يزيد الذي تتلمذ للراهب الرومي مريانوس وتعلَّم منه صنعة الطبِّ والكيمياء، والذي انتقلت معه الكيمياء من طور البدايات المترجمة عن اليونانيَّة إلى طور الإنجازات العينيَّة والاكتشافات الواضحة، وقد كان له فيها ثلاث رسائل؛ هي: (السر البديع في فك الرمز المنيع)، و(فردوس الحكمة في علم الكيمياء)، و(مقالتا مريانوس الراهب)، ذكر فيه ما كان بينه وبين مريانوس، وكيف تعلَّم منه الرموز التي أشار إليها[2].

صورة (١٦) كتاب السر السار لجابر بن حياز

أمَّا جابر فكان مؤسِّس العلم بلا جدال وأشهر علماء المسلمين فيه، وقد ألف كتبًا كثيرة تُرجم الكثير منها إلى اللاتينيَّة، وظلَّت المرجع الأوفى للكيمياء زُهاء ألف عام، وقد اشتملت على كثير من المركَّبات الكيميائية التي لم تكن معروفة من قبل، وهو الأمر الذي جعل مؤلَّفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب، أمثال: كوب، وبرثولية، وكراوس، وهوليارد الذي أنصفه ووضعه في القمَّة، وبدَّد الشكوك التي أثارها حوله العلماء المغرضون، وكذا سارتون الذي أرَّخ به لِحقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة.

---

(١) قصة الحضارة ١٣/ ١٨٧.

(٢) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٢٤، ومحمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٦.

وقد تتلمذ الرازي (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م) على كتب جابر فساهم هو الآخر بصورة عظيمة في تأسيس علم الكيمياء، وقد دوّن ذلك في مقدِّمة كتابه (سر الأسرار) فقال: «وشرحنا في هذا الكتاب ما سطرته القدماء من الفلاسفة مثل: أغاثا ديموس، وهرمس، وأرسطوطاليس، وخالد بن يزيد بن معاوية، وأستاذنا جابر بن حيان، بل وفيه أبواب لم يُرَ مثلها، وكتابي هذا مشتمل على معرفة معادن ثلاثة: معرفة العقاقير، ومعرفة الآلات، ومعرفة التدابير (التجارِب)»[1].

وبصفة عامَّة فقد كشف المسلمون أهمَّ أُسُس الكيمياء وأسرارها، وكان من أهمِّ اختراعاتهم فيها ماء الفضة (حامض النيتريك)، وزيت الزاج (حامض الكبريتيك)، وماء الذهب (حامض النيترو هيدرو كلوريك)، وحجر جهنم (نترات الفضة)، والسليماني (كلوريد الزئبق)، والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق)، وملح البارود (كربونات البوتاسيوم)، وكربونات الصوديوم، والزاج الأخضر (كبريتيد الحديد)، واكتشفوا: الكحول، والبوتاس، وروح النشادر، والزرنيخ، والإثمد، والقلويات التي دخلت إلى اللغات الأوربية باسمها العربي (Alkaki)[2].

وهم الذين استخدموا ذلك العلم في المعالجات الطبيَّة وصُنْعِ العقاقير، فكانوا أوَّل من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنيَّة وتنقية المعادن، وغير ذلك من المركَّبات والمكتشفات التي تقوم عليها كثير من الصناعات الحديثة؛ مثل: الصابون، والورق، والحرير، والأصباغ، والمفرقعات، ودبغ الجلود، واستخراج الروائح العطريَّة، وصنع الفولاذ، وصقل المعادن، وغيرها. وقد اعتمدوا في تجاربهم على عِدَّة آلات ووسائل كيميائية، مثل: الإنبيق، والميزان الذي كان مهمًّا للغاية؛ حتى يحدِّدوا النِّسَبَ بين الموادِّ والعَلاقات الوزنيَّة[3].

* * *

(١) نقلاً عن علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٧٧.
(٢) انظر: دونالد ر. هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا ص١٢٠-١٢٦.
(٣) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٥٩.

المبحث الثاني

الصيدلة

كان نبوغ المسلمين في الكيمياء سببًا في تمكُّنهم من تحقيق إنجازات مهمَّة في فروع المعرفة المتَّصلة بهذا العلم، وخاصَّة في علم الصيدلة؛ وذلك لأن الأدوية تحتاج إلى معالجة ودراية بالمعادلات والقوانين الكيميائيَّة؛ ومن ثَمَّ فقد ظهرت الأدوية الكيميائية بصورة فعَّالة، وانفتحت أبواب عصر جديد في فنِّ العلاج على مصراعيها.

والحقُّ أن الصيدلة كانت من العلوم التي جذبت عظيم انتباه علماء المسلمين، فاستطاعوا أن يميِّزوا عصر حضارتهم باعتباره أوَّل عصر من عصور الحضارة عُرِفَتْ فيه المركَّبات الدوائيَّة بصورة علميَّة وفعَّالة وبطريقة جديدة، حتى - يقول جوستاف لوبون - نستطيع أن ننسب بلا أدنى حرج علم الصيدلة إليهم، ونقول إنه اختراع عربي (إسلامي) أصيل[(١)]؛ فقد أضافوا إلى الأدوية التي كانت معروفة قبلهم مركَّبات عديدة من اختراعهم، وألَّفوا أوَّل كتب في العقاقير[(٢)].

وقد أخذ المسلمون في بدايتهم لهذا العلم عن اليونان؛ حيث اعتنوا بكتاب (المادَّة الطبيَّة في الحشائش والأدوية المفردة)، الذي وضعه ديسقوريدس العين زربي (٨٠م)، وترجموه عدَّة مرَّات؛ أشهرها اثنتان: ترجمة حنين بن إسحاق في بغداد، وترجمة أبي عبد الله الصقلِّي في قرطبة. وفي وقت لاحق قام الصيادلة المسلمون -بفضل خبرتهم وممارستهم- بالزيادة على هذا الكتاب، واستدراك ما فات ديسقوريدس؛ ومن ثَمَّ بدأ التأليف والتصنيف بغزارة في الصيدلة وعلم النبات، وكان من ذلك (معجم النبات) لأبي حنيفة الدِّينَوَرِيِّ[(٣)]، و(الفلاحة النبطية) لابن وحشية[(٤)]، و(الفلاحة الأندلسيَّة) لابن العوام الإشبيلي[(٥)]، فقد

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٩٤.

(٢) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٦.

(٣) أبو حنيفة الدينوري: أحمد بن داود بن ونَنْد الدينوري (ت ٢٨٢هـ ٨٩٥م) من النوابغ مهندس وفيلسوف ومؤرخ نباتي. انظر الزركلي: الأعلام ١/ ١٢٣.

(٤) ابن الوحشية: أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن المختار بن عبد الكريم بن حرثيا (ت ٣١٨هـ/ ٩٣٠م)، عالم بالكيمياء ينسب إليه الاشتغال بالسحر ويلقب بالصوفي. انظر الزركلي: الأعلام ١/ ١٧٠.

(٥) ابن العوام الإشبيلي: هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد (ت ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م) عالم أندلسي، اشتهر بكتابه (الفلاحة الأندلسية)، قسم منه تُرجم إلى اللغتين الإسبانية والفرنسية. انظر: الزركلي: الأعلام ٨/ ١٦٥.

استفاد المصنِّفون في علم الأدوية كثيرًا من هذه الكتب وأمثالها.

ويكمن سرُّ تأصيل هذا العلم ونسبته إلى المسلمين في أن «العرب كانوا يقيمون في بلدٍ ذي جو صالح لغرس النخيل... وفي تلك المنطقة حيث تنبت الأشجار الحمضية بقوَّة عجيبة، تبصر النبات يخرج الأفاويه والرُّب البلسمي، والمواد التي تنفع الإنسان وتضره، فنجم عن ذلك منذ وقت باكر، أن استوقف نظر أولئك القوم ما تنبته أراضيهم وما تصدره شواطئ ملبار وسيلان وإفريقيا الشرقية التي كانت لهم صلات تجارية بها... فكان يجب أن يُميز من المحاصيل ما هو نافع للطب وللصناعة»[1].

واستجابةً لمثل هذه الحميَّة جرت بعضُ محاولات للاستفادة من الأعشاب المحلِّيَّة؛ كان من بينها في بادئ الأمر تصنيف ما يشبه المعاجم على هيئة جداول، تحتوي على أسماء النباتات المختلفة باللغات العربيَّة، واليونانيَّة، والسريانيَّة، والفارسيَّة، والبربريَّة وتشرح أسماء الأدوية المفردة، ومن المحاولات التطبيقيَّة في هذا المجال ما قام به رشيد الدين الصوري[2]، الذي كان يخرج إلى المواضع التي بها النباتات يرافقه رسَّام، فيشاهد النبات ويسجلِّه، ثم يُرِيه للرسام في المرَّة الأولى وهو في طَوْر الإنبات أو لا يزال غضًّا، ثم يريه إيَّاه في المرَّة الثانية بعد اكتماله وظهور بذره، وفي الثالثة بعد نضجه ويبسه، ويقوم الرسام بتصويره في جميع هذه الأطوار[3].

ولعلَّ من أهم مآثر المسلمين في بدايتهم لهذا العلم أنهم أدخلوا نظام الحِسْبَة ومراقبة الأدوية[4]، ونقلوا المهنة من تجارة حُرَّة يعمل فيها مَنْ يشاء، إلى مهنة خاضعة لمراقبة الدولة، وكان ذلك في عهد المأمون، وقد دعاه إلى ذلك أن بعضًا من مزاولي مهنة الصيدلة كانوا غير أمينين ومدلّسين، ومنهم من ادَّعى أن لديه كل الأدوية، ويعطون للمرضى أدوية كيفما اتَّفَقَ؛ نظرًا لجهل المريض بأنواع الدواء؛ لذا أمر المأمون بعقد امتحان أمانة الصيادلة، ثم أمر المعتصم من بعده (ت ٢٢٧هـ) أن يمنح الصيدلاني الذي تثبت أمانته

---

(١) لويس سيديو: تاريخ العرب العام ص٣٨١.

(٢) رشيد الدين الصوري: هو رشيد الدين بن أبي الفضل بن علي (٥٧٣- ٦٣٩هـ/ ١١٧٧- ١٢٤١م) عالم بالنبات والطب، صحب الملك العادل الأيوبي، ولد في مدينة صور، وتوفي بدمشق. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤/ ٨٤.

(٣) انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ٢١٩.

(٤) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣١٢.

وحذقه شهادة تجيز له العمل، وبذا دخلت الصيدلة تحت النظام الشامل للحسبة، وقد انتقل هذا النظام إلى أنحاء أوربا في عهد فريدريك الثاني (٦٠٧-٦٤٨هـ/ ١٢١٠-١٢٥٠م)، ولا تزال كلمة مُحْتَسِب مستخدمة في الإسبانيَّة بلفظها العربي حتى الوقت الراهن.

«وكانت الحكومة تراقب تلك الصناعة الضرورية لرفاهية أبناء البلاد، وكان الصيادلة مسئولين عن صلاح الأدوية واعتدال أثمانها، ووصف التاريخ القائد الأفشين وهو يزور صيدليات الأرياف بنفسه ليستوثق من اشتمالها على جميع المواد الطبية»[1]، وبذلك كان المسلمون أوَّل من أنشأ فنَّ الصيدلة على أساس علمي سليم، وأقاموا الرقابة على الصيدليات والصيادلة من خلال وظيفة الحسبة[2].

يقول ماكس مايرهوف: «كانت الرسائل المؤلَّفة في علم الصيدلة خلال هذا العصر لا تُحصى، وهي إما الأدوية المفردة، وأشهر من كَتَب فيها بلا منازع هو ابن البيطار، أو في الأدوية المركبة... ألف ابن البيطار كتاب (جامع مفردات الأدوية)، وكان يجلب أنواع النبات والأدوية من ساحل البحر المتوسط وإسبانيا وسوريا ويدرسها. ووصف في كتابه ١٤٠٠ عقار طبي، وقارنها بأوصاف أكثر من ١٥٠ عالمًا عربيًّا، فكان ثمرة ناضجة لعمق الدراسة، ودقة الملاحظة، وسعة الاطّلاع، ويعدّ أعظم من ألّف بالعربية عن النبات»[3].

وبازدهار صناعة الصيدلة وجد الصيادلة المسلمون مجالاً خصبًا للإبداع، الذي انتهوا فيه إلى تركيب عقاقير من البيئة المحليَّة ذات أوزان معلومة مبسَّطة، وقطعوا شوطًا كبيرًا عندما استفادوا من علم الكيمياء في إيجاد أدوية جديدة ذات أثر في شفاء بعض الأمراض؛ كاستخراج الكحول، ومركبات الزئبق، وملح النشادر، واختراع الأشربة والمستحلبات والخلاصات الفطريَّة، إضافةً إلى ذلك قادهم البحث الجادُّ إلى تصنيف الأدوية استنادًا إلى مَنْشَئِهَا وقوَّتها، كما قادتهم تجارِبهم إلى أدوية نباتيَّة جديدة لم تكن معروفةً من قبلُ؛

---

(١) لويس سيديو: تاريخ العرب العام ص٣٨٢.

(٢) انظر: مبحث إدارة المستشفيات والمراقبة الصحية في المجتمع الإسلامي، لجرجيس فتح الله، منشور في تراث الإسلام بإشراف أرنولد ص٥١٢.

(٣) ماكس مايرهوف: مبحث الطب، منشور في تراث الإسلام بإشراف أرنولد ص٤٨٥.

كالكافور، والحنظل، والحنَّاء[١].

وقد قادت غزارة التصنيف في كُتُب الصيدلة -والبحث الدءُوب الذي كشف عن عقاقير جديدة، إضافةً إلى ما هو موجود أصلاً- إلى أهميَّة تقسيم هذه العقاقير وَفق معايير ارتآها المؤلِّفون أو الصيادلة، ونجد الأمثلة على ذلك واضحة في (الحاوي) للرازي، و(الصيدلة في الطب) للبيروني، و(كامل الصناعة) لعلي بن عباس، و(القانون) لابن سينا.

ومن أمثلة ذلك تصنيف الرازي، والذي وضع أُسسًا صحيحة لعدَّة علوم صيدلانية، بيَّن أوصافها، وطرق تحضيرها، وكشْف غِشِّها، وقُواها، وبدائلها، والمدَّة الزمنيَّة التي يمكن أن تُحْفَظَ خلالها؛ فقد صنَّف العقاقير إلى أربعة أقسام: ١- مواد ترابيَّة (معادن). ٢- مواد نباتيَّة. ٣- مواد حيوانيَّة. ٤- عقاقير مولَّدة (مشتقات).

وفي عمليات تحضير العقاقير وتركيبها استخدم الصيادلة المسلمون طرقًا مبتكرة، ظلَّ بعضها معمولاً به حتى الوقت الحاضر منها: ١- **التقطير**: لفصل السوائل. ٢- **الملغمة**: لمزج الزئبق بالمعادن الأخرى. ٣- **التسامي**: لتحويل الموادِّ الصلبة إلى بخار، ثم إلى حالة الصلابة ثانيةً دون المرور بحالة السيولة. ٥- **التبلُّور**: لفصل بلورات الموادِّ المذابة. ٦- **التكيس**: عملية الأكسدة العادية[٢].

وممَّا يُعَدُّ من إبداعات المسلمين وابتكاراتهم في هذا العلم أنهم استطاعوا أن يُمزِجوا الأدوية بالعسل تارةً، وبالسكر والعصير تارةً أخرى؛ وفضَّل العرب السكر على العسل خلافًا للقدماء؛ فأدى ذلك إلى كثيرٍ من المستحضرات الطبية النافعة[٣].

واستخدم الرازي الزئبق في تركيب المراهم لأوَّل مرَّة، وجرَّب مفعوله على القردة، كما أن الأطباء المسلمين أوَّل من وصف بذور شجرة البُنِّ دواءً للقلب، ووصفوا حبوب البن (القهوة المطحونة) علاجًا لالتهاب اللوزتين والدوسنتاريا (الزُّحار)، والجروح الملتهبة، ووصفوا الكافور لإنعاش القلب، كما خفَّفوا من قوَّة بعض العقاقير بإضافة

(١) انظر: قدري طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص٢٧.
(٢) انظر: علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص٢٥٧.
(٣) انظر: لويس سيديو: تاريخ العرب العام ص٢٨٣.

عصير الليمون والبرتقال بالإضافة إلى القرفة أو القرنفل، كما توصَّلوا إلى عمل الترياقات التي يتمُّ تركيبها من عشرات وأحيانًا من مئات العقاقير، وحسَّنوا تركيب الأفيون والزئبق، واستخدموا الحشيش والأفيون وغيرهما في التخدير[1].



صورة (١٧) كتاب ابن البيطار

ولقد كتب العلماء المسلمون في الأدوية مؤلَّفات عدَّة، لعلَّ من أهمِّها **(الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)** لعبد الله بن أحمد المالقي المعروف بابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، الذي كان يعاين منابت النبات، ويتحقَّق من هويته قبل أن يدوِّنه، وقد جمع في كتابه هذا معلومات يونانيَّة، ووصف فيه نحو ألف وخمسمائة عقار طبي؛ بين نباتي وحيواني ومعدني، وذكر طريقة استعماله، وجعلها مرتَّبة طبقًا لحروف المعجم ليَسْهُل الرجوع إليه، وأودعه مقدِّمة تعكس المنهج التجريبي الذي اتَّبعه في تدوين المعلومات التي جمعها؛ فقد ورد في الغرض الثاني من وضعه الكتاب قوله: «صحَّة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرِّره عن المتأخِّرين؛ فما صحَّ عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لديَّ بالخُبْر لا بالخَبَر، ادخرته كَنْزًا سريًّا، وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنيًّا، والتنبيه على كل دواء وقع فيه وَهْم أو غلط لمتقدِّم أو متأخِّر؛ لاعتماد أكثرهم على الصُّحُف والنقل، واعتمادي على التجرِبة والمشاهدة حسبما ذكرتُ من قبلُ»[2].

كما ألَّف أبو بكر الرازي كُتُبًا، منها: (منافع الأغذية)، و(صيدلية الطب)، و(الحاوي في التداوي)، وألَّف علي بن العباس غير كتاب (كامل الصناعة الطبيَّة) كتابه (الملكي)

---

(١) انظر: قدري طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص٢٧، ٢٨.

(٢) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٨، ٣٠٩، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٢٣.

الذي قصر جزأه الثاني على الصيدلة، وجعله في ثلاثين بابًا، وألَّف أبو القاسم خلف بن عبّاس الزهراوي كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، خصَّص منه بابًا للعقاقير، وألَّف داود الأنطاكي[1] كتاب (تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب)، وألَّف كوهين العطار (منهاج الدكَّان ودستور الأعيان)، وألَّف ابن زهر الأندلسي[2] كتاب (الجامع في الأشربة والمعجونات)، وألَّف أبو عبد الله محمد الإدريسي (الجامع لصفات أشتات النباتات وضروب أنواع المفردات من الأشجار والأثمار والأصول والأزهار)، وألَّف أحمد بن محمد الغافقي (جامع الأدوية المفردة)، وللكندي اثنان وعشرون كتابًا في الطبِّ والصيدلة، ويُعْتَبَر (فردوس الحكمة) أهمَّ كتب الطبري في الصيدلة، وأقدم كتاب جامع لفنونها.

وكما يظهر فإنَّ علماء المسلمين لهم دور بارز في تأصيل قواعد علم الصيدلة وتطويره والتوسُّع فيه، وقد خصُّوه بالمؤلَّفات المسْتَقِلَّة، حتَّى أصبح علمًا حقيقيًّا.

***

---

(١) داود الأنطاكي: هو داود بن عمر الأنطاكي (ت ١٠٠٨هـ/ ١٦٠٠م) عالم بالطب والأدب، كان ضريرًا، انتهت إليه رياسة الأطباء في زمانه، وقد توفي في مكة، من مصنفاته: (تذكرة أولي الألباب). انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٨/ ٤١٥، ٤١٦.

(٢) ابن زهر الأندلسي: هو أبو مروان عبد الملك بن زهر بن عبد الملك الإشبيلي (٤٦٤- ٥٥٧هـ/ ١٠٧٢- ١١٦٢م) طبيب أندلسي من أهل إشبيلية، لم يكن في عصره من يماثله. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/ ١١٠.

المبحث الثالث

الجيولوجيا

جاء في كثير من آيات القرآن الكريم إشارات واضحة إلى علم طبقات الأرض (الجيولوجيا)، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[١]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾[٣]، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تحدَّثت عن هذا النوع من العلوم، والتي دفعت المسلمين إلى دراسته دراسة مستفيضة.

ولا ريب أن الإنسان القديم كان لديه شبه معرفة بالمعادن، وإن كانت معرفة بدائيَّة، أمَّا علماء اليونان فإن أرسطوطاليس (٣٨٣-٣٢٢ ق. م) قسَّم العالم إلى قسمين رئيسين: الأرض؛ وتتكوَّن من العناصر الأربعة: (الماء، والنار، والهواء، والتراب). والسماء؛ وتتكوَّن من الأثير، وبقيت آراء أرسطوطاليس متداولَة إلى أن جاء الإسلام الذي قضى على الخرافات والشعوذة والأساطير[٤].

فقد اتجه المسلمون إلى التأمُّل والاستنتاج والبحث عن الحقيقة بالطريقة العلميَّة الصحيحة، فنجحوا نجاحًا باهرًا في تفسير الظواهر الطبيعيَّة، ودراسة الصخور والجبال والمعادن، واستطاعوا أن يُعَلِّلوا كثيرًا من الظواهر الجيولوجيَّة مثل الزلازل والبراكين، والمدِّ والجزر، وتكوُّن الجبال والوديان، والسيول والأنهار والجداول، ولعل أول أثر مسجَّل لعلوم الأرض لدى المسلمين هو ما تحتويه المعاجم وكتب اللغة التي تزخر بمفردات هذا العلم، كالصِّحاح للجوهري، والقاموس للفيروزآبادي[٥]، والمخصَّص

---

(١) (فاطر: ٢٧).

(٢) (الحديد: ٢٥).

(٣) (الأعراف: ١٠).

(٤) انظر: علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٩١.

(٥) الفيروزآبادي: هو أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد (٧٢٩- ٨١٧هـ/ ١٣٢٩- ١٤١٥م) من أئمة اللغة والأدب، ولد في قرية من قرى شيراز، وتوفي في زبيد باليمن، من أشهر تصانيفه: (القاموس المحيط). انظر: الأصفهاني: شذرات الذهب ٧/ ١٢٦.

لابن سيده[١]، وكُتُب الرحلات والبُلدان، والكتب التي درست الجواهر؛ ومنها (صفة جزيرة العرب) للهمداني، ثم نجد حدود هذا العلم واضحة المعالم لدى العلماء الذين تناولوه أمثال: الكندي، والرازي، والفارابي، والمسعودي، وإخوان الصَّفا، والمقدسي[٢]، والبيروني، وابن سينا، والإدريسي، وياقوت الحموي، والقزويني[٣]، وغيرهم كثير.

فقد قدَّم هؤلاء العلماء نظريات عديدة عن الزلازل، وأسباب حدوثها، وعن المعادن والصخور، وأفاضوا في تعريف الصخور الرسوبيَّة والتحجُّر فيها، والتحوُّلات البُعدية لها، وكتبوا عن النيازك، ووقفوا على طبيعتها وأصلها، وقسَّموها إلى نوعَيْن: حجري وحديدي، ووصفوا هيئاتها، ومن أهمِّها النيازك الجاورسيَّة (الحُبَيْبِيَّة)، وتحدَّثوا عن ارتفاع درجة حرارة باطن الأرض، كما كان لهم الفضل بالخروج بنظريَّة تكوُّن الجبال الانكساريَّة والالتوائيَّة وغيرها، وكذلك تأثير عوامل التعرية في الجبال والأنهار.

كما قدَّم العلماء المسلمون دراسات قيِّمة عن الجيولوجيا الطبيعيَّة والتاريخيَّة، وقد برهنت هذه الدراسات على أن أكمل صورة من صور الماء في الطبيعة هي تلك التي وصفها العلماء المسلمون في مصنَّفاتهم، ونجد آراءهم في تكوُّن الأنهار علميَّة محضة، ونجد ذلك بجلاء في (رسائل إخوان الصفا)، وعند ابن سينا في كتابه (النجاة)، وفي كتاب (عجائب المخلوقات) للقزويني، كما أن علم البلورات عُرِف بدايته على يد البيروني في كتابه (الجماهر في معرفة الجواهر)، ونما على يد القزويني في كتابه (العجائب)، ولم يسبقهما أحدٌ إلى ملاحظاتهما الدقيقة الواردة في كتابيهما هذين.

وتناول العلماء المسلمون أيضًا ما يمكن أن نطلق عليه (علم زيت الأرض)، وهو

(١) ابن سيده: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل (٣٩٨- ٤٥٨هـ/ ١٠٠٧- ١٠٦٦م) إمام في اللغة وآدابها، كان ضريرًا. ولد في مرسية بالأندلس، وتوفي في دانية بالأندلس. من كتبه: (المُخصَّص). انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣٣٠، ٣٣١.

(٢) المقدسي: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) كان تاجرًا عرف أحوال البلاد لكثرة ترحاله، ثم تخصص في معرفة ذلك، فطاف أكثر بلاد الإسلام، وصنف كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم). انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣١٢.

(٣) القزويني: هو زكريا بن محمد بن محمود (٦٠٥- ٦٨٢هـ/ ١٢٠٨- ١٢٨٣م) مؤرخ، جغرافي، من القضاة، صنف كتبًا، منها (آثار البلاد وأخبار العباد)، و(عجائب المخلوقات). انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ ٢/ ٢٢، والزركلي: الأعلام ٣/ ٤٦.

فرع من فروع الجيولوجيا التطبيقيَّة؛ فقد ميَّزوا بين نوعين من النفط واستعملوهما، وتحدَّثوا عن التنقيب، وقدَّموا نماذج للتنقيب غير المباشر، واهتمَّ عدد غير قليل من العلماء المسلمين الأوائل بدراسة شكل الأرض، وتوزيع اليابسة والماء، ووصف تضاريس سطح الأرض، والعوامل الخارجيَّة التي تتسبب في تشكيلها، مثل الأنهار والبحار والرياح، والعواصف البحرية، ولم يغِبْ عن بالهم دراسة العوامل المؤثِّرة في قشرة الأرض من داخلها؛ كالبراكين والزلازل والخسوف الأرضيَّة، كما تناولوا تبادل الأماكن بين اليابسة والماء، والمدَّة الزمنيَّة التي يستغرقها هذا التبادل، كذلك تطوُّر الأنهار من الشباب إلى الهرم ثم الموت.

وجدير بالذكر أن الجيولوجيا عند المسلمين ارتبطت بعلوم أخرى كثيرة ساعدت في نموِّها، وكان هذا دَأْب العلماء آنذاك؛ فلم يكن هناك التخصُّص الدقيق، بل كانت هناك المعرفة الموسوعيَّة الشاملة؛ ولذلك فإن أعمال العلماء المسلمين في مجال الجيولوجيا وعلوم الأرض جاءت متفرِّقة ومنتشرة في عدد كبير من المجلدات تحت أسماء مختلفة، فعلى سبيل المثال نجد أن ابن سينا يتناول المعادن والمتيورولوجيا[١] في رسالة المعادن والآثار العلوية في كتابه (الشفاء)، والنويري[٢] يتناول الجيولوجيا مع المتيورولوجيا[٣] في كتابه (نهاية الأرب)، ويعالج المسعودي في (مروج الذهب) قضايا جيولوجية جنبًا إلى جنب مع قضايا جغرافية[٤].

الزلازل:

شغلت طبيعة الزلازل أذهان الناس منذ أقدم الأزمنة، وقد أرجع بعض فلاسفة اليونان القدماء الهِزَّات الأرضية إلى رياح تحت خفيَّة، بينما أرجعها البعض الآخر إلى نيران في أعماق الأرض، وجاء أوَّل وصف علمي لأسباب حدوث الزلازل على أيدي العلماء المسلمين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)؛ حيث اهتمَّ العلماء المسلمون بدراسة

---

(١) علم العلاقة بين الأرض والمناخ.

(٢) النويري: هو أبو العباس احمد بن عبد الوهاب بن أحمد البكري (٦٧٧ - ٧٣٣هـ/ ١٢٧٨ - ١٣٣٣م) عالم بحاث غزير الاطلاع، نسبته إلى نويرة (من قرى بني سويف بمصر) ومولده ومنشأه بقوص. من أشهر مصنفاته: (نهاية الارب في فنون الادب). انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة ١/ ٢٣١.

(٣) هو علم الظواهر الجوية.

(٤) علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٢٩١.

الزلازل وتسجيل تواريخ حدوثها وأماكنها، وأنواعها، وما تخلِّفه من دمار، ودرجاتِ قوَّتها، وحركةِ الصخور الناتجة عنها، ومضارِّها ومنافعها، وحاول بعضهم التخفيف من أخطارها، وتناول ذلك كلٌّ مِن ابن سينا في موسوعته (الشفاء) في الجزء الخاصِّ بالمعادن والآثار العلوية، وإخوان الصفا في (الرسائل)، والقزويني في (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات)، وكان لكلٍّ منهم رأيه الواضح في هذا الصدد.

وعلى سبيل المثال يقول ابن سينا في وصف الزلازل وأسباب حدوثها وأنواعها: «وأمَّا الزلزلة فإنها حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرَّك ثم يحرِّك ما فوقه، والجسم الذي يمكن أن يتحرَّك تحت الأرض إما جسم بخاري دخاني قوي الاندفاع كالريح، وإمَّا جسم مائي سيَّال، وإمَّا جسم هوائي، وإمَّا جسم ناري، وإمَّا جسم أرضي؛ والجسم الأرضي لا تَعْرِض له الحركة أيضًا إلا لسببٍ مثل السبب الذي عَرَض لهذا الجسم الأرضي، فيكون السبب الأول الفاعل للزلزلة ذلك، فأمَّا الجسم الريحي -ناريًّا كان أو غير ناري- فإنه يجب أن يكون هو المنبعث تحت الأرض، الموجب لتمويج الأرض في أكثر الأمر»[1].

ويعزو إخوان الصفا الزلازل إلى الغازات التي تحدث من جرَّاء ارتفاع درجة حرارة باطن الأرض، فتخرج من المنافذ إذا كانت الأرض في تلك البقعة متخلخلة، وإذا انصدعت الأرض تخرج هذه الغازات وينخسف مكانها، ويُسمع لها دويٌّ وزلزلة[2].

المعادن والصخور:

عرف المسلمون المعادن والأحجار الكريمة، وعلموا خواصَّها الطبيعية والكيميائيَّة، وصنَّفوها ووصفوها وصفًا علميًّا دقيقًا، كما عرفوا أماكن وجود كلٍّ منها، واهتمُّوا بالتمييز بين جيِّدها ورديئها، وتناولوا أيضًا تكوين الصخور الرسوبيَّة، وتكوين أسطحها، ورواسب الأودية، وعَلاقة البحر بالأرض، والأرض بالبحر، وما ينشأ عن هذه العَلاقة من تكوينات صخريَّة أو عوامل تعرية.

---

(١) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٦٤، وعلي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٣١٤.

(٢) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا (٢/ ٩٧) دار صادر، بيروت.

ولعلَّ عطارد بن محمد الحاسب[١] كان أوَّل من ألَّف كتابًا في الأحجار باللغة العربيَّة، وهذا الكتاب هو (منافع الأحجار)، ذكر فيه أنواع الجواهر والأحجار الكريمة، ودرس خواصَّ كلٍّ منها[٢]، وقد ذكر الرازي هذا المؤلَّف في كتابه (الحاوي)، وقد عَرَف المسلمون من المعادن حتى عصر البيروني نحوًا من ثمانية وثمانين جوهرًا مختلفًا ممَّا يُسْتَخْرَج من الأرض.

أمَّا ابن سينا فقد ذكر في (الشفاء) أن الأحجار يعود تكوُّنها إلى أسباب ثلاثة؛ فهي إمَّا أن تتكوَّن من الطين بالجفاف، أو من الماء بالبخار أو الترسيب، وقسَّم المـوادَّ المعدنية إلى أحجار، وكباريت، وأملاح، وذائبات، وقد تناول ابن سينا الفلزَّات وطريقة تكوينها، وذكر كَمًّا كبيرًا من المعادن، وميزات كلٍّ منها، واحتفاظها بخصائصها الطبيعيَّة، وأن لكل منها تركيبًا خاصًّا لا يمكن أن يتغيَّر بطرق التحويل المعروفة، وإنما المستطاع هو تغيير ظاهري في شكل الفلز وصورته[٣].

تحدَّث العلماء المسلمون كذلك عن الأشكال الطبيعيَّة للمعادن، كما تحدَّثوا عمَّا يطرأ على خصائصها من تغيُّر فيزيائيٍّ لعواملَ خارجيَّة؛ فقد ذكروا أن بعض المعادن تتَّخذ أشكالاً هندسيَّة طبيعيَّة خاصَّة بها ولا دخل للإنسان في تشكيلها، ولَربما كان ذلك إرهاصًا لما نسمِّيه اليوم بعلم البلورات؛ فقد وصف البيروني بعضها متناولاً تناسق أسطحها وهندسيَّة أشكالها، ويقول معبرًا عن ذلك بأن أشكال الماس ذاتيَّة، مخروطية مضلَّعة، ومنها ما يتكوَّن من مثلَّثات مركَّبة كالأشكال المعروفة بالناريَّة، متلاصقة القواعد، ومنها ما يكون على هيئة الشكل الهرمي المزدوج.

وأمَّا عن الصخور، فقد تحدث العلماء المسلمون عن أصلها، وكيفيَّة تكوُّنها من الماء (الصخور الرسوبية) أو النار (الصخور النارية)، كما أوجدوا الأوزان النوعيَّة لعدد كبير من الأحجار والفلزات امتازت بالدقة المتناهية، كما ركزوا في علوم الأرض على التضاريس وطبيعة الأرض وجيولوجيا المياه، وعلم الأحافير، والآثار العلوية

---

(١) عطارد بن محمد: هو عطارد بن محمد البابلي البغدادي (ت ٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م) حاسب منجم، كان فاضلا عالما، له عدد من الكتب منها: (العمل بالاسطرلاب) و(تركيب الافلاك) . انظر: ابن النديم: الفهرست ص٣٣٦.

(٢) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٦١.

(٣) انظر: المصدر السابق ص٢٦٣.

(الميتورولوجيا) وهي العلاقة العلمية بين علم الأرض وعلم المناخ[١].

البحار والمدُّ والجزر:

تناول العلماء المسلمون جيولوجيا البحار والأنهار في مؤلَّفاتهم الجغرافية أكثر من غيرها؛ فقد أفردوا أبوابًا في مصنَّفاتهم الجغرافية تناولوا فيها أسماء البحار ومواقعها والبُلدان التي تطلُّ عليها، وتحدَّثوا عن أماكن من اليابسة كانت بحارًا وأنهارًا، وأماكن تغطِّيها البحار كانت معمورة بالسكان فيما مضى، كما خلفوا مؤلَّفات عديدة في علم الملاحة، وظاهرة المدِّ والجزر التي كان يعتمد عليها ربابنة السفن في رحلاتهم البحريَّة والنهريَّة، ومن بين العلماء الذين كانت لهم آراء متفرِّدة في هذا الشأن الكندي، والمسعودي، والبيروني، والإدريسي، والمقدسي، وغيرهم.

ولا يكاد يخلو كتاب من الكتب التي تناولت ذكر البُلدان أو الأقاليم من ذكر البحار والأنهار؛ فالمسعودي في (**أخبار الزمان**) يتحدَّث بإسهاب عن تكوُّن البحار وعللها وآراءِ من سبقه فيها، كما أورد في (**مروج الذهب**) جملة من المناقشات الجيولوجية ضمَّنها الحديث عن البحار والأنهار والمدِّ والجَزْر، كما أورد فصلاً كاملاً عن البحار سمَّاه: (ذكر الأخبار عن انتقال البحار)[٢]، ويذكر المقدسي أبعاد هذه البحار وأهمَّ ما فيها من جُزُرٍ، ومواضع الخطر فيها، كما يتناول ظاهرة المدِّ والجَزْرِ ويحاول تفسيرها[٣].

وقد عرف المسلمون مدى اتِّساع المسطَّحات المائيَّة وعِظَم حجمها إذا قورنت باليابسة، كما عرفوا أن التشكيلات التضاريسيَّة المتنوِّعة تمنع الماء من أن يغمر وجه الأرض؛ فيقول ياقوت الحموي في هذا الصدد: «لولا هذا التضريس لأحاط بها[٤] الماء من جميع الجوانب وغمرها، حتى لم يكن يظهر منها شيء». أمَّا نسبة توزيع اليابسة إلى الماء فقد جاءت واضحة عند أبي الفداء في تقويم البُلدان بأن النسبة التي تغطِّيها المياه من سطح الكرة الأرضيَّة تبلغ ٧٥٪ منها، «فالقدر المكشوف من الأرض هو بالتقريب ربعها،

(١) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص٢١٩.

(٣) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص٣١٠.

(٤) أي: بالأرض.

أمَّا ثلاثة أرباع الأرض الباقية فمغمور بالبحار»[١].

التضاريس:

تناول العلماء المسلمون الجيومورفولوجيا بشقَّيْها النظري والعملي، وقد توصَّلوا في ذلك إلى حقائق تتَّفق مع العلم الحديث، من ذلك أثر العامل الزمني في العمليَّات الجيومورفولوجية، وأثر الدورتَيْن الصخريَّة والفلكيَّة في تبادل اليابسة والماء، وكذلك أثر كلٍّ من المياه والرياح والمناخ عامَّة في التعرية، ويُعَدُّ البيروني أفضل من تناول هذا الجانب، ويتَّضح ذلك في تعليله لكيفية تكوُّن أحد السهول في الهند، «فقد كان في مكان هذا السهل حوض بحري طَمَرَتْهُ الترسُّبات حتى سوّت منه سهلاً»، كما لاحظ الترسبات النهريَّة، خاصَّة كلَّما قرب النهر من المصبِّ؛ فإن التكوينات تكون ذات حجم كبير عند المنبع عند أول النهر، وتأخذ في الدقَّة والنعومة كلَّما قرب من المصبِّ؛ «فالحجارة عظيمة بالقرب من الجبال وشدَّة جريان مياه الأنهار، وأصغر عند التباعد وفتور الجري، ورمالاً عند الركود والاقتراب من المغايض والبحر... (فما كانت) أرضهم إلاَّ بحرًا في القديم قد انكبس[٢] بحمولات السيول»[٣].

وكانت آراء ابن سينا في الجيومورفولوجيا أقرب الآراء للنظريات الحديثة في هذا الحقل؛ فهو على سبيل المثال يعزو تكوُّن بعض الجبال إلى سببين: ذاتي (مباشر)، وعرضي (غير مباشر)؛ فالذاتي يحدث عندما تدفع الزلازل القويَّة مساحات من الأرض، وتحدث رابية من الروابي مباشرة، أمَّا السبب العرضي فيحدث عندما تعمل الرياح النسَّافة أو المياه الحفَّارة على تعرية أجزاء من الأرض دون أجزاء أخرى مجاورة لها؛ فتنخفض من جرَّاء عوامل التعرية تلك الأجزاء وتبقى المناطق المجاورة لها مرتفعة، ثم تعمل السيول على تعميق مجاريها إلى أن تغور غورًا شديدًا، وتبقى المناطق المجاورة شاهقة[٤].

المتيورولوجيا:

عرف العلماء المسلمون أمورًا مهمَّة من هذا العلم الذي أطلقوا عليه (علم الآثار العلوية)،

---

(١) انظر: علي بن عبد الله الدفاع: المصدر السابق ص٣٢٢-٣٢٤.

(٢) انكبسِ: طمَّ وطُوي بالتراب، أي: ملئ بالتراب ودُفن. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كبس ٦/ ١٩٠.

(٣) البيروني: تحقيق ما للهند ص٨٠.

(٤) المصدر السابق.

ويتناول هذا العلم الجوَّ وظواهره؛ ودرجات الحرارة، والكثافة، والرياح، والسُّحُب، وهو ما يسمَّى بالأرصاد الجويَّة، وسبق اللغويون العلماء في ذِكْرِ الكثير من مصطلحات هذا العلم، من قبيل ذلك أنهم قسَّموا درجات الحرارة المنخفضة إلى برد، وحرٍّ، وقُرٍّ، وزمهرير، وصقعة (من الصقيع)، وصِرٍّ، وأريز (البرد الشديد). وقَسَّمُوا درجات الحرارة المرتفعة إلى حرٍّ، وحرور، وقيظ، وهاجرة، وفيْح. أمَّا الرياح فقد قسَّموها وَفق الاتجاهات التي تهب منها أو وَفق صفاتها؛ فهناك الشمأل والشّمال والشامية، وهي التي تهب من الشمال، والجنوب أو التيمن وتهب من جهة الجنوب، والصَّبا التي تهب من الشرق، والدَّبُور التي تهبُّ من دُبُر (خلف) الكعبة، والرياح الشماليَّة الشرقيَّة الصبابيَّة، والجنوبيَّة الشرقيَّة الأزْيب، والجنوبيَّة الغربيَّة الداجن، والشماليَّة الغربيَّة الجِرْبياء، وما كان حارًّا منها سمَّوْه رياح السموم، والباردة الصَّرْصَر، والرياح الممطرة المعصرة، وغير الممطرة العقيم.

كما أطلقوا على السَّحَاب أسماء تدلُّ على أجزائه ومراحل تكوينه؛ من ذلك: الغمام، والمزن وهو الأبيض الممطر، والسحاب، والعارض، والديمة، والرَّبَاب، ومن أجزاء السحابة الهَيْدَب وهو أسفلها، ويعلوه الكِفَاف، فالرَّحَا وهو ما دار حول الوسط، والخِنْذِيذ وهو الطرف البعيد للسحابة، وأعلى السحاب سمَّوْه البواسق. وللماء الذي يهطل من السماء أو يتجمَّع بفعل تدنِّي درجات الحرارة أسماء منها: القطر، والندى، والسَّدَى (ندى الليل)، والضباب، والطلّ، والغيث، والرذاذ، والوابل، والهاطل، والهَتُون، وقد تحدَّث عن ذلك كله بالتفصيل ابن سينا وإخوان الصفا[1].

الأحافير:

تناول بعض العلماء المسلمين علم الأحافير في معرض تناولهم لعمر الأرض، وخلال استدلالهم من تحوُّل البحر إلى مناطق يابسة؛ فالبيروني يستشهد في كتابه: (تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن) على أن جزيرة العرب كانت مغمورة بالمياه فانحسرت عنها بتعاقب الحِقب الجيولوجية، وأن من يحفر حياضًا أو آبارًا يجد بها أحجارًا إذا شُقَّت خرج منها الصدف والودع، «فهذه بادية العرب كانت بحرًا فانكبس، حتى إنَّ آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها؛ فإنها تُبدِي أطباقًا من تراب ورمال

(١) انظر مثلاً: رسالة الآثار العلوية من رسائل إخوان الصفا، دار صادر - بيروت، ٢/ ٦٢ وما بعدها.

ورَضْرَاض[١]، ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يُحمل على دفن قاصد إياها هناك، بل تخرج أحجارًا إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع، وما يسمَّى آذان السمك؛ إمَّا باقية فيها على حالها، وإمَّا بالية قد تلاشت، وبقي مكانها خلاء فتشكَّل بشكلها»[٢]. وهنا يشير البيروني إلى المستحجرات، وهي بقايا عضويَّة كاملة أو طوابعها التي تكون داخل الحجارة، ويستدلُّ بذلك على أن بعض المناطق كانت تغطِّيها المياه ثم أصبحت ضمن اليابسة.

وكان لابن سينا رأي شبيه برأي البيروني من حيث إن وجود المستحجرات الحيوانيَّة المائيَّة في منطقة يابسة دليلٌ على أن تلك المنطقة كانت مغمورة بالمياه في حِقبة زمنيَّة قديمة، من ذلك ما جاء في (الشفاء): «... فيشبه أن تكون هذه المعمورة قد كانت في سالف الأيام غير معمورة، بل مغمورة في البحار فتحجَّرت عامًا بعد الانكشاف قليلاً قليلاً؛ ففي مدد لا تفي التأريخات بحفظ أطرافها، إمَّا تحت المياه لشدَّة الحرارة المحتقنة تحت البحر، والأولى أن يكون بعد الانكشاف، وأن تكون طينتها تُعِينُها على التحجُّر؛ إذ تكون طينتها لزجة؛ وكثيرًا ما يوجد من الأحجار، وإذا كُسِرَتْ أجزاء من الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها»[٣]. ويستطرد قائلاً: «إن كان ما يُحْكَى من تحجُّر حيوانات ونبات صحيحًا؛ فالسبب فيه شدَّة قوَّة معدنية محجِّرة تحدث في بعض البقاع البحريَّة، أو تنفصل دفعة من الأرض في الزلازل والخسوف فتُحَجِّر ما تلقاه»[٤].

وهذا غيض من فيض ممَّا تناوله علماء المسلمون في كتبهم ومؤلَّفاتهم عن علم الجيولوجيا، وهو ما يبرهن على قَصَبِ السَّبْق والريادة، وعلى أن علماء المسلمين هم مؤسِّسو علم الجيولوجيا، وفي مقدِّمتهم ابن سينا والبيروني والكندي، وأن علم الجيولوجيا الحديث ما هو إلاَّ امتداد لما قدَّمه علماء المسلمين في هذا المجال.

***

(١) الرَّضراض: الحصى الذي يجري عليه الماء، وقيل: هو الحصى الذي لا يثبت على الأرض وقد يعمّ به. ابن منظور: لسان العرب، مادة رضض ٧/ ١٥٤.

(٢) البيروني: تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، اقتبسه المستشرق كرنكو في المجلد التذكاري: ٢٠٤ عن مخطوط بمكتبة جامع الفاتح بإستانبول.

(٣) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٦٣.

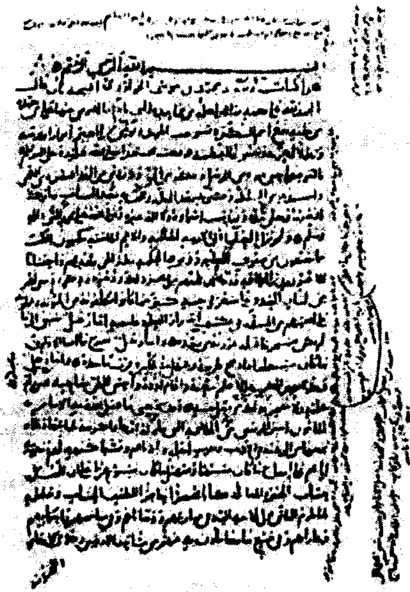
(٤) المرجع السابق ص٢٦٥.

المبحث الرابع

الجـــــبر

ابتدعه وأسَّسه العالِم الإسلامي الكبير الخُوَارزمي (ت ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م)، وقد ابتكره ليحلَّ به بعض المسائل الصعبة في قضايا الميراث، ووضع له من الأصول والقواعد ما جعله علمًا مستقلاً عن الهندسة وبقيَّة أنواع الرياضيات.

فالخُوَارزمي أوَّل مَن استعمل كلمة (جبر) للعلم المعروف الآن بهذا الاسم، وقد أخذه الأوربيون عنه، فحتَّى الآن ما زال الجبر يُعرف باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية، فهو في الإنجليزية (algebra)، وفي الفرنسية (Algèbre)، وهكذا. وتَرجِع كل الكلمات التي تنتهي في اللغات الأوربية بـ (algorism/algorithme) إلى اسم الخوارزمي، كما يرجع إليه الفضل في تعريف الناس بالأرقام العربية؛ ولهذا كان الخوارزمي أهلاً لتسميته بأبي الجبر[1].



صورة (١٨) كتاب الجبر للخوارزمي

ويُعَدُّ كتاب الخوارزمي (الجبر والمقابلة) الكتاب الرئيس ذا الأثر الحاسم الذي دَرَس فيه تحويل المعادلات وحلِّها، وفي مقدِّمته بيَّن كيف أن الخليفة المأمون هو الذي طلب منه تأليفه، وقد ترجمه إلى اللاتينيَّة (جيرْدو دي كريمونا)، ونشر النصَّ العربي روزن مع ترجمة إنجليزية في لندن سنة ١٨٥١م.

وبفضل الترجمة الكثيرة انتقل الحساب الهندي والنظام العشري في الحساب إلى أوربا؛ حتى عُرِفَت العمليات الحسابيَّة باسم (Alguarismo)، والغريب أنها تُرجمت إلى

(١) راجع: كرم حلمي فرحات أحمد: التراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجري ص٦٤٢، ٦٤٣، ومحمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص٧٤، ٧٥، وأكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٢٠.

العربيَّة باسم (اللوغاريتمات)، وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي! والصحيح أن تُترجَم (الخوارزميات) أو (الجداول الخوارزمية).

وقد أصبح الكتاب مصدرًا أساسيًّا في الرياضيات في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر، وكان معظم ما أَلَّفه مَن خلفه في علم الجبر مستنِدًا إليه، وقد نقله من اللغة العربيَّة إلى اللاتينيَّة روبرت أوف شستر (Robert of chester)، فاستنارت به أوربا، وحديثًا حقَّق الدكتوران علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي هذا الكتاب، وذلك في سنة ١٩٦٨م[(١)].

وقد أكمل المسيرة بعد الخوارزمي أبو كامل شجاع المصري[(٢)]، وأبو بكر الكرخي[(٣)]، وعمر الخيام[(٤)]، وغيرهم من علماء المسلمين الذي نبغوا في هذا المجال.

ويُعَدُّ إدخال الصِّفر في الترقيم من أهمِّ مآثر واكتشافات المسلمين في الجبر، ولا ريب أن ذلك أدَّى إلى تسهيل العمليات الحسابيَّة وتقدُّم العلوم الرياضيَّة؛ إذ لولا الصفر لَمَا استطاع العلماء حلَّ كثير من المعادلات الرياضيَّة في مختلف الدرجات بالسهولة التي تحلُّ بها الآن، ولَمَا تقدَّمت فروع الرياضيات تقدُّمها المشهود، وبالتالي لَمَا تقدَّمت المدنية هذا التقدُّم العجيب[(٥)].

ومن أهمِّ مآثر المسلمين كذلك في الجبر أنهم عرفوا حلَّ المعادلات من الدرجة الثانية، وهي نفس الطريقة المستعمَلَة الآن في كتب الجبر الحديثة، ولم يجهلوا أن لهذه المعادلات

---

(١) انظر: علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية، ٥/ ١٨٧، وله أيضًا: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٧٧، ومحمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص٧٧، وعبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص٦٥.

(٢) شجاع المصري: هو أبو كامل شجاع بن أسلم بن محمد المصري (ت٣١٨هـ/ ٩٣٠م) عالم رياضي، من آثاره: (الجبر والمقابلة). انظر: ابن النديم: الفهرست ص٣٣٩، وعمر كحالة: معجم المؤلفين ٤/ ٢٩٥.

(٣) أبو بكر الكرخي: هو محمد بن الحسن الكرخي (ت٤١٠هـ/ ١٠٢٠م) رياضي مهندس، اتصل بفخر الملك (وزير بهاء الدولة البويهي)، وصنف له كتاب (الفخري) في الجبر والمقابلة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٢٥، وفؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي ١/ ٥٦٢.

(٤) عمر الخيام: هو عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري (ت ٥١٥ هـ/ ١١٢١م) شاعر فيلسوف فارسي، عالم بالرياضيات والفلك، من أهل نيسابور، مولدا ووفاة. انظر: القمي: سفينة البحار ١/ ٤٣٦، وابن الأثير: الكامل حوادث عام ٤٧٦هـ.

(٥) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٥٥، ٣٥٦.

جذرين، واستخرجوهما إذا كانا موجبين، وهذا من أهمِّ الأعمال التي تَفَوَّق فيها المسلمون، وفاقوا بها غيرهم من الأمم التي سبقتهم، كما ابتكروا طرقًا هندسية لحلِّ بعض هذه المعادلات، وفي باب المساحة في كتاب (الجبر والمقابلة) للخوارزمي توجد عمليات هندسيَّة حلَّها بطرق جبريَّة؛ ممَّا يدلُّ على أن المسلمين -كذلك- هم أوَّل من استعان بالجبر في المسائل الهندسيَّة(١).

وإذا كان يُنْسَب إلى العالم الرياضي ستيفن استعمال الكسر العشري، فإن العالم الرياضي المسلم غياث الدين جمشيد الكاشي(٢) كان أول مَنْ وضع علامة الكسر العشري واستعملها قبل ستيفن بأكثر من ١٧٥ سنة، وبيَّن فوائد استعمالها وطريقة الحساب بها، وفي ذلك فإنه يذكر في مقدِّمة كتابه (مفتاح الحساب) في الصفحة الخامسة منه أنه اخترع الكسور العشريَّة؛ ليسهل الحساب للأشخاص الذين يجهلون الطريقة الستينية. وإذن فهو يعلم أنه اخترع شيئًا جديدًا(٣).

وكذلك فإن علماء المسلمين بعد الخوارزمي قد استعملوا الرموز (+، -، ×، ÷) في الأعمال الرياضيَّة، ومن مؤلَّفات القلصادي الأندلسي(٤) ما يثبت صحَّة ذلك، وبخاصة في كتابه (كشف الأسرار عن علم حروف الغبار). ولا يخفى ما لاستعمال هذه الرموز من أثر بالغ في تقدُّم الرياضيات على اختلاف فروعها، وإنه لمن المؤسف حقًّا أن يُنْسَب إلى العالم الفرنسي فرانسيس فيت الذي عاش فيما بين (١٥٤٠-١٦٠٣م) ابتكار تلك الرموز والإشارات الرياضيَّة(٥).

هذا ويُعَدُّ حلُّ عمر الخيام (٤٣٦-٥١٧هـ) للمعادلات الجبرية ذات الدرجة الثالثة

---

(١) المصدر السابق ص٣٥٦.

(٢) الكاشي: غياث الدين جمشيد (ت٨٤٢ هـ - ١٤٢١م) فلكي، عالم بالهندسة والحساب، ولد بمدينة كاشان، وتوفي في سمرقند. من مؤلفاته: نزهة الحدائق، رسالة سلم السماء، ورسالة الجيب والوتر. انظر عمر كحالة: معجم المؤلفين ٨/ ٤٣.

(٣) السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) القلصادي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي البسطي (٨١٥- ٨٩١ هـ/ ١٤١٢- ١٤٨٦م) عالم بالحساب، من أئمة المالكية، من كتبه (في الجبر والمقابلة). انظر: الضوء اللامع ٦/ ٥، وكشف الظنون ١/ ١٥٣.

(٥) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٥٨، وعلي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٦٥.

بواسطة القطوع المخروطيَّة من أعظم الأعمال التي قدَّمها علماء المسلمين للبشريَّة كلها، وبتأمُّل حلِّ عمر الخيام للمعادلات التكعيبيَّة باستخدام القطع المكافئ والدائرة -مثلاً- يتبيَّن جليًّا أنه تحدَّث عن الإحداث الأفقي (الإحداث السينيّ) ليفسر الإحداثيين للنقطة؛ وبذلك يكون عمر الخيام هو الذي وضع اللَّبِنَات الأُولَى لعلم الهندسة التحليليَّة، تلك التي تُنْسَب للعالم الفرنسي رينيه ديكارت، الذي لا نشكُّ أنه فقط طوَّر الهندسة التحليليَّة وأرسى أصولها[1].

* * *

(١) علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٦٥.

المبحث الخامس
الميكانيكا

استفاد العلماء المسلمون ممَّا قدَّمه الإغريق والرومان والفرس والصينيون من قواعد مبعثرة لعلم الميكانيكا، ثم طوَّروا منه كثيرًا، وابتكروا فيه تقنيات جديدة، وأضافوا إليه من إبداعهم ما جعله علمًا تطبيقيًّا فريدًا في غاية الأهميَّة، بعدما كان علمًا للتسلية والسحر، وأطلقوا عليه (علم الحيل)، ويَعْنُونَ بذلك الطُّرُق التي يتحايلون به على الظروف الصعبة لتحقيق غرض من الأغراض؛ بمعنى توفير الجُهد الإنساني والقوَّة البشريَّة والتوسُّع في القوَّة الميكانيكيَّة، والاستفادة من المجهود البسيط للحصول على جهد أكبر من جهد الإنسان والحيوان!

فقد أرادوا من خلاله تحقيق منفعة الإنسان، واستعمال الحيلة مكان القوَّة، والعقل مكان العضلات، والآلة بدل البدن، والاستغناء عن سُخرة العبيد ومجهودهم الجسماني، وخاصَّةً أن الإسلام منع نظام السخرة في قضاء الأمور المعيشيَّة التي تحتاج لمجهود جسماني كبير، كما حرَّم إرهاق الخدم والعبيد، وحرم المشقَّة على الحيوان، وذلك بعدم تحميلهم فوق ما لا يُطِيقُونه؛ ومن ثَمَّ كان اتجاه المسلمين إلى تطوير الآلات لتقوم عوضًا عنهم بهذه الأعمال الشاقَّة، وهي نزعة حضاريَّة تتَّسم بها الأمم التي قطعت أشواطًا في مجالات العلم والحضارة، كما أنها المحور الذي تدور حوله فلسفة أيِّ اختراع تفرزه عقول العلماء يوميًّا؛ سعيًا وراء تحسين حياة الإنسان، ورفع المشقَّة عنه قدر الإمكان.

ويمثِّل (علم الحِيَلِ النافعة) الجانب التقني المتقدِّم في علوم الحضارة الإسلاميَّة؛ حيث كان المهندسون والتقنيون يقومون بتطبيق معارفهم النظرية للإفادة منها في كل ما يخدم الدين، ويحقِّق مظاهر المدنية والإعمار.

وبعد أن كانت غاية السابقين من (علم الحيل) لا تتعدَّى استعماله في التأثير الديني والرُّوحي على أتباع مذاهبهم، مثل استعمال التماثيل المتحرِّكة أو الناطقة بواسطة الكهَّان، واستعمال الأرْغَن الموسيقي وغيره من الآلات المصوِّتة في المعابد، فقد جاء الإسلام وجعل الصلة بين العبد وربِّه بغير حاجة إلى وسائل وسيطة أو خداع بصري، وأصبح

التأثير على الإنسان باستعمال آلات متحرِّكة (ميكانيكيَّة) هو الهدف الجديد لتقنية (الحيل النافعة)، وهي عبارة عن آلات وتجهيزات يعتمد البحث فيها على حركة الهواء (الإيروديناميكا)، أو حركة السوائل واتزانها (الهيدروديناميكا) و(الهيدروستاتيكا)، والصمامات الآليَّة ذات التشغيل المتباطئ، والأنظمة التي تعمل عن بُعْدٍ بطريقة التحكُّم الآلي، والأجهزة والأدوات العلميَّة، والجسور والقناطر المائيَّة، والهندسات والزخارف المعماريَّة، وغيرها[1].

هذا، وإذا عُدْنَا إلى البدايات، فإن تقنيات الهندسة الميكانيكيَّة قد ازدهرت في العالم الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وذلك على أيدي نفر من العلماء المسلمين الأعلام. ويمكن التعرُّف على مراحل تطوُّر هذا العلم من خلال الأعمال القيِّمة التي خلفها أبرز هؤلاء العلماء، روّاد التقنية الإسلاميَّة في مجالات الهندسة الميكانيكيَّة، كما يلي:

١) بنو موسى بن شاكر:

وهم الإخوة الثلاثة: محمد (كبيرهم ت ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م)، وَأحمد، والحسن (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، أبناء موسى بن شاكر، وقد عاشوا في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، ولمعوا في علوم الرياضيات والفلك والعلوم التطبيقيَّة والتقنيَّة، واشتهروا بكتابهم القيم المعروف باسم (**حيل بني موسى**)، ويحكي عنه ابن خلِّكان فيقول: «ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة، ولقد وقفتُ عليه فوجدتُه من أحسن الكتب وأمتعها»[2].

وهذا الكتاب يحتوي على مائة تركيب ميكانيكي مع شروح تفصيليَّة ورسوم توضيحيَّة لطرائق التركيب والتشغيل، وكان استخدام بني موسى للصمامات التي تعمل تلقائيًّا، وللأنظمة التي تعمل بعد زمن معين، وغير ذلك من مبادئ وأفكار التحكُّم الآلي، وهي من أهم الإنجازات في تاريخ العلم والتقنية بشكل عامٍّ. كما كان استخدامهم

---

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي.. شيء من الماضي أم زاد من الآتي؟ ص٢٩، ٣٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٦١.

للصمامات المخروطيَّة، ولأعمدة المرافق التي تعمل بصورة آليَّة، استخدامًا غير مسبوق، وقد سبقوا به أوَّل وصف لآليَّة عمود المرافق الحديث في أوربا بخمسمائة عام[(١)]!

ومن أمثلة تركيبات بني موسى الميكانيكية: «عمل سراج إذا وُضِعَ في الريح العاصف لا ينطفئ، وعمل سراج يُخْرِج الفتيلة لنفسه ويَصُبُّ الزيت لنفسه، وكل مَنْ يراهُ يظنُّ أن النار لا تأكل من الزيت ولا من الفتيلة شيئًا البتة، وعمل نافورة يفور منها الماء مدَّة من الزمان كهيئة التُّرْس، ومدَّة متماثلة كهيئة القناة، وكذلك لا تزال دهرها تتبدَّل». ومن بين أجهزتهم الميكانيكيَّة التي وصفها المؤرِّخون بكثير من الإعجاب - آلة رصد فلكي ضخمة تعمل في مرصدهم، وتُدَار بقوَّة دفع مائيَّة، وهي تُبَيِّن كل النجوم في السماء وتعكسها على مرآة كبيرة، وإذا ظهر نجم رُصِدَ في الآلة، وإذا اختفى نجم أو شهاب رُصِدَ في الحال وسُجِّلَ[(٢)].

وقد استحدثوا كذلك آلات لخدمة الزراعة والفلاحة، مثل المعالف الخاصَّة لحيوانات ذات أحجام معيَّنة تتمكَّن أن تصيب مأكلها ومشربها فلا تنازِعُها غيرها الطعام والشراب، وعمل خزَّانات للحمَّامات، وآلات لتعيين كثافة السوائل، وآلات تُثَبَّت في الحقول لكيلا تضيع كميات الماء هدرًا، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ريِّ المزروعات، وكان لكل هذه الأفكار الإبداعيَّة أثر كبير في دفع مسيرة تقنية (الحيل النافعة) أو الهندسة الميكانيكيَّة قُدُمًا؛ حيث تميَّزت تصاميمها بالخيال الخصب والتوصيف الدقيق والمنهجيَّة التجريبيَّة الرائدة[(٣)].

٢) بديع الزمان الجزري[(٤)]:

تضمَّنت ابتكارات المسلمين الأوائل في مجال تقنية الحيل النافعة تصميمات متنوِّعة لساعات وروافع آليَّة، يتمُّ فيها نقل الحركة الخطِّيَّة إلى حركة دائريَّة بواسطة نظام يعتمد

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣٠.
(٢) انظر: زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص١٢٢.
(٣) انظر: أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣٠، ٣١.
(٤) بديع الزمان الجزري: هو عبد العزيز بن إسماعيل الرزاز (٥٣٠- ٦٠٢هـ/ ١١٣٦- ١٢٠٦م) أحد أعظم المهندسين والكيميائيين، اخترع العديد من الآلات النافعة؛ مثل: آلات رفع الماء، والساعة المائية، وغيرها. انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ١٥.

على التروس المسنَّنة، وهو الأساس الذي تقوم عليه جميع المحرِّكات العصريَّة، ومن المؤلَّفات الذاتية الرائدة في هذا المجال كتاب: (**الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل**) لبديع الزمان أبي العزِّ بن إسماعيل بن الرزَّاز الجزري (ت ١١٨٤م). وقد ترجم دونالد هيل هذا الكتاب إلى الإنجليزيَّة عام (١٩٤٧م)، ووصفه مؤرِّخ العلم المعاصر جورج سارتون بأنه أكثر الكتب من نوعه وضوحًا، ويمكن اعتباره الذروة في هذا النوع من الإنجازات التقنية للمسلمين(١).



صورة (١٩) الساعة المائية للجزري

ويضمُّ كتاب الجزري عدَّة أقسام، أطولها قسم الساعات المائيَّة، وقسم آخر يعالج موضوع آلات رفع الماء، أمَّا ساعات الجزري فكانت تستعمل دُمًى ذاتيَّة الحركة لتشير إلى مرور الوقت، مثل: طيور تقذف من مناقيرها كرات صغيرة فوق صنوج(٢)، أو أبواب تُفتح ليخرج منها أشخاص، أو دوائر بروج تدور، أو موسيقيين يقرعون الطبول وينفخون الأبواق، وفي معظم هذه الساعات كان المحرِّك الأوَّل ينقل الطاقة إلى الدُّمَى بواسطة أنظمة بكرات بالغة الدقَّة(٣).

وأمَّا قِسْمُ آلات رفع الماء، ففيه وصف لتصميم مضخة **يعتبرها المؤرِّخون الجدد الأقرب للآلة البخارية**، وتتكوَّن هذه المضخة من (ماسورتين) متقابلتين، في كل منهما ذراع يحمل مكبسًا أسطوانيًّا، فإذا كانت إحدى الماسورتين في حالة ضغط أو كبس فإن الثانية تكون في حالة سحب أو (شفط)، ولتأمين هذه الحركة المتقابلة المتضادَّة يُوجَد

---

(١) المصدر السابق ص٣١.

(٢) الصنوج: صفائح صغيرة مستديرة تثبت في أطراف الدف. المعجم الوسيط، مادة صنج ١/ ٥٢٥.

(٣) دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية ص١٦٩.

قرص دائري مسنَّن قد ثُبِّت فيه كلٌّ من الذراعين بعيدًا عن المركز، ويُدَار هذا القرص بواسطة تروس متَّصلة بعمود الحركة المركزي، وهناك ثلاثة صمامات على كل مضخة تسمح بحركة المياه في اتجاه واحد من أسفل إلى أعلى، ولا تسمح بعودتها في الاتجاه العكسي(١).

ومضخَّة الجزري هذه عبارة عن آلة من المعدن تُدَارُ بقوَّة الريح، أو بواسطة حيوان يدور بحركة دائريَّة، وكان الهدف منها أن ترفع المياه من الآبار العميقة إلى سطح الأرض، وكذلك كانت تُستعمَل في رفع المياه من منسوب النهر إذا كان منخفضًا إلى الأماكن العليا، مثل جبل المقطم في مصر، وقد ذكرت المراجع أن هذه التقنية تُمكِّن من ضخِّ الماء إلى أن يبلغ حوالي عَشَرَة أمتار، وتصبُّ المضخة فوق سطح الماء مباشرة، بحيث يكون عمود الشفط مغمورًا في الماء(٢).

٣) تقي الدين الدمشقي:

يُعَدُّ تقي الدين بن معروف الراصد الدمشقي -الذي عاش في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)- فخرَ التقنية الإسلاميَّة، وهو صاحب كتاب (**الطرق السنيَّة في الآلات الروحانية**)، وفيه وَصَفَ العديد من الأجهزة الميكانيكيَّة مثل: الساعات المائيَّة والآليَّة والرمليَّة، والروافع بالبكرات والتروس (المسنَّنات)، والنافورات المائيَّة، وآلات الدوران باستعمال العَنَفَات (المراوح) البخارية التي نعرفها اليوم(٣).

ويحظى كتاب تقي الدين الدمشقي بأهمِّيَّة خاصَّة؛ لأنه يكمل أهمَّ مرحلة في تقنية الهندسة الميكانيكيَّة في العصر الإسلامي، ويقدِّم وصفًا لآلات كثيرة لم يَرِدْ ذِكْرٌ لها في كتب السابقين، وقبل أن يَرِدَ وصفُ ما يماثلها في المراجع الغربية المعروفة في فترة عصر النهضة. ويتميَّز كتاب تقي الدين بأنه اقترب كثيرًا في عرضه وتوصيفه للآلات من مفهوم الرسم الهندسي الحديث ذي المساقط، لكنه يوضِّح كل شيء يتعلَّق بالآلة في رسم واحد، يجمع بين مفهوم المساقط ومفهوم الرسم (المنظور المجسم)، ومن هنا فإنه يحتاج إلى دراسة عميقة من أهل الاختصاص لقراءة النصوص وفهم الرسوم حتى يكون التخيُّل صحيحًا.

---

(١) المصدر السابق ص١٣٥.
(٢) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣٣.
(٣) المصدر السابق ص٣٦.

ومن أهمِّ الآلات المائيَّة التي وصفها تقي الدين في كتابه: (المضخة ذات الأسطوانات الستّ)، وفيها استخدم لأول مرَّة (كتلة الأسطوانات) لستِّ أسطوانات على خطٍّ واحد، كما استخدم (عمود الكامات) بستَّة نتوءات موزَّعة بانتظام على محيط الدائرة؛ بحيث تعمل الأسطوانات على التوالي، ويستمرُّ تدفُّق الماء بصورة منتظمة. وأوصى تقي الدين بألاَّ يقلَّ عدد الأسطوانات عن ثلاث؛ ليتناسب صعود الماء من غير دفق، وهذا المفهوم المتقدِّم للتتابع وتجنُّب الدفق أو التقطُّع، إضافةً إلى مفهوم التوازن الديناميكي الحديث، هو الأساس الذي قامت عليه تقنية المحرِّكات والضواغط الحديثة متعدِّدة الأسطوانات.

وفي تصميم تقي الدين لمضخَّته المكبسيَّة ذات الأسطوانات الستِّ نجده يضع ثقلاً من الرصاص على رأس قضيب كل مكبس يَزيد وزنُه عن وزن عمود الماء الموجود داخل الأنبوب الصاعد إلى أعلى، وهو بهذا يسبق (مورلاند) الذي قام في عام (١٦٧٥م) بتصميم مضخَّة وضع فيها أقراصًا من الرصاص فوق المكبس حتى يعودَ المكبس إلى الهبوط ويدفع الماء بتأثير الرصاص إلى العلوِّ المطلوب[١].

وهكذا يبطل زعم مؤرِّخي التقنية الغربيين أن التقنية الإسلاميَّة في مجالات الهندسة الميكانيكيَّة كان لها فقط طابع التسلية واللعب وتزجية أوقات الفراغ، ويشهد على بطلان زعم هؤلاء المؤرِّخين غير المنصفين تلك الدواليب المائيَّة التي كانت تُستخدم لتدوير المطاحن ومعاصر القصب وعصر الحبوب والبذور، وفي رفع المياه لأغراض الريِّ، وقد استُخْدِمَتْ طاقة الماء والهواء على نطاق واسع، وكانت العَلاقة وثيقة بين العلوم النظريَّة وتطبيقاتها التقنية في مجالات الحياة العمليَّة التي شملت تصميم المدن ومنشآت الريِّ والسدود والأبنية والآلات وغيرها، وكان المهندسون والتقنيون في عصر الحضارة الإسلامية يتَّبعون المنهج العلمي في كل أعمالهم، ويبدءون -في الحالات الصعبة- برسم مخطَّطات، ثم يصنعون نموذجًا مصغَّرًا لما ينوون تنفيذه، وقد أعاد الفنيُّون المحدَثُون بناء العديد من التركيبات والآلات تبعًا للشروح التي قدَّمها التقنيون الإسلاميون في مؤلَّفاتهم[٢].

* * *

(١) المصدر السابق.

(٢) أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي الإسلامي ص٣٩.



الباب الخامس

إسهامات المسلمين في جانب العقيدة والفكر والأدب

جانب مهمٌّ أيضًا في رحلة إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية، ذلك الذي يتعلَّق بالعقيدة والفكر والأدب، والذي يُعَبِّر عن أصالة الحضارة الإسلامية وتفرُّدها في تلك المجالات. وفي هذا الباب نعرض لأهمِّ هذه الإسهامات، وذلك على النحو التالي:

- **الفصل الأول: إسهامات المسلمين في التصوُّر العقدي**
- **الفصل الثاني: تطوير العلوم المتداولة**
- **الفصل الثالث: ابتكار علوم جديدة**

الفصل الأول
إسهامات المسلمين فى التصور العقدى

كان للمسلمين - وما زال - دورٌ متفرِّد ومتميِّز في جانب العقيدة والتصوُّر العقدي؛ فبينما ذهبت الأمم والحضارات السابقة والمعاصرة إلى تصوُّرات شتى تجاه خالق الكون والإله المعبود، فإن المسلمين أفردوا العبودية والوحدانية لله ﷻ، وخصُّوه بالخَلْقِ والأمر، وكان ذلك أعظم إسهامٍ قُدِّم للإنسانية مطلقًا، وخاصَّة حين نعلم دور العقيدة وأثرها الحاسم في النهضة الحضارية.

وفي هذا الفصل نستعرض دور المسلمين وإسهاماتهم في إصلاح التصوُّر العقائدي، وذلك من خلال المبحثين التاليين:

- **المبحث الأول: من عقائد الأمم السابقة**
- **المبحث الثاني: التوحيد وإصلاح التصوُّر العقائدي**

المبحث الأول
من عقائد الأمم السابقة

لقد ساد العالم قبل الإسلام غَبَشُ الرؤية لحقيقة الألوهية، فلم تكن رؤية صافية تَقْدِر الله حقَّ قدره، وإنما كانت رؤية غائمة مضطربة، تُحِيطُ بها الأوهام والجهالات. والحقُّ أن الحضارات المختلفة - كما يظهر من تاريخها - لم تَعْرِف الله جَلَّ شأنه معرفة صحيحة، ولم تَهْتَدِ إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومُدَبِّره، ولم تعرف حقيقة الألوهية الكاملة، العالمة، القادرة، المريدة، البارَّة، الرحيمة؛ وذلك لأنها لم تعرف النبوَّة الهادية، والوحيَ المعصوم، معرفةً مباشرة، ومِن ثَمَّ سارت في الطريق وحدها باحثة عن (العلَّة الأولى)، أو (المحرِّك الأول)، أو (واجب الوجود)، فتعثَّرت وتخبَّطت، وغلبت عليها الأوهام والأهواء.

حتى الفلاسفة الذين يسمِّيهم تاريخ الفلسفة (الإلهيين)، أي: الذين اعترفوا بالألوهية في الجملة؛ مثل العمالقة الكبار: سقراط وأفلاطون وأرسطو، الذين رفضوا الإنكار والإلحاد، لم يكن تصوُّرهم للألوهية تصوُّرًا صحيحًا، بل كان تصوُّرًا قاصرًا مضطربًا، مشوبًا بالكثير من الأوهام والتخليطات؛ لنأخذ مثلاً (إله) أرسطو - المُعَلِّم الأول لدى الإغريق - لنرى أيَّ إلهٍ هو؟ أهو الإله الذي نعرفه نحن، خالق كل شيء، ورازق كل حيٍّ، ومدبِّر كل أمر، العالم بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، الفعَّال لما يريد، والقادر على كل شيء؟ أم هو إله آخر غير هذا الإله الذي نعرفه؟ [1].

يقول ول ديورانت في (مباهج الفلسفة): «يتصوَّر أرسطو (الله) بوصفه رُوحًا تعي ذاتها، وهذه هي الأخرى روح غامضة خفية؛ وذلك لأن إله أرسطو لا يقوم أبدًا بأي عمل، فليست له رغائب ولا إرادة ولا غرض، وفاعليته نقية خالصة إلى حدٍّ تجعله لا يفعل أبدًا، وهو كاملٌ كمالاً مطلقًا؛ لذلك ليس بمقدوره أن يرغب في أي شيء؛ ولذلك لا يعمل أي شيء! ووظيفته الوحيدة هي التأمُّل في جوهر الأشياء. ونظرًا لأنه هو بالذات

---

(١) القرضاوي: الإسلام حضارة الغد ص١٤.

جوهرُ جميع الأشياء، وشكل جميع الأشياء؛ لذلك فإن عمله الوحيد هو التأمُّل في ذاته. ولا غَرْوَ أن يحبَّ الإنجليز أرسطو، فإلهه هو - بوضوح - صورة طبق الأصل عن مَلِكِهِمْ، أو أن مَلِكَ هؤلاء هو نسخة عن إله أرسطو بالذات»[١].

وإذا كان إله أرسطو مسكينًا؛ لأنه لا يستطيع أن يحلَّ ولا يربط في الكون، فأشدُّ منه مسكنة إله أفلاطون - الذي نُسبت إليه الأفلاطونية الحديثة - فإنه لا يتأمَّل في شيء، حتى في ذاته نفسها[٢]!

وقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس الميلادي، فوصل عدد الآلهة في الهند وحدها - على سبيل المثال - إلى ٣٣٠ مليونًا، وقد أصبح كل شيء رائعًا، وكل شيء جذابًا، وكل مرفق من مرافق الحياة إلهًا يُعْبَدُ. وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة الحصر، وأربت على العدِّ؛ فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثَّل فيهم الله، ومنها جبال تجلَّى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلَّى فيها إله، وأنهار، وآلات حرب، وآلات التناسل، وحيوانات أعظمها البقرة، وأجرام فلكية، وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجًا من خرافات وأساطير وأناشيد، وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان. وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد حتى فاق في ذلك جميع العصور الماضية، وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام[٣].

فوصل الأمر أن هانت على الإنسان إنسانيته، حتى صار يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرَّ!

وقد كانت الدولة الرومانية حاملة لواء النصرانية في العالم، وقد انقسمت على نفسها إلى فرعين كبيرين: الكاثوليك والأرثوذكس، وانقسم الأرثوذكس بدورهم إلى طائفتين: ملكانية ومنوفيسية، وكانت الحروب بين هذه الطوائف على أشُدِّها، وجميعهم قد حرَّفوا

---

(١) مباهج الفلسفة ص١٦١، ١٦٢، نقلاً عن القرضاوي: الإسلام حضارة الغد ص١٤، ١٥.

(٢) انظر: العقاد: الله ص٧٨، ١٣١.

(٣) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٤٠، وله أيضًا: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ص٢١.

دينهم، وأشركوا مع الله ﷻ غيره، ولكنهم اختلفوا في صورة الشرك، وقد أصبح الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله!

وإن تاريخ أوربا في العصور الوسطى يكاد يكون في صلبه عبارة عن صراع بين السلطة الدينية (البابوية) - التي تحتكر حقَّ الحديث باسم الله، فهي فوق البشر، ولا حقَّ لأحد في محاسبتها ومراقبة تصرفاتها، وفوق الملوك الذين يجب أن يُذعِنُوا[1] لها في النهاية باسم الدِّينِ - وبين السلطة الدنيوية ممثَّلة في الحُكَّام، والملوك، والأباطرة، والأمراء ممن يرغبون في ممارسة سلطاتهم، وصلاحياتهم، واستبدادهم نحو رعاياهم دون أن يحدَّها أحد أو جهة تحت أي مسمًّى أو بأي حُجَّة، حتى ولو كانت البابوية تحت ستار الدين.

ففي سنة (١٠٧٣م) أعلن البابا جريجوريوس السابع أن الكنيسة هي صاحبة السيادة في العالم كلِّه، تستمدُّ نفوذها من الله مباشرة، وهي بدورها تمدُّ ملوك الأرض وأمراءها بالنفوذ، وأن البابا له منزلة فذَّة في العلم، فهو الذي يولِّي الأساقفة ويخلعهم، وله الحقُّ في خلع الأباطرة؛ لأنه سيدهم الذي لا يُسْأَلُ عمَّا يفعل وهم يُسْأَلون، وبِناءً على ذلك كان البابوات يُعلنون حرمان مَنْ لا يَرْضَوْن عنهم من الأباطرة والملوك، كما حدث للإمبراطور هنري الرابع حين حرمه البابا سنة (١١٠٧م)، فاضطر للوقوف ببابه ثلاثة أيام حافي القدمين عاري الرأس بين الثلوج والأمطار، وحين غضب البابا أنوسنت الثالث على الملك جون ملك إنجلترا، أنزل نقمته على إنجلترا كلها، وأعلن عليها حربًا صليبية، وحرَّض ملك فرنسا على مهاجمتها وضمِّها إليه، فاضطر عندئذ ملك إنجلترا إلى طلب الغفران من البابا، فغفر له بعد أن أعلن تبعيَّته له وأقسم بيمين الولاء، وقَدَّمَ هدية مناسبة! ووصل النفوذ ذروته في سنة (١١٩٨م) حيث أعلن البابا (أرنِسْت الثالث) أنه نائب المسيح، والقائم بين الله وبين عباده دون الربِّ وفوق البشر، وهو حاكم الجميع ولا أحد يحكمه[2]!

ولا ريب في أن هذا الانحراف لرجال الدين المسيحي، وتسلُّطهم، وتجبُّرهم هو

---

(١) أذعن: أقرَّ وخضع وذلَّ وانقاد طائعًا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة ذعن ١٣/ ١٧٢.

(٢) عبد الله علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية ص٣٨، ٣٩.

الذي جعل الغرب الحديث يحاول الإفلات من طغيان وإسار الكنيسة، ثم يُمْعِنُ في العلمانية والإفلات من زمام الدين، وإقصائه عن كل شئون الدنيا.

وأمَّا العرب فكانوا في البدء - كما قدَّمنا أيضًا - يعبدون الله ويوحِّدُونه، ويعتقدون أنه إله أعظم، خالق الأكوان، ومدبِّر السموات والأرض، بيده ملكوت كل شيء، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[1]، لكن لما طال عليهم الأمد نَسُوا حظًّا ممَّا ذُكِّرُوا به، فأشركوا بالله، وجعلوا بينهم وبينه وسطاء؛ توسَّلوا بهم إلى الله وأشركوهم في الدعاء، كما قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[2]، وقاموا نحوهم ببعض العبادات، ورَسَخَتْ في أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحوَّلت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر، ثم ترقَّوْا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة، واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة في تدبير الكون، وقدرة ذاتية على النفع والضرر، والخير والشر، والإعطاء والمنع[3].

وقد انتشرت عبادة الأصنام في جزيرة العرب، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت منها صنم، قال الكلبي[4]: كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسَّح به، وإذا قَدِم من سفرٍ كان أوَّل ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسَّح به أيضًا... واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتًا، ومنهم من اتخذ صنمًا، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرًا أمام الحرم وأمام غيره ممَّا استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسمَّوْهَا الأنصاب... وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًّا، وجعل ثلاث أثافيَّ[5] لقِدْرِه، وإذا ارتحل تركه[1]. يقول أبو رجاء العطاردي: كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ فَإِذَا

---

(١) (العنكبوت: ٦١).

(٢) (الزمر: ٣).

(٣) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص٤٥.

(٤) ابن السائب الكلبي: هو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو (ت ١٤٦هـ/ ٧٦٣م) راوية، عالم بأيام العرب، من أهل الكوفة، مولده ووفاته فيها. وهو شيعي متروك الحديث ولكن يؤخذ عنه روايات ما قبل الإسلام. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٤٨، ٢٤٩.

(٥) أثافيُّ (وتخفَّف الياء): الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها، مفردها الأُثْفِيَّة. ابن منظور: لسان العرب، مادَّة ثفا ١٤/ ١١٣.

وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً[٢] مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ طُفْنَا بِهِ[٣]. وقد كان في جوف الكعبة - البيت الذي بُنِيَ لعبادة الله وحده - وفي فنائها ثلاثمائة وستون صنمًا[٤].

هكذا كان حال الأمم السابقة في تصوُّراتها للدين والعقيدة والإله المعبود؛ حيث الوثنية وانتفاء التوحيد، ومن ثَمَّ انتفاء صفات القدرة والربوبية والخَلْق، مع ما ترتَّب على ذلك من انحطاط للإنسانية، وانحطاطٍ لقيم أي بعثٍ حضاري.

***

(١) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، ص٣٣.

(٢) الجُثوة والجَثْوَة والجِثْوَة ثلاث لغات: حجارة من تراب متجمع كالقبر، وقيل: هي الحجارة المجموعة، وقيل: هي الرَّبْوة الصغيرة، وقيل: هي الكُومةُ من التراب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جثا ١٤/ ١٣١.

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال (٤١١٧).

(٤) البخاري عن عبد الله بن مسعود: كتاب المظالم، باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر أو تحرق الزقاق (٢٣٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة (١٧٨١).

المبحث الثاني

التوحيد وإصلاح التصور العقائدي

في مقابل أوهام وخرافات وضلالات التصوُّر الاعتقادي للأمم السابقة، وأمام عقلية العالم يوم بُعِث رسول الله ﷺ، كان إسهام المسلمين بعقيدة التوحيد، تلك العقيدة التي عُدَّت منحة الإسلام للإنسانية، لم ولن تنال الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة.

ففي عقيدة الإسلام أن هذا العالم ليس بلا مَلِك، بل له مَلِك واحد، وهو خالقه وصانعه وحاكمه ومدبِّره، له الخلق والأمر كله، وله الحكم ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[1]، ولا يحدث في هذا العالم شيء إلا بأمره وقدرته، وأن العلَّة الحقيقية لوجوده هي إرادته وقدرته، وأن هذا الكون كله خاضع له في كونه ووجوده، ومنقاد له وطوع أمره ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]، وعلى المخلوقات التي تملك إرادة واختيارًا أن تخضع له ﴿أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3] [4].

فلأنه ﷻ هو الذي خَلَق الكون كله وخَلَق العباد كلهم، فهو الوحيد الذي يجب أن يَتَوَجَّه إليه الخلقُ بالعبادة.

وقد أقام الإسلام الحُجَّة البالغة على أن الله ﷻ هو الذي خَلَق، وأقام أيضًا الحجة البالغة على أنه ليس هناك إله غيره، فقال تعالى في سياق إيراد الحجة العقلية المنطقية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[5]، وتحدَّى ﷻ الناس بكل قوَّة فقال: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[6].

والحقيقة أن هذا المنطق كان مُقْنِعًا جدًّا، حتى إن أهل الأرض تلَقَّفُوه بالقَبُول والاقتناع، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

---

(١) (الأعراف: ٥٤).
(٢) (آل عمران: ٨٣).
(٣) (الزمر: ٣).
(٤) أبو الحسن الندوي: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ص٢١.
(٥) (الأنبياء: ٢٢).
(٦) (سبأ: ٢٧).

ويُخْطِئ هنا من يظن أن العرب المسلمين انتشروا في العالم فانتشر الإسلام وانتشرت عقيدة التوحيد لكثرة العرب، ويخطئ أيضًا من يظنُّ أن العرب المسلمين قهروا الناس على دخول الإسلام واعتناق التوحيد بقوة السيف والسلاح، ولنا أن نُرَاجِع تاريخ العالم.

فالعرب المسلمون كانوا قلَّة، وكان سلاحهم ضعيفًا كيفًا وكمًّا، وكانت إمكانياتهم الاقتصادية والعسكرية بسيطة للغاية، ومع ذلك قَبِل العالم في ذلك الوقت أن يترك ديانة البلاد والأمم والحضارات القوية والمتحضرة ويدخل في دين هذه القلَّة البسيطة!

ولعلَّ السؤال المتبادر إلى الذهن هنا هو: لماذا كان ذلك؟! ولماذا كان هذا القبول؟!

وتكمن الإجابة في أنه دين مُقْنِعٌ، وأنها عقيدة تتوافق تمامًا وتتماشى مع الفطرة ومع المنطق، تلك العقيدة التي فطر الله الناس عليها في عبادة واحدٍ أحدٍ، دون منازع أو شريك.

ولنا أن نتساءل الآن:

- مَنْ قهر العرب أصلاً أن يدخلوا في الإسلام، مع أن الرسول ﷺ وأصحابه كانوا في غاية القلَّة والضعف؟

- مَنْ قهر المصريين وأجبرهم على دخول الإسلام؟ وهل يُعقل أن يستطيع ثمانية آلاف جندي أن يقهروا شعبًا عريقًا كشعب مصر تجاوز عدده وقت الفتح ثمانية ملايين نسمة؟! مع العلم بأن مصر كانت واقعة تحت الاحتلال البيزنطي، وكانت الإمبراطورية البيزنطية آنذاك في غاية القوَّة.

- مَنْ قهر أهل فارس أصحاب الأعداد الغفيرة والتاريخ الطويل على أن يتركوا عبادة السنين ويعتنقوا الإسلام؟

- ومن قهر أهل شمال إفريقيا والأندلس وأفغانستان وباكستان وماليزيا وإندونيسيا والأتراك وغيرهم؟

- بل مَنْ قهر العالم الآن على دخول الإسلام مع أن الجميع يشهد أن المسلمين في

حالة أضعف بكثير من الآخرين، وليس مجرَّد دخول بسيط، بل إن الإسلام أسرع الديانات نموًّا في العالم الآن!

فالحقيقة التي لا مراء فيها أن حُجَّة الله بالغة، ودين الله لا ثغرة فيه ولا خطأ؛ ولذلك لا يمكن لأحد أن يقرأ عنه أو أن يعرفه إلاَّ ويعلم أنه الحقُّ، سواءٌ اتَّبعه أم لم يتَّبِعْه.

والحقيقة الأخرى أن إسهام المسلمين في ذلك التصوُّر العقدي لم يقف تأثيره على مَنْ أسلم فقط، بل إنه أفاد غير المسلمين - كما سيأتي بيانه - في وضوح الرؤية العقدية الحقيقية عندهم، وذلك في ناحية التوحيد.

ولا يخفى أن الأثر العقلي الأوَّل الذي يترتَّب من هذه العقيدة على الإنسان هو أن العالم كله تابع لمركز ونظام واحد، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ترابطًا ظاهرًا، ووحدة في القانون، ثم بعد هذه العقيدة يستطيع الإنسان أن يأتي بتفسير كامل للحياة، وأن يُقَوِّمَ فكره وعَمَله في هذا الكون على حكمة وبصيرة[1].

ولا ريب أن الإيمان بإله واحد قادر، يُخَلِّص الفكر من تخبُّط التعدُّدية في الآلهة التي لا تستقيم مع الفطرة السليمة، ويُطْلِق قوى النفس والبدن المؤمنة بالله المسيطر على مجريات الحياة والكون، ومَنْ تتعلَّق بيده سبحانه مقادير الخَلْقِ، المتوكّلة عليه نحو العمل والنشاط، مرتكنة إلى أن هناك ربًّا للكون يرى كل ما يدور بين جنباته، ويُثِيبُ المحسن إحسانًا، ويُعَاقِبُ المسيء إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة، فلا يضيع إحسان، ولا يُهْضَمُ حقٌّ عنده[2].

ولا ريب أيضًا أن أهمَّ آثار هذه العقيدة في المجتمع تتبدَّى حين نريد أن نؤسس مجتمعًا نظيفًا، تسوده العدالة، وتحكمه الفضيلة، وتختفي منه الجريمة، وتُظَلِّلُه الطمأنينة، ويتعاون أفراده على كل ما فيه خيره وصلاحه، فحين نريد ذلك ينبغي أن نؤسس المجتمع على العقيدة الإسلامية التي هي الدِعامة الأولى لبناء المجتمع، وعلى هذا الأساس رَبَّى رسول الله ﷺ أصحابه، فأوجد المجتمع الفاضل، وتكوَّنت الأُمَّة الإسلامية التي دانت لها الدنيا من مشرقها إلى مغربها.

---

(١) أبو الحسن الندوي: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ص٢٢.
(٢) جمال فوزي: معالم الحضارة الإسلامية ص١٦.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «انحلَّت العقدة الكبرى، عقدة الشرك والكفر، فانحلَّت العقد كلها، وجاهدهم رسول الله ﷺ جهاده الأوَّل، فلم يَحْتَجْ إلى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهي، وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأُولَى، فكان النَّصر حليفه في كل معركة.. نزل تحريم الخمر والكئوس المتدفِّقة على راحاتهم، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمِّظة والأكباد المتقدة، وكُسِرَتْ دنان الخمر، فسالت في سِكَكِ المدينة! كلمة واحدة اجتثت عادة متأصِّلة في القوم، ورثوها كابرًا عن كابر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[1]، قالوا: انتهينا ربنا، انتهينا ربنا... بينما حاولت أمريكا أن تُحَرِّمَ الخمر، واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة؛ كالمجلات، والجرائد، والمحاضرات، والصور، والسينما لبيان مضارِّها، وأنفقت ما يزيد على ٦٠ مليون دولارٍ ضدَّها، وطَبَعَتْ حوالي عشرة بلايين صفحة، وتحمَّلَتْ لتنفيذ القانون حوالي ٢٥٠ مليون دولار، وأَعْدَمَتْ ثلاثمائة نفس، وسَجَنَتْ ما يزيد على نصف مليون، وصادرت من الممتلكات بحوالي أربعمائة مليون وأربعة ملايين دولار، ومع هذا لم يزد الشعب الأمريكي إلاَّ معاقرة للخمر؛ ممَّا اضطر الحكومة إلى إباحته سنة (١٩٣٣م)، والسبب بسيط؛ أن التنفيذ للأوامر لم يكن ناتجًا عن الاعتقاد»[2].

وعلى هذا تكون حضارة الإسلام قد أغنت الإنسان بعقيدة صافية نقية، سهلة، سائغة، حافزة للهمم، باعثة للحياة، فتخلَّص من كل خوف ووَجَلٍ، وصار لا يخاف أحدًا إلاَّ الله، وعَلِمَ عِلْمَ اليقين أنه وحده سبحانه وتعالى هو الضارُّ والنافع، والمعطي والمانع، وأنه وحده الكفيل لحاجات البشر، فتَغَيَّرَ العالم كله في نظره بهذه المعرفة الجديدة، والاكتشاف الجديد، وصار مصونًا عن كل نوع من العبودية والرقِّ، وعن كل رجاء وخوف من المخلوق، وعن كل ما يُشَتِّتُ البال ويشوش الأفكار، فقد شعر بوَحدة في هذه الكثرة، واعتبر نفسه أشرف خَلْق الله، وسيد هذه الأرض، وخليفة الله بها، يُطيع ربه وخالقه، وينفِّذ أوامره، ويحقِّق بذلك هذا الشرف الإنساني العظيم، والعظمة الإنسانية الخالدة، التي حرمتها الدنيا منذ زمن بعيد.

---

(١) (المائدة: ٩١).

(٢) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص٩٠، وهامش ص٦٨.

إنها الحضارة الإسلامية التي أتحفت الإنسانية بهذه التحفة النادرة - عقيدة التوحيد - التي كانت مجهولة، مغمورة، مظلومة، مغبونة أكثر من أي عقيدة في العالم، ثم ردَّدَ صداها العالم كله، وتأثَّرت بها الفلسفات والدعوات العالمية كلها في قليل أو كثير، فاضطرت بعض الديانات الكبيرة التي نشأت على الشرك وتعدُّد الآلهة وامتزجت به لحمًا ودمًا أن تعترف - ولو بصوت خافت وهمسة في الآذان - بأن الله واحد لا شريك له، وأُرْغِمَتْ على تأويل معتقداتها المشركة تأويلاً فلسفيًا، يُبَرِّئُها من تهمة الشرك والبدعة، ويجعلها متشابهة بعقيدة التوحيد في الإسلام، وبدأ رجالها وسَدَنَتُهَا يَسْتَحْيُون من الاعتراف بالشرك، ويخجلون من ذِكْرِه، وأُصيبت هذه الأنظمة المشركة كلها (بمُرَكَّبِ النقص) والشعور بالصغار والهوان.. فكانت هذه التحفة أغلى التحف التي سَعِدَتْ بها الإنسانية بفضل إسهام حضارة الإسلام وبعثة الرسول ﷺ[1].

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ص٢١- ٢٤.

الفصل الثاني
تطوير العلوم المتداولة

في هذه الناحية التي تعني بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، كانت هناك علوم كثيرة متداولة قبل حضارة المسلمين، عرفتها الشعوب المفتوحة وغيرها، وقد كان للحضارات السابقة فيها آثار طيبة، انتفع بها المسلمون، واقتبسوا منها ما يتناسب وعقيدتهم وثقافتهم، ثم كانت لهم الإضافات الباهرة التي تركت بصمتهم على هذه العلوم وإلى اليوم.

ولعلَّ أبرز هذه العلوم تلك التي في المباحث التالية:

- المبحث الأول: علم الفلسفة
- المبحث الثاني: علم التاريخ
- المبحث الثالث: علم الأدب

المبحث الأول

علم الفلسفة

كلمة الفلسفة كلمة يونانية الأصل، وهي تتكون من مقطعين يونانيين هما: (philien) ومعناه: (يحب). و(sophia) ومعناه: (الحكمة)، وعلى هذا يكون الفيلسوف (philosopher) هو: الشخص الذي يحبُّ الحكمة، أو هو: (محبُّ الحكمة) (١).

وقد عرّف الفلاسفة المسلمون الفلسفة تعريفات عِدَّة، منها ما ذكره الكندي بقوله: «إنها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان؛ لأن غرض الفيلسوف في علمه إصابة الحق، وفي عمله العمل بالحق»(٢).

وعلم الفلسفة لم يظهر ولم يعرفه المسلمون إلا بعد حركة الترجمة، وبالتحديد في العصر العباسي الأول؛ وقد مهَّدَ لذلك وجود كتب فلاسفة اليونان منتشرة في مناطق البحر الأبيض بين الإسكندرية وأنطاكية وحَرَّان، فضلاً عن أن المأمون كان يُرَاسِل ملوك الروم - وهم البيزنطيون - ليحصل على الكتب والمخطوطات، لا سيما كتب الفلسفة؛ إذ كانت القسطنطينية - عاصمة الروم - تُعْرَفُ بمدينة الحكمة(٣)، فبعث إليه الروم بكتب الفلسفة وغيرها. كما استجاب للمأمون مهرة التراجمة، فقاموا بتعريبها، أو نقلها بنصوصها عن طريق الترجمات السريانية؛ إذ إن السريان قبل مجيء المسلمين كانوا قد ترجموا كتبًا كثيرة في الفلسفة اليونانية، وقد كان من أشهر مترجميهم: سرجيوس وسفرونيوس وسويرس(٤).

وما إن تُرجمت الفلسفة اليونانية - مع غيرها من علوم اليونان - وأصبحت في حوزة المسلمين، حتى اختلفوا في موقفهم منها؛ فمنهم من وقف منها موقف الرفض والمعارضة، ونظر إليها على أنها باب إلى الضلال والفساد، وهذا هو موقف المتشددين من الفقهاء. ومنهم من وقف موقفًا وسطًا يقوم على النقد والتمحيص، فيأخذ منها ما يراه

---

(١) انظر: يحيى هويدي: مقدمة في الفلسفة ص٢٢.
(٢) رسائل الكندي الفلسفية ١/ ١٧٢.
(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٧/ ٨٧.
(٤) انظر: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢٢٠، ٢٢١.

حقًّا، ويرفض ما يراه باطلاً، وهذا هو موقف المعتزلة وكثير من الأشاعرة من أمثال الغزالي الذي ميز بين ثلاثة أقسام فيها: «قسم يجب التكفير به، وقسم يجب التبديع به، وقسم لا يجب إنكاره أصلاً»[١]. ومنهم من وقف منها موقف الإعجاب والتقدير، فعكف على دراستها، وحاول محاكاتها، والتأليف على نمطها، وهذا هو موقف الكندي وأتباعه[٢].

وإذا كان من علماء المسلمين، سواء في المشرق العربي أو المغرب والأندلس، مَنْ وَجَّهُوا جانبًا من عنايتهم للفلسفة اليونانية - كما في المثال الأخير - وعَبَّرُوا عن إعجابهم الشديد بها؛ فإنهم مع ذلك لم يكونوا - كما حاول بعض المستشرقين تصويرهم - مجرَّد حفظة للتراث اليوناني، أو قنطرة عَبَرَ عليها هذا التراث من اليونانية القديمة إلى أوربا في العصور الوسطى وما أعقبها من عصور. ومَنْ يَقِفُ على تراث الكندي، أو الفارابي، أو ابن سينا، أو ابن رشد - مثلاً - فإنه سوف يكتشف أن هؤلاء الفلاسفة - حتى في شروحهم وتلخيصاتهم للفلسفة اليونانية - كانت لهم ابتكاراتهم التي تكشف عن أصالتهم؛ وذلك أمر لا يحتمل الإنكار، إلا أن يكون ممَّن تأصَّلت فيهم نزعة التعصب المقيت، والبُغض لكل ما هو شرقي أو إسلامي. ولعلَّ من أبرز مظاهر الأصالة في فلاسفة هذا الميدان ما يتجلَّى في نتاج محاولاتهم التوفيق بين الفلسفة والدين، أو بين العقل والوحي، وهي المحاولات التي سبقتها جهود أخرى للتوفيق بين أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م) ذي النزعة المثالية الصوفية - كما فهموه - وبين أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م) صاحب الاتجاه العقلي[٣].

وقد تجلى إسهام المسلمين الواضح في علم الفلسفة في تفنيد ما في كتب ومؤلَّفات اليونان من معلومات، وتصحيح ما فيها من أخطاء، والربط بين ما جاء في أطرافها من معارف متناثرة وشذرات متباعدة، وإضافة شروح وافية لها، ثم إضافة الجديد من المعلومات التي تَوَصَّل إليها علماء المسلمين ولم يعرفها غيرهم من السابقين، فكان أن تَعَدَّدَتْ جوانب التفكير الفلسفي في الإسلام، وكان من أهمها: علم الكلام، والتصوف، والفلسفة الإسلامية الخالصة، وهذه نُبذة مختصرة من كل منها.

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال ص١٠١.

(٢) انظر: عبد المقصود عبد الغني: في الفلسفة الإسلامية ص٢٢، ٢٣.

(٣) انظر: حامد طاهر: مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص٢١.

١- علم الكلام:

يعدُّ هذا العلم باكورة من بواكير العقلية الإسلامية، وهو كما يعرفه ابن خلدون: «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والردّ على المبتدعة المنحرفين»[١].

وهذا العلم يعتبر خالصًا للمسلمين؛ على الأقل في نشأته، فقد نشأ من أجل الدفاع عن العقائد الدينية وتفسيرها أو تأويلها تأويلاً عقليًّا عندما ظهر الضلال والزندقة، ومن خلال هذا العلم ظهرت المذاهب الفلسفية الكبرى، وظهر عمل المسلمين الباهر في تفسير الكون واكتشاف القوانين الطبيعية، وتوصلهم إلى مفهوم للوجود والحركة والعلة، يخالف مفهوم اليونان ويسبقون به مفكري أوربا المحدثين وفلاسفتهم[٢].

ولعل اهتمام المتكلمين في منهجهم بالنظر والعقل هو ما حدا ببعض المستشرقين أن يعتبروا علم الكلام مناط ابتكار في التفكير الفلسفي الإسلامي، ودليلاً على أصالةٍ فكرية لدى المسلمين، وفي ذلك يقول المستشرق الفرنسي رينان: «أما الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام فينبغي أن تُلتمس في مذاهب المتكلمين»[٣].

٢- التصوف:

يعتبر التصوف ميدانًا من ميادين التفكير الفلسفي الإسلامي؛ لأنه وإن كان في جوهره تجربة روحية يعانيها الصوفي، فإن الفكر يمتزج بالواقع، والعلم يمتزج بالعمل في هذه التجربة، وهو بذلك ليس فلسفة خالصة تهتم بالبحث العقلي النظري في طبيعة الوجود بقصد الوصول إلى نظرية ميتافيزيقية متكاملة وخالية من التناقض، ولكنه فلسفة خاصة في الحياة تمتزج فيها العاطفة بالفكر، والعقل بالقلب، تهدف إلى إدراك الوجود الحق. ومن هنا كان في التصوف آراء ومذاهب ونظريات تعتبر ثمرة لتكامل الطاقات

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٤٥٨.

(٢) انظر: علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/ ٣١، وعبد المقصود عبد الغني: في الفلسفة الإسلامية ص٢٤.

(٣) انظر: أبو الوفا التفتازاني: دراسات في الفلسفة الإسلامية ص١٨.

الإنسانية الثلاث: العقل والوجدان والسلوك[١].

وينبغي أن نشير هنا إلى أن التصوف من حيث هو استبطان منظم للتجربة الدينية - أيًّا كانت - ولنتائج هذه التجربة في نفس الرجل الذي يمارسها، فهو بهذا الوصف ظاهرة إنسانية ذات طابع روحي لا تحده حدود زمانية أو مكانية، وليس وقفًا على أمة من الأمم أو جنس من الأجناس البشرية[٢].

٣- الفلسفة الخالصة:

وهي فلسفة الذين أعجبوا بالفلسفة اليونانية وعكفوا على دراستها وشرحها وتحليلها وألفوا على نمطها، من أمثال: الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجة[٣] وابن طفيل[٤].. هذه الثُلَّة من الفلاسفة المسلمين الذين كانوا منارة استضاءت بها الدنيا والحضارة الغربية. وهذه نُبذة من حياة بعضهم:

١) الكندي:

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الكوفي (١٨٥-٢٥٦هـ/ ٨٠٥-٨٧٣م)، يعدُّه الكثيرون مؤسِّسَ الفلسفة العربية الإسلامية، وقد استحقَّ عن جدارة ومقدرة لقب: (فيلسوف العرب)؛ حيث خَلَفَ مؤلَّفاتٍ تربو على المائتين في مختَلَفِ العلوم، كان من أهمها في الفلسفة كتابه القيِّم: (الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد).

وقد وضع الكندي اللبنة الأولى في توضيح مشكلة حرية الإرادة توضيحًا فلسفيًّا، فلاحظ أن الفعل الحقيقي ما كان وليد قصدٍ وإرادة، وأن إرادة الإنسان قوَّة نفسية تُحَرِّكها الخواطر والسوانح، وهو من المؤمنين بالسببيَّة، كما أنه يؤكِّد فكرة العناية الإلهية التي

---

(١) انظر: عبد المقصود عبد الغني: في الفلسفة الإسلامية ص٢٥.

(٢) انظر: أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام ص٥٦.

(٣) ابن باجة الأندلسي: هو أبو بكر محمد بن يحيى بن باجة (ت ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م)، فيلسوف مولع بالطبيعيات والفلك والطب والشعر. من كتبه: «اتصال العقل». انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٤٢٩.

(٤) ابن طفيل: أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، (٤٩٤ - ٥٨١ هـ/ ١١٠٠ - ١١٨٥م)، طبيب وفيلسوف وشاعر عمل في بلاط الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف، صاحب قصة حي بن يقظان. انظر الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٤٩.

يخضع الكون بمقتضاها لسُنَنٍ ثابتة[١].

وكان للكندي كذلك اهتمام بالرياضيات والفلك، وقد وضع كتبًا في الطب والأدوية، وله أيضًا آثار في الجغرافيا، والكيمياء، والميكانيكا، وكذلك الموسيقى، وقد عَدَّه بعض المستشرقين واحدًا من اثنتي عشرة شخصية تُمَثِّل قمّة الفكر الإنساني[٢].

٢) الفارابي:

وهو أبو نصر محمد بن طرحان الفارابي (٢٥٩-٣٣٩هـ/ ٨٧٢-٩٥٠م)، ويُعَدُّ من أكبر فلاسفة المسلمين، ويُعْرَف بالمعلِّم الثاني لدراسته كتب أرسطو - المعلم الأول - وشرحه لها، وعلى يده وَصَلَتِ الفلسفة الأرسطوطاليسية إلى أقصى ما وصلت إليه من ازدهار، وقد اشتهر بين الأوربيين باسم (Alpharabius)؛ فبفضل شروحه وأفكاره وأسلوبه تمكَّن من تقريب الفلسفة اليونانية إلى الفكر الإسلامي؛ ممَّا لم يُعْرَفْ قَبلاً على يد الكندي[٣].

ومن أشهر كتب الفارابي وأهمها كتابه: (آراء أهل المدينةِ الفاضلة)، الذي شرح فيه نظام المجتمع الإنساني الأمثل، وحاول أن يُفَسِّرَ نواحي الإسلام المختلفة وجوانب الثقافة العربية الإسلامية المتعدِّدَة في ضوء فلسفته الخاصة، فبحث في علم الكلام والعقيدة والفقه والتشريع.. وقد نُقِلَتْ كتبه إلى اللاتينية في العصور الوسطى، وطُبِعَتْ في باريس سنة (١٦٣٨م)، فكان لها أثرٌ فلسفي عظيم على أوربا[٤].

٣) ابن سينا:

وهو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ/ ٩٨٠-١٠٣٧م)، اشتهر بالشيخ الرئيس، وعُرِفَ بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، ولم تَقِلّ شهرته كطبيب عن شهرته كفيلسوف، وقد عَدَّه سارتون من أعظم علماء الإسلام، ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين.

---

(١) إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية ٢/ ١٤٤.

(٢) انظر: قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي ص٢٧، وفوقية محمود: مقالات في أصالة المفكر المسلم ص٤٩.

(٣) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢٢٤.

(٤) رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٨٨.

ولابن سينا في الفلسفة مؤلَّفات كثيرة تشهد ببراعته في صناعة الفلسفة وتطوُّرها على يديه، وقد تُرْجِمَ بعضها إلى اللغات الأوربية، ومن أهمِّ مصنفاته الفلسفية: (الشفاء)؛ الذي استوعب فيه علوم الفلسفة، يليه (النجاة)؛ وهو مختصر (الشفاء)، و(الإشارات والتنبيه)، وتِسْع رسائل في الحكمة، وغير ذلك[1].

صورة (٢٠) كتاب الشفاء لابن سينا

٤) ابن رشد:

وهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي (ت ٥٩٥هـ-١١٩٨م)، يُعَدُّ من أعظم فلاسفة المسلمين في الأندلس، ويُعْتَبَرُ من أعظم شُرَّاحِ فلسفة أرسطو، حتى إنه عُرِفَ باسم (الشارح)، فهو الذي مَيَّزَ بين تعاليم أرسطو وأفلاطون، كما تَمَيَّزَ بالتمحيص الكبير، حتى إنه لم يرتضِ كثيرًا من آراء أرسطو التي لا تَتَّفِقُ مع الدين.

وقد اقتبس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها، ففتحت أمام الفكر الفلسفي الأوربي الوسيط بابَ البحث والمناقشة، فنشأ بينهم مذهب (الرشدية) للأخذ بالعقل عند البحث. ومن تآليفه المهمَّة: (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال)، و(مناهج الأدلة في عقائد الملة)[2].

وإجمالاً فإن الفلسفة الإسلامية تعتبر اطِّرادًا واستمرارًا للفكر الإنساني، بل وتقدمًا له في بعض النواحي؛ حيث أخذت ما أخذت عن الفلسفات القديمة، ثم ساهمت في تنقيحها وإضافة الجديد إليها، ومهدت لما بعدها من فلسفات أخرى، فدفعت الفلسفة المسيحية دفعة قوية، وبعثت النهضة الأوربية وغذَّت رجالها في العصر الحديث.

---

(١) انظر: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢٢٥.

(٢) المصدر السابق ص٢٢٧، ورحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٨٨.

ويمكن تبين أثر الفلسفة الإسلامية من الناحية الموضوعية في أنها أثارت في أوربا موضوعات ومشكلات كثيرة نالت اهتمامًا في الجامعات والمعاهد، ودارت حولها بحوث ودراسات، وعالجتها كتب ومؤلفات، وشغلت البيئات الثقافية على اختلافها، من ذلك موضوع النفس وحقيقتها، ونظرية المعرفة، ومشكلة قِدم العالم، ونظرية الفيض أو الصدور، وصفات الباري، ومشكلة العناية الإلهية، والخير والشر، ومشكلة الوجود والماهية أو الممكن والواجب، إلى آخر هذه المسائل[١].

* * *

(١) انظر: عبد المقصود عبد الغني: في الفلسفة الإسلامية ص٨٨.

المبحث الثاني
علم التاريـــــخ

لا ريب أن علم التاريخ بدأ مع بداية وجود المجتمع الإنساني نفسه منذ بدأ الإنسان يسجِّل مظاهر حياته بشكل أو بآخر، مبتكرًا بذلك مجالاً جديدًا لمعرفة الإنسان بذاته. ولا شَكَّ أن هذا النمط المعرفي قد جاء تلبيةً لحاجات اجتماعية فَرَضَتْ نفسها منذ البداية على الجماعات الإنسانية، ومِن ثَمَّ من الجائز أن نُقَرِّرَ أن للتاريخ وظيفة اجتماعية؛ من حيث إنه يُلَبِّي حاجة الجماعة البشرية إلى معرفة ذاتها[1].

يقول ابن خلدون: «فإن فنَّ التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتشدُّ إليه الركائب والرحال، وتَسْمُو إلى معرفته السُّوقَة والأغفال[2]، وتتنافس فيه الملوك والأقيال[3]، وتتساوى في فهمه العلماء والجُهَّال؛ إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبارٍ عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأُوَل، تنمو فيها الأقوال، وتُضْرَبُ فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصَّها الاحتفال، وتؤدِّي لنا شأن الخليقة كيف تقلَّبت بها الأحوال، واتَّسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه (أي في باطن علم التاريخ للمتبحِّرِينَ) نظرٌ وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعِلْمٌ بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق؛ فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعَدَّ في علومها وخليق»[4].

وقد جاء في تعريف علم التاريخ أنه: «معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم، ورسومهم وعاداتهم، وصنائع أشخاصهم، وأنسابهم ووفَيَاتهم، إلى غير ذلك. وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والملوك والشعراء وغيرهم. والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية. وفائدته العِبرة بتلك الأحوال والتنصح بها،

---

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ ص٩.

(٢) أغفال مفردها غُفْل: وهو الذي أُغْفِل فلا يرجى خيرُه ولا يخشى شرّه، والذي لم تَسِمْهُ التجارب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة غفل ١١/ ٤٩٧، والمعجم الوسيط، مادة غفل ١/ ٦٥٧.

(٣) الأقيال مفردها القَيْل: وهو المَلِك عامَّة، أو من ملوك حِمْير يتقيَّل مَنْ قبله من ملوكهم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادّة قيل ١١/ ٥٧٢.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٣، ٤.

وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن؛ ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار، ويستجلب نظائرها من المنافع. وهذا العلم عمر آخر للناظرين، والانتفاع في مصره بمنافع تحصل للمسافرين»[١].

هذا وقد اتَّصف علم التاريخ الإسلامي بالأصالة والاستقلال؛ لنشوئه من داخل المجتمع الإسلامي تلبية لحاجات هذا المجتمع وأغراضه، ولم يكن التاريخ الإسلامي ظلاً لما عند الآخرين أو اقتباسًا لأعمالهم التاريخية وأفكارهم عنه. كما كان تلبية لشعور المؤرِّخِينَ الديني، ومُتَمِّمًا للعلوم الدينية، وكان التقويم الهجري الأساس الذي اتَّخذه التاريخ الإسلامي في تسجيل أحداثه وتحديد أزمانه[٢].

وقد كان العرب في جاهليتهم وأوائل الإسلام يحفظون التاريخ في ذاكرتهم، ولم يقوموا بتدوينه، ولم يكن ذلك لأنهم كانوا يجهلون الكتابة؛ ولكن لتحبيذهم الحفظ على الكتابة؛ إذ إنَّ مَلَكَةَ الكتابة لم تكن وقتذاك لتُعْطي صاحبها تفوُّقًا في المجتمع أكثر ممَّا تعطيه مَلَكَة الحفظ، فكان تاريخ العرب الأوَّل - وهو عبارة عن وقائع وأيام وغزوات - محفوظًا في الذاكرة يُرَدِّدُونَه على ألسنتهم. ولكن بعد أن ابتعد العرب المسلمون عن بيئتهم، وتفرَّقُوا في الأرض للفتح والغزو بين شعوب لا تَتَكَلَّمُ لغتهم، ضعفت ملكة الحفظ عندهم، وظهرت الحاجة إلى التدوين؛ ففي أواخر القرن الثاني الهجري كان المسلمون في حاجة مُلِحَّة إلى ضبط ونقل أحاديث النبي ﷺ والسِّيَرِ والأحوال؛ وكان هذا بداية تدوين التاريخ الإسلامي. وإن كان التدوين في التاريخ الإسلامي لم ينتشر إلاَّ حينما أَقْبَلَ أهلُ البلاد المفتوحة على الإسلام، وأقبلوا على تَعَلُّم العربية؛ حيث كانت حضارتهم السابقة تساعدهم على تذوُّق التاريخ، فكان معظم المؤرخين الأوائل في الإسلام هم المستعربين من العجم[٣].

ويمكن القول بأن الدراسات التاريخية الإسلامية قامت في البداية على سيرة الرسول ﷺ وأخبار غزواته ومن اشترك فيها من الصحابة، وأخبار هجرة المسلمين الأوائل إلى

---

(١) القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ١٣٧، ١٣٨.

(٢) انظر: روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين ص٢٦٧، وأحمد أمين: فجر الإسلام ص١٥٦-١٦٢.

(٣) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢١١، ٢١٢.

الحبشة ثم إلى المدينة المنورة، وكانت مكة والمدينة المركز الرئيسي لنشاط هذه الحركة التاريخية. وكان المؤرخون يعتمدون على الروايات الشفهية كما كان يفعل المحدِّثون؛ مما يدل على أن التاريخ الإسلامي سلك في بدايته الطريقة نفسها التي سلكها علم الحديث؛ فكان الخبر التاريخي على هذا النحو يتألف من رواة الخبر على التتالي، وهو ما يُعرف بالسند أو الإسناد، ثم نَصّ الخبر ويسمى المتن. وبهذا تعدّ كتب المغازي والسيرة أقدم الكتب التاريخية التي تجمع بين الحديث والتاريخ، وكان سبب الاهتمام فيها هو اهتمام المسلمين بأقوال الرسول ﷺ وأفعاله؛ للاهتداء بها والاعتماد عليها.

وقد ظهر بذلك أسلوبان في تدوين التاريخ عند المسلمين؛ الأوَّل: هو أسلوب المحدِّثِينَ الذي ظهر واضحًا في تاريخ السيرة النبوية التي نشأت في المدينة المنورة، وتميَّز أسلوبها بذِكْرِ الخبر مع إسناده. أمَّا الأسلوب الثاني: فهو أسلوب الإخباريين الذي تميَّز بإعطاء صورة كاملة عن الواقعة التاريخية، وذِكْرِ التفاصيل، ورواية الشعر والخطب، وقد ظهر هذا الأسلوب في الكوفة. ثم ظهر بعد ذلك الجمع بين الأسلوبين، كما ظهرت مدارس أخرى للتاريخ تميزت بتناول الموضوعات الخاصة بالمعارك والفتوح الإسلامية ودراسة الأنساب.

وكان من أشهر الإخباريين: أبان بن عثمان بن عفان[(١)]، ومحمد بن شهاب الزُّهري، وابن إسحاق[(٢)]، وعوانة بن الحكم الكلبي[(٣)]، وسيف بن عمر الكوفي[(٤)]، والمدائني[(٥)] الذي يُعَدُّ من أهمِّ الإخباريين؛ وذلك لاعتماده على الإسناد أكثر من غيره، واتِّبَاعِه أسلوب المُحَدِّثِينَ في نقد الروايات وتمحيصها وتنظيمها.

---

(١) أبان بن عثمان: هو أبان بن عثمان بن عفان الأموي القرشي (ت ١٠٥هـ/ ٧٢٣م)، أول من كتب في السيرة النبوية، وهو ابن الخليفة عثمان ﷺ، مولده ووفاته في المدينة. انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ١/ ٨٤.

(٢) ابن إسحاق: هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م) من أقدم مؤرخي العرب، من أهل المدينة. من أشهر مصنفاته: (السيرة النبوية) الذي هذّبه ابن هشام. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٦، ٢٧٧.

(٣) عوانة الكلبي: هو أبو الحكم عوانة بن الحكم بن عوانة بن عياض (ت١٤٧هـ/ ٧٦٤م) علامة إخباري، أحد الفصحاء، له كتاب: «التاريخ»، وكتاب «سير معاوية وبني أمية»، وغير ذلك. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠١.

(٤) سيف بن عمر: هو سيف بن عمر الأسدي الكوفي (ت ٢٠٠هـ/ ٨١٥م) من أصحاب السير، اشتهر وتوفي ببغداد. من كتبه: «الجمل» و«الفتوح الكبير». انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٤/ ٢٥٩.

(٥) المدائني: هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله (١٣٥- ٢٢٥ هـ/ ٧٥٢- ٨٤٠م) رواية مؤرخ، كثير التصانيف، من أهل البصرة، من كتبه (أخبار قريش). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٠٠-٤٠٢.

أمَّا أهمّ مناهج الكتابة التاريخية عند المسلمين، فقد تمثَّلت في التالي:

أ- كتب السيرة النبوية ومغازي الرسول ﷺ:

حيث دفع اهتمامُ المسلمين بأقوال الرسول ﷺ وأفعاله - للاهتداء بها، والاعتماد عليها في التشريع الإسلامي والنظم الإدارية - الكُتَّابَ إلى التصنيف في سيرة الرسول ﷺ، ويمكن تقسيم رواة السيرة وكتبهم حسب تَقَدُّمهم الزمني إلى ثلاث طبقات؛ الأولى: من أبرز رجالها: عروة بن الزبير بن العوام وهو تابعي (ت ٩٢هـ)، وأبان بن عثمان بن عفان، الذي ترك وراءه صُحُفًا تضمُّ شذرات من حياة الرسول، وشرحبيل بن سعد[1]. ومن رجال الطبقة الثانية محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ويُعَدُّ من أعظم مؤرِّخي المغازي والسيرة. أمَّا الطبقة الثالثة فمن أشهر رجالها محمد بن إسحاق، وتُنسب إليه أقدم كتب السيرة التي وصلتنا.

ب- كتب الطبقات:

عَرَفَتِ الثقافة التاريخية الإسلامية منذ وقت مُبَكِّر كتب الطبقات، وهي تلك التي تتعلَّق بتدوين الحديث الشريف وتوثيقه؛ فأدَّى ذلك إلى النظر في أسانيد الحديث، وأحوال الرواة، ومِن ثَمَّ ولادة فكرة الطبقات نفسها.

فقد كان على علماء الحديث أن يهتموا بوضع معايير تسمح بقبول وتصحيح نص حديث الرسول ﷺ، وقد انصبَّتْ تلك المعايير على الجانب الخُلُقي في الراوي، وعلى مدى صدقه وتقواه، وأضافوا إليها تقصيًا عن البيئة الأسرية للرواة، وطبيعة ارتباطهم بالنبي ﷺ، والمدة التي قضوها معه، وعلاقاتهم بصحابته المقربين، أو بخلفائه الراشدين. كما ركزوا على حدوث لقاء فعليّ أو محتمل، وحرصوا على معرفة تاريخ الولادة والوفاة لكل واحد من الأعلام المذكورين في سلسلة الإسناد.

ومن ثَمَّ كان الإسناد في الحديث سببًا في ظهور التراجم التي تضم تفصيلات عن كل واحد من رجال السند، ولما كان ينبغي ترتيب أولئك الرجال على طبقات متتالية،

---

(١) شرحبيل بن سعد: هو شرحبيل بن سعد الخطمي المدني (ت١٢٣هـ/ ٧٤٠م) عالم بالمغازي والبدريين، كان يفتي ويروي الحديث، وفي روايته ضعف. انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٤/ ٢٨٢.

والتركيز على المعاصرة، والعلاقات المشتركة، وطبيعة تلك العلاقات؛ سعيًا لتسلسل الإسناد إلى النبع الذي هو النبي ﷺ، كانت ولادة فكرة الطبقات، والتي قدَّمتْ رجال السند تحت تصنيفات متعددة[١].

صورة (٢١) كتاب طبقات الشافعية للسبكي

وعليه فقد ظهرت الطبقات في مجالات شتى؛ منها: كتب طبقات المحدِّثين، وطبقات الحُفَّاظ، وطبقات الفقهاء، وطبقات الشافعية، وطبقات الحنابلة، وطبقات القُرَّاء، وطبقات المفسِّرين، وطبقات الصوفية، وطبقات الشعراء، وطبقات النحويين، وطبقات الأطباء. ومن أشهر كتب الطبقات: (الطبقات الكبرى) لمحمد بن سعد الزهري[٢]، و(طبقات الشعراء) لمحمد بن سلام الجمحي[٣]، و(طبقات الأطباء) لأحمد بن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ)، وغيرهم.

ج- كتب التراجم:

وهي مصنَّفات تَعْرِضُ لسير حياة مشاهير الناس الذين تجمعهم صفة الشهرة في مجال تخصُّصِهِمْ وبشكل موسوعي، وتتناول العلماء، والأدباء، والقادة، والخلفاء، وغيرهم، وأشهرها: (معجم الأدباء) لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، و(أُسْد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير، و(وفَيَات الأعيان) لأحمد بن محمد بن إبراهيم بن خِلِّكان (ت ٦٨١هـ)، وهو من أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطًا وإحكامًا، و(فوات الوفَيات)

---

(١) انظر: محمد خير محمود البقاعي: التأليف في طبقات المالكية في التراث العربي.. دراسة تاريخية وصفية ص٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) ابن سعد: هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري (١٦٨- ٢٣٠هـ/ ٧٨٤- ٨٤٥م) مؤرخ ثقة، من حفَّاظ الحديث. ولد في البصرة، وتوفي ببغداد. من أشهر كتبه: «الطبقات الكبرى». انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٩/ ١٦١.

(٣) الجمحي: هو أبو عبد الله محمد بن سلّام الجمحي (١٥٠ - ٢٣٢هـ/ ٧٦٧- ٨٤٦م) إمام في الأدب، من أهل البصرة، مات ببغداد، من أشهر مصنفاته:(طبقات فحول الشعراء) . انظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء ص٢٥٤١.

لابن شاكر الكُتُبيّ[١]، و(الوافي بالوفيات) لمؤلفه صلاح الدين خليل الصفدي[٢].

د- كتب الفتوح:

وهي التي اهتمَّتْ بفتوح البلدان والأمصار مثل: كتاب (فتوح مصر والمغرب والأندلس) لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)، و(فتوح البلدان) للبلاذري[٣]، و(فتوح الشام) للواقدي[٤].

هـ- كتب الأنساب:

وتهتم بأنساب العرب وأصولهم، وقد كان للعرب ولعٌ خاصٌّ بهذا العلم؛ نظرًا للعصبية القَبَلِيَّة التي كانت متأصِّلَة فيهم قبل الإسلام، وكان من أشهر النسّابين: محمد بن السائب الكلبي صاحب كتاب (جمهرة النسب)، ومصعب الزبيري[٥] مؤلف كتاب (نسب قريش)، وكان هناك أيضًا (جمهرة أنساب العرب) لابن حزم الأندلسي.

و- التواريخ المحلية:

وهي المصنفات التاريخية التي كُرِّسَتْ لتاريخ بلد مُعَيَّنٍ بكثير من التفاصيل، ومن أشهرها: كتاب (ولاة مصر وقضاتها) لأبي عمر الكندي[٦]، وكتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي، و(تاريخ دمشق) لعلي بن الحسن بن عساكر، ويقع في ثمانين مجلدًا،

---

(١) ابن شاكر الكُتُبيّ: هو صلاح الدين محمد بن شاكر الدمشقي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) مؤرخ باحث، عارف بالأدب، ولد وتوفي بدمشق. من أشهر مصنفاته: (فوات الوفيات). انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٦/ ٢٠٣- ٢٠٥.

(٢) الصفدي: هو صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (٦٩٦- ٧٦٤هـ/ ١٢٩٦- ١٣٦٣م) أديب، مؤرخ، ولد في صفد (بفلسطين)، تولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها، من تصانيفه: (الوافي بالوفيات). انظر: شذرات الذهب ٦/ ٢٠٠-٢٠٣.

(٣) البلاذري: هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) مؤرخ، جغرافي، نسابة، له شعر، من أهل بغداد. من أشهر مصنفاته: «فتوح البلدان». انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٦.

(٤) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي (١٣٠- ٢٠٧هـ/ ٧٤٧- ٨٢٣م) من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن حفاظ الحديث، من كتبه (المغازي النبوية). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٨-٣٥٠.

(٥) مصعب الزبيري: هو أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب (١٥٦- ٢٣٦هـ/ ٧٧٣- ٨٥١م) علامة بالأنساب، غزير المعرفة بالتاريخ، كان ثقة في الحديث، شاعرًا، من كتبه (نسب قريش). انظر: الأصفهاني: شذرات الذهب ٢/ ٨٦، ٨٧.

(٦) أبو عمر الكندي: هو أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (٢٨٣- بعد ٣٥٥هـ/ ٨٩٦- بعد ٩٦٦م) مؤرخ، كان من أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها وأعمالها وثغورها، من أشهر كتبه: (الولاة والقضاة). انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ١٤٨.

وكتاب (البيان المُغْرِب في أخبار المغرب) لابن عذاري[١]، وكتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لجمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي[٢] (ت ٨٧٤هـ).

ز- كتب التواريخ العامَّة:

توسَّعت اهتمامات المؤرِّخين؛ فنشأت إلى جانب السير والتراجم مؤلَّفات أَرْحَب وأوسع وأشمل يُطْلَقُ عليها (التواريخ العامَّة)، التي تعني بكتابة التاريخ مسلسلاً وَفْقَ تعاقب السنين، ويُسَجِّل فيها المؤرِّخ تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة؛ مرورًا بالرسالات السماوية قبل الإسلام، والتاريخ الجاهلي، وعصر النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين إلى التواريخ الإسلامية اللاحقة. ومن أشهر مؤلِّفي التواريخ العامة: محمد بن جرير الطبري، صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك)، المشهور بتاريخ الطبري، وكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي، وهو كتاب ذو طابع موسوعي، وكتاب (الكامل في التاريخ) ويُعْرَف بتاريخ ابن الأثير لمؤلفه عز الدين بن الأثير، وهو من أوثق مصادر التاريخ الإسلامي، وكتاب (البداية والنهاية) لابن كثير، وكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) المشهور بتاريخ ابن خلدون لمؤلفه أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون[٣].

وهناك صور أخرى كثيرة من صور الكتابة التاريخية التي أوصلها بعض المؤرخين إلى نحوٍ من ألف نوع من أنواع الكتابة التاريخية، وذكر الذهبي أربعين نوعًا؛ كان منها: السيرة النبوية، وقصص الأنبياء، وتاريخ الصحابة، والخلفاء، والملوك، والدول، والوزراء، والأمراء، والفقهاء، والقرَّاء، والحفَّاظ، والمحدِّثين، والمؤرِّخين، والنحاة، والأدباء، واللغويين، والشعراء، والعُبَّاد، والزهاد، والصوفيين، والقضاة، والولاة،

---

(١) ابن عِذَاري: هو أبو عبد الله محمد أو أحمد بن محمد المراكشي (ت نحو ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م) مؤرخ، أندلسي الأصل، من أهل مراكش. انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٩٥.

(٢) ابن تغري بردي: هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (٨١٣- ٨٧٤هـ/ ١٤١٠- ١٤٧٠م) مؤرخ بحاثة، من أهل القاهرة مولدًا ووفاة. من مصنفاته: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٢/ ١٠٠.

(٣) رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٧٩-١٨١، وحكمت عبد الكريم فريحات وإبراهيم ياسين الخطيب: مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص١١١.

والمعلِّمين، والوعَّاظ، والأشراف، والأطباء، والفلاسفة، والبخلاء[١].

يقول فرانز روزنثال[٢]: «لا شكَّ أن كمية المؤلفات التاريخية الإسلامية كبيرة، وأن الحوليات البيزنطية وثيقة الصلة بالحوليات الإسلامية، غير أن التاريخ الإسلامي تميز عنها بتنوعه الكبير وكميته الهائلة. والواقع أننا قد نشك في وجود أي مكان في التاريخ الأول كانت فيه المؤلفات التاريخية تعادل في كثرتها ما للمسلمين. إن مؤلفات المسلمين التاريخية قد تعادل في العدد المؤلفات الإغريقية واللاتينية، ولكنها بالتأكيد تفوق في العدد مؤلفات أوربا والشرق الأوسط في العصور الوسطى، ولا شكَّ أنه لم يكن بالإمكان إخفاء مكانتها الممتازة في الحركة الأدبية الإسلامية عمّن اتصل بالعرب من علماء الغرب، غير أن هؤلاء العلماء اهتموا بالعلوم والفلسفة واللاهوت، وهم كأقرانهم من المسلمين الاعتياديين لم يسيغوا الرضوخ إلى درجة الإقرار بأية معرفة عن وجود مؤلفات تاريخية»[٣].

***

(١) انظر: روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين ص٥١٨-٥٢٢.

(٢) فرانز روزنثال: (١٩١٤ - ١٩٧٥م) مستشرق أمريكي من أصل ألماني حاضر في العديد من الجامعات الكبرى، له «علم التاريخ عند المسلمين»

(٣) المصدر السابق ص٢٦٩، ٢٧٠.

المبحث الثالث

علم الأدب

عَرَف العرب علم الأدب قبل الإسلام، وإذا كان بالإمكان تَتَبُّع بداية آداب مثل اللاتينية والفارسية؛ فإنه لا يمكن تَتَبُّع بداية علم الأدب العربي؛ حيث إنه أقدم من النصوص التي وصلتنا، ومع أن المسلمين أخذوا من اليونان علومًا كثيرة، فإنهم لم يأخذوا شيئًا مهمًّا من أدبهم، على الرغم من روعة الأدب اليوناني. كما أن الأدب العربي لم يتأثَّرْ بالطابع اليوناني، وإن اطّلعوا على بعض الكتب الأدبية اليونانية مثل كتاب الشعر لأرسطو، والإلياذة والأوديسا - ملحمتي اليونان المعروفتين - بل على العكس؛ فإن الأدب العربي كان له أثره في الآداب الأوربية - كما سنرى في موضعه - التي تَفَرَّعَتْ من الأدبين اليوناني واللاتيني، ولا ريب فإن الأدب يُعَبِّرُ عن رُوح الأُمَّة؛ فالأدب العربي هو كذلك من صميم الرُّوح العربية والإسلامية[1].

ويعرّف العلماء علم الأدب بأنه: معرفة ما يحترز به من جميع أنواع الخطأ في كلام العرب لفظًا وخطًّا. وغاية هذا العلم الإجادة في فني النظم والنثر، إضافةً إلى تهذيب العقل وتزكية الجنان[2]. يقول ابن خلدون: «وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم»[3].

وأصل كلمة أدب مجهول، فضلاً عن تطوُّرِها خلال العصر الإسلامي؛ بسبب أن العرب غَيَّرَتْ حياتها باتصالها بالبلاد المفتوحة التي كانت لها آداب سابقة، وبانتشار الإسلام بين أهالي هذه البلاد، فكان لكلمة أدب في أول عهد الإسلام معنى ديني يدلُّ على السُّنَّة، ثم أصبح يدلُّ على الأسلوب في أي عمل، ثم على الثقافة العامَّة، والأخذ من كل عِلْمٍ بطرف، وإن كان آخر الأمر اقتصر - بصفة عامَّة - على الإجادة في فَنَّي النظم والنثر[4].

أَمَّا النَّظْم: فهو الشعر، وهو الكلام الموزون على رَوِيٍّ واحد، أي الحرف الأخير من

---

(١) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة ص١٩٧.

(٢) انظر: القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٤٤.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٥٥٣.

(٤) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة ص١٩٨.

القافية، ولِقِدَمِ الشعر عند العرب فقد اعْتُبِرَ من أعظم معارفهم، وقد وصلنا من الجاهلية بقواعده الموزونة، ونَظَمَهُ العرب بأنواعه المختلفة، التي سُمِّيَتْ فيما بعد: بالرجز، والقريض، والمقبوض، والمبسوط. وكان العرب في الجاهلية يعقدون لشعرائهم الأسواق في مواعيد محدَّدة، يجتمع فيها العظماء لإلقاء قصائدهم، ومَنْ يَنْبُغُ منهم تُعَلَّقُ قصيدته بأركان الكعبة وتُسَمَّى مُعَلَّقَة.

وتتعدد موضوعات الشعر العربي فمنها: الفخر، والمديح، والهجاء، والرثاء، والوصف، والنسيب، والتشبيب، ومن أبرزها: المفاخرة، وتعني المباهاة والتمدُّح بالعصبية والقبليَّة من نَسَبٍ وحسب، وفي المصادر العربية أمثلة كثيرة من المفاخرات التي وقعت في الجاهلية بين شعراء القبائل، والتي كانت تؤدِّي إلى وقوع حرب وسفك دماء، حتى جاء الإسلام وَحَرَّمَ مثل هذه المفاخرات البغيضة، وقد كان من أشهر شعراء العرب الجاهليين: مهلهل، وامرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سُلمى، وعنترة بن شداد، وطَرَفَة بن العبد، وعلقمة الفحل، والأعشى، ولبيد بن ربيعة، كما كانت هناك شاعرات مشهورات مثل: هند، والخنساء[١].

وبمجيء الإسلام الذي حَرَّم التفاخر بالعصبية والقبلية التي كانت أهم موضوعات الشعر العربي، والتي أدت إلى تفرقة العرب والحرب فيما بينهم، نحا بالشعر منحًى جديدًا، إذ نظر إليه نظرة متوازنة، فعاب على الشعراء المنافقين ومدح الصادقين، فقال تعالى: **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾**[٢]. وقد قال الرسول ﷺ كما روى أُبيّ بن كعب رضي الله عنه: **«إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً»**[٣]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: **«إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر؛ فإنه ديوان العرب»**[٤].

(١) انظر: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة ص١٩٨-٢٠٠.

(٢) (الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧).

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (٥٧٩٣)، وأبو داود (٥٠١٠)، والترمذي (٢٨٤٤)، وابن ماجه (٣٧٥٥).

(٤) المستدرك: كتاب التفسير، باب تفسير سورة (ن) (٣٨٤٥).

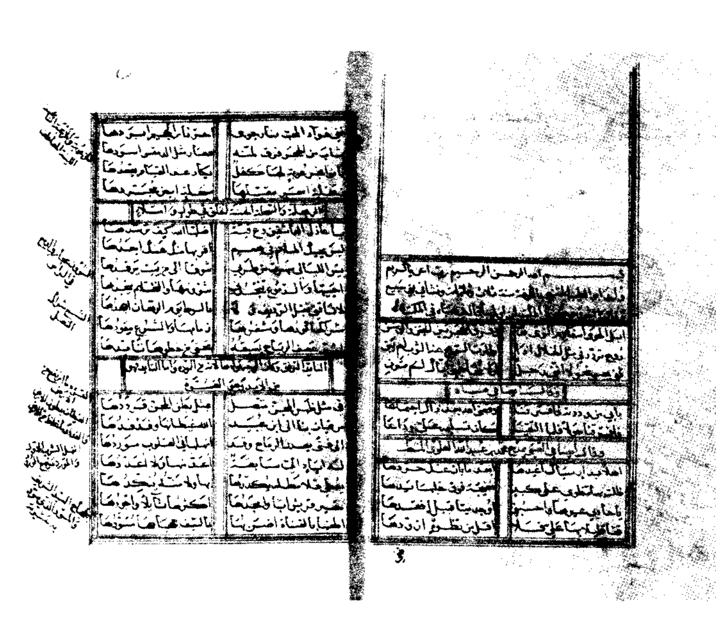
وقد أَيَّد الشعراءُ الدعوة الإسلامية، وشاركوا في معارك التحرير والفتوح، ومدحوا الرسول ﷺ والصحابة، وحَثُّوا المقاتلين على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، ورثُوا الشهداء المجاهدين، وكان من أبرز شعراء صدر الإسلام: كعب بن زهير (ت ٢٦هـ/ ٦٤٥م) صاحب البُردة، وأبو ذؤيب الهذلي (ت نحو ٢٧هـ/ ٦٤٨م)، وحسان بن ثابت (ت ٥٤هـ/ ٦٧٤م).

وفي العصر الأموي تطوَّرت أغراض الشعر، وأُدْخِلَت عليه فنونٌ جديدة تتَّصل بالعقيدة الإسلامية من خلال اهتمام الخلفاء والحكام بالشعر من جهة، وتطوُّر الحياة الاجتماعية من جهة أخرى، وظهور الأحزاب السياسية من جهة ثالثة، وارتقى الشعر في هذا العصر؛ وذلك لعناية الدولة وأمرائها لحاجتهم إليه، ولشدَّة تأثيره في الجماهير؛ فقد جعله الأمويون وسيلة لإذاعة محامدهم، وتأييد سلطانهم، وطعن زعماء خصومهم، وبخاصَّة الشيعة والخوارج والزبيريون. ومن أشهر شعراء الأمويين البارزين: أعشى ربيعة عبد الله بن خارجة (ت نحو ١٠٠هـ/ ٧١٨م)، وعدي بن الرقاع (ت ٩٥هـ/ ٧١٤م) شاعر الوليد بن عبد الملك، ومن فحول الشعراء الأمويين العراقيين الذين عاشوا في كنف الأمويين: جرير (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م)، والفرزدق (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م)، والأخطل (ت ٩٠هـ/ ٧٠٨م). وبَرَزَ من شعراء الأحزاب المناوئة للأمويين شعراء الشيعة وأبرزهم: أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ)، والكميت بن زيد (ت ١٢٦هـ)، ومن شعراء الخوارج: الطِّرِمَّاح بن حكيم (ت ١٠٠هـ)، ومن حزب الزبيريين: ابن قيس الرُّقَيّات (ت ٧٥هـ). وظهر في هذا العصر شعراء الغزل بنوعيه العذري الذي امتاز بالبساطة والصدق والرصانة، وبرز فيه: جميل بثينة (ت ٨٢هـ)، وليلى الأخيلية (ت ٧٥هـ). والغزل الصريح، وقد اشتهر به عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ) [١].

وقد شهد العصر العباسي ثورة ضخمة في الشعر - كَمًّا ونوعًا - من حيث: الموضوعات، والمعاني، والأساليب، والألفاظ، ونشأت فيه أغراض لم تكن موجودة سابقًا، وذهبت أخرى؛ فقد ضعف الشعر السياسي، والحماسي، والغزل العذري، وقَوِي

(١) رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٧٣، ١٧٤.

شعر المدح والرثاء، وازداد الشعر الحكمي، وظهر الشعر الزهدي، والصوفي، والفلسفي، والتعليمي، والقصصي، وأسرف الشعراء المتأخِّرُون في استعمال ضروب البديع من جناس وطباق، واهتمُّوا بتزويق اللفظ، فازدهرت الحركة الشعرية والأدبية بفعل عملية الامتزاج بين المجتمعات والعناصر المختلفة، وانتقال الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة، وتبلُّور الخلافات السياسية والمذهبية بين الفرق الإسلامية بعضها مع بعضٍ من جهة، ومع غيرها من جهة أخرى، فضلاً عن تشجيع الخلفاء والحكَّام للشعراء في بغداد والمدن الأخرى، ولمع في سماء الأدب العباسي شعراء كبار؛ أمثال: بشار بن برد (ت ١٦٨هـ)، وأبو نواس (ت ١٩٨هـ)، وأبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٢٨هـ)، والبحتري (ت ٢٨٤هـ)، وابن الرومي (ت ٢٨٣هـ)، وأبو الطيب المتنبي (ت ٣٥٤هـ)، وأبو فراس الحمداني (ت ٣٥٧هـ)، وأبو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)[1].



صورة (٢٢) ديوان المتنبي

وفي الأندلس ابتكر الشعراء الأندلسيون الموشَّح، وطوَّرُوه، وتَفَنَّنُوا في أساليبه، وكان الموشَّح خطوة كبيرة في تَطَوُّر شكل الشعر العربي، فقد أتاح للشاعر حرية التصرُّف في القوافي، وحرية التنوُّع في الوزن، وكان من نتائج انتشار الموشَّح انبعاث أدب الزجل الشعبي، يقول ابن خلدون: «وأمَّا أهل

(١) رحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٧٤.

الأندلس فلمّا كثر الشعر في قطرهم، وتهذَّبَتْ مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية؛ استحدث المتأخِّرُون منهم فنًّا منه سمَّوْه بالموشَّحِ»[1]. ومن أشهر شعراء الأندلس ابن زيدون (ت ٤٦٣هـ)، وملك إشبيلية المعتمد بن عبَّاد (ت ٤٨٨هـ).

وأمَّا النثر: فهو الكلام غير الموزون، ولم يكن أقلَّ ثراءً وخصبًا من الشعر، وقد بدأ النثر في صدر الإسلام بسيطًا مباشرًا، مُوجَز العبارة، وبأشكال عديدة؛ منها: الرسائل، والخطب، والأحاديث، والأمثال، والقصص، وبتَقَدُّم الحياة الاجتماعية والعقلية تقدَّم النثر، وتنوَّعت مواضيعه، وتعدَّدت فنونه، فظهرت صنعة الكتابة، وتألَّقت في العصر الأموي، ومن كبار الكتاب الأوائل عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢هـ) الذي استوعب شروط الكتابة في رسائله المشهورة التي وَجَّهَهَا للكُتَّاب حتى قيل: «بدأت الكتابة بعبد الحميد، وانتهت بابن العميد».

وازدهر فنُّ الكتابة في العصر العباسي، ومن الذين اشتهروا في فنِّ الكتابة الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي طوَّر النثر المُرْسَل، ووسَّع آفاقه، وصار له إمامًا، وكذلك ابن المقفع (ت ١٤٢هـ). وبلغ النثر مداه في القرن الرابع الهجري، فاشتهر أبو حيان التوحيدي (ت نحو ٤٠٠هـ) بالسجع، وابن العميد (ت ٣٦٦هـ)، وغيرهم. ثم طغت بعد ذلك على النثر موجة الزخرفة اللفظية، والإسراف في التأنُّق على حساب دقَّة المعاني، ويظهر ذلك واضحًا في المقامات ورسائل بعض الكُتَّاب المتأخِّرين.

وتُعَدُّ **الرسائل** أحد أنواع النثر الفني؛ والرسائل نوعان: الرسائل الرسمية أو العامَّة، والرسائل غير الرسمية، وكانت الرسائل الرسمية في صدر الإسلام والعصر الأموي موجزة واضحة لا تَكَلُّف فيها، ثم أخذ كُتَّاب الدواوين في العصر العباسي يتأنَّقون في الرسائل، ومن أشهر كُتَّاب الرسائل: عبد الحميد الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عبَّاد، وغيرهم. أمَّا الرسائل الخاصَّة، أو الإخوانيات فهي التي يكتبها صديق إلى آخر؛ ومن أشهر كُتَّاب هذا النوع: الجاحظ وابن زيدون.

وثاني أشكال النثر العربي هو **الخطابة**، فقد اهتمَّ بها المسلمون بعد الشعر؛ لأنها كلام

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٥٨٣.

بليغ فيه الحماسة والخيال، وكان للخطابة شأن كبير في الجاهلية وصدر الإسلام؛ فكان العرب يُدَرِّبُون فتيانهم على الخطابة منذ صغرهم، وقد ضمَّت كتب الأدب العديد من الخطب البليغة، ومن أشهر خطباء العصر الراشدي الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وقد ضمَّ كِتَاب (نهج البلاغة) خطبه ورسائله البليغة، وإن كان فيه الكثير من الخطب التي تنسب إليه ولم يقلها في الحقيقة. كما ازدهرت الخطابة في العصر الأموي؛ فكان العديدُ من الخلفاء والأمراء – كعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه – خطباءَ يُعَوِّلُون على الخطابة في إبلاغ الناس مقاصدهم، والتأثير عليهم في نشر مبادئهم وأغراضهم، وقد خلّف لنا هذا العصر عددًا كبيرًا جدًّا من الخطب البليغة في عباراتها، الغنية بأفكارها. وفي العصر العباسي شهدت الخطابة تراجعًا كبيرًا عن العصور السابقة، ولم يبرز من الخلفاء من عُرِفَ بالخطابة.

وكذلك اهتمَّ المسلمون بالأمثال، فجمعوها وألَّفوا فيها الكتب؛ وأشهرها: (مجمع الأمثال)، للميداني[1]، و(المستقصي في أمثال العرب) للزمخشري[2]، وهو معجم للأمثال العربية مُرَتَّب على حروف الهجاء أوائل الأمثال.

وللمسلمين تراث ضخم في القصة، ما زال الناس يقرءونه فيبهرهم بسعة أُفقه، ولُطْف أخيلته، وغرابة أحداثه، ولعلَّ أشهر ما قيل في ذلك قصص عنتر أو عنترة، وهو أحد الفرسان السود لقبيلة عبس، وسيف بن ذي يزن من أبطال اليمن، وأبي زيد الهلالي من أبطال المغرب، والظاهر بيبرس سلطان مصر، ومن أبطال الحروب الصليبية والمغولية.

وفي القرن الرابع الهجري وُضِعَتِ القصص الأدبية القصيرة التي تُسَمَّى المقامات، ومن أشهر كُتَّاب المقامات بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ)، الذي أملى ٤٠٠ مقامة، تدور حول بَطَلَيْنِ أحدهما عيسى بن هشام، وثانيهما أبو الفتح الإسكندراني، ثم ابن ناقيا

---

(١) الميداني: هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت٥١٨هـ/ ١١٢٤م) أديب بحاثة، نشأ وتوفي في نيسابور، قال الزركلي عن كتابه (مجمع الأمثال): لم يؤلف مثله في موضوعه. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ١٤٨، والزركلي: الأعلام ١/ ٢١٤.

(٢) الزمخشري: هو جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (٤٦٧- ٥٣٨هـ/ ١٠٧٥- ١١٤٤م) من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، له مصنفات كثيرة منها: (الكشاف) في تفسير القرآن الكريم. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٦٨-١٧١.

(ت ٤٨٥هـ)، الذي نسج على منوال الهمذاني، والحريري (ت ٥١٦هـ) الذي تناولت مقاماته مغامرات أبي زيد السروجي والحارث بن همام، وكلاهما واسع الذكاء[1].

وعن أشهر كتب الأدب يقول ابن خلدون: «وأركانه أربعة دواوين وهي: (أدب الكاتب) لابن قتيبة[2]، وكتاب (الكامل) للمبرّد[3]، وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ[4]، وكتاب (النوادر) لأبي علي القالي[5]»[6]. وهناك كذلك كتب أخرى بارزة لا يمكن إغفالها في هذا المجال، أمثال: (العقد الفريد) لابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)، و(الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ)، وغيرهما.

وفي الباب الأخير من هذا الكتاب سنقف - بإذن الله - على تأثير الأدب العربي الإسلامي في الآداب الأخرى العالمية.

* * *

(١) انظر: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٢٠٦-٢١٠، ورحيم كاظم محمد الهاشمي، وعواطف محمد العربي: الحضارة العربية الإسلامية ص١٧٥-١٧٧.

(٢) ابن قتيبة الدِّينَوري: هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري (٢١٣ - ٢٧٦هـ/ ٨٢٨ - ٨٨٩م). مفسر وفقيه وأديب ومؤرخ ولغوي، من أعلام القرن الثالث للهجرة. ولد بالكوفة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٦.

(٣) المبرِّد: هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسّان (٢١٠-٢٨٦هـ، ٨٢٦-٨٩٩م)، إمام في اللغة والنحو ولد ونشأ بالبصرة، وتوفي ببغداد، من أشهر كتبه الكامل والمقتضب. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٥٧٦.

(٤) الجاحظ: هو أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني (١٦٣ - ٢٥٥هـ/ ٧٨٠ - ٨٦٩م) كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته بالبصرة، له مصنفات بليغة، منها: (البيان والتبيين). انظر: الأصفهاني: شذرات الذهب ٢/ ١٢١، ١٢٢.

(٥) أبو علي القالي: هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون (٢٨٨ - ٣٥٦هـ/ ٩٠١ - ٩٦٧م) أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب، ولد في مناجرد على شاطئ الفرات الشرقي، وتوفي بقرطبة. من كتبه: (النوادر) المعروف بأمالي القالي. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٩/ ١١٤.

(٦) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٥٥٣.

الفصل الثالث

ابتكار علوم جديدة

في مجال العلوم الإنسانية والفكرية كان للمسلمين دور بارز ورائد؛ حيث ابتكروا علومًا راقية تهمّ الجانب الاجتماعي الإنساني، وكذلك ابتكروا علومًا مهمَّة خاصَّة بالشريعة الإسلامية، وأخرى خاصَّة باللغة العربية، وتوضيح ذلك كما في المباحث التالية:

- المبحث الأول: علم الاجتماع
- المبحث الثاني: علوم خاصة بالشريعة
- المبحث الثالث: علوم خاصة باللغة

المبحث الأول

علم الاجتماع

يُعَرِّفُ معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية علمَ الاجتماع بأنه: «دراسة وصفية تفسيرية مقارنة للمجتمعات الإنسانية، كما تبدو في الزمان والمكان؛ للتوصُّل إلى قوانين التطوُّر، التي تخضع لها هذه المجتمعات الإنسانية في تَقَدُّمِهَا وتَغَيُّرِهَا»[1].

ويُحَدِّد علماء الاجتماع موضوع علمهم بالظواهر الاجتماعية، التي تظهر نتيجة لتجمُّع الناس معًا، وتفاعل بعضهم مع بعض، ودخولهم في عَلاقات متبادلة، وتكوين ما يُطْلَق عليه الثقافة المشتركة؛ حيث يتَّفِقُ الناسُ على أساليب مُعَيَّنَة في التعبير عن أفكارهم، كما أنهم يتَّفقون على قيم محدَّدة، وأساليب معينة في الاقتصاد، والحكم، والأخلاق، وغيرها.

وتبدأ الظواهر الاجتماعية بالتفاعل بين شخصين أو أكثر، والدخول في علاقات اجتماعية، وحينما تدوم هذه العلاقات وتستمرُّ، تشكِّل جماعات اجتماعية، وتُعَدُّ **الجماعات الاجتماعية** من المواضيع الأساسية التي يدرسها علم الاجتماع.

وهناك موضوع آخر يدرسه علم الاجتماع، يتمثَّل في العمليات الاجتماعية؛ كالصراع، والتعاون، والتنافس، والتوافق، والترتيب الطبقي، والحراك الاجتماعي. كما أن التغيُّر في الثقافة وفي البناء الاجتماعي، أحد ميادين الدراسة في علم الاجتماع، كما أن هناك النُّظُم الاجتماعية، وهي الأساليب المقنَّنة والمقرَّرة للسلوك الاجتماعي، وكذلك الشخصية، وهي العامل الذي يُشَكِّل الثقافة، ويتشكل من خلالها[2].

هذا، وعلى الرغم من أن التفكير الاجتماعي قديم قِدَمَ الإنسان نفسه، إلاَّ أن الاجتماع الإنساني لم يصبح موضوعًا لعلمٍ إلا في فترة لاحقة، وكان أَوَّل مَنْ نَبَّه إلى وجود هذا العلم، واستقلال موضوعه عن غيره، هو العلاَّمة المسلم **ابن خلدون!**

فقد صرَّح في عبارات واضحة أنه اكتشف علمًا مستقلاًّ، لم يتكلَّم فيه السابقون؛ إذ

---

(١) أحمد زكي بدوي: معجم المصطلحات الاجتماعية ص٤.

(٢) انظر: منصور زويد المطيري: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع - الدواعي والمكان ص٢٨، ٢٩.

يقول: «وكأن هذا علم مستقلٌّ بنفسه، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل؛ وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعيًّا كان أو عقليًّا»[(١)].

ويقول أيضًا: «واعلم أن الكلام في هذا الغرض مُسْتَحْدَث الصنعة، غريب النزعة، أَعْثَر عليه البحث، وأدَّى إليه الغوص... وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري! لم أقف على الكلام في منحاه لأحدٍ من الخليقة، ما أدري: ألغفلتهم عن ذلك، وليس الظنُّ بهم؟ أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض، واستوفوه، ولم يصل إلينا؟»[(٢)].

كما أنه لم يكتفِ بذلك، بل دعا القادرين إلى استكمال ما نقص منه، فقال: «ولعلَّ مَنْ يأتي بعدنا - ممن يُؤَيِّده الله بفكر صحيح، وعِلْمٍ مُبِينٍ - يغوص في مسائله على أكثر مما كتبنا، فليس على مستنبط الفنِّ إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم، وتنويع فصوله، وما يُتَكَلَّم فيه، والمتأخِّرُون يُلْحِقُون المسائل من بعده شيئًا فشيئًا إلى أن يكمل»[(٣)].

وإضافةً إلى ذلك فإن مقدمته شملت على أقلِّ تقدير سبعة من فروع علم الاجتماع المعاصر، ناقشها ابن خلدون في وضوح تامٍّ[(٤)].

ولكن على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من قول عالم الاجتماع النمساوي الشهير جمبلوفتش: «لقد أردنا أن ندلِّلَ على أنه قبل أوجست كونت[(٥)]، بل قبل فيكو الذي أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوربي، جاء مسلم تقيٌّ، فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل مُتَّزِنٍ، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة، وإن ما كتبه هو ما نسمِّيه اليوم علم الاجتماع»[(٦)]. على الرغم من ذلك كله، فإن التأريخ لعلم الاجتماع يقف عند الفرنسي

(١) ابن خلدون: المقدمة ١/ ٣٨.
(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٣) ابن خلدون: المقدمة ١/ ٥٨٨.
(٤) انظر: حسن الساعاتي: علم الاجتماع الخلدوني ص٢٨- ٣٥.
(٥) هو أوجست كونت August Count (١٧٩٨ - ١٨٥٧م): فيلسوف فرنسي، مؤسس الفلسفة الوضعية، ومؤسس علم الاجتماع الغربي، عمله الرئيسي: (دروس في الفلسفة الوضعية).
(٦) نقلاً عن مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ص١٩٨.

كونت باعتباره المنشئ الأول لهذا العلم، ويتجاهل بذلك المؤسِّس الحقيقي لهذا العلم، الذي نبَّه عن وعي وفي وضوحٍ إلى اكتشافه لهذا العلم[١].

وقد شهد المنصفون بأن أوجست كونت استمدَّ كثيرًا من آرائه ونظرياته من مقدمة ابن خلدون[٢]!

فابن خلدون يُمَثِّل نقطة تَحَوُّلٍ في كتابة التاريخ الإنساني، وفي تأسيسه لعلم الاجتماع، قد هزَّ الفكر الإنساني العالمي بذلك؛ إذ وضع خُطَّة جديدة وآراء جديدة، بل وضع قوانين جديدة يمكن تطبيقها، وتنسحب على كل المجتمعات البشرية، انطلاقًا من أنَّ الإنسان لا يعيش إلاَّ في مجتمع، وإذا عاش في مجتمع؛ فلا بُدَّ أن يعيش مع شعب، وإذا عاش مع شعب لا بُدَّ أن يعيش على أرض، ولكي تَظَلَّ العلاقة قائمة بين هؤلاء الناس، أو القبائل، أو الشعب، أو هذه المجموعة البشرية؛ لا بُدَّ من أن ينظِّمَها حاكم؛ وأنواع الحاكم تدرَّجَتْ من حاكم بسيط (شيخ قبيلة) إلى حاكم مُطْلَقٍ، استطاع أن يستخدم كل الوسائل التي هيَّأها له هذا التجمُّع البشري، أو هذا العمران، واستطاع أن يستغلَّ هذا ويصبح هو الحاكم المطلق، وإذا أصبح حاكمًا مطلقًا استطاع أن يؤسِّس دولة، فإذا أسَّس الدولة التي طبَّق عليها ابن خلدون نظريته؛ مرَّت الدولة بمراحل مختلفة، هذه المراحل وجدت صحَّة في التطبيق في واقع الحياة[٣].

ويهمُّنا هنا أن نُلْقِيَ بعض الضوء على ابن خلدون، منشئ هذا العلم؛ فهو أبو زيد عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي، مولده بتونس في غرة رمضان (٧٣٢هـ)، ورحل إلى فاس، وغرناطة، وتلمسان، والأندلس، كما تَوَجَّهَ إلى مصر، حيث أكرمه سلطانها الظاهر برقوق، ووَلِيَ فيها قضاء المالكية، وظلَّ بها ما يناهز ربع قرن (٧٨٤-٨٠٨هـ)، حيث تُوُفِّيَ ودُفِنَ في مقابرها عن عمر بلغ ستة وسبعين عامًا[٤].

وقد نشأ ابن خلدون في بيت علم ومجد عريق، وحفظ القرآن في وقت مبكِّر من

(١) منصور زويد المطيري: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ص٢٣، ٢٤.

(٢) عبد الواحد وافي: دراسة مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن: عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية ص٤٨.

(٣) سهيلة زين العابدين: نظرية الدولة عند ابن خلدون، مجلة المنار، الأعداد ٧٥، ٧٦، ٧٧، سنة ١٤٢٤هـ.

(٤) الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٣٠.

طفولته، وكان أبوه هو معلِّمه الأول، كما درس على يد مشاهير علماء عصره، وقد اتجه إلى الوظائف العامَّة بعد موت عامَّة أساتذته في الطاعون الذي أصاب بلادهم، والتحق بوظيفة كتابيَّة في بلاط بني مرين، ولكنها لم تكن لِتُرْضي طموحه، وعَيَّنه السلطان (أبو عنان) - ملك المغرب الأقصى - عضوًا في مجلسه العلمي بفاس، فأُتِيحَ له أن يعاود الدرس على أعلامها من العلماء والأدباء، الذين نزحوا إليها من (تونس)، و(الأندلس)، و(بلاد المغرب).

ورحل ابن خلدون إلى غرناطة تاركًا أسرته بفاس، ثم عاد إلى وهران بالجزائر؛ ليستقرَّ في قلعة ابن سلامة هو وأهله أربع سنوات، ومن هنا بدأت مسيرته مع كتابه (العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)؛ لتكون مقدِّمَة هذا الكتاب أول وأشهر مقدِّمة صُنِّفَت في علم الاجتماع، وشئون الاجتماع الإنساني وقوانينه، وقد عالج فيها ما يُطْلَق عليه الآن (المظاهر الاجتماعية) - أو ما أَطْلَقَ عليه هو (واقعات العمران البشري)، أو (أحوال الاجتماع الإنساني)[1].

صورة (٢٣) كتاب ابن خلدون

ففي هذه المقدِّمَة بسط ابن خلدون كل ما لديه من علم ومعرفة، فجاءت شيئًا ثمينًا، بل متقدِّمة جدًّا على العصر الذي كُتِبَتْ فيه، وهي تحتوي على ستَّة فصول كما يلي:

الأول: في العمران البشري: وهي تقابل (علم الاجتماع العام)، وقد درس ابن

(١) الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٣٠، ومصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ص٢١ وما بعدها.

خلدون ظواهر المجتمع البشري، والقواعد التي تسير عليها المجتمعات.

والثاني: في العمران البدوي، وقد درس الاجتماع البدوي، كاشفًا أهمَّ خصائصه المميِّزة، وأنه أصل الاجتماع الحضري وسابق عليه.

والثالث: في الدولة والخلافة والمُلْك: وهو يقابل (علم الاجتماع السياسي)، وقد درس قواعد الحكم، والنُّظُم الدينية، وغيرها.

والرابع: في العمران الحضري: وهو ما يقابل (علم الاجتماع الحضري)، وقد شرح جميع الظواهر المتَّصلة بالحضر، وأصول المدنية، وأن التحضُّر هو غاية التمدُّن.

والخامس: في الصنائع والمعاش والكسب: وهو ما يقابل (علم الاجتماع الاقتصادي)، وقد درس تأثير الظروف الاقتصادية على أحوال المجتمع.

والسادس: في العلوم واكتسابها: وهو ما يقابل (علم الاجتماع التربوي)، وقد درس الظواهر التربوية، وطرق التعلم وتصنيف العلوم.

كما درس ابن خلدون الاجتماع الديني والقانوني، رابطًا بين السياسة والأخلاق[١].

والحقيقة الظاهرة أن أحدًا قبل ابن خلدون لم يَعْرِض لدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة تحليلية أَدَّتْ إلى نتائج ومُقَرَّرَات مثل تلك التي أَدَّتْ إليها دراسة ابن خلدون، ذلك أن المفكِّر المسلم الفقيه درس الظواهر الاجتماعية من خلال الإخبار التاريخي السليم، مثلما يدرس العلماء علوم الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والفلك، وهو بذلك يكون أول مَنْ أخضع الظواهر الاجتماعية لمنهج دراسي علمي، انتهى به إلى كثير من الحقائق الثابتة التي تشبه القوانين، وعليه فإن ما توصَّل إليه ابن خلدون من نظريات يظلُّ عملاً رائدًا في ميدان الدراسات الاجتماعية في مسيرة الفكر الإنساني[٢].

* * *

(١) انظر: نعمان عبد الرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود ١/ ١٢٠.

(٢) مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ص٧٧، ٧٨.

المبحث الثاني
علوم خاصة بالشريعة

لم تهتمَّ أُمَّة بدينها مثلما اهتمَّت الأُمَّة الإسلامية، وقد تجسَّد ذلك في ابتكار علوم إسلامية خالصة، لم يوجد مثيل لها عند أمة من الأمم، وكان من أهمها:

١) علم أصول الحديث:

وهو علم يَتَعَلَّق بالسُّنَّة النبوية المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، والتي تتجلَّى أهميتها فيما بَيَّنَتْهُ من مُجْمَل القرآن وفَصَّلَتْهُ، وقد كان الرسول ﷺ - بأقواله وأفعاله وتقريراته - يُبَيِّن القرآن ويشرحه، ويُرْشِد إلى كيفية تطبيق الإسلام، وتنفيذ أحكامه.

ويُعْرَفُ علم الحديث بأنه: علم يُعْرَفُ به أحوال سند الحديث - أي: سلسلة الرواة- ومَتْنُه - أي: نص الحديث ومضمونه - وغايته معرفة الحديث الصحيح من غيره، وهو بذلك قسمان:

علم الحديث رواية: وهو الذي يشتمل على النقل المجرَّد الدقيق لكل ما أُضِيفَ إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خَلْقيَّة أو خُلُقِيَّة.

وعلم الحديث دراية: ويبحث في أصول وقواعد يُتَوَصَّل بها إلى معرفة معنى الصحيح والحَسَنِ والضعيف من الحديث، وأقسام كلٍّ منها، وما يَتَّصِلُ بذلك من معرفة معنى الرواية وشروطها وأقسامها، وأحوال الرواة وشروطهم، والجرح والتعديل، وتاريخ الرواة، ومواليدهم، ووفَيَاتهم، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، ومختلِف الحديث وغريبه، إلى غير ذلك من المباحث، فهو باختصار: معرفة القواعد المعرِّفة بحال الراوي والمرويّ، أو أحوال السند والمتن؛ من حيث القَبُول والرَّدِّ، وهو ما يُطْلَقُ عليه اسم علم أصول الحديث، أو علم مصطلح الحديث.

وقد نشأ هذا العلم صيانةً لحديث رسول الله ﷺ من الكذب والاختلاق، ومعرفة ما تصحُّ نسبته إلى الرسول ﷺ وما لا تصحُّ.

ويُعْتَبَرُ الرامهرمزيُّ[(١)] أول مَنْ أَلَّف كتابًا ضمَّنه كثيرًا من قواعد المحدِّثين ومصطلحاتهم، وسَمَّى كتابه: (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي)، ثم تبعه الحاكم النيسابوري[(٢)] في كتابه: (معرفة علوم الحديث)، ثم أبو نعيم الأصبهاني[(٣)] في كتابه: (المستخرج على معرفة علوم الحديث)، ثم الخطيب البغدادي في كتابه: (الكفاية في علم الرواية)، ثم القاضي عياض في كتابه: (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد الأسماع)، إلى أن جاء الحافظ ابن الصلاح فألَّف كتابه المشهور: (**علوم الحديث**)، فكان كتابًا جامعًا مهذِّبًا لما سبقه من مصنفات، فلقي القبول من العلماء، وأصبح أصلاً لأغلب ما كُتِبَ بعده؛ فمِنْ مُخْتَصِر له، أو شارح، أو مُنْكِتٍ عليه (مُشير)، أو ناظم له. ومن أهمِّ ما أُلِّفَ بعد كتاب ابن الصلاح مُسْتَقِلاًّ عنه رسالة مختصرة للحافظ ابن حجر العسقلاني[(٤)] سَمَّاها (**نخبة الفكر**)، ثم شرحها بشرح سَمَّاه (**نزهة النظر**)، وهناك مصنفات أخرى كثيرة أُلِّفَتْ في الأزمان التالية يطول ذِكْرُها[(٥)].

هذا، وتتعدَّد أنواع علوم الحديث تَبَعًا للزاوية التي يُنظر منها إلى الحديث:

فمن حيث **الموضوع** يُقَسَّم الحديث إلى: السند (الرواة الذين رَوَوْا لفظه)، والمتن (ألفاظ الحديث الدالة على معانيها والتي ينتهي إليها السند).

ومن حيث **نسبته إلى قائله** يُقَسَّمُ الحديث إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: المرفوع؛ وهو ما أُضِيفَ إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة. والثاني: الموقوف؛ وهو الذي انتهى سنده إلى الصحابي. والثالث: المقطوع؛ وهو الذي انتهى سنده إلى التابعي.

ومن حيث **وصوله إلينا** يُقَسَّم الحديث إلى قسمين، الأول: الحديث المتواتر؛ وهو ما

---

(١) الرَّامَهُرْمُزِيّ: هو أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد (ت٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) محدث العجم في زمانه، من أدباء القضاة. له «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٢/ ٤٢.

(٢) الحاكم النيسابوري: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه (٣٢١- ٤٠٥هـ/ ٩٣٣- ١٠١٤م) من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، مولده ووفاته في نيسابور. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٨٠-٢٨٢.

(٣) أبو نعيم: هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (٣٣٦- ٤٣٠هـ/ ٩٤٨- ١٠٣٨م) حافظ، مؤرخ، من الثقات في الحفظ والرواية، من مصنفاته: (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) . انظر: الأصفهاني: شذرات الذهب ٢/ ٢٤٥.

(٤) ابن حجر العسقلاني: هو أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني (٧٧٣- ٨٥٢هـ/ ١٣٧٢- ١٤٤٩م) من أئمة العلم والتاريخ، مولده بعسقلان ووفاته بالقاهرة. من كتبه: «فتح الباري». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٧/ ٢٧٠-٢٧٣.

(٥) انظر: محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث ص١٢-١٥.

رواه جمعٌ عن جمعٍ يَمنع العقل والعادة تواطؤهم على الكذب، عن جمعٍ في طبقات الإسناد كلها، وهو إمَّا متواتر بلفظه أو متواتر بمعناه. والثاني: حديث الآحاد، أو إخبار الآحاد؛ وهو كل حديث لم تتوفَّر فيه شروط المتواتر؛ وهو يُقَسَّم إلى ثلاثة أقسام: مشهور، وعزيز، وغريب، أمَّا المشهور فهو الحديث الذي يرويه ثلاثة رواة فأكثر في كل طبقة من طبقات الإسناد المستفيض. وأمَّا العزيز فهو الحديث الذي لا يقلُّ عدد رواته عن اثنين في كل طبقة، ويمكن أن يَزِيد عددهم في بعض الطبقات. وأمَّا الغريب فهو الحديث الذي ينفرد بروايته راوٍ واحدٌ في كل الطبقات أو بعضها، ويسمَّى الحديث الفَرْد أيضًا.

ومن حيث قَبُوله وردِّه، يُقَسَّم الحديث إلى ثلاثة أقسام: الحديث الصحيح، والحديث الحَسَنُ، والحديث الضعيف. وقد تفرَّع عن القسمين الأوَّلَيْن: الصحيح لذاته والصحيح لغيره، والحسن لذاته والحسن لغيره. كما يتفرَّع عن القسم الثالث أنواع أخرى كثيرة؛ فهناك المعلَّق، والمُرْسَل، والمُدلَّس، والمرسل الخفي، والمنقطع، والمُعْضَل، وهناك الموضوع، والمتروك، والمطروح، وهناك الشاذُّ، والمُنْكَر، والمضطرب، والمقلوب، والمُدْرَج، والمزيد، والمصحَّف، والمحرَّف.

وإنه ليَحِقُّ لأُمَّة الإسلام أن تفخر بهذا العلم، وتَعْتَزَّ بقواعده؛ ذلك الذي أرادتْ به أن تنقل لنا كلام رسول الله ﷺ، وأفعاله، وتقريراته واضحة جليَّة، خالية من كل شبهة وشائبة.

٢) علم الجرح والتعديل:

لما كان من الأمور المعلومة بداهةً أنه لا سبيل إلى معرفة ما جاء عن النبي ﷺ من أحاديث وأخبار إلاَّ عن طريق الرواة والنقلة، فقد كان الاطِّلاع على أحوال هؤلاء الرواة والنقلة، وتتبُّع مسالكهم، وإدراك مقاصدهم وأغراضهم، ومعرفة مراتبهم وطبقاتهم، وتمييز ثِقاتهم من ضعافهم، هو الوسيلة الأهم لمعرفة صحيح الأخبار من سقيمها.

وهذا هو موضوع (علم الجرح والتعديل) أو (علم الرجال)، أو (علم ميزان أو معيار الرواة)، والذي لا نظير له عند أُمَّة أخرى من أمم الأرض، وقد وُضِعَت له القواعد، وأُسِّسَت له الأسس والضوابط، فكان مِقْيَاسًا دقيقًا ضُبِطَتْ به أحوال الرواة؛

من حيث التوثيق والتضعيف، والأخذ والرَّدِّ، وقد عُدَّ نصفَ علم الحديث؛ فهو ميزان رجال الحديث، ومعيار الحكم عليهم، وهو الحارس للسُّنَّة من كل زيفٍ ودخيل!

فقد قام علماء الحديث يَذُبُّونَ عن حديث رسول الله ﷺ - خوفًا من الدسِّ والتزوير والكذب والوضع؛ إمَّا بسبب الخلافات السياسية، أو الأغراض الحزبية، أو الأهداف الفكرية، أو الآراء المذهبية، أو القصص التي تجذب السامعين، أو التملُّق إلى الحكَّام، أو الكيد للإسلام - باتِّبَاع منهجية خاصَّة عُرِفَتْ بعلم الجرح والتعديل، والذي يقوم على دراسة أسانيد الحديث، أي سلسلة الرواة الذين نقلوا الحديث عن النبي ﷺ، باعتبار أن الإسناد هو الطريق الموصِّل إلى المتن، أي إلى نصِّ الحديث ومستواه، ولا يُستدلُّ على أكثر صدق الحديث وكذبه إلاَّ بصدق المُخْبِر وكذبه، وإنه لولا الإسناد لقال مَنْ شاء ما شاء، ولولا طلبُهُ والمواظبة على حفظه لدَرَسَ منار الإسلام، ولتَمَكَّن أهل الإلحاد والبدع فيه بوضع الأحاديث[1].

و(الجرح) في الاصطلاح يعني: وصف الراوي، أو الطعن فيه بما يقتضي رَدَّ روايته. أمَّا (التعديل) فيعني: وصف الراوي بما يقتضي قَبُول روايته. وعلى هذا **فعلم الجرح والتعديل** هو: علم يُبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة، وعن مراتب تلك الألفاظ، وهو يَسْتَمِدُّ شرعيته من باب صون الشريعة قصدًا للنصيحة، وبيانًا لحال مَنْ يُؤْخَذُ عنه هذا العلم؛ فإنه الدِّين لا طعنًا في الناس[2].

فلم يكن الحاملُ في ذلك أهواءَ أو حظوظ النفس أو غيره؛ ولذلك لم تراهم يُجَامِلون أحدًا، حتى ولو أقرب الأقربين، فكان منهم مَنْ يُضَعِّف والده، وقد سُئِل علي بن المديني[3] عن أبيه؛ فقال: اسألوا غيري. فقالوا: سألناك. فأطرق ثم رفع رأسه، وقال: «هذا هو الدِّين، أَبِي ضعيفٌ»[4]. وكان منهم مَنْ يُضَعِّف ولده وأخاه، قال زيد بن أبي

(١) انظر: محمد ضيف الله البطاينة: الحضارة الإسلامية ص٣٢٢.

(٢) انظر: الشريف حاتم بن عارف العوني: خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل ص٦.

(٣) علي بن المديني: هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن جعفر السعدي (١٦١ - ٢٣٤هـ/ ٧٧٧ - ٨٤٩م) محدث مؤرخ، كان حافظ عصره، له نحو مائتي مصنف، ولد بالبصرة، ومات بسامراء، من كتبه (اختلاف الحديث) . انظر: الأصفهاني: شذرات الذهب ٢/ ٨١.

(٤) ابن حبان: المجروحين ٢/ ١٥.

أنيسة[١]: «لا تأخذوا عن أخي يحيى»[٢]!

ولذلك فقد كانت هناك شروط مُعَيَّنة لا بُدَّ من توافرها في الجارح والمعدِّل، منها:

١- أن يتَّصِفَ بالعلم والتقوى والورع والصدق.

٢- أن يكون عالمًا بأسباب الجرح والتعديل.

٣- أن يكون عالمًا بتصاريف كلام العرب؛ لا يضع اللفظ لغير معناه، ولا يجرح بنقله لفظًا هو غير جارح[٣].

هذا، وقد اصطلح علماء الحديث على ألفاظ مُعَيَّنَة يصفون بها الرواة؛ ليُمَيِّزُوا بها بين مراتب أحاديثهم من حيث القَبُول والرَّدِّ؛ وهذه الألفاظ كما يلي:

أوَّلاً: ألفاظ التوثيق أو التعديل:

١- ما دلَّ على المبالغة في التوثيق، وأصرح ذلك التعبير بأفعل؛ كأوثق الناس، أو أثبت الناس، أو إليه المنتهى في التثبُّت.

٢- ما كُرِّرَتْ فيه صفة التوثيق لفظًا؛ كثقةٍ ثقة، أو معنًى، كثقةٍ حافظ، وثَبْت حُجَّة، وثقة متقن.

٣- ما انفرد فيه لفظ التوثيق؛ كثقة، أو ثبت، أو إمام، أو حجة، أو تعدَّد ولكن بمعنى المفرد، مثل: عدل حافظ، أو عدل ضابط.

٤- ما قالوا فيه: لا بأس به، أو ليس به بأس - عند غير ابن معين[٤] - أو صدوق، أو خيار، وأمَّا ابن معين فإنه قال: إذا قلتُ لك: ليس به بأس فهو ثقة.

---

(١) زيد بن أبي أنيسة: (ت ١٢٤ هـ) هو أبو أسامة زيد بن أبي أنيسة الجزري الرهاوي، إمام حافظ ثبت، روى عنه من هو في منزلته مثل الإمام أبي حنيفة والإمام مالك. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦/ ٨٨

(٢) السخاوي: فتح المغيث ٣/ ٣٥٥.

(٣) انظر: الشريف حاتم بن عارف العوني: خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل ص٢٧، وأبو الحسنات اللكنوي الهندي: الرفع والتكميل ص٦٧.

(٤) يحيى بن معين: أبو زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام بن عبد الرحمن المري البغدادي،(١٥٨ - ٢٣٣ هـ / ٧٧٥ - ٨٤٨ م) الحافظ المشهور كان إماماً عالماً حافظاً متقناً. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ١٣٩. والزركلي: الأعلام ٨/ ١٧٢.

٥- ما قالوا فيه: محلُّه الصدق، أو إلى الصدق ما هو (أي أنه ليس ببعيدٍ عن الصدق)، أو شيخ، أو مقارب الحديث، أو صدوق له أوهام، أو صدوق يَهِمُ (أي له أوهام)، أو صدوق إن شاء الله، أو أرجو أنه لا بأس به، أو ما أعلم به بأسًا، أو صُوَيلح، أو صالح الحديث.

وفي الحكم على هذه المراتب: فمَن قِيلَ فيه من الرواة لفظٌ من ألفاظ المراتب الثلاث الأولى، فحديثه صحيح، وبعضه أصحُّ من بعض، وأمَّا أهل المرتبة الرابعة فحديثهم حَسَنٌ، وأمَّا أهل المرتبة الخامسة فلا يُحْتَج بحديثهم، بل يُكتَب حديثهم للاعتبار، فإن وافقهم غيرهم قُبِلَ، وإلاَّ رُدَّ.

ثانيًا: ألفاظ الجرح: وهي:

١- الوصف بما دلَّ على المبالغة في الجرح، وأصرح ذلك التعبير بأفعل؛ كقولهم: أكذب الناس، أو إليه المنتهى في الكذب، أو هو ركن الكذب.

٢- ما قيل فيه: وضَّاع، أو كذَّاب، أو يضع الحديث، أو يختلق الحديث، أو (لا شيء) عند الشافعي.

٣- ما قيل فيه: متَّهم بالكذب، أو بالوضع، أو يسرق الحديث، أو ساقط، أو هالك، أو ذاهب الحديث، أو متروك الحديث، أو تركوه، أو فيه نظر، أو سكتوا عنه (عند البخاري في اللفظتين الأخيرتين فقط)، أو ليس بثقةٍ.

٤- ما قيل فيه: ردُّوا حديثه، أو ضعيف جدًّا، أو واهٍ بمَرَّة، أو تالف، أو لا تَحِلُّ الرواية عنه، أو لا شيء، أو ليس بشيء عند غير الشافعي، أو مُنْكَرُ الحديث عند البخاري.

٥- ما قيل فيه: ضعيف، أو ضَعَّفُوه، أو مُنْكَر الحديث عند غير البخاري، أو مضطرب الحديث، أو لا يُحْتَجُّ به، أو واهٍ.

٦- ما قيل فيه: فيه مقال، أو فيه ضعف، أو ليس بذلك، أو ليس بالقوي، أو ليس بحجة، أو ليس بالمتين، أو سيِّئ الحفظ، أو ليِّن، أو تَعْرِفُ وتُنْكِر، أو ليس بالحافظ.

والحكم في المراتب الأربع الأولى أنه لا يُحْتَجُّ بواحد من أهلها، ولا يُستشهد به، ولا

يُعتبر به؛ فأهل المرتبة الأولى والثانية حديثهم موضوع، وأهل الثالثة حديثهم متروك، وأهل الرابعة حديثهم ضعيف جدًّا. وأمَّا أهل المرتبة الخامسة والسادسة فيُكتَب حديثهم للاعتبار، ويَرْتَقِي إلى الحَسَنِ إذا تَعَدَّدَتْ طُرُقُه[1].

هذا، وقد استوعب العلماء نتائج دراستهم للرواة في كتب الجرح والتعديل، فجعلوا الضعفاء منهم في كتب حملت اسم (الضعفاء)؛ ككتاب (الضعفاء الكبير)، و(الضعفاء الصغير) للبخاري، وكتاب (الضعفاء والمتروكين) للنسائي[2]، وجعلوا الثقات منهم في كتب حملت اسم (الثقات)؛ ككتاب (الثقات) لابن حبان. وهناك كتب جمعت بين الثقات والضعفاء، ومن أشهرها (الطبقات الكبرى) لابن سعد، و(التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل) للحافظ ابن كثير[3].

وإنَّ هذا كُلَّه لَيَكْشِفُ عمَّا قام به العلماء المسلمون من أَجْلِ توثيق السُّنَّة النبوية الشريفة، وحراسة حديث الرسول ﷺ، وأنهم ما تركوا سبيلاً للتيقُّن من ضبط صحَّة السُّنة إلاَّ طرقوه؛ حيث ابتكروا هذا العلم وأنشئوه إنشاءً؛ مما جعله قصرًا على الأُمَّة الإسلامية، وليس له في تاريخ البشرية القديم ولا الحديث نظير.

فكانت كتب الصحاح -الست وغيرها، وعلى رأسها صحيح البخاري ومسلم- من أوثق الكتب التي عرفها التاريخ.

من متن صحيح البخاري

اوقف واحبس وابد وسبل واكد وخلد الى الله
سبحانه وتعالى الفقير مصطفى بن محمد الشلشلموني
هذا الجزء تكملة للنسخة الموقوفة من قبل الخديوي
الاعظم الحاج محمد على باشا المحبوسة بكتبخانة رواق
الاكراد بالجامع الازهر فى يوم الجمعة المبارك
الموافق خمسة عشر من شهر شعبان من شهور سنة ١٢٩٤
الف ومائتين اربعة وتسعون من الهجرة النبوية
وقفا صحيحا شرعيا لا يباع ولا يرهن ويكون نفعه عاما
بجميع العباد فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين
يبدلونه ان الله سميع عليم



صورة (٢٤) كتاب صحيح البخاري

٣) علم أصول الفقه:

في طور تعدُّد مآثر حضارة الإسلام لا بُدَّ من التنويه بعلم أصول الفقه، ذلك العلم الذي

---

(١) انظر: محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث ص١١٦-١١٨.

(٢) النَّسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (٢١٥-٣٠٣هـ/ ٨٣٠ - ٩١٥م)، أحد أئمة الحديث الكبار ومن أصحاب السنن، ولد في نسا بخراسان وتوفي بمكة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٢٥

(٣) انظر: محمد ضيف الله البطاينة: الحضارة الإسلامية ص٣٢٣، ومحمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث ص١١٥، ١١٦.

تفرَّدت به الأُمَّة الإسلامية من دون سائر الأمم السابقة، بل واللاحقة أيضًا، فلم يكن لغيرها علم مستقل كعلم أصول الفقه في تكامُله ودقَّته تستطيع به ضبط قوانينها ودساتيرها!

فهو -كما أشار ابن خلدون- من العلوم المستحدَثَة في الملَّة، ويُعَدُّ من أعظم العلوم الشرعية، وأَجَلِّها قَدْرًا، وأكثرها فائدة، ويعني: النظر في الأدلَّة الشرعية من حيث تُؤْخَذ منها الأحكام والتآليف[1]، وبعبارةٍ أخرى: معرفة القواعد والأدلَّة التي يُتَوَصَّل بها إلى الأحكام الشرعية.

والغرض من تأسيس هذا العلم العظيم خدمة الإسلام، وخدمة أحكامه الضابطة لسلوك العباد الاختياري.

وقد كانت بدايته لَـمَّا ظهرت جدليات حول اعتماد بعض الفقهاء في تقرير الأحكام الفقهية أو استنباطها على بعض مناهج وأصول خالفهم فيها آخرون، فَدَعَتِ الحاجة إلى إقامة البراهين والأدلَّة المقبولة شرعًا على صحَّة ما هو صحيح، وعلى ترجيح ما هو الأرجح منها على غيره، مع بعض اختلاف في وجهات النظر؛ فظهرت مكتوبات أُولى على شكل رسائل تتضمَّن قواعد تأصيليَّة لما يجب الاعتماد عليه، ولما يجوز الاعتماد عليه، ولما لا يجوز الاعتماد عليه[2].

ويُعَدُّ الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي أَوَّل مَنْ كتب في علم أصول الفقه، وقد دَوَّنَ فيه كتابه الشهير (الرسالة)، و(جُماع العلم)، و(إبطال الاستحسان)، و(اختلاف الحديث)، وعلى يديه وُلِدَ ونشأ هذا العلم.

صورة (٢٥) الرسالة للشافعي

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٤٥٢.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة: الحضارة الإسلامية ص٥١٨، ٥٢٠.

قال ابن خلدون: «وكان أَوَّل مَنْ كَتَبَ فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه (ت ٢٠٤هـ)، أملى فيه رسالته المشهورة، تَكَلَّم فيها في الأوامر والنواهي، والبيان والخبر والنسخ، وحكم العلَّة المنصوصة من القياس، ثم كَتَبَ فقهاء الحنفية فيه، وحَقَّقُوا تلك القواعد، وأوسعوا القول فيها... فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النُّكت الفقهية، والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن، وجاء أبو زيد الدبوسي[1] من أئمتهم فكتب في القياس بأوسع من جميعهم، وتمَّم الأبحاث والشروط التي يُحْتَاجُ إليها فيه، وكَمُلَتْ صناعة أصول الفقه بكماله، وتهذَّبت مسائله، وتمهَّدت قواعده، وعني الناس بطريقة المتكلِّمين فيه، وكان من أحسن ما كَتَب فيه المتكلِّمُون كتاب (البرهان) لإمام الحرمين الجويني، و(المستصفى) للغزالي (ت ٥٠٥هـ)، وهما من الأشعرية، وكتاب (العهد) لعبد الجبار[2]، وشرحه (المعتمد) لأبي الحسين البصري[3]، وهما من المعتزلة، وكانت الأربعةُ قواعدَ هذا الفنِّ وأركانه، ثم لخَّص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلِّمين المتأخِّرين؛ وهما: الإمام فخر الدين بن الخطيب (ت ٦٠٦هـ) في كتاب (المحصول)، وسيف الدين الآمدي[4] في كتاب (الإحكام)»[5].

فقد اجتهد علماء المسلمين من كل المذاهب الفقهية يستخرجون القواعد التأصيلية التي تُحَدِّد منهاج الفقيه الذي يَتَوَجَّه لاستنباط أحكام السلوك الإنساني الإرادي من مصادر التشريع الإسلامي؛ لئلاَّ يكون عمل المجتهدين الذين يستنبطون أحكام الفروع عملاً فوضويًّا، لا يخضع لقواعد مُحَرَّرة، ونجم عن هذا التوَجُّه السديد ابتكار علمٍ غاية في العمق والنظر العقلي، وغاية في تحرير القواعد الأصول، وبيان المنهاج الذي يجب على

(١) الدَّبُوسي: هو أبو زيد عبد الله بن عمر بن عيسى (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م)، من كبار فقهاء الحنفية، وهو أول من وضع علم الخلاف. ولد بدبوسية (بين بخارى وسمرقند)، وتوفي ببخارى. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٨.

(٢) عبد الجبار: هو قاضي القضاة أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م) من كبار فقهاء الشافعية، كان شيخ المعتزلة في عصره. ولي القضاء بالري ومات فيها، له تصانيف كثيرة منها: (تنزيه القرآن عن المطاعن). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٤٤، ٢٤٥.

(٣) أبو الحسين البصري: هو محمد بن علي الطيب (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)، أحد أئمة المعتزلة. ولد في البصرة، وسكن بغداد، وتوفي بها. من كتبه: «المعتمد في أصول الفقه». انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٧١.

(٤) سيف الدين الآمدي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن سالم التغلبي (٥٥١- ٦٣١هـ/ ١١٥٦- ١٢٣٣م) كان متفردًا بعلم المعقولات والمنطق والكلام، ولد بديار بكر، وتوفي بدمشق، من كتبه:(الإحكام في أصول الأحكام). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٤-٣٦٦.

(٥) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٤٥٥.

مستنبِط أحكام الفروع أن يسير عليه، وهو (علم أصول الفقه)، الذي لم يُوجَدْ نظيره في أُمَّة من الأمم السابقة[(١)]!

هذا، ولم يجد واضعو القوانين التي تعتمد على الآراء البشرية، وعلى أهوائهم ومصالحهم، مَنْدُوحةً من أن يعترفوا بمجد (علم أصول الفقه) عند المسلمين، وأن يستفيدوا من بعض قواعده في بحوث الألفاظ، وبعض مسائله في القياس، وفي المصالح المرسلة، وفي الاهتمام ببعض الكُلِّيّات الخمس، التي تُعْتَبَرُ المحافظة عليها من مقاصد الشريعة الإسلامية؛ وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. فكلُّ ما يحفظ هذه الكليات أو شيئًا منها فهو مصلحة، وكل ما يُخِلُّ بواحد منها فهو مفسدة، على اختلاف المراتب والدرجات فيما بينها؛ فمنها ما هو من مرتبة الضروريات، وهي المرتبة العليا، ولها درجات متعدِّدَة، ومنها ما هو من مرتبة الحاجيّات، وهي المرتبة الوسطى، ولها درجات متعدِّدة، ومنها ما هو من مرتبة التحسينيات، وهي المرتبة الدنيا، ولها أيضًا درجات متعدِّدَة[(٢)].

فعلم أصول الفقه ابتكار إسلامي، وظاهرة حضارية عظمى!

***

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة: الحضارة الإسلامية ص٥١٩.

(٢) المصدر السابق ص٥٢٠.

المبحث الثالث
علوم خاصة باللغة

اللغة العربيَّة هي لُغة القرآن وشعار الإسلام، وأداة حضارته، ورمز قوته، وقد كان لها أثر كبير في تكوين الأُمَّة، وبناء شخصية المسلم، ولها أهمية بالغة في تميُّز الحضارة الإسلامية عن غيرها.

وللغة العربية علوم عدَّة ابتكرها علماؤها، هي التي حافظت على ازدهارها ونضجها كلغةٍ حضارية عالمية، وجعلتها ثَرَّة[1] غنية، لا يخبو لها بريق، حتى باتت أرقى لغات العالم، ولعلَّ من أهمِّ هذه العلوم ما يلي:

١) علم النحو:

علم النحو يُسَمَّى أيضًا علم الإعراب، وهو أهم علوم اللغة العربية؛ فبه يُعرف كيفية التركيب العربي صحَّة وسقمًا، وكيفية ما يتعلَّق بالألفاظ من حيث وقوعها في التركيب، والغرض منه الاحتراز عن الخطأ في التأليف، والاقتدار على فَهْمِه، والإفهام به[2].

وقد كان الدافع وراء ابتكار هذا العلم حين بدأ اللحن[3] يتسرَّب إلى ألسنة كثير من العرب؛ بسبب كثرة اختلاطهم وامتزاجهم بشعوب البلاد المفتوحة الذين دخلوا في الإسلام، ومحاولة تعلُّم هؤلاء الذين أسلموا اللغة العربية قدر استطاعتهم، فظهر اللحن وفشا؛ وهنا هبَّ علماء المسلمين - خوفًا على لغة القرآن - إلى تقعيد القواعد لضبط الألسن، وضبط حركات أواخر الكلمات باختلاف أوائل مواقعها من الجملة العربية؛ للوصول إلى مقصود الكلام وأغراضه.

يقول ابن خلدون: «... خشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك المَلَكَة رأسًا، ويطول العهد بها؛ فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين

---

(١) ثَرَّةٌ: غَزِيرَة، كثيرة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة ثرر ٤/ ١٠١.

(٢) انظر: صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٥٦٠.

(٣) اللَّحْنُ واللَّحَنُ واللَّحَانةُ واللَّحانِيَة: تركُ الصواب في القراءة والنشيد ونحو ذلك. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة لحن ١٣/ ٣٧٩.

لتلك المَلَكَة مطَّردة، شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويُلْحِقُون الأشباه بالأشباه؛ مثل أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع، ثم رأوا تغيُّر الدلالة بتغيُّر حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعرابًا، وتسمية المُوجِب لذلك التغيُّرِ عاملاً، وأمثال ذلك، وصارت كلها اصطلاحات خاصَّة بهم، فقيَّدوها بالكتاب، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها **بعلم النحو**»[1].

هذا ويُعَدُّ أبو الأسود الدؤلي[2] أوَّل من كَتَبَ في علم النحو؛ فهو الذي اخترع الحركات المعروفة بالفتحة والضمة والكسرة، ثم كتب فيه الناس من بعده، إلى أن انتهى إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد، ثم أَكْمَلَ أَبْوَابَهُ وَأَخَذَهُ عنه - كما يذكر ابن خلدون - سيبويه، فأضاف إليه تفريعات جديدة، واستكثر من الأدلَّة والشواهد، ووضع فيها كتابه المشهور (**الكتاب**)، الذي صار إمامًا لكلِّ ما كُتِبَ فيه من بعده، وقد وصفه أبو الطيب اللغوي[3] بأنه (قرآن النحو)، كما وصف سيبويه بأنه «أعلم الناس بالنحو بعد الخليل»[4]. ثم وضع الزجَّاج، وأبو علي الفارسي[5] كُتُبًا مختصَرَة للمتعلِّمِينَ يحذون فيه حذو سيبويه في كتابه[6].

ومِنْ بَعْدِ ذلك انطلق علماء اللغة العربية يُصَنِّفُون المصنفات الكثيرات في هذا الميدان؛ منها المُطَوَّلات، ومنها المختصرات، ومنها الشروح، والحواشي، والتعليقات، والتقريرات، وشروح الشواهد، ثم ظهرت المؤلفات المبسَّطة التي ذلَّلَتْ سبيل المعرفة لطلاَّب هذا العلم[7].

فكان من أهمِّ الكتب المتداولة في علم النحو - بعد كتاب سيبويه -: كتابات أبي

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٥٤٦.

(٢) أبو الأسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن سفيان (١٦ ق هـ - ٦٩هـ/ ٦٠٥ - ٦٨٨م) من التابعين، واضع علم النحو، شهد مع علي بن أبي طالب ﷺ صفين، ثم قصد معاوية بعد مقتل علي ﷺ. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٣١٢.

(٣) أبو الطيب اللغوي: هو عبد الواحد بن علي الحلبي (ت ٣٥١هـ/ ٩٦٢م) أديب، عالم باللغة شهير، سكن حلب وقُتل بها. من كتبه: «مراتب النحويين». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩/ ١٧٣.

(٤) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين ص٦٥

(٥) أبو علي الفارسي: هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (٢٨٨ - ٣٧٧هـ/ ٩٠٠ - ٩٨٧م) أحد الأئمة في علم العربية، ولد في بلاد فارس، وتوفي ببغداد. من كتبه: «التذكرة» في علوم العربية. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٨٠ - ٨٢.

(٦) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ٥٤٦.

(٧) عبد الرحمن حسن حبنكة: الحضارة الإسلامية ص٤٨٨.

عمرو بن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)، وله (الكافية) في النحو، و(الشافية) في الصرف، وعليهما شروح كثيرة خاصَّةً (الكافية)، وكتابات ابن مالك[١]، وله القصيدة الألفية المشهورة، والتي تناولها كثير من العلماء بالشرح، منهم ابن هشام الأنصاري[٢] في (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)، وله أيضًا (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)، و(شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب)، و(قطر الندى وبَلّ الصدى)، ومنهم ابن عقيل[٣] وله (شرح ابن عقيل على الألفية).

وهكذا كان تأسيس علم النحو عملاً حضاريًّا رائعًا مجيدًا، انفرد به المسلمون.

٢) علم العروض:

يختصُّ علم العَرُوض بالشعر العربي، فهو ذلك العلم الذي يعني بأصول يُعرف بها صحيح الشعر من فاسده، أو هو علم يُبحث فيه عن أصول الأوزان المُعْتَبَرَة، أو هو ميزان الشعر الذي به يُعْرَفُ مكسوره من صحيحه[٤].

أو هو «صناعة يُعرف بها صحيح أوزان الشعر العربي وفاسدها، وما يعتريها من الزِّحاف[٥] والعلل»[٦].

ويُنْسَبُ اختراع هذا العلم واستخراجه إلى الوجود إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي - شيخ سيبويه، ومُصَنِّف كتاب (العين) أول معجم يحصر لغة أُمَّة من الأمم - حيث تَتَبَّعَ أشعار العرب وحصرها في خمسة عشر وزنًا، وسمى كلاً منها بحرًا، وقد قيل: إنما وضعه

---

(١) ابن مالك: هو جمال الدين محمد بن عبد الله الأندلسي (٦٠٠- ٦٧٢هـ/ ١٢٠٣- ١٢٧٤م) أحد الأئمة في علوم العربية، ولد في جيان بالأندلس وتوفي بدمشق. من أشهر مصنفاته: «الألفية». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٣٣٩.

(٢) ابن هشام الأنصاري: هو جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد (٧٠٨- ٧٦١هـ/ ١٣٠٩- ١٣٦٠م) من أئمة العربية، ومن كبار النحاة، ولد وتوفي بمصر. من تصانيفه: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب». انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة ٣/ ٩٢- ٩٤.

(٣) ابن عقيل: هو بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن القرشي (٦٩٤- ٧٦٩هـ/ ١٢٩٤- ١٣٦٧م) من أئمة النحاة، مولده ووفاته بالقاهرة. من مصنفاته: «شرح ابن عقيل على الألفية». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٦/ ٢١٤.

(٤) انظر: عمر الأسعد: معالم العروض والقافية ص١١، ومحمد علي الشوابكة وأنور أبو سويلم: معجم مصطلحات العروض والقافية ص١٧٧، والخطيب التبريزي: الوافي في العروض والقوافي ص٣٢، ٣٣.

(٥) الزِّحافُ في الشعر: أن يَسْقُطَ بين الحرفين حرف فيزحف أحدُهُما إلى الآخر. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة زحف ٩/ ١٢٩، والفيروزآبادي: القاموس المحيط ص١٠٥٣.

(٦) السيد أحمد الهاشمي: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ص٥.

أحمد، وهذَّبه الجوهري[١]، وزاد الأخفش[٢] بحرًا آخر سمَّاه (المُتَدَارَك)[٣].

يقول حمزة بن الحسن الأصبهاني[٤]: «فإن دولة الإسلام لم تُخْرِجْ أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول إلاَّ من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض، الذي لا عن حكيمٍ أخذه، ولا على مثالٍ تقدَّمه احتذاه... فلو كانت أيامه قديمة، ورسومه بعيدة، لشكَّ فيه بعض الأمم لصنعته ما لم يصنعه أحد منذ خَلْق الدنيا من اختراعه العلمَ الذي قَدَّمْتُ ذِكْرَه، ومن تأسيسه بناء كتاب (العين) الذي يحصر لغة أُمَّة من الأمم قاطبة، ثم مِنْ إمداده سيبويه من علم النحو بما صنَّف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام»[٥].

وقال اليافعي[٦]: «وهو (الخليل) في اختراعه علم العروض، الذي هو لصحَّة الشعر وفساده ميزان، كأرسطو طاليس الحكيم في اختراعه علم المنطق، الذي هو ميزان المعاني وصحَّة البرهان»[٧].

وجاء أن الخليل بن أحمد دعا وهو بمكة أن يرزقه الله تعالى علمًا لم يسبقه أحدٌ إليه، ولا يؤخذ إلاَّ عنه، فرجع من حَجِّه ففتح الله عليه بعلم العروض، وكانت له معرفة بالإيقاع والنغم، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض؛ حيث إنهما متقاربان في المأخذ[٨].

وموضوع علم العروض الشعر العربي من حيث هو موزون بأوزان مخصوصة، وتتمثَّل فائدته في تمييز الشعر من النثر، وأمن الناظم اختلاط البحور بعضها ببعض؛ لعظيم التشابه، ودقَّة الفروق بينها، والسلامة من كسر الوزن أو الإخلال فيه، وضمان

(١) الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٨هـ - ١٠٠٧م) . من فاراب من بلاد الترك، خاله الفارابي الفيلسوف المعروف، صاحب أشهر المعاجم العربية. انظر الوافي بالوفيات للصفدي ٩/ ٦٩.

(٢) الأخفش الأكبر: عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس ابن ثعلبة (ت ١٧٧ هـ - ٧٩٣ م) من كبار العلماء بالعربية. انظر الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٨٨.

(٣) القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٣٨١، ٣٨٢.

(٤) حمزة الأصبهاني: هو حمزة بن الحسن الأصفهاني (٢٨٠- ٣٦٠هـ/ ٨٩٣- ٩٧٠م) مؤرخ، أديب، من أهل أصبهان، له تصانيف كثيرة، منها «تاريخ أصبهان». انظر: مصطفى جلبي: كشف الظنون ١/ ٢٨٢، ٢٨٥، ٣٠١، والزركلي: الأعلام ٢/ ٢٧٧.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٥.

(٦) اليافعي: هو عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي (٦٩٨- ٧٦٨هـ/ ١٢٩٨- ١٣٦٧م) مؤرخ، باحث، متصوف، من شافعية اليمن، مولده بعدن ووفاته بمكة، من كتبه: (مرآة الجنان) . انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة ٣/ ١٨-٢٠.

(٧) اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ١/ ١٦٥.

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٤، والقنوجي: أبجد العلوم ٣/ ٤.

قراءة الشعر قراءة صحيحة بمقتضى الوزن، والمعاونة على نظم الشعر بمعرفة السليم الموزون منه من المكسور وزنًا[١].

وقد حصر الخليل الشعر في ستة عشر بحرًا بالاستقراء من كلام العرب الذين خَصَّهم الله به، والبحور هي: الطويل، المديد، البسيط، الوافر، الكامل، الهزج، الرجز، الرمل، السريع، المنسرح، الخفيف، المضارع، المقتضب، المجتث، المتقارب، المتدارك، وهذا البحر الأخير زاده الأخفش، وتدارك به على الخليل[٢].

وقد جمعها أبو الطاهر البيضاوي في بيتين هما:

طَوِيلٌ يمد الْبَسْطَ بِالْوَفْرِ كَامِـل ... وَيَهْـزِجُ فِي رَجْـزٍ وَيُرْمِـلُ مُسْرِعـا

فَسَرْحٌ خَفِيفًا ضَارِعًا يَقْتَضِب لَنَا ... مَنِ اجْتُثَّ مِنْ قُرْبٍ لِنُدْرِكَ مَطْمَعَا[٣]

هذا، وقد كتب العلماء في العروض كتبًا، من أشهرها: عروض ابن الحاجب[٤]، والخطيب التبريزي[٥]، وعروض الخزرجي، وشفاء العليل في علم الخليل لأمين الدين المحلِّي[٦]، وفيما أورده السكاكي في (تكملة مفتاح العلوم) كفايةٌ في هذا الفنِّ[٧].

٣) علم المعاجم[٨]:

يقول الدكتور عدنان الخطيب: «إذا تفاخرت اللغة كُلٌّ بمُعجَمها، فالفخر كل الفخر

---

(١) عمر الأسعد: معالم العروض والقافية ص١٦، ومحمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف: الأصول الفنية لأوزان الشعر العربي ص٢٠، ٢١.

(٢) انظر: السيد أحمد الهاشمي: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ص٢٩.

(٣) البيتان من بحر الكامل.

(٤) ابن الحاجب: هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر (٥٧٠- ٦٤٦هـ/ ١١٧٤ - ١٢٤٩م) فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية. ولد في صعيد مصر، وتوفي بالإسكندرية. من كتبه: «الكافية في النحو». انظر: ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٢٣٤.

(٥) الخطيب التبريزي: أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني اللغوي الخطيب، (٤٢١ - ٥٠٢ هـ/ ١٠٣٠ - ١١٠٩ م)، من أئمة اللغة والأدب. أصله من تبريز، ونشأ ببغداد وله «شرح ديوان الحماسة لأبي تمام». انظر الأعلام للزركلي ٨/ ١٥٧، وفيات الأعيان لابن خلكان ٦/ ١٩١.

(٦) أمين الدين المحلي: أبو بكر محمد بن علي بن موسى بن عبد الرحمن، الأنصاري (٦٠٠ – ٦٧٣ هـ) له شعر حسن، وتصانيف حسنة منها أرجوزة في العروض، انظر: السيوطي" بغية الوعاة ١/ ١٩٢.

(٧) انظر: كشف الظنون ٢/ ١١٣٣، ١١٣٤.

(٨) انظر في ذلك: الموسوعة العربية العالمية، الإصدار الرقمي الإلكتروني - السعودية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

لأُمِّها الضاد؛ إذ لم يعرف العالم أمة كالعرب فاقوا سائر الأمم عناية بلغتهم، وسعيًا في جمعها وتدوينها، وبحثًا في مفرداتها، وتعقبًا لدلالة الحرف الواحد من حروفها بحسب موقعه من اللفظ الواحد»[١].

والمُعْجَم بدءًا يُعرف بأنه كتاب يشتمل على عدد كبير من مفردات اللغة، مرتبة ترتيبًا مُعَيَّنًا، مقرونة بطريقة نطقها، وشرحها، وتفسير معانيها، ويُطْلق عليه أحيانًا اسم القاموس، وتَرْجِعُ أهميته إلى أنه يحتوي على معاني الكثير من الكلمات التي لا يمكن أن يحيط بها فرد واحد من أفراد تلك اللغة، مهما بلغ حرصه على استقصاء هذه الكلمات، وتتوزَّع مفردات اللغة بين أفراد أبنائها، كلٌّ بحسب بيئته وثقافته.

وقد بدأت فكرة المعجم عند العرب بعد نزول القرآن الكريم، وتَمَثُّل كثير من لهجات العرب فيه، ودخول غير العرب في الإسلام، واستعصاء بعض مفردات القرآن على كثير منهم؛ ممَّا استدعى شرح غريب القرآن والحديث ولغة العرب عمومًا.

فكانت صناعة المعجم عند علماء العربية نابعةً من التراث العربيِّ دون غيره؛ ولذا عُدَّ إبداعًا من إبداعات علماء العربية وسبقًا لهم؛ فقد فاقوا غيرهم في صناعة المعجم، وتعدَّدَتْ طرقُه لديهم، واختلفت أنواعه اختلافًا أثرى الدراسات حوله، حتَّى أقرَّ بتفوُّقهم غيرُهم من علماء اللغات الأخرى، فقال المستشرق الألماني أوجست فيشر (١٨٦٥ - ١٩٤٩ م):

«وإذا استثنينا الصين فلا يوجدُ شعبٌ آخرُ يحقُّ له الفَخارُ بوفرةِ كُتبِ علوم لغتِه، وبشعورِه المبكِّرِ بحاجته إلى تنسيقِ مفرداتها، بحَسْبِ أصولٍ وقواعدَ غيرَ العرب»[٢].

ويقول المستعرب الكبير جون أ. هيوود، كبير أساتذة الدراسات العربية في جامعة درهام الإنجليزية في كتابه (صناعة المعاجم في العربية): «... وكان لدى العرب معجم شامل هو (لسان العرب) [٣] كانت دونه دقة وشمولاً معاجم سائر اللغات قبل القرن التاسع عشر»[٤].

---

(١) عدنان الخطيب: المعجم العربي بين الماضي والحاضر ص٥.
(٢) المجلة العربية، العدد٣٣٤، السنة ٢٩، ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ يناير ٢٠٠٥م.
(٣) لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧٥٠هـ.
(٤) عدنان الخطيب: المعجم العربي بين الماضي والحاضر ص٥.

وقد كانت أولى الرسائل المعجمية في غريب القرآن تُنْسَب لعبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ/ ٦٨٧م)، أجاب فيها عن أسئلة نافع بن الأزرق (ت ٦٥هـ/ ٦٨٤م) -من الخوارج- المسمَّاة: (مسائل نافع بن الأزرق في غريب القرآن)، ثم تتالت الرسائل في هذا المجال؛ مثل: غريب القرآن لأبي سعيد أبان بن تغلب[(١)]، وتفسير غريب القرآن للإمام مالك، وغريب القرآن لأبي فيد مُؤَرِّج بن عمرو السدوسي[(٢)]، وغيرها كثير.

أمَّا المعاجم بمعناها العامّ والشامل فقد ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري بتأليف الخليل بن أحمد لمعجمه المسمَّى (العين) الذي اعتمد تبويب وترتيب مادته على حروف الهجاء حسب مخارجها الصوتية[(٣)]، ثم اقتفى أثره أبو علي القالي (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) في معجمه (البارع)، حيث رتبه حسب مخارج الحروف، وهو أول معجم يظهر في الأندلس. وممن اقتفوا أثر الخليل ونَحَوْا نَحْوَه في الترتيب والتبويب على طريقة المخارج: أبو منصور الأزهري[(٤)]، في كتابه (تهذيب اللغة)، والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) في كتابه (المحكم والمحيط الأعظم)، أمَّا ابن دريد الأزدي فقد حاول الخروج على طريقة الخليل بن أحمد في الترتيب والتبويب في معجمه (جمهرة اللغة)؛ إذ خالفه باتخاذه الطريقة الألفبائيَّة غير أنه لم يُطَبِّقْها تمامًا، وسار على هذا الصنيع الأخير في الخلط بين الطريقة الألفبائية وتبويب المادة حسب بنية كلماتها أحمد بن فارس[(٥)] في معجمه (مقاييس اللغة).

أمَّا أبو نصر الجوهري (ت ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) فقد أحدث طريقة في ترتيب معجمه (الصِّحاح) خالف فيها ما أُلِّفَ قبله؛ فقد اتَّبع الترتيب الألفبائي، ولكنه شذَّ في اتخاذ طريقة ترتيب الألفاظ داخل الأبواب حسب الحرف الأخير.

---

(١) أبان بن تغلب: أبو سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكري الجريري الكوفي (ت ١٤١هـ/ ٧٥٨م)، قارئ لغوي وأديب، شيعي، له كتاب الغريب في القرآن. انظر الزركلي: الأعلام ١/ ٢٦.

(٢) أبو فيد مؤرج: هو أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي (ت ١٩٥هـ/ ٨١٠م) إمام في العربية والنحو. انظر: الفيروزآبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ١/ ٥٦.

(٣) انظر: الخليل بن أحمد: معجم العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي ١/ ١٥.

(٤) الأزهري: هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (٢٨٢- ٣٧٠هـ/ ٨٩٥- ٩٨١م) أحد الأئمة في اللغة والأدب، مولده ووفاته في هراة بخراسان. من كتبه: «تهذيب اللغة». انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٣٣٤.

(٥) ابن فارس: هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٢٩- ٣٩٥هـ/ ٩٤١- ١٠٠٤م) من أئمة اللغة والأدب، أصله من قزوين، انتقل إلى الرَّيِّ وتوفي بها. من تصانيفه: «مقاييس اللغة». انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ١١٨.

وفي أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين أَلَّفَ الزمخشري معجمه (أساس البلاغة) الذي تفرَّد فيه باتباع الطريقة الألفبائية؛ حيث رتَّب الكلمات حسب أوائلها ثم ثوانيها فثوالثها، وهي الطريقة التي انتهجتها المعاجم الحديثة في ترتيب الألفاظ، وقد سبقه إلى هذا الترتيب نفسه بأكثر من قرنين من الزمان علي بن الحسن الهُنائي المعروف بكراع النمل[1] في معجمه (المنضّد) الذي وضعه على ترتيب حروف ألف باء تاء ثاء، كما نصَّ على ذلك ياقوت في معجمه، وغيره من المترجمين.

ثم توالى التأليف في المعاجم العامَّة مستفيدين من تجارِب السابقين في تأليف المعاجم، فقد أَلَّف ابن منظوركتابه (لسان العرب) مُتَّبِعًا فيه طريقة الجوهري في صِحاحه، وقد سار على منهج الصحاح واللِّسَان الفيروزآبادي في كتابه (القاموس المحيط)، وقد اعتمد المرتضى الزبيدي[2] على القاموس المحيط في تأليف معجمه المسمَّى (تاج العروس من جواهر القاموس)، وزاد عليه في أنه تحدَّث عن حرف كل باب من أبواب معجمه، مُبَيِّنًا خصائص ذلك الحرف واستعمالاته اللغوية.

وقد صاحب تطوُّر المعجم العربي العام، الذي يهدف إلى شرح المعاني والكشف عن غوامضها، وهو ما يعرف بمعاجم الألفاظ، نوعٌ آخر من المعاجم تُوسَمُ بمعاجم المعاني، هدفها إيجاد الألفاظ والصياغات التي يستطيع الكاتب أن يعبِّرَ بها عن معانٍ عنده، أو استجدَّتْ في حياته، وقد أخذ هذا النوع من المعاجم منحًى يختلف عن معاجم الألفاظ في ترتيب مادَّته؛ حيث اتخذ طريقة الموضوعات، وأوَّل مؤلفات هذا النوع كتاب (الألفاظ) لابن السكيت (ت ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م)، ثم تتابع التأليف في ذلك، فأَلَّف عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني[3] كتابه (الألفاظ الكتابية)؛ الذي سار فيه على هدي كتاب ابن السِّكِّيت في الترتيب الموضوعي، مُقَسِّمًا موضوعاته أبوابًا متعدِّدة.

---

(١) كُراع النمل: هو أبو الحسن علي بن الحسن الهنائي (ت٣١٠هـ/ ٩٢١م) عالم بالعربية من أهل مصر، من كتبه:(المنضّد). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٠/ ٢٠٩.

(٢) المرتضي الزبيدي: أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق، الزبيدي، الملقب بالمرتضي (١١٤٥ هـ - ١٢٠٥هـ/ ١٧٣٢م - ١٧٩٠م) . علامة في اللغة والحديث والرجال والأنساب، ولد بالهند ونشأ بزبيد وتوفي بمصر، له كتاب «عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة» و«معجم تاج العروس».

(٣) عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني: (ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) ، من كبار الكتاب، كان كاتب الرسائل للأمير بكر بن عبد العزيز العجلي. وله كتاب الألفاظ الكتابية، قال فيه الصاحب بن عباد: «جمع شذور العربية الجزلة، في أوراق يسيرة». انظر الأعلام للزركلي ٣/ ٣٢١.

أمَّا قدامة بن جعفر[1] فألَّف كتاب (جواهر الألفاظ) بعد اطّلاعه على كتاب الهمذاني فلم يُشْبع نهمه، ويشفي غليله، وقد ألَّف أبو هلال العسكري[2] أهمَّ الكتب في هذا الباب تنظيمًا واتساعًا، وهو كتاب (التلخيص)؛ لأنه يرقى إلى مستوى المعجم بالرغم من إيجازه واختصاره. وقد ألَّف في هذا الميدان أيضًا أبو منصور الثعالبي[3] كتابه (فقه اللغة)، وقد توَّج هذا النوع من التأليف ابن سِيدَه الأندلسي في كتابه (المُخَصَّص)؛ حيث بلغ مرتبة عالية من التبويب والتنظيم، والشمول والاستيعاب، فهو أكبر معجم من معاجم المعاني العربية حتى الآن، وأغزرها مادَّة، وأجدرها بحمل اسم معجم المعاني[4].

يقول خبير المعاجم الأوربي (Hay – wood) عن مكانة وأهمية المعاجم عند المسلمين: «الحقيقة أن العرب في مجال المعجم يحتلُّون مكان المركز - سواء في الزمان أو المكان - بالنسبة للعالم القديم والحديث، وبالنسبة للشرق والغرب»[5].

وبذلك تكون المعاجم العربية - على اختلاف أنماطها - من إبداع الفكر العربي الإسلامي، ونتيجة لجهود العلماء المسلمين منذ القرن الثاني الهجري.

***

---

(١) قدامة بن جعفر: هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م) كاتب، من البلغاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة، توفي ببغداد. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٢٠.

(٢) أبو هلال العسكري: هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (بعد ٣٩٥هـ/ بعد عام ١٠٠٥م) عالم بالأدب، له شعر ومعرفة بالفقه. من كتبه: «التلخيص». انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١٢/ ٥٠.

(٣) الثعالبي: هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (٣٥٠- ٤٢٩هـ/ ٩٦١- ١٠٣٨م) من أئمة اللغة والأدب، من أهل نيسابور، من كتبه: (يتيمة الدهر). انظر: الصفدي: الوافي بالوافيات ١٩/ ١٣٠.

(٤) انظر: عدنان الخطيب: المعجم العربي بين الماضي والحاضر ص٣٧-٤٦.

(٥) أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب ص٣٤٣.

الفهرس

مقدمــــــة ٣

الباب الأول: الحضارة الإسلامية بين الحضارات السابقة ١٥

الفصل الأول: الحضارات العالمية عند ظهور الإسلام ١٧

المبحث الأول: حضارة اليونــــان ١٨

المبحث الثاني: حضارة الهنـــــــد ٢١

المبحث الثالث: حضارة الفـــــرس ٢٣

المبحث الرابع: حضارة الـــــروم ٢٧

المبحث الخامس: العرب قبل الإســـــلام ٣٢

المبحث السادس: نظرة عامة على العالم قبل الإسلام ٣٥

الفصل الثاني: أصول وروافد الحضارة الإسلامية ٣٧

المبحث الأول: القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية ٣٨

المبحث الثاني: الشـــعوب الإسلامية...٤١

المبحث الثالث: الانفتاح على الآخرين ٤٦

الفصل الثالث: خصائص الحضارة الإسلامية.......................................٤٩

المبحث الأول: العالمـــية...٥٠

المبحث الثاني: الوحدانيـــــة...٥٢

المبحث الثالث: التوازن والوســطية...٥٥

المبحث الرابع: الصبغة الأخلاقيـــة ٦٠

الباب الثاني: إســـهامات المسلمين في جانب الأخلاق والقيم ٦٣

الفصل الأول: في جانب الحقوق ٦٦
المبحث الأول: حقوق الإنسان ٦٧
المبحث الثاني: حقوق المرأة ٧١
المبحث الثالث: حقوق الخدم والعمال ٧٥
المبحث الرابع: حقوق المرضى وذوي الاحتياجات الخاصة ٧٨
المبحث الخامس: حقوق اليتيم والمسكين والأرملة ٨١
المبحث السادس: حقوق الأقليات ٨٤
المبحث السابع: حقوق الحيوان ٨٧
المبحث الثامن: حقوق البيئة ٩١
الفصل الثاني: في جانب الحريات ٩٤
المبحث الأول: حرية العقيدة ٩٥
المبحث الثاني: حرية التفكير ٩٧
المبحث الثالث: حرية الرأي ٩٩
المبحث الرابع: حرية النفس ١٠٢
المبحث الخامس: حرية التملك ١٠٦
الفصل الثالث: في جانب الأسرة ١١٠
المبحث الأول: الزوجان ١١١
المبحث الثاني: الأبناء ١١٥
المبحث الثالث: الوالدان (الأسرة الصغيرة) ١٢١
المبحث الرابع: الرحم (الأسرة الكبيرة) ١٢٤
الفصل الرابع: في جانب المجتمع ١٢٧

المبحث الأول: المؤاخـــــاة ١٢٨
المبحث الثاني: التكافـــــل ١٣٢
المبحث الثالث: العـــــــدل ١٣٨
المبحث الرابع: الرحمـــــة ١٤١
الفصل الخامس: المسلمون والعلاقات الدولية ١٤٦
المبحث الأول: السلام الأصل في الإسلام ١٤٧
المبحث الثاني: المعاهدات مع غير المسلمين ١٤٩
المبحث الثالث: أسباب وأهداف الحرب في الإسلام ١٥٦
المبحث الرابع: أخلاقيات الحرب في الإسلام ١٥٩
الباب الثالث: المؤسسة العلميـــــة ١٦٣
الفصل الأول: الإسلام ورؤية جديدة للعلم ١٦٥
المبحث الأول: لا نزاع بين العلم والدين ١٦٦
المبحث الثاني: عمومية قضيـــة العلم ١٧٤
الفصل الثاني: الإسلام وتغيير تفكير العلماء ١٧٦
المبحث الأول: المنهـــج التجريبي ١٧٧
المبحث الثاني: الجانب العملي ١٨١
المبحث الثالث: الفـــــرق العلميَّـــة ١٨٣
المبحث الرابع: الأمـــــانة العلميَّة ١٨٥
الفصل الثالث: المؤســـسة التعليميـــــة ١٩٠
المبحث الأول: الكتـــــــاتيب ١٩١
المبحث الثاني: المســــــاجد ١٩٩

المبحث الثالث: المـــــــــدارس ٢١٠
الفصل الرابع: المكتبات في الحضارة الإسلامية ٢٢٢
المبحث الأول: المكتبات وأنواعها ٢٢٣
المبحث الثاني: مكتبة بغداد (جامعة إسلامية متطورة) ٢٢٦
الفصل الخامس: هيئـــة العلمـــاء ٢٣٥
المبحث الأول: طلب العلم وتنشئة العلماء ٢٣٦
المبحث الثاني: مكانة العلماء في الدولة الإسلامية ٢٤٤
المبحث الثالث: الإجـــــــازة ٢٤٩
الباب الرابع: إسهامات المسلمين في علوم الحياة **٢٥٣**
الفصل الأول: تطوير العلوم المتداوَلَة ٢٥٥
المبحث الأول: الطـــــــب ٢٥٦
المبحث الثاني: الفيزيـــــاء ٢٦١
المبحث الثالث: البصريـــــات ٢٧١
المبحث الرابع: الهندســـــة ٢٧٦
المبحث الخامس: الجغرافيـــــا ٢٨٣
المبحث السادس: الفـــــلك ٢٩٦
الفصل الثاني: ابتكـــار علوم جديـــدة ٣٠٤
المبحث الأول: الكيميـــــاء ٣٠٥
المبحث الثاني: الصيدلـــــة ٣٠٨
المبحث الثالث: الجيولوجيـــــا ٣١٤
المبحث الرابع: الجـــــبر ٣٢٣

المبحث الخامس: الميكانيكـــــا ٣٢٧

الباب الخامس: إسهامات المسلمين في جانب العقيدة والفكر والأدب . ٣٣٣

الفصل الأول: إسهامات المسلمين فى التصور العقدى ٣٣٥

المبحث الأول: من عقائد الأمم السابقة ٣٣٦

المبحث الثاني: التوحيد وإصلاح التصور العقائدي ٣٤١

الفصل الثاني: تطوير العلوم المتداولـــــة ٣٤٦

المبحث الأول: علم الفلســــــــفة ٣٤٧

المبحث الثاني: علم التاريـــــــــخ ٣٥٤

المبحث الثالث: علـــــــم الأدب ٣٦٢

الفصل الثالث: ابتكـار علوم جديـــــدة ٣٦٩

المبحث الأول: علم الاجتمـــــــاع ٣٧٠

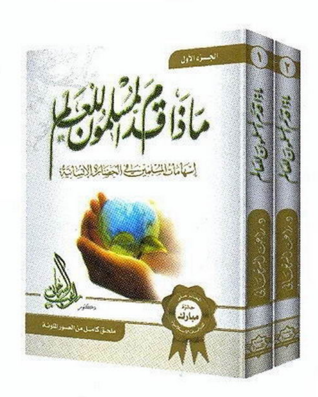
المبحث الثاني: علوم خاصة بالشريعة ٣٧٥

المبحث الثالث: علوم خاصة باللغة ٣٨٥

الفهرس ٣٩٥

***

جائزة مبارك للدراسات الإسلامية
الحائز على
١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م



هذا الكتاب

ليست الحضارة الإسلامية مجرد حلقة من حلقات التاريخ الإنساني، وليست الإسهامات الإسلامية مجرد إضافات إلى حضارات الدنيا، ولكن واقع الأمر أن الحضارة الإسلامية قدَّمت النموذج الحضاري الذي يجب أن يُحتذى من العالم أجمع، وأبرز ما في هذا النموذج أنه حقق التوازن العجيب بين علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بالبشر من حوله، وكذلك علاقته بالبيئة التي يعيش فيها بكل ما تحويه من كائنات وثروات.

إنها حضارة يتحتّم على العالم أن يعرفها، بل أن يدرسها، وما هذا الكتاب الذي بين أيدينا إلا صفحة في سِفر الإسلام العظيم، حري لكل مسلم أن يستوعبها وينقلها إلى غيره.

د. راغب السرجاني



Designed by Hatem El Ashry


حصريات
مجلة
الابتسامة